رواية :

الإسكندرية

عناقيد العشق والغضب

محمود القليني

رواية

الإسكندرية

عناقيد العشق

والغضب

محمود القليني

(1)
- خديجة-

لم تكن فى يوم من الأيام تظن أنها ستتزوج من هذا الرجل الجلف الفظ الغليظ الخشن ، وأنها ستعيش فى هذا المكان الردئ السيئ المنقطع عن الدنيا كلها كأنه القبر ، أو أنها ستقضى ما تبقى لها من عمر بين هؤلاء البشر الذين يعيشون كالعبيد ، يوقظون الشمس من غفوتها بصياحهم الحاد ولعناتهم التى يصبونها على كل شئ يقابلهم ، ويظلون فى عمل وكدح ونصب حتى تغرب الشمس ، بعد ذلك يذهبون إلى مضاجعهم ينامون كأنهم موتى ، لا يصدر عنهم سوى تلك الأصوات المنفرة والمزعجة التى تقض مضجع الحيوانات التى تشاركهم فى كل شئ من حياتهم .

حاولت وأكثرت من المحاولة ، وأجهدت نفسها لتتقبل هذا العالم الغريب عنها ، ولكنها فشلت , لأنها عاشت حياة مرفهة إلى حد ما ، ومن ناحية أخرى إن تلك النوعية من البشر غير محتملة بأى مقياس , شئ واحد قادر على تحملهم والصبر على عتامة طبعهم وظلمة عقولهم وجفاف حياتهم ألا وهى حيواناتهم ، ومن يدرى لو اشتكت تلك المخلوقات ماذا ستقول عنهم ؟!

كان والدها تاجرا مشهورا فى مدينة (دمنهور) يتاجر فى كل شئ ، إلا أنه حصر نشاطه فى تجارة القطن مؤخرا ، منذ صغره نبغ فى التجارة واستثمار المال ، اشترى قطعة أرض وبنى عليها بيتا وأحاطه بحديقة غناء ، وتزوج من إحدى العائلات العريقة فى البلدة ، كان يتميز بملاحة ووسامة يحسد عليها ، مع خفة ظل يشوبها نزوع إلى السخرية ، وسخاء لا حد له ... كل هذا جعله محبوبا من كل حوله .
كان فى زيارة صديق فى قرية (الدلنجات) ، وهناك عرضت عليه قطعة أرض زراعية فأشتراها ؛ لأن صاحبها كان فى ضائقة مالية ، وأعطاها لأحد معارفه الفلاحين ليزرعها ، وكان هذا فى كل عام أو مناسبة يحضر إليه ليعطيه إيراد قطعة الأرض ، وكان (عبد العاطى) لا يحضر بمفرده وإنما كانت تصحبه زوجته وأولاده الذكور والإناث ليشتروا الكسوة وما يلزمهم من (دمنهور) وكانوا يقيمون فى منزل (محمود أفندى البستاوى) يوما أو بعض يوم ، فالمضيفة الملحقة بالمنزل خالية ، لا تكاد تشغل طول العام إلا حينما يحضر (عبد العاطى) تصحبه قبيلته محدثين جلبة وصياح وضوضاء لا مثيل لها .
رأت زوجة (عبد العاطى) ابنة (محمود أفندى البستاوى) (خديجة) الابنة الوحيدة على الذكور (أحمد) و (فؤاد) و (سعيد) , أعجبت الزوجة بالابنة وتمنت أن تكون زوجة لابنها (حجازى) أكبر أولادها ، ولكن زوجة (عبد العاطى) أدركت بغريزتها أن هناك تفاوتا كبيرا بين ابنها والفتاة , وهذا التفاوت ليس فى صالح ابنها ، لذلك ألحت على زوجها أن يكتب لابنها فدانا من الأرض ، وباعت جزءا من مصاغها لتجهز له المهر ، ثم بدأت تمهد للأمر عند العروسة وأمها ، بأن تكثر من الحديث عن (حجازى) وعن رجولته وتفانيه فى خدمة والده وعن استقامته وحرصه على الصلاة . وحينما اطمأنت كاشفت أم العروسة ، إلا أن تلك أخبرتها أن الأمر كله بيد (محمود أفندى) ، حينئذ ألحت على زوجها أن يطلب يد (خديجة) لابنهما ، فى البداية رفض الرجل ، واتهم زوجته – كعادته – بالجنون ... كيف له أن يتجاسر ويطلب يد (خديجة) هانم ذات الصون والعفاف ابنة البندر الجميلة الرقيقة البيضاء لابنه (حجازى) ؟! كيف سيتعامل معها ؟ وهو لا يجيد

التعامل إلا مع اثنين : الأرض والحيوانات ، حتى هاتين يتعامل معهما بغشومية لا حد لهما ، ولا ينسى أنه ذات مرة أسقط الحمار حملا ، فأخذ يضرب الحمار حتى أوشك على قتله ، مع أن الحمار ليس له ذنب فى سقوط الحمل من على ظهره .
وحاول أكثر من مرة أن يوسع له مداركه ويخرجه من عالمه المغلق والمعتم , ويفهمه أن الدنيا ليست الأرض وما يتعلق بها من زرع وري وجنى ولكنه كان كالنخلة نبتت فى الأرض ولا تستطيع أن تنتزعها من مكانها ، ثم أنه كان ضيق الأفق ، يسئ الظن بكل من حوله ، يغضب لأتفه الأمور ، وإذا غضب يبطش بمن أمامه ، لا يتحدث إلا نادرا ، وإن تحدث فكلمة ، وإن أسهب فى الحديث فكلمتين أو ثلاثة ، معتز اعتزازا شديدا بكرامته ، لا يهذر ولا يجلس مع من هم دونه فى السن ، لا يطلب لنفسه شيئا حتى الطعام لا يتناوله إلا إذا قدم له ، ففى يوم كان يعمل طوال النهار فى الأرض ونسوا أن يرسلوا له طعاما ، فظل صائما طوال النهار ، حتى حينما عاد فى المساء دخل لينام ، لولا أن أمة تذكرت ذلك وحاولت أن تجعله يأكل إلا أنه رفض لأنه أراد أن يعاقب كل من فى البيت ، فأقسم ليبيتن ليله بدون أن يذوق طعاما .
وكثيرا ما فكر والده كيف سيتعامل مع زوجته إذا قدر له الزواج ، وكيف ستتعامل زوجته معه . ؟

ولم يجد (عبد العاطى) الهروب من إلحاح زوجته إلا أن يفاتح (محمود أفندى البستاوى) ، ولكى يقوى الرجل من موقفه أحضر المهر الذى يتناسب ومركز العروسة ، وطلب من (محمود افندى) أن يضعه عنده فى الخزنة بحجة أنه مبلغ كبير ويخشى عليه ، وأصر (محمود) أن يكتب له وصلا بالمبلغ ، ولكن (عبد العاطى) رفض بشدة .
بعدها بوقت قصير فاتحه فى أمر خطبة ابنته لابنه ، لم يفاجئ (محمود) بطلبه وفى نفس الوقت لم يكن يتوقعه بالمرة ، وجوده فى السوق علمه أن يقابل كل ما فى الحياة بقليل من الإكتراث ، أو أن هذا شئ فى طبعه . وتساءل فى نفسه : ما المانع أن يتزوج فلاح جلف من ابنته ؟ لن يختل ميزان السماوات والأرض ، وستشرق الشمس كل صباح كما يحدث من الآف السنين ، لا يؤمن بهذا الفصل الحاسم بين الأمور . فالحياة فى نظره أرحب من هذا الضيق والتعنت ... لذلك طلب من (عبد العاطى) مهلة أن يعرض الأمر على العروسة وأمها وأبنائه .

لم يكن يتوقع رد الفعل من ابنته وزوجته وأبنائه ، لو انقضت صاعقة من السماء على رؤوسهم لكانت أخف وقعا من الخبر الذى أخبرهم به ، أما ابنته – العروسة – فقد ظلت أسبوعا كاملا فى حالة ذهول و لا تسمع ولا تتكلم ، وزوجته وجهت له كما من اللوم والعتاب لم يتلق مثله فى حياته ، أما أولاده فقد خرجوا عن كل حدود الأدب واللياقة أمامه وأخذوا يضحكون ويستلقون على ظهورهم غير متمالكين أنفسهم ، وغير واعين بما يفعلونه أمامه ، وبذلك كان الرد واضحا ، وأبلغ (عبد العاطى) برفض طلبه ، ولم تمح ذكرى هذا الحدث ، فقد ظلت الأسرة تتندر به أياما وليال ، وإذا أراد أحد أن يعكر صفو (خديجة) أو يخيفها أو يهددها يعلن أنه موافق على زواجها من (حجازى) ، مع أن أحدا منهم لم يتعامل معه ، ولو تعاملوا معه لما تغير رأيهم ، بل ربما تمسكوا برأيهم عن ذى قبل .

وكالقدر الذى يرفع أقواما ويهبط بآخرين كانت البورصة ، وخسر (محمود) كل أمواله فى تجارة القطن ، ليس هذا فحسب بل خرج مديونا ، وتبدل حاله بين يوم وليلة ، وتخلى عنه الكثيرون ، بل هربوا منه ، وآثروا الابتعاد عنه والتنكر له ، ولكن الذى لم يكن متوقعا ما حدث من (عبد العاطى) الذى ظل بجواره أثناء مرضه حتى اجتاز تلك الصدمة التى زلزلته ، وساعده بكل ما يملك ، حتى أنه باع جزءا كبيرا من أرضه ، ليقدم ثمنها (لمحمود) ليسدد ديونه .

وحينما استقرت حالة (محمود) كان لابد وأن يفكر فى كيفية رد أموال (عبد العاطى) ، ورد جميله الذى لا يستطيع أن يوفيه حقه ... وبعد تفكير طويل وعميق قرر (محمود) أن يزوج ابنته لابن (عبد العاطى) ، وفى جلسة ضمتهما سويا قال له :

- كنت فى يوم من الأيام طلبت يد (خديجة) لابنك (حجازى) .

نكس (عبد العاطى) رأسه وأخذ يعبث بيد عصاه ولم يحر جوابا . فسأله (محمود) :

- أما زلت عند طلبك أم غيرت رأيك ؟

هب (عبد العاطى) واقفا متهلل الأسارير :

- هذا يوم المنى يا (محمود افندى) .

فكر (عبد العاطى) قليلا ثم جلس ونكس رأسا متجنبا نظرات (محمود) الذى بادره قائلا :

- ما بك ... هل رجعت عن طلبك ؟

مد عنقه ووضع يده عليها وقال :

- معك أنت ... على رقبتى .
- إذن فيم تفكر ؟
- يعلم الله أن محبتى لك لله فى الله ، وكنت أتمنى أن أصاهرك .. ولكن الزواج قسمة ونصيب .
- أفهم من كلامك أنك رافض زواج البنت من الولد .
- لقد قلت لك انه يوم المنى ، ولكن لا أريد أن أسبب أى حرج ، ولا أريد أن تفهم أو يفهم أحد أنى أستغل الموقف و...

فقاطعه قائلا : - يا (عبد العاطى) .. أنت قدمت المهر ، وأنا قبلته ، ومعنى هذا أنى موافق .. وكنت أنتظر حتى تستوعب (خديجة) مسألة زواجها من (حجازى) .

اندهش (عبد العاطى) من هذا الكلام ، فلم يكن يخطر بباله وقت أن أعطى المال (لمحمود أفندى) ليضعه فى خزينته على سبيل الأمانة أنه يقرأ أفكاره لتلك الدرجة .

ربت على كتفه قائلا : - يا (عبد العاطى) نظرتى فى الرجال لا تخيب ، ومنذ أن رأيتك أول مرة أدركت أنك رجل ...وها هى الأحداث تثبت صدق ظنى فيك ، فما فعلته معى لم يفعله أقرب المقربين و...

فقاطعه (عبدالعاطى) متضرعا : - استحلفك بالله ألا تتحدث فى هذا الموضوع ثانيا .

- إذن انهض وبشر (حجازى) .... أناك خطبت (حجازى) لخديجة .. هيا .
- ولكن ...
- انهض يا (عبد العاطى) .... كفى ما ضاع من وقت .

(2)

- مهمة عسيرة -

أدرك أن أمامه مهمة عسيرة فى إقناع (خديجة) وزوجته وأولاده بفكرة الزواج ، فهم قد يرفضون كما حدث من قبل ، ولكن الرجل له فضل كبير عليه وعلى أسرته وله عليه من

المال الكثير ، ولابد أن يرد له شيئا من الفضل ، وجزءا من المال ، بأن يحقق له طلبه الوحيد الذى طلبه ، ولا يعنى ذلك أنه يضحى بابنته فى سبيل مصلحته الخاصة , فكل العائلات التى كان ينتظر أن يتقدم أحد شبابها إلى (خديجة) لن يغامر أحد بأن يصاهره بعد إفلاسه ، ليس هذا فحسب بل لقد أوصدوا أبوابهم دونه حينما طلب من بعضهم العون . فخير لها أن تتزوج من (حجازى) بدلا من أن تنتظر ويطول انتظارها ، وخير له ولأسرته أن يصاهر هذا الرجل الذى وقف بجانبهم فى وقت عز فيه من يساندهم حتى بكلمة مواساة ... فقد يكون الابن على وتيرة أبيه من الصدق والاخلاص والتضحية من أجل الآخرين .
أحس أن القدر هو الذى يجمع بين الناس بدون إرادة منهم ، كما أنه يفرق بينهم بدون إرادة منهم كذلك . أراد أن يطمئن على أعز وأحب أبنائه إلى قلبه قبل أن يموت ، كان قلبه يذوب خوفا وشفقة عليها ، ماذا ستفعل وهى بدون أب وبدون مال ؟ نعم ، لها من الأخوة ... ولكن حياة الرفاهية التى عودهم عليها جعلته يخشى عليهم من قسوة الحياة وخشونة الواقع المر , فهم أيضا فى حاجة إلى من يساعدهم ويساندهم حتى يستطيعوا أن يقفوا على أقدامهم ، لم يكتشف أن المال له كل تلك الأهمية إلا الآن . وللأسف جاء الاكتشاف متأخرا .

بعد أن انتهوا من تناول العشاء , طلب الأب أن يتحدث إلى أولاده ، وطلب من زوجته و(خديجة) ألا يحضرا تلك الجلسة , تعجب الجميع إلا أنه لم يمهلهم ، نهض وطلب منهم أن يلحقوا به .
جلس على مقعده المعتاد بجوار مكتبه ، ارتشف رشفة من قهوته , ثم أشعل سيجارته ونظر إليهم ، اكتشف فجأة أنهم أصبحوا رجالا ، وروثوا عنه الطول الفارع وضخامة الجسم ، وإن كان يدرك أنهم قليلو الخبرة منعدمو الحيلة ، ولكن جاء الوقت الذى لابد فيه أن ينزلوا معترك الحياة ... كان الصمت يخيم على الغرفة لا يقطعه سوى صوت تحرك بندول الساعة الكبيرة ... عيونهم معلقة به وإن كانوا يتجنبون النظر إليه كى لا تلتقى الأعين ... قال بعد أن انتهى من شرب قهوته :

- يوجد موضوعان أريد أن أتحدث معكم فيهما ، الأول هو مستقبلكم , لقد أصبحتم رجالا ، وكل منكم تلقى من التعليم ما يساعده أن يشق طريقه .

صمت قليلا ريثما يشعل سيجارة أخرى , ثم استأنف حديثه :

- طبعا لا يوجد لديكم خبرة بالحياة العملية كان يجب أن أشرككم فى العمل منذ وقت طويل ، لكن كنت أشفق عليكم أو أنى كنت أريد أن أوفر لكم حياة طيبة , ولكن لم اكتشف إلا الآن أنى كنت مخطئا , المهم أصبح بقاؤكم هنا صعبا . لذلك قررت أن يذهب (أحمد) ليقيم عند عمه (مصطفى) فى القاهرة وهو يعمل فى وزارة الأشغال سيبحث لك عن وظيفة ، و(فؤاد) عند خاله فى الأسكندرية يعمل فى محل من محلاته , أما (سعيد) سيسافر إلى إنجلترا عند ابن عمه (حسنى) .

فوجئ الأبناء بما قاله والدهم , كان واضحا أنه يحاول أن يبعدهم عما ستأتى به الأحداث من معاناة وألم وحرمان ... يريد أن يتحمل وحده نتيجة ما حدث . قال الابن الأكبر (أحمد) :

- الرأى رأيك يا بابا , ولكن الظروف التى تمر بها تفرض علينا أن نقف بجانبك .

وقال فؤاد بعد تردد : - وأنا من رأى (أحمد) .

وعقب (سعيد) فى جرأة كعادته : - أنا لا أجد مبررا لوجودنا هنا ... بابا ليس فى حاجة لنا ، بل نحن نمثل عبئا إضافيا عليه .. وبابا سيجتاز تلك المحنة ، فهو أقوى مما نتصور .
فقال (أحمد) ساخر : - لك أن تقول ذلك .. أليس هذا ما سيجعلك تعيش فى إنجلترا كما كنت تحلم
أراد (سعيد) أن يبرأ ساحته ويدافع عن رأيه , ولكن والدهم حسم الأمر قائلا :
- ستسافرون كلكلم بعد زواج (خديجة) .
فقالوا فى صوت واحد مندهشين : - زواج (خديجة) !!
- نعم , من (حجازى عبد العاطى) وهذا سيتم خلال شهر .
نظر الأخوة كل منهم إلى الآخر , وأرادوا أن يعترضوا ولكنه أشار إليهم قائلا : - تصبحون على خير .
فنهضوا وقبلوا يده الممدوة لهم ، وأنصرفوا منكسى الرؤوس , مكث بعض الوقت جالسا ثم نهض إلى حجرة نومه ، وكانت فى انتظاره , خلعت عنه الروب ، وغطته بعد أن تمدد على الفراش ، وقبل أن تظلم الحجرة قال لها :
- اتركى النور مضاء يا (زينب) .
- حاضر ياسى (محمود) .
وحينما جلست بجواره سألها : - ما رأى (خديجة) فيما قلته ؟
- ما الذى قلته ؟
- أعلم أنكما كنتما تتصنتان وسمعتما كل شئ .
قالت وهى تتجنب النظر إليه : - نحن نعيش بعطفك وبرك علينا , ولكن الأولاد ...
وتحشرج صوتها وترقرقت عيناها بالدموع ، وحاولت أن تخفى ما تعانيه بأن استدارت وأخفت وجهها بين كفيها ... ربت على كتفيها قائلا : - أنا لا أتصور كيف سأعيش فى هذا البيت بدونهم , ولكن لابد أن نضع أحجارا على قلبينا فى سبيل مصلحتهم ، بقاؤهم هنا دمار وتحطيم لمستقبلهم يا أم (أحمد) .
- وخديجة ..
نظر إلى سقف الحجرة وقال بعد أن تنهد : - لا أحد يملك قدره ... الدنيا لعبتها معى ... وأنا أعرف أنى انتهيت . لو أملك أنى أرسلك إلى مكان آخر غير هذا لفعلت .
اقتربت منه ووضعت يده على فمه وأجهشت فى البكاء .
********** ********* **********
- هل ستنامان ؟
فقال (سعيد) وهو يجذب الغطاء على جسمه :
- وماذا سنفعل غير ذلك ... بعد ما سمعنا ما قاله بابا أظن أن مصيرنا نحن الثلاثة على وشك التغيير .
فقال (أحمد) : - كأنكما موافقان على رأى بابا ؟
فرد (سعيد) : - وهل نملك أن نعارضه أو نخالفه ؟
صمت (أحمد) طويلا ثم تساءل : لماذا فعل ذلك ؟
فعقب (فؤاد) : - وأنا لا أدرى سببا لذلك .
فقال (سعيد) : - أنتما لا تفهمان شيئا .
فسأله (أحمد) وماذا تفهم أنت يا عبقرى أوانك وزمانك ؟
- بابا شعر بأننا أصبحنا عبئا ثقيلا عليه ، فأراد أن يخفف من هذا العبء .
فقال (أحمد) : - أو أنه أراد أن يبعدنا عن تلك المعاناة ويتحمل ما حدث بصفة منفردة .

فقال (سعيد) : - أيا ما كان الأمر فالذى قرره بابا يرضى الجميع و كل واحد منا كان يحلم بهذا .
فقال (أحمد) : - نعم كل ما قرره بابا يرضى الجميع إلا ما يخص (خديجة) .
ضرب (فؤاد) رأسه قائلا : - نحن فى غاية الانانية ، انشغلنا بأنفسنا عن (خديجة).
نهض (أحمد) قائلا : هيا لنرى ماذا تفعل الآن ؟

طرقوا الباب ، وبعد قليل فتحت الباب وأسرعت لتدفن رأسها فى الوسادة ، جلسوا بجوارها ... رفعت رأسها ونظرت إليهم وعيناها ملآنة بالدموع , وقالت وصوتها يرتعش : - ماذا تريدون ؟
نهض (أحمد) وربت على كتفها قائلا : - لقد فوجئنا بهذا الأمر ، ولا ندرى لم فعل بابا هذا ؟
فقال (فؤاد) غاضبا : - مستحيل تتزوجى من هذا الفلاح الجلف ، لن نوافق على هذا الأمر ، وسنعارض بابا ، ولو اضطررنا أن نهرب بك .
فقال (سعيد) باستخفاف : - أنا لا أرى فى زواج (خديجة) من (حجازى) أى مشكلة ... المنطق الذى سيجعلنا نترك البيت ونهج من البلد هو نفس المنطق الذى سيجعل (خديجة) تتزوج من (حجازى) .
فقال (أحمد) هناك فرق .. أن كل واحد منا موافق على الذهاب إلى غايته , ولكن (خديجة) غير موافقة على هذا الزواج .
- لم تكن موافقة قبل حدوث ما حدث ... أما الآن فالأمر مختلف ... لقد سمعت بابا يقول لماما نحن لا نملك قوت يومنا ... بالاضافة للديون الكبيرة التى عليه ... ثم ما به (حجازى) أليس برجل ؟
فقال (فؤاد) مشمئزا : - نعم ولكنه ....
فنهره (أحمد) قائلا : - فؤاد .... (خديجة) أعقلنا وتدرك حقيقة وضعنا أكثر منا .
ثم نهض قائلا : - ربما يكون (حجازى) الذى نسخر منه ونستهزئ به أفضل زوج .. وإن كنا على يقين أنه أفضل منا نحن الثلاثة الآن ... وكل الذى نملكه الآن أن ندعوا لك بالسعادة .
وقبلها وانصرف ، وفعل الآخران ما فعله ... وتركوها وحيدة فى غرفتها تستعد لمواجهة المصير المجهول .

(3)
- حجازى -

انتقلت (خديجة) إلى عالمها الجديد ، كان الزفاف فى شهر يونيو ، كان يوما شديد الحرارة . أعد حفل بسيط ضم الأهل وقليل من الجيران ، جاء العريس ، صحب أبو العروسة ابنته بعد أن ودعت أمها وهى تبكى بكاءا حارا ، وكذلك الأم ، وقبل أن تغادر البيت وقف أبوها يتحدث إلى (حجازى) كان يرتدى جلبابا صوفيا أسود اللون وفوق رأسه طاقية ، وعلى كتفيه شال أبيض اللون ، لم يحدث أن اقتربت منه هكذا ، كان متجهما جادا طويلا عريضا ، لا تعرف شفتاه الابتسام وقف ينصت إلى والدها مظهرا كل ملامح الإحترام والتوقير :

- تعرف أن (خديجة) الابنة الوحيدة ، وأنها أعز ما لدى ، ترفق بها يا بنى و.....
أراد (عبد العاطى) أن ينهى هذا الموقف لأنه لمح التأثر فى صوت (محمود) وخشى أن يبكى الرجل أمام الجميع فتدخل بينه وبين ابنه قائلا : - الست (خديجة) سوف نضعها فى أعيننا .. بنت الأصول والحسب والنسب ... البلد كلها فرحانة ، وينتظرونها على أحر من الجمر ... ألن تحضر معنا ؟
- سوف نحضر غدا إن شاء الله .
وقبل أن يخرجوا من الباب الخارجى للبيت قال (حجازى) بصوت مرتفع يخاطب والده :
- العروسة تريد أن تخاطب أباها .
فأشار (عبد العاطى) ، فأقترب (محمود) من ابنته , فقالت وهى تبكى : - ألن تأتى أمى معى ؟
فرق قلب الأب لابنته ، ومد يده يجفف دموعها وقال بصوت متهدج : - معك عريسك ، وغدا سنكون كلنا عندك ... مع السلامة ياحبيبتى .
وألقت نظرة أخيرة على بيتها وشعرت بأن شيئا قد انتزع من أحشائها ، تحركت السيارة المتهالكة بهم ، ومن عجيب الأمر أنها لم تعد تبكى أو تشعر بالخوف أو الحزن ، وكأن البكاء والحزن كان محاولة لمقاومة شئ قادم ، وحينما لم تجد فائدة من المقاومة أسلمت نفسها لقدرها وخضعت لما هى مساقة إليه ، رائحة مقبضة تغزو أنفها الرقيق ، لم يكن معها فى السيارة سوى السائق و(عبد العاطى) وزوجها الجالس بجوارها ، كان هناك إحساس فى أعماقها ، يقول لها أنها لن تكون زوجة لهذا الرجل , وأن شيئا ما سيحدث يمنع هذا الزواج ، أمازال هذا الإحساس موجودا ؟ هى لا تدرى وكل ما تشعر به أنها أصيبت بحالة بلادة ، وكأن كل ما يحدث حولها لا يعنيها ، يجلس بجوارها لا يلتفت إليها ، وبين الحين والآخر كان أبوه يلتفت إليه ويحدثه فكان يجيبه بكلمة أو عبارة بدون أن يتحرك ..وأخيرا وصلوا ، عرفت ذلك من تلك العيون التى تتطلع إليهم ، وتلك الأيادى التى ترتفع لتحيتهم .. سارت السيارة فى طريق ترابى وامتلأت بالغبار الذى التصق بالأجساد التى تفصدت بالعرق ، وتعطلت السيارة للمرة الرابعة ، وفى تلك المرة لم يستطع السائق إصلاحها ، فنزل (عبد العاطى) وقال لحجازى : - هيا يا حجازى لم تبق سوى مسافة قصيرة ونصل إلى البيت .
وبعد قليل تجمع حولهم عدد من الرجال ، والنساء يزغردن ويتأملن العروسة ، وسمعت بعضهن يقلن : - الله يخرب بيتك يا حجازى ، العروسة مثل لهطة القشدة ,
وأتى البعض بركوبة وأتى آخر بحصان ، ولكن (حجازى) رفض ، وفضل أن يسير على قدميه وتقدم أمام (خديجة) إلا أن والده همس فى أذنه : - يا حجازى .. (خديجة) تربت فى البندر .
فسأله بغضب : - كيف ؟
فقال والده نافد الصبر : - تسير ويدك فى يدها ... كما نراهم فى البندر .
نظر إليه مندهشا فاغرا فاه وكأنه طلب منه أن يرتكب كبيرة من الكبائر ، وفهم الأب ما يفكر فيه ابنه ، فقال له : - على الأقل تسير بجانبها .
فرجع (حجازى) وسار بجانبها على مضض , ونظره فى الأرض خجلا . وأحيانا كان يسبقها ، فكان والده يجذبه من يده فيرجع ليسير بجانبها ، وسارت فى طرق ضيقة وكانت البيوت قميئة متلاصقة ، والغبار والذباب والعرق ورائحة روث البهائم والمياه الآسنة تملأ الطرقات ، تشعر بنظرات الرجال والنساء وكأنها سهام حامية مصوبة إليها , والزغاريد المتواصلة كأنها مطارق من حديد تدق رأسها ، وأشرفوا على مكان متسع ... وفجأة

شعرت بزراعين قويين تحيطان بها وشفاة غليظة تمطرها بالقبلات المتواصلة , تأملت فإذا هى أم حجازى ... شعرت ببعض الاطمئنان ، لأنها الوحيدة فى هذا الجمع التى تألفها . ورأت الزينة على واجهة بيت مكون من طابقين ، أغصان الشجر و قطع قذرة من الأقمشة الملونة على حبال تحيط بالبيت , فعرفت أن هذا هو البيت الذى ستعيش فيه ، شعرت أن قدميها لا تستطيع حملها ورأسها يدور والناس حولها ظلال باهتة وأشباح ، ولم تعد تسمع أو ترى شيئا ، سألتها أم (حجازى) وهى تضع زراعها خلف ظهرها : - ما بك يا عروسة ابنى ؟

- سوف أسقط .

وبالفعل بدأت تنهار ، فقالت الأم لابنها بصوت حازم : - حجازى احمل عروستك إلى داخل البيت .

تردد فى البداية ونظر حوله ، فصاحت به وهى تسندها بكلتا يديها : - يا ولد احمل عروستك قبل أن تسقط .

فأعطى الشال لأحد الواقفين ، وحملها كعصفور ضعيف بين يديه ، ودخل بها وسط تهليل وزغاريد وضحكات وتعليقات المحيطين بهم ، وكانت تتقدمه أمه ، صعدت إلى حجرته وصعد وراءها حاملا عروسته ... وضعها فوق الفراش ، وأخذ يطيل النظر إليها وهى مغشى عليها ، وكانت تلك أول مرة ينظر إليها ، بوغت من جمالها وحسنها وبياضها ... لم يكن يتخيل أن عروسته ستكون بهذا الجمال والحسن , قالت له أمه : - هل ستقف هكذا ... اذهب واحضر زجاجة العطر .

وبعد أن أحضر الزجاجة سألها ك – ما بها ؟

- عروستك من عائلة ... لم تتحمل البهدلة والتعب .

- وهل هى سليمة ؟ لم يحدث لها شئ .

فقالت وهى تنثر قليلا من العطر على وجهها : - سليمة إنشاء الله ، اذهب واحضر كوبا من الماء .

وبعد قليل فتحت (خديجة) عينيها مندهشة ، وحاولت أن تنهض ولكن أم حجازى قالت لها :

- استريحى يا عروسة ابنى .

- أين أنا ؟

- فى بيتك وعريسك (حجازى) بجوارك .

نظرت إليه ثم أشاحت بوجهها عنه فقالت أمه : - السير تحت الشمس أتعبك ... الآن أنت مثل الفل .

والتفتت إلى ابنها وقالت : - اذهب واجلس مع معازيمك .

********** ********** **********

وفى المساء صعد (حجازى) إلى حجرته ، وكانت أمه وأخواته جالسات مع (خديجة) التى خلعت ثوب الزفاف وأرتدت ثوبا أبيض جعلها كالفراشة ، وقد عقصت شعرها الأسود إلى الخلف وتدلت ضفيرتها على صدرها الناهد , وحينما رأين (حجازى) انصرفن ضاحكات ، وبقى حجازى وخديجة منفردين ، جلس على مقعد بجوار الفراش ... كانوا قد وضعوا العشاء على منضدة وسط الحجرة وفوقه غطاء من القماش الأبيض .... نظر إليها خجلا ثم شغل نفسه بخلع حذائه ، وقال وهو يتجنب النظر إليها : - أأنت بخير الآن ؟

كان وجود أخواته وأمه قد سرى عنها بعض الشئ وقلل من إحساسها بالغربة والحزن . قالت :

- الحمد لله .
نهض وأخذ جلبابا من فوق الشماعة , ووقف مترددا بعض الوقت ثم خلع ثوبه والقاه جانبا وأرتدى الثوب , وجلس لتناول عشائه .... نهضت (خديجة) وعلقت الثوب الملقى جانبا ، وعادت إلى جلستها الأولى ، أما هو فاستمر فى الأكل ثم توقف ونظر إليها وسألها :
- ألن تأكلى ؟
- لا .
- أأنت مريضة ؟
- لا .
فألتقط قطعة من القماش ومسح بها يده قائلا : - إذن لن آكل أنا أيضا .
فمدت يدها وأمسكت يده ... وتلك أول مرة تلمسه و وقالت : - إذن سآكل .
وحاولت أن تضع شيئا فى جوفها ... وسألته : - ماذا حدث حينما أغمى على ؟
فقال وهو يلتهم الطعام : - حملتك وأتيت بك إلى هنا .
شعرت بالخجل يكاد يقتلها .... وسط هذا الجمع الغفير يحملها ويسير بها ، ولكنها لم تكن ترى أو تسمع . وتناهى إلى سمعها أصوات غريبة فسألته : - وما تلك الأصوات ؟
- إنها ذئاب . فاقتربت منه وكادت أن تلتصق به خوفا وقالت : - أيوجد ذئاب هنا ؟
- نعم .
- أهى تعض .
- نعم . لقد أكلت أول أمس رجلا وطفلا .
ارتسم الرعب على ملامح وجهها وقالت : - ولم لا تقتلونها ؟
- لقد قتلنا منها الكثير .
- نهضت من جواره ، وأسرعت وتكومت فى الفراش ... فسألها : - أخائفة ؟
- لا . ولكنى مرعوبة .

********** ********** **********

عاد (عبد العاطى) من صلاة الفجر , فرأى ابنه نازلا من حجرته فتعجب وسأله :
- إلى أين أنت ذاهب فى تلك الساعة يا (حجازى) ؟ !
- إلى الأرض .
- فى يوم صباحيتك يا (حجازى) ؟ ! وأين عروستك ؟
- نائمة ؟
فأخذ الرجل يضرب كفا بكف قائلا : - لا حول ولا قوة إلا بالله .... ارجع يا بنى إلى عروستك ، على الأقل امكث فى بيتك أسبوعا .
- لو كل من تزوج مكث فى بيته أسبوعا لخربت الدنيا .
ضحك (عبد العاطى) من سذاجة ابنه , وربت على كتفه قائلا : - لا ... لن تخرب ، خذ راحة من العمل اليوم ، سيأتى (محمود أفندى) وزوجته ولابد أن تكون فى استقبالهم .
سادت فترة صمت قطعها قائلا : - ما رأيك فى العروسة يا (حجازى) ؟
لم يجب ... ونكس رأسه .. وقال : - معياد رى أرضنا اليوم , وكان ميعاد رى جماعة (زهران) أول أمس و...
فقاطعه والده بانفعال قائلا : - قلت لا شأن لك اليومين القادمين بالأرض , ولا بأى شئ . اجلس مع عروستك يا بنى وحدثها وتودد إليها ... أنت لم تجلس ولم تتحدث معها من قبل ، هيا اصعد وسوف نعد لكما الفطور ونرسله لكما .
- ولم لا نتناول الفطور معكم .

أمسك الأب بيد ابنه وأجلسه بجواره على مقعد خشبى وقال نافد الصبر :
- يا (حجازى) ... (خديجة) طوال عمرها عائشة فى البندر، وفرق كبير بين عيشتها هنا ، لابد أن تعرف هذا كى تعاملها على أساسه .
فقال (حجازى) بسذاجه وغلظة : - لابد أن تنسى عيشتها فى البندر وتعيش هنا .
فقال بأسف وتأثر : - ما أنت ابنى ... وأنا عارفك حمار , وحمار غشيم .. يا (حجازى) صعب أن الواحد ينسى عيشة العز والرفاهية ويتعود على عيشة التعب والفقر والفلاحين .
فنظر (حجازى) إلى والده ومد عنقه قائلا : - وهل عيشتنا تعب وفقر ؟ نحن أحسن ...
فقاطعه والده : - بالنسبة لما كانت تعيش عليه (خديجة) عيشتنا تعب وفقر ، وأنت ذهبت إلى بيت (محمود أفندى) ورأيت كل شئ .
- لقد خسر كل شئ , ولولا أنك ساعدته لمد يده يسأل الناس .
فنظر (عبد العاطى) إلى أعلى ووضع يده على فم ابنه خوفا من أن تسمع (خديجة) أى كلمة :
- إياك أن تذكر هذا أمام (خديجة) ، أو أن تجعلها تشعر بذلك .
فقال وقد خفض من صوته : - الأرض التى اشتريتها منه لا تساوى ما دفعته فيها ، والمال الذى أقرضته إياه ... كيف ومن أين سيرده ؟
فقال والده بأسف : - لقد أخبرتك أمك بكل شئ ، مع أنى حذرتها , ولكنها لا تخفى عنك شيئا , كما أنك مثلها فى كل شئ , علمتك الحرص والتقتير والخوف الشديد على المال , يا (حجازى) هناك أشياء أهم من المال والأرض والبهائم ... الرجال ... الرجال أهم من كل شئ ، لو وضعوا (محمود أفندى) فى كفة وكل ما أملكه فى كفة لرجحت كفة (محمود أفندى) عندى .
فقال وكانه يحدث نفسه وهو يلتقط حبات من القمح من على الأرض :
- لولا أمى عليك لكان مصيرك كمصيره .. الإفلاس .
- طبعا هى التى أخبرتك بذلك ... أتعلم يا (حجازى) لولا قطعة الأرض التى استأجرتها منذ سنين من (محمود أفندى) والتى من خيرها ما نحن فيه الآن ، لكنت أنا وأنت ما زلنا نعمل أجراء فى أرض الآخرين ، ولولا الأزمة المالية التى مر بها كان من المحال أن ترى ظفر (خديجة) أو تناسب مثل هذا الرجل ... ولكن القسمة والنصيب .
- كيف هذا ؟
نهض والده وربت على كتفه قائلا : - ليس هذا وقته ... اصعد إلى عروستك , وحاول أن تصونها كعينك أو أكثر .
اجتمعت الأسرة على الفطور , وجلس (عبد العاطى) وسط أولاده وسأل زوجته : - أين إدريس وعبد الجليل ؟
- ذهبا إلى الحقل .
- وفطور ...
فقاطعته قائلة : - اطمئن ... أرسلته إلى (حجازى) وعروسته .
فقالت إحدى البنات : - ولم لا ينزل وعروسته ليأكلا معنا ؟
وعقبت أخرى : - أو نصعد نحن لنأكل معهما .
نظر الأب إلى بناته فوجدهن يتغامزن ويكتمن ضحكاتهن , فسألهن : - ما الذى يضحككن ؟
فلم يجبنه , ولم يتوقفن عن الضحك , فنهرهن , فقالت إحداهن :
- كلام أهل البلد على عروسة (حجازى) .
- وماذا يقول أهل البلد ؟

- يقولون أن عروسة (حجازى) مثل الغريبة الناعمة .
- ويقولون إنها من البندر لن تتحمل عيشتنا .
- وإنها جميلة وبيضاء مثل القشدة .
وقالت أصغرهن بحروف متآكلة : - وإن (حجازى) سيأكلها أكلا مثل عروسة المولد .
فقالت الأم : - اكففن عن الكلام وتناولن فطوركن .
نهض (عبد العاطى) قائلا لزوجته : - أعدى الغذاء لمحمود أفندى وزوجته .
- واسم النبى حارسهم أولاده ؟
- قبل وصول (خديجة) هنا ، كان كل واحد منهم فى مكان .
- ولم يشتت أولاده هكذا ؟
- لأنه لا يستطيع أن يوفر لهم ما كان يوفره من قبل .
- على قدر لحافك مد رجليك .
- يا أم (حجازى) ... (محمود أفندى) دائما كان يعيش فى عز وقد رأيت ذلك بنفسك .
فقالت شامتة : - نعم , وقت أن كان معه المال , أما الآن فيجب أن يعيش كما يعيش بقية الناس .
- استريحى ... فسوف يعيش أقل من بقية الناس .
- أتظننى شامتة فيهم ؟
- لا سمح الله يا أم (حجازى) . ونهض متاهبا للإنصراف و سألته : - إلى أين ؟
- ذاهب لزيارة (حسين أفندى) .
- لم ؟
- لقد جاء من مصر بالأمس ... وسوف أسأله عن الأحوال .
********** ********** **********
اختلت الأم بابنتها , وما أن سألتها عن أحوالها حتى اجهشت فى البكاء ... أخذتها أمها فى أحضانها وشاركتها فى البكاء وقالت لها : - أنت لم تعدى صغيرة ... ما بك .. صلى على النبى .
- خذونى معكم ... لا أريد أن أبقى هنا لحظة واحدة ...لم أكن أريد الزواج لم زوجتمونى ؟ حرام ، والله حرام .
أجلست الأم ابنتها , وأحضرت لها كوبا من الماء وأخذت ترقيها وتقرأ لها آيات من القرآن حتى هدأت بعض الشئ وسألتها : - احك لى يا (خديجة) ... فضفضى يا حبيبة أمك عن نفسك .
- ألا ترين يا أمى بيتهم ؟ ... الذباب والناموس .. انظرى يا أمى إلى وجهى ... والقذارة حولى فى كل مكان ، والذئاب .. الذئاب يا أمى لم تكف عن العواء طوال الليل .
- اصبرى يا ابنتى ... ستتعودين على كل هذا , المهم (حجازى) عريسك كيف يعاملك ؟
- المصيبة الكبرى (حجازى) يا أمى .... تعالى .
وأخذتها من يدها إلى الفراش , ورفعت قطعة من القماش من فوق الوسادة ، فوجدت بقعة كبيرة كريهة الرائحة ، فسألتها وهى تبتعد متأففة : - ما هذا ؟
- عرق (حجازى) ... زوجى .
- اطلبى منه أن يستحم قبل أن ينام .
- وطبعه يا أمى ... سينفع معه استحمام ... لا يتحدث أبدا ، وكأنه أبكم ، ولا يضحك ولا يبتسم ، إنه لا يعرف التعامل مع البنى آدمين .
- يا ابنتى أنت لم تقضى معه سوى ليلة واحدة

- تكفينى تلك الليلة يا أمى ... إنها بعمرى كله , يجب أن تطلبى من أبى أن يطلقنى منه .

ابتسمت الأم فى حزن وأسى قائلة : - هم يبكى وهم يضحك , لم يمضى سوى يوم على زواجك وتطلبى الطلاق !!

تعلقت (خديجة) بعنق أمها قائلة وهى تبكى : - أنا لن أكلفكم شيئا .. أكلى فقط .. وإن كان خبزا جافا ... حتى ولو اشتغلت كى لا أكلفكم ثمن لقمتى ، ولكن لا تتركينى هنا .. سوف أموت .. وذنبى فى رقبتك .

أخذت الأم تبكى بكاءا حارا , وقالت : – لقد حرمنى الله من أولادى وهم على قيد الحياة ... لا تزيدى من همى يا (خديجة) ... أول مرة أرى والدك يبكى هذا الصباح ... فجأة البيت خلا . استيقظنا فلم نجد أحدا منكم حولنا .... قدر الله . ولابد ان نتحمله صابرين ومحتسبين .

وقفت (خديجة) وجففت دمعها وتمالكت نفسها و وقالت :

- معك حق يا امى .... قدرنا ولابد أن نتحمله ... الحياة ليست كلها حلوة وإنما فيها جانب مر , ولقد عشت الجانب الحلو منها , باقى أن أعيش الجانب المر .

لملمت الأم ردائها وقالت : - ربنا يكملك بعقلك يا (خديجة) , هيا ليراك والدك قبل أن نرجع إلى دمنهور .

- لا داعى لأن يرانى والدى , كفى ما فيه من حزن .

- لابد أن يراك ويطمئن عليك يا (خديجة) .

- إذن لا تجعليه يطيل فى الحديث معى ... فقد لا أتمالك نفسى وأبكى .

- تبكين ثانيا يا (خديجة) !!

ابتسمت من بين دموعها وقالت : - أنت تعرفيننى حينما أفتح فى البكاء .

بادلتها الأم الابتسام وقالت : - اعرفك حين تبكين لا شئ يستطيع أن يوقفك عن البكاء . هيا ضعى شيئا على وجهك يخفى آثار البكاء والسهر .

- لى طلب عندك ياأمى .

- اطلبى يا حبيبة ماما .

- بعد كل صلاة اطلبى من الله أن يأخذ (حجازى) أظن أن تلك هى الطريقة الوحيدة للخلاص منه

- الأفضل أن أطلب من الله أن يهدى سركما .

(4)

- محمود البستاوى -

أخذت الطربوش من يده ، ونظفته بطرف ثوبها ، وعلقته ، وقال وهو يناولها بقية ملابسه :

- (خديجة) ليست بالسعيدة فى زواجها .
- ومن أين عرفت ؟
- شكلها ... صوتها .

فقالت وهى تساعده فى ارتداء جلبابه : - كل البنات فى أول عهدهن بالزواج هكذا وبمرور الوقت يتعودن على حياتهن الجديدة .

فقال بحزن : - ليست الحياة هناك سهلة ، وقد ربينا (خديجة) على الرفاهية والحياة الرغدة .

- ربنا معاها .
- (خديجة) لن تستريح إلا إذا عاشت هنا فى دمنهور أو فى أى مكان غير الدلنجات .
- وكيف هذا ؟
- بأن يأتى (حجازى) هنا فى دمنهور .
- كيف ؟
- اتركى هذا الأمر فالله موجود يدبر أمورنا إذا عجزنا نحن عن التدبير .
- ألم تفكر فى بيع البيت ؟
- لن نبيع البيت ... وسأبحث من الغد عن عمل .
- لم تعد صحتك تسمح بذلك .... ثم ماذا ستعمل ؟
- المحالج كثيرة فى دمنهور ... وأعرف كل أصحابها .
- القطن مرة اخرى ... وماذا ستعمل فى المحلج ؟
- أى عمل أنا لم أولد وفى فمى ملعقة من ذهب , أنى أجيد أعمال كثيرة ... ولا تخشى شيئا , سيكون عملا سهلا ... الإشراف على العمال أو الحسابات .. نكافح حتى نحصل على لقمة العيش , والحمد لله قضيت ما على من ديون و ولولا (عبد العاطى) لا أدرى ماذا كنت سأفعل ؟
- ولكن الثمن كان غاليا .
- زواج (حجازى) من (خديجة) قسمة ونصيب , وسفر الأولاد كل فى بلد قسمة ونصيب . لم يبق لنا من عمر سوى القليل , لنعش تلك الأيام , ونترفق بأنفسنا ولا نملأها بالندم والكأبة والحزن . والله أعلم بما سيحدث غدا .

بعد كل ما حدث مازالت تلمح إمارات القوة والصلابة ، هذا الرجل لا يعرف الخضوع أو الاستسلام , يحب الحياة على ما فيها من مرارة , لقد تعلمت منه الكثير ، الأيام لا تزيدها إلا حبا واحتراما له ... قالت : - أعد لك العشاء .

- لا... ولكن فنجانا من الشاى ، واديرى لى إسطوانة عبده الحمولى .. وارتدى شيئا سوى الأسود , فما زلت حيا يا زهرة حياتى .

فقالت باستحياء : - لقد كبرنا يا سى (محمود) .

فقال مندهشا : - وهل الكبر ذنب نعاقب عليه ؟! افعلى ما أمرتك به , ولا تنس أن تضعى عطرا من الزجاجة المفضلة لدى .

********** ********** **********

تعانق الرجلان ، وقال (محمود) وهو يتنحى ليقدم ضيفه أمامه : - الأستاذ (محمد عبده) ..ذلك شرف لا نطاوله .

فنظر إليه مبتسما قائلا بطريقته الودودة : - لم أتغيب عنك طويلا ومع ذلك أراك كبرت سنوات !

فقال ضاحكا : - أنا مازلت فى عز شبابى .

- يا رجل كلها شهور وتصبح جدا .... ومعذرة أنى لم أحضر زواج كريمتك , فالظروف فى القاهرة و...

فقاطعه قائلا : - روحك كانت حاضرة معنا يا أستاذ

- لم أشأ أن أعود إلى القاهرة إلا بعد المرور بك .

- لنفطر أولا ثم نتحدث .
- إذن لا تضيع وقتى ، لم أتناول الفطور فى (محلة نصر) وقلت أتناوله معك .

وبعد أن خلع عمامته وجبته ، شمر عن ساعده ، جيئ بالفطور ... سأله (محمود) :

- ما هذا الذى نسمعه يدور فى القاهرة ؟

فقال الأستاذ : - زلزال يا محمود .

فقال مندهشا : - زلزال !!

- نعم فأنت تعيش – كما يقولون – على شمال الدنيا .
- الظروف التى تعرضت لها مؤخرا ، وزواج (خديجة) صرفتنى عن تتبع الأخبار .
- كما تعرف بعد أن تولى الخديو (توفيق) الحكم ، شكل نظارة برئاسة (رياض باشا) وهذا بدوره عين (عثمان رفقى) وزيرا للحربية ، وهو شركسى ، وأنت تعلم مدى كراهية الشراكسة للمصريين , أساء معاملة الكثير من الضباط فى الجيش , وأوقف حركة ترقيتهم وسن قوانين خاصة بهم لتهميش دورهم وفصل عددا منهم ... ظهر ضابط يدعى (عرابى) اجتمع حوله عدد من الضباط وكتبوا تقريرا عرضوه على (رياض باشا) .

فقال (محمود) وهو يقدم كوبا من الماء للأستاذ : - طبعا سيحاول أن يعتقلهم ليقضى عليهم .

- وهذا بالضبط ما فعله ... وقرر محاكمة الضباط حتى يكونوا عبرة ... إلا أن أحد الوزراء المخلصين للمصريين أفشى سر ما ينويه (رياض) للضباط ... فجاء ضابط يدعى (محمد عبيد) ومعه قوة من الجيش وأطلقوا سراح الضباط المصريين , وذهب الضباط يتقدمهم (عرابى) إلى عابدين لمقابلة الخديو (توفيق) .

توقف (محمود) عن الأكل غير مصدق ما يسمعه وتساءل فى دهشة :

- ذهب الضباط لمقابلة الخديو .. أمعقول هذا ؟!
- ألم أقل لك أنه زلزال ... الأكثر من ذلك ما عرضه الضباط على الخديو .
- ماذا عرضوا ؟
- إقالة (عثمان رفقى) وزير الحربية .
- ولكن ما فعله الضباط ....
- لقد طلبوا عفوه عما صدر منهم .
- وهل وافق بعد ذلك على استقالة (عثمان رفقى) ؟
- ليس هذا فحسب , بل طلب منهم اختيار وزير للحربية .
- أمعقول هذا؟! يترك لهم اختيار وزير الحربية .
- نعم واختاروا (محمود سامى البارودى) .

أطرق قليلا ثم قال : - ألم يكن (محمود سامى البارودى) وزيرا للأوقاف ؟

- نعم .
- ولم هو بالذات ؟
- لأنه اتضح بعد ذلك ، أنه الوزير الذى أخبر الضباط بأمر اعتقالهم , وبذلك وثقوا به ، وهو أهل للثقة مع أن أصله جركسى ، ولكن ولاءه للمصريين شديد ،

فقال (محمود) بعد أن انتهوا من تناول الفطور : - هيا لنشرب القهوة فى المكتبة .

وحمل (محمود) الجبة والعمامة ، فأراد الأستاذ أن يحملهما ، ولكن (محمود) أصر على حملهما ... وبعد أن جلسا , قال (محمود) : - أظن أن الخديو غير راض على ما صارت إليه الأمور . وكذلك إنجلترا وفرنسا .

- كانت بريطانيا الأشد قلقا ... فقد أصبح فى الإمكان إقالة النظارة كلها وتنحية (رياض باشا) وقد تصير الأمور إلى إلغاء المراقبة التى تقوم بها إنجلترا .
- وفرنسا ؟
- كان موقف القنصل الفرنسى غريبا ... فقد كتب الضباط تقريرا فى فبراير هذا العام عما حدث وأرسلوه إلى البارون (دورنج) وكان رده أن مدح الضباط على موقفهم ، وشجعهم ونصحهم بعد الإكتراث بالحكومة .
- موقف غريب من قنصل فرنسا حقا .
- بعد التفكير فى موقفه لا تجد غرابة بالمرة .
- كيف ؟
- القنصل أحس أن هناك قوة متنامية داخل الجيش ومؤيدة من الشعب , والخديو (توفيق) خاضع للسيطرة الإنجليزية , و(رياض) يؤيد المصالح الإنجليزية بكل صراحة ، فرأى القنصل الفرنسى أن يؤيد الضباط ويقدم لهم النصيحة والمشورة .

أخذ (محمود) رشفة من فنجان القهوة ثم تساءل :

- ولكن هل هذا موقف القنصل بصفته الشخصية أم موقف فرنسا ؟
- ما حدث بعد ذلك أظهر أن هذا موقف القنصل بصفته الشخصية ... فقد أرسلت فرنسا فى أول مارس إلى القنصل تأمره ترك مصر والقدوم على أول باخرة .
- طبعا هذا بإيعاز من الخديو .
- ربما من إنجلترا أيضا ... لأن أى حركة إصلاح فيها تهديد لمصالح إنجلترا وفرنسا والخديو .

نظر الأستاذ فى ساعته وقال وهو يتأهب للانصراف : - أرى أنه قد حان الوقت للسفر إلى القاهرة.

والتقط الجبة والعمامة . فقال (محمود) وهو يصحبه إلى الخارج :

- قريبا سوف أزورك فى القاهرة .

فابتسم الأستاذ وقال : - لنستعيد ما مضى من أيام .

فقال (محمود) : - كانت أجمل أيام تلك التى قضيناها فى القاهرة سويا .

- إذن لتأت وتعيش هناك .
- لم يعد فى العمر بقية ..,. والأولاد ....

فقاطعه قائلا : - مازلت لا أعرف سببا لما فعلته بأولادك يا (محمود) لقد قرأت خطابك الذى أرسلته لى مؤخرا أكثر من مرة , وأنا غير مقتنع بما فعلت .

التمعت عيناه وتهدج صوته وقال : - فعلت ما فيه مصلحتهم .

وتعانق الرجلان قبل أن يترك كل منهما الآخر .

وحينما عاد (محمود) إلى حجرة المكتبة وجد حيث كان يجلس الأستاذ مظروفا مفتوحا ، التقطه وأراد أن يسرع ليلحق به فأبصر به مبلغا من المال ومعه ورقة أخرجها فإذا هى مكتوب عليها بخط الأستاذ : هذا مبلغ زهيد ... جهد المقل ... دعواتى لك بالتوفيق ..... محمد عبده .

حضرت زوجته وسألته عما فى يده .. فلم يجبها ووضع المظروف فى يدها وانصرف .

********** ********** **********

سأل الساعى الذى يجلس على الباب : - الأستاذ (إسماعيل) موجود ؟
نهض الرجل وسأله : - من حضرتك ؟
- أخبره أن (محمود البستاوى) يريد مقابلتك .
- لحظة واحدة .
دخل الساعى وأغلق الباب خلفه ، وكان (إسماعيل) جالسا إلى مكتبه ومعه ساعده الأيمن (قطاوى) .. وحينما نطق الساعى باسم (محمود البستاوى) اندهش (إسماعيل) وتساءل :
- ماذا يريد هذا الرجل منى ؟
فسأله (قطاوى) : - من هذا الرجل ؟
- ألم تسمع به ؟ كان من أكبر تجار القطن فى البلد ، ولكنه أفلس مؤخرا بسبب البورصة .
فقال (قطاوى) وهو يشعل سيجارته : - وماذا يريد هذا المفلس منا ؟
وقال مخاطبا الساعى : - اذهب واصرفه ، فليس لدينا وقت له ولأمثاله .
فقال (إسماعيل) : - لا .. أنت لا تعرف شيئا ... فهناك علاقة وثيقة بينه وبين الباشا صاحب المحلج الذى نعمل فيه الآن .
- وما شأن الباشا بهذا المفلس ؟
- انتظر حتى نعرف ماذا يريد ؟
التقط (قطاوى) المطفأة ووضعها أمامه وقال ساخرا :
- الذى يريده المفلس من الناس إما مبلغا من المال أو عملا .
قال (إسماعيل) مخاطبا الساعى : - اتركه يدخل .
ونهض (إسماعيل) متجها نحو الباب مستقبلا (محمود) فى حفاوة بالغة ، وأجلسه أمامه على المكتب فى مواجهة (قطاوى) وأخذ هذا يتأمله من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وقال (إسماعيل) مخاطبا الساعى : - فنجان قهوة لمحمود أفندى .
قال (محمود) فى حرج : - أظنك تعرفنى .
- نعم كنت أراك كثيرا تسهر مع الباشا .
- أظن انه خارج مصر .
- فى إنجلترا يتعاقد على مكن للمحلج الجديد .
شرب (محمود) القهوة وسادت فترة صمت , شعر خلالها (محمود) بالحرج أن يتحدث أمام الرجل الذى يجلس أمامه , ولاحظ (إسماعيل) ذلك , فقال مقدما (قطاوى) :
- (قطاوى) المشرف على الأنفار , ويساعدنى فى إدارة المحلج .
لم يسترح (محمود) لنظراته , ولا لشكله الضخم وملامحه الشرسه ولكنه لم يهتم ، وقطع (إسماعيل فترة الصمت التى طالت : - خير يا (محمود أفندى) .
فقال بعد تردد وقد شعر بجفاف حلقه : - لقد جئت أبحث عن عمل لديك فى المحلج .
تأمل (إسماعيل) البدلة الفاخرة التى يرتديها ، والطربوش التركى الغالى الثمن ، والهيبة التى يتمتع بها الرجل ، وأثار العز والرفاهية ما تزال باقية , تلمح ذلك من حركاته وسكناته وإيماءاته ، سأله فى عجب : - العمل لك !!
- نعم .

نهض (إسماعيل) من على مكتبه وجلس بجواره وسأله :
- الذى أعرفه أنك من كبار تجار القطن فى البلد .
فابتسم (محمود) فى أسى : - كنت ... ولكنى الآن بلا عمل .
- ولكن كيف حدث ذلك ؟
أدرك (محمود) ما يبطنه (إسماعيل) فقال وهو يتململ فى جلسته :
- هذه إرادة الله ... المهم هل لديك عمل لى فى المحلج أم لا ؟
عاد (إسماعيل) إلى مكتبه وقال :
- المحلج كله تحت أمرك .... ولكن ماذا تريد أن تعمل ؟
فابتسم قائلا : - أنت الذى تحدد نوع العمل وليس أنا .
- نعم .. ولكن رجلا مثلك وله مقامك ومكانك ... ماذا سيعمل فى المحلج ؟
نهض (محمود) على الفور متجها نحو الباب قائلا : - أنا شاكر على فنجان القهوة .. سلام عليكم .
فأسرع (إسماعيل) وأمسك به وأجلسه : - لا تؤاخذنى ... أنا لم أقصد شيئا ... كل ما قصدته أن آتى لك بعمل يتناسب ومقامك .
- يا سيد (إسماعيل) .. اعتبرنى عاملا فى المحلج لا أكثر ولا أقل .
- كيف ذلك يا (محمود أفندى) المقامات محفوظة .
صمت (إسماعيل) قليلا مفكرا ، ثم قال : - ما رأيك أن تكون مشرفاعلى العمال ؟
فقال (قطاوى) بغلظة : - هذا عملى أنا .
فنظر (إسماعيل) له بضيق وقال : - ستترك الإشراف على العمال , ولديك من الأعمال الكثير .
- ولكن .... فأشار له (إسماعيل) بالصمت ، فنهض (قطاوى) واضعا يده فى جيبه وقال مخاطبا (محمود) : - وحضرتك تستطيع التفاهم مع الأنفار ؟
- ولم لا ... أليسوا بنى آدمين ؟!
- نعم ... ولكن منهم القتلة واللصوص والهاربين من القانون .... وعلى كل ربنا يهديهم لك .
قال هذا وانصرف . فقال (محمود) : - أظن أن الأخ (قطاوى) لا يرغب فى وجودى .
- لا .. ولكنه يعرف جيدا نوعية العمال لدينا ، وهم كما قال وأكثر ، ولم أكن أريد لك هذا العمل , ولكن نحن فى حاجة إلى مشرف على العمال .
نهض (محمود) قائلا : - أن شاكر لك حسن استقبالك .
- غدا صباحا ستجد سجلات العمال على مكتبك فى الحجرة المجاورة .
وقبل أن ينصرف استدار لإسماعيل وقال له : - لى رجاء أخير عندك .
- تفضل .
- ألا يعرف (رأفت باشا) بأمر عملى هنا فى المحلج .
صمت قليلا مفكرا ... ثم ابتسم قائلا : - كيف ؟ ربما أسعدته لو أخبرته بعملك هنا .
- فى الوقت الذى سيعرف فيه بأمر عملى هنا سأغادر المحلج على الفور ... هذا رجاء .
- فهمت قصدك ... مع السلامة .
وبعد أن انصرف (محمود) دخل (قطاوى) وسأله :
- لا أدرى لم وافقت على أن يعمل معنا هذا المفلس المتأنق ؟
- ولم لا يا مغفل .

- والسجلات والدفاتر ؟
- لا تخش شيئا .
- ولكنى ما زلت لا أفهم ... لم وافقت أن يعمل معنا ونحن لسنا فى حاجة إليه ؟

ضحك (إسماعيل) : - نكسب فيه ثوابا .

فقال ساخرا : - (إسماعيل الداهش) يكسب أى شئ من وراء الناس إلا الثواب .

فتكلف (إسماعيل) الجد قائلا : - لا تنس نفسك يا مغفل .
- لا أقصد شيئا ... ولكنى لا أفهم لم نعرض أنفسنا للخطر بوجود هذا المفلس .

فقال (إسماعيل) وكانه يحدث نفسه : - هناك نوع من الرجال تشعر انك خسرت كثيرا لو ابتعدت عنهم أو أبعتهم عنك ، لمجرد أنه بجانبك تشعر أن معك شيئا قيما ... (محمود البستاوى) من هذا النوع ، وهذا ما شعرت به حينما كان جالسا مكانك هنا .
- وأنا ؟

ضحك (إسماعيل) حتى كاد أن يستلقى على قفاه ، وبعد أن تمالك نفسه , نظر إلى (قطاوى) فوجد وجهه ازداد سوادا عما كان ... وقف وربت على كتفه قائلا :
- أنت نوع نادر من الرجال يا (قطاوى) أنت شر , بلوى , مصيبة , كارثة ... لكن لولاك لخرب العالم , فأنت وأمثالك تجعلون هناك توازنا لأجد أنا وأمثالى مكانا نعيش فيه , لا أتصور كيف كنت سأعيش بدونك .

هرش (قطاوى) فى رأسه متعجبا وقال : - لا أدرى أأفرح بكلامك هذا أم أغضب ... أنا لا أستطيع فهمك .

وضع إسماعيل يده على كتفه واتجه به نحو الباب :
- يا (قطاوى) قلت لك أكثر من مرة لا تحاول أن تفهم , لأن ليس معك الآلة التى تفكر , لك رأس لتضع عليه الطربوش الأحمر ذا الذر الأسود ... لو حاولت أن تفكر يا قطاوى ممكن تتحول إلى حمار .

نحى (قطاوى) يد (إسماعيل) من على كتفه , ونظر إليه غاضبا : - أتسخر منى ؟
- أنا ....أبدا .... وإن لم تصدق حاول أن تفكر وانتظر ماذا سيحدث لك .

وقف (قطاوى) حائرا وقال وكأنه يحدث نفسه : - ولكن فيم سأفكر ؟

ضحك (إسماعيل) طويلا ثم قال :
- المهم ... جهز لنا الليلة سهرة , ولنتقابل فى المساء .

انفرجت أسارير (قطاوى) وأخذ يفرك فى يده :
- سوف أجهز كل شئ يا ملك السهرات والفرفشة .

(5)
- أنفار المحلج -

(الصلاة خير من النوم ..... الصلاة خير من النوم .....)

استيقظ من النوم وبقى قليلا يتأمل الأجساد الغارقة فى النوم متخذة أوضاع وأشكال غريبة , تصدر أصواتا كانت فى البداية تمنع النوم عن جفونه ، أما الآن فبمجرد سماعه لها تجعله يتثاءب ويزحف النوم إليه مستوليا على جسده . طوى جوالات الخيش التى ينام عليها ، والتى أخذها خلسة من المحلج ، ثم أخفى الوسادة والتى طمس لونها طبقات كثيفة من العرق والقذارة فى ثنايا الجوالات ووضع كل ذلك بجوار الحائط . رائحة العرق المتفصدة

من الأجساد المجهدة السمراء مختلطة برائحة الرطوبة المنبعثة من الجدران المتصدعة والمتأكلة ، ورائحة العفن والنتانة الصادرة من (الكنيف) أو (الخن) كما يطلقون عليه , ورائحة المعسل المحروق ، ويقايا أعقاب السجائر المتناثرة على الأرض .. كل هذا يبعث فى نفسه الميل إلى الغثيان ، فيسرع ليفتح الشباك الخشبى الوحيد فى الغرفة , المطل على (الخرابة) والتى يلقى فيها أهل الحى فضلاتهم ونفاياتهم من كل شكل ونوع ، والحيوانات والطيور النافقة ..... من خلال هذا الشباك الخشبى المتهالك تدلف نسمات الفجر الباردة المنعشة على استحياء فتبدد شيئا من كابوس الروائح الكريهة .

وقف وسط الغرفة وبسط زراعيه , وجسده النحيف الذى لا يكاد يستره غير جلباب مرقع برقع ملونة .... وبصوته الجهورى قال مخاطبا المستغرقين فى النوم :

- قوموا ..... الصلاة وجبت يا خلج .

وأخذ يوكز النائمين فردا فردا , متخطيا الأقدام المتشققة المفلطحة والأزرع المفتولة السمراء المكلولة من العمل المضنى : - يا حسنين ... يا محمد ....يا هريدى .... يا رمضان .... قم يا شافعى....يا مخيمر قم يا أخى كفى نوما

استيقظ البعض , وبقى البعض يتململ فى نومه ، نهض (مخيمر) متضايقا قائلا وهو ما يزال مغمض العينين :- يا أخى منك لله .... إصبعك كالخطاف الذى نحمل به جوالات القطن .

وعقب (هريدى) وهو يسعل سعالا حادا : - وصوته كغراب البين .

فقال (نور) غاضبا بصوته النحيف : - أنا غلطان أنى أوقظكم كل يوم لتسعوا على أكل عيشكم .

فقال (حسنين) وهو يطوى أجولة الخيش الممزقة التى كان ينام عليها أو فيها :

- أكل عيش !! لا أدرى متى يتوب الله علينا من تلك الشغلانة الملعونة .

فقال (مخيمر) وهو يلتقط باصابعة الصلبة بعض الحشرات الدقيقة التى توغلت فى أجزاء من جسمه الفارع ويسحقها بين أصابعه : - معك حق ... شغلانة ملعونة ... تركنا بلدنا وأهلنا من أجل بضعة قروش , ونعمل كالحمير طوال النهار .

فقال (نور) وهو يتجرع قليلا من ماء القلة المكسورة الحلق فينساب الماء على صدره العارى :

- احمدوا ربكم .... أنتم أحسن من غيركم .

فقال (هريدى) وهو يربط رأسه بمنديله الأصفر الممزق الأطراف , كى يخفف ما يشعر به من صداع من جراء شربه الخمر ذات النوع الردئ : - لم ..؟ أنا فى أكثر الأيام لا أرجع بمليم فى جيبى .

فقال (نور) : - لأن ما تكسبه بالنهار تنفقه ليلا على الزفت الذى تشربه طوال الليل .

- أنا أشربه من كثرة الهم والغم يا نور , أنت لا تعرف شيئا مما أعانيه .

- والغوازى والراقصات .

فشوح له بيده قائلا : - هى غربة وكربة ... ما الواحد ليس معه امرأة ... وأنا لا أستطيع أن أعيش بدون نساء .

- كلنا نعيش بدون نساء .

ضحك (هريدى) وهو يحكم المنديل حول رأسه والذى كان يتابع الحديث :

- أنتم صعايدة أقفال .

فقال (شافعى) وهو يهرس بقدميه العارية صرصارا أرعن تحت قدميه :

- اقفل خشمك اللى بينقط زفت على الصبح .

فتدخل (محمد) فى الحديث وهو يسوى شعر لحيته الكثيف بأصابعه مخاطبا (شافعى) :
- أنت و(هريدى) فى الهوى سوا ... أنا لا أدرى لم لا تقضيان وقتكما فى الصلاة وقراءة القرآن ماذا ستستفيدان من السهر وشرب الزفت والجرى وراء الغوازى ؟ !!

فرد (هريدى) وهو ينهض باسطا زراعيه وجسده فى الهواء : - تركنا لك السهر فى الموالد وحلقات الذكر يا شيخ (محمد) ... أدعو لنا ربنا يهدينا ويتوب علينا .
فقال وهو يرتدى جلبابه النظيف ويخرج مسبحته من جيبه : - فإنك لا تهدى من أحببت ... ولكن الله يهدى من يشاء ... هيا لنصل ونسعى على لقمة عيشنا يا خلق .
التقط كل منهم جلبابه المعلق على مسمار مدقوق فى الجدران المتصدعة المستكن فيه أنواع مختلفة وعجيبة من الحشرات , وارتفع لغطهم ومشاحنتهم لأن البعض قد إرتدى ثوب غيره , فالجلاليب كلها متشابهة فى هذا الغبش .

********** ********** **********

(أبو الريش) وهو الولى الذى جاء من اليمن واستوطن المكان , وعرف الناس عنه كرامات ، فقد كان يأنس إليه الوحش والزواحف والطير خاصة ... تتجمع بين يديه ، لذلك سمى (بأبى الريش) وحينما مات دفن وبنى له مقام وسمى المسجد باسمه ، وأصبح له مولد يأتى إليه القاص والدانى من كل مكان . وأطلق على الحى اسم الولى ، وهو من الأحياء البعيدة نسبيا عن تجمع السكان وسط مدينة (دمنهور) وقريبا من ترعة (المحمودية) التى يحمل من خلالها القطن الخام إلى المحالج الكثيرة المنتشرة فى الحى ، ومن المحالج إلى بعض المصانع فى (كفر الدوار) ومنها إلى ميناء الأسكندرية للتصدير ، لذلك اتخذ رجال الأعمال والباشوات من الحى مكانا مناسبا لإقامة محالج القطن ، فتجمع فى الحى وما حوله أكثر من عشرة محالج ، كل محلج يضم المئات من العمال والعاملات ، وكانت تلك المحالج بمثابة قوة جذب تجذب إليها الأنفار من مختلف البلدان من المدن والريف والصعيد ، وتجمع خليط غريب من البشر ، من طردتهم السجون والهاربين من أحكام القانون والهاربين من الثأر واللصوص والبلطجية والفتوات ..... ورغم أن الأجر اليومى زهيد للغاية إلا أن عدم وجود شروط أو مواصفات معينة للعامل من خبرة أو غيره كان يجعل العمل فى المحالج يصادف هوى الكثيرين ..... الشرط الوحيد المطلوب فى أن يتوافر فى العامل هو القوة الجسمانية التى تمكن صاحبها من حمل جوال من القطن يزن عدة قناطير والصعود به على سطح العربة ، أو الصبر والدأب فى العمل لمدة اثنتا عشرة ساعة هى مدة الوردية ، والبعض كان يعمل ورديتين .... وكانت المحالج تعمل على مدى الأربع والعشرين ساعة من شهر أكتوبر من كل عام إلى شهر مارس ، فكانت المدينة تنشط فى تلك المدة نشاطا على غير المعتاد ، بداية من جمع القطن من الغيطان وقيام الفلاحين والتجار بإحضاره إلى الحلقات والأسواق ليباع إلى نقله إلى المحالج ، ثم نقله إلى الميناء للتصدير أو إلى بعض المصانع لغزله ونسجه .... لذلك كانت المينة فى تلك المدة من كل عام لا تنم ، وعلى هامش المحالج كانت هناك المخابز ومحلات البقالة والمطاعم والفنادق واللوكاندات والبيوت والأكشاك التى تؤجر للأنفار , والمقاهى والملاهى وأماكن متنوعة يلجأ إليها العمال ليرفهون عن أنفسهم , وكانت المساجد تمتلئ وتكتظ فهى مأوى لمن لا مأوى له .
وكانت هذه هى الأنشطة المسموح بها فى الظاهر ، يوازيها أنشطة أخرى خفية مثل تجارة المخدرات من حشيش وأفيون ، والدعارة وسرقة ونهب وقتل وخطف وفتونة وبلطجة ،

فؤلاء اللألوف الذين يهون إلى تلك المحالج من جميع البقاع يأتون حاملين معهم كل طباعهم وغرائزهم وشهواتهم وأهوائهم , لا سيما وأنهم من الفئات التى طحنها الدهر وسحقها الفقر والجهل والمرض .... يأتون إلى تلك المحالج ليخففون ما بهم من فاقة وجوع ... إلا إن ما كانوا يعانونه من قسوة وإهانة تحت سقف تلك المحالج كان يضاعف ما بهم من ألم ومعاناة .... ولكن ما بأيديهم أن يفعلوه
وليس أمامهم غير هذا ؟
بعد أن أدوا صلاة الفجر فى مسجد (أبو الريش) اتجهوا إلى المطعم ليتناولوا وجبة الفطور ، والتى ستصمد معهم أكبر وقت من النهار إن لم يكن النهار كله , وانتظروا طويلا حتى خلت منضدة من تلك المناضد الخشبية المتهالكة التى ترص فى المكان الخالى المتسع والذى غص بالأنفار .... قال (مخيمر) بعد أن شمر عن ساعديه : - ماذا تأكلون يا خلج ؟
فضحك (حسنين) ساخرا : - ليس أمامنا من طعام كل يوم إلا الفول .
فقال (شافعى) وهو يهرش فى قفاه العريض العارى : - الفول يربى العجول .
فربت (مخيمر) على كتفه قائلا : - فعلا ... الفول ربى
فنظر إليه شذرا , وأبعد يديه فى ضيق : - كلامك ماسخ يا جدع .
وجاء صبى المطعم يحمل كومة كبيرة من الخبز ، ووراءه صبى آخر يحمل وعاءين كبيرين ممتلأين بالفول .... قال (حسنين) وهو يمد أنفه يشم رائحة الفول الساخن ويلتقط رغيفا وينفض ما به من غبار الدقيق ويمزقه نصفين : - البصل ... البصل أهم حاجة ياولد يا قدرة , وعاد (قدرة) صبى المطعم يحمل كما من البصل , وبدأت الأيادى تذهب فارغة لتعود ملآنه لتسد تلك الأفواه المفتوحة , وتسمع صوت طحن الأسنان بكل قسوة وعنف قبل أن تنتفخ البلاعم بالطعام وبين الأونة والأخرى ترتفع الأيادى مضمومة لتهوى على البصل فتسحقه ، وتفوح رائحته لتملأ المكان ممتزجة برائحة الفول والزيت .
اقترب منهم شاب أنيق فى ملبسه وسيم يحمل رغيفين وفوقهما طبق الفول , وحينما رأوه أعرضوا عنه ، ولم يرد أحد عليه تحية الصباح , وقف حائرا ... أيعود من حيث أتى أم يجلس معهم ؟ وقال بأسف : - ما هذا ؟ هل حدث منى ما يجعلكم تغضبون على ؟!
فقال (هريدى) وهوممسك بقطعة خبز بين أصابعه ملآنة بالفول ، وباليد الأخرى بصلة مقطومة :

- يا (أسكندر) ... لسنا مثلك ولا أنت مثلنا .. أرجع إلى أصحابك ... ولو تكرر ماحدث بالأمس قد يصل الأمر إلى قتل وسجن .

تقدم (إسكندر) ووضع ما بيده على المنضدة وجلس بجوارهم قائلا :

- يا جماعة الخير ... أنتم تضخمون الأمور بشكل غريب لقد كان مجرد هزار .

فقال (حسنين) وهو يغمس بقطعة الخبز فى الطبق : - حينما تضحكون علينا وتضعون أحجارا فى طريقنا لنسقط ونحن نحمل جوالات القطن ... فليس هذا هزارا .
حار (إسكندر) ماذا يقول ، وغاضت الابتسامة من على ملامح وجهه الوسيم ، وقال :

- معكم حق ... لقد بالغوا ... وأنا اعتذر , وعلى استعداد أن اجعلهم يأتون ويقبلون رءوسكم .

وقال (محمد) بعد أن هدأت النفوس : - نحن لم نأت من بلادنا إلى هنا كى نضحك ونهذر .
فقال (إسكندر) : - يا جماعة لا تأخذوا الحياة جدا أكثر من اللازم ، الحياة تريد الضحك والفرفشة والتسامح ... الحياة صعبة ومرة ، ولن تمر بسهولة إلا بالضحك والحب .

فقال (نور) وهو لا يخفى إعجابه (بإسكندر) : - إسكندرانى بحق ... بكلمتين عرفت كيف تميل رؤوسنا .

- والدليل على حبى لكم ، أنى أتيت لكم بعمل تأخذون من وراءه قرشين حلوين .
- أين ؟
- فى الأسكندرية ... نظارة الجهادية تريد عمالا لترميم القلاع والحصون الواقعة على البحر .. وأنا تحدثت مع المقاول , وأعطيته أسماءكم .

فقال (محمد) وهو يمس على شعر لحيته : - كأنك اعتبرت أننا موافقون .

- ولم لا ... واليومية أكثر من هنا بكثير .

فسأله (حسنين) : - والسكن ؟

صمت (إسكندر) قليلا ثم قال : - سوف أدبر لكم السكن .

فقال (مخيمر) : - والله يا (إسكندر) أنت ابن حلال .

- وقال (نور) : أحلى بلد فى الدنيا يا (نور) .... لو كان هناك فى شركة الصيانة التى أعمل بها من يفهم فى صيانة مكن الحلج والله ما أتيت إلى (دمنهور) ولبقيت فى الأسكندرية ... وعلى كل لن أبقى طويلا هنا , فقد دربت عامل من العمال هنا على الصيانة , وسأعود إلى الأسكندرية بعد إصلاح المكن العطلان . لا أستطيع أن أغيب عن الأسكندرية طويلا .

قال (شافعى) وهو يتجشأ بعد أن تجرع كوبا من الماء : - سوف تتشاور فى الموضوع ... والليلة فى المقهى نخبرك على ما اتفقنا عليه .

- والله لن تندموا يكفى أنكم ستعيشون فى الأسكندرية .

********** ********** **********

دخل حاملا فنجان القهوة , وحينما رآه جالسا على المكتب وقف مندهشا فابتسم (محمود) وقال :

- تعال يا رجل يا عجوز .... ما بك أرأيت عفريتا ؟
- من حضرتك ؟

فنهض (محمود) وأخذ فنجان القهوة وقال : - أنا أخوك (محمود البستاوى) , وسوف أحل محل (قطاوى) من اليوم ... وأنت ما اسمك ؟

فقال وهو ينحنى : - خدامك أبو صلاح .

- استغفر الله يا رجل .
- ولكن حضرتك سوف تشرف على الأنفار ؟
- نعم .

فنظر إليه متعجبا وقال وهو يتأمل ملابسه : - بهذا الشكل !!

فنظر (محمود) إلى نفسه متسائلا : - أهناك شئ خطأ ؟

- لا ... ولكن البدلة والغبار والتراب .

فضحك (محمود) قائلا : - وماذا كنت سأرتدى جلبابا ؟!

- إن أذنت لى أحضر لك معطفا ترتديه فوق البدلة .
- إن كنت ترى ذلك فلا مانع .

وعاد (أبو صلاح) بالمعطف وارتداه (محمود) وبعد ذلك سأله :

- وحضرت ماذا كنت تعمل من قبل ؟
- كنت تاجر كنت , ثم أفلست .

فقال وكانه يحدث نفسه : - هذا ما توقعته .
- ماذا توقعت يا عجوز ؟
- لا شئ ... سوف آتى معك لأدلك على مكان رؤساء الورديات كى يعطوك أسماء العمال والعاملات .

وحينما كان (محمود) يمر على رؤساء الورديات سأله أحدهم : - من أنت ؟
- أنا المشرف على الأنفار ... اعطينى كشفا بأسماء العمال .
- واين عشماوى ؟
- من عشماوى هذا ؟
- أقصد (قطاوى) ؟

لم يجبه , وإنما انهمك فى عمله و ولاحظ عن قرب شراسة بعض العمال وضيقهم بالعمل وكأنهم مجبرون عليه ، كما لاحظ انكسار وخضوع البعض وذل البعض الآخر .... ملامح غريبة مرتسمة على تلك الوجوه , وعلى تلك الأجساد السمراء الهزيلة الجافة التى لا يسترها سوى أسمال بالية , لدرجة أن البعض كان يرتدى أكياس من الخيش الذى يعبأ فيه القطن ، وقد تفصد جسدهم عرقا واختلط بالغبار والتراب الذى يملأ المكان , وأزعجه بعض الشئ الضجيج الذى تحدثه دواليب المحلج .

لم يتصور أن عنبرا واحدا ممكن أن يحوى تلك الأعداد الكثيرة من الأنفار !! وأثناء مروره تقدم أحدهم وجذبه من طرف معطفه قائلا : - لقد أحضروا أفنديا يشرف علينا .

لم يجبه , ولكنه استمر فى التحرش به , وبعض العمال يضحكون على تعليقاته ثم مد يده وأخذ منه الأوراق التى كانت بيده ، وبدأ يقلد مشيته والآخرون لا يتوقفون عن الضحك ، والعامل يقفز أمام (محمود) تارة وخلفة تارة أخرى , وحار (محمود) فى كيفية التصرف مع هذا الوقح ، وفجأة اندفع عامل آخر وجذب الأوراق من يد هذا العابث وأعطاها لمحمود ، فشكره وأثناء رجوع هذا العامل إلى دولابه تلقى لطمة على قفاه العارى , فاستدار هذا وبسرعة البرق حمل من ضربه فى الهواء ودار به عدة دورات ثم ألقاه على الأرض بقوة . وهنا انفجر العنبر و واشتبكت الأقدام والأزرع وتصادمت الرؤوس وسالت الدماء وارتفعت الصيحات والصرخات والآهات والتوجعات

وغطى كل هذا على ضجيج المكن , ولا يدرى من أيت أتته تلك الضربة على رأسه فتهاوى ...

فتح عينيه فوجد نفسه ممدا على أريكة فى مكتبه ، وأبو صلاح يضمد الجرح فى رأسه ابتسم له :
- الحمد لله ... إنه جرح بسيط .

فقال (محمود) وهو يتحسس الجرح : - لا أدرى ماذا حدث ؟1
- تلك مشاحنات تحدث أحيانا بين الصعايدة وعدد من البلطجية والفتوات فى المحلج .
- وما دخلى أنا ؟
- على ما يبدو أن صبى من صبيان فتوة اراد أن يضحك الفتوات عليك ، فلم يعجب هذا التصرف الصعايدة .
- ولكنى لا أعرف الصعايدة .. فلم يتعاركون من أجلى ؟ !

فضحك (أبو صلاح) وهو يحمل زجاجة الممطهر والقطن : - أنت بمثابة الشرر ... فما تعرضت له كان الصعايدة يتعرضون له ... وأنت تعرف أن الصعايدة دمهم حامى .
- وهل أصيب الكثيرون ؟

- لا تهتم هذه الأمور كثيرا ما تحدث .
- وما مصير الأنفار الذين تعاركوا
- الطرد طبعا .
- أظن أنهم سوف يشتغلون فى محلج آخر .
- من يطرد من هذا المحلج لا يعمل فى أى محلج آخر .
- لم ؟!
- لأنه لم يأت إلى هنا إلا بعد أن طرد من جميع المحالج فى البلد .
- على هذا فسمعة هذا المحلج سيئة جدا .

فقال (أبو صلاح) وهو يتجه إلى الباب : - كيف لا تعرف شيئا البلد كلها تعرفه ... أظنك بدأت الآن تأخذ فكرة صحيحة عن المحلج . .

- إذن لابد وأن أذهب إلى أسماعيل .
- لم ؟
- كى أمنعه من طرد الأنفار , فما حدث كان بسببى .

********** ********** **********

- لا تقسم ، فإنى لن أصدقك .. الظاهر أنك نسيت نفسك , ونسيت ماذا فعلت لك بعد أن لفظتك السجون وطردتك الحوارى والأزقة .

فقال (قطاوى) متضرعا محاولا أن يقنع (إسماعيل) :

- أقسم لك ، لقد حضرت اليوم متأخرا , بعد ما حدث فى العنبر ، فكيف أكون المدبر له ؟
- كل ما يحدث بين الأنفار أما أن تكون المدبر له أو على علم به .

واستأنف (إسماعيل) حديثه وهو ينظر إلى (قطاوى) المنكمش فى مقعده :

- غرك تساهلى معك ، وغرك أيضا التفاف بعض البلطجية والفتوات فى المحلج ، فأردت أن تستقل بنفسك عنى . صمت (إسماعيل) وهو فى قمة الغضب واقترب من (قطاوى) وربت على كتفه : - لا تظن أنى غافل عنك وعن كل تصرفاتك ... كل ما تقوله وتتلفظ به وتفعله يصل إلى بأسرع مما تتصور ، وكما انتشلتك من الحضيض سأعيدك إليه .

ومد يده إليه قائلا : - أين المفاتيح التى معك ؟

تردد (قطاوى) بعض الشئ ، وحينمكا لمح تصميم (إسماعيل) اخرجها من جيبه ووضعها على سطح المكتب وانصرف لا يلوى على شئ ، وأثناء خروجه اصطدم بمحمود ... وقف بعض الوقت ينقل البصر بين الاثنين ثم انصرف وهو يرغى ويزبد . نظر (إسماعيل) إلى رأس (محمود) المعصوب وقال : - إن شاء الله يكون جرحا بسيطا .

- إنه بسيط للغاية .
- اجلس .... ومعذرة أن أول يوم لك هنا يحدث ذلك .... وعلى كل انا أمرت بطرد الأنفار و....

فقاطعه : - لو سمحت لى رجاء ، وأرجو ألا نرفضه لى .

- خير إن شاء الله
- أن تأمر بإعادة كل الأنفار المطرودين .

فنظر إليه متعجبا : - تطلب منى ذلك بعد ما حدث لك !!
- أنا متنازل عن حقى .
- وحق المحلج .... وحقى .
- أطمع فى كرمك وحلمك أن تعفو عنهم .
صمت قليلا ثم قال : - أنت لا تعرف نوعية هؤلاء الأنفار إن تساهلت معهم تلك المرة ....
فقاطعه قائلا : - أنا المسئول عنهم ... وعما يحدث منهم بعد ذلك
- وهو كذلك ..... وأى شئ يحدث منهم ستكون المسئول أمامى عنهم .
نهض (محمود) قائلا : - أشكرك أنك قبلت رجائى .

(6)
- إسماعيل الداهش -

انتشر خبر توسط (محمود البستاوى) عند (إسماعيل) ليعيد الأنفار بعد أن تم طردهم ، هذا الخبر زاد من عدد المقدرين والمحبين لمحمود ، كما أنه زاد من عدد الكارهين والحاقدين عليه ، وكان أشد الحاقدين (قطاوى) فبسبب (محمود) حدث ما حدث ولأول مرة بينه وبين (إسماعيل) ، وظل (قطاوى) طوال اليوم لا يفارق منزله الكائن فى إحدى حوارى المدينة ، وفى المساء خرج وظل يسير على غير هدى فى الحوارى والأزقة والشوارع ، وسار مسافة طويلة على امتداد ترعة المحمودية ، المكان مظلم وبارد , لا يسمع غير نقيق الضفادع وصرار الليل ونباح الكلاب التى تجمعت واقتربت منه ، فما كان منه إلا أن التقط حجرا وقذف به أكبرهم فأسرع مبتعدا وتبعه الآخرون .
بدد الظلام من على البعد ضوء نار مشتعلة أمام كوخ خشبى متهالك وسط مكان مهجور ، يجتمع فيه أرباب السوابق ومن على شاكلتهم ، يتعاطون أنواعا مختلفة من المكيفات والمشروبات ، ويخططون لبعض عمليات السرقة أو النهب والقتل أو الخطف ، ...كانت قطع من الخشب المشتعل تضئ المكان ، ونسيم المساء يعبث بألسنة النار ويزيدها اشتعالا ... تصادف خروج أحد الأشخاص من الكوخ ... فأخذ يتفرس فى القادم وسأله : - من القادم ؟
فقال له : - أنا (قطاوى) يا (كراكيبو) .
فصافحه بحرارة جاذبا إياه إلى الداخل , وكان هناك مجموعة من الشباب والرجال يشربون ويدخنون ويتحدثون بصوت مرتفع يطغى على طنين (الكولب) الذى يضئ المكان إضاءة خافتة ... وقف الموجودون ليحيوا (قطاوى) فرد عليهم تحيتهم بلا اكتراث ، قال محدثا (كراكيبو) :
- أريد أن أجلس فى الخارج .
فجذب هذا مقعدين ووضعهما فى الخارج وعاد وأحضر النرجيلة والشراب ، وأخذ يتفرس فى ملامح (قطاوى) فى الظلام الذى يتبدد بين الحين والآخر من أثر تراقص ألسنة اللهب :
- أول مرة أراك حزينا ومهموما هكذا .... ما بك ؟

جذب (قطاوى) نفسا عميقا من النرجيلة الممسك بها (كراكيبو) وقال وهو يرسل نظرات متفرقة متفحصا الظلام حوله :- ألم تسمع عما جرى اليوم فى المحلج ؟
- بلى ... ولكن المشرف الجديد توسط عند (إسماعيل) وأعاد الأنفار المطرودين .
صمت (قطاوى) قليلا ، ثم انفجر فى الضحك ، وأخذ يسعل سعالا حادا ويبصق على الأرض . سأله (كراكيبو) : - ما الذى يضحكك ؟1
- إذا كان (محمود) توسط عند (إسماعيل) ليعيد الأنفار المطرودين .. فمن يتوسط لى ؟
فسأله مندهشا : - وهل طردك (إسماعيل) ؟
- بعد كل ما فعلته من أجله , طردنى كالكلب من المحلج .
- أنا لا أصدق هذا !!
- صدق فنحن فى زمن العجائب ..ألم يذهب (عرابى) إلى الخديو راكبا جواده وشاهرا سيفه و.....
صمت (قطاوى) قليلا وهويشعر بحزن وألم دفين ثم قال : - أتفهم شيئا مما أقوله ؟
- من (عرابى) هذا ؟ وما حكاية سيفه وجواده ؟ أهذا رجل مثل أبو زيد الهلالى الذى نسمع عنه فى المواويل ؟
هز رأسه وأخذ يواصل التدخين قائلا : - تقريبا .
- ولكن لم طردك (إسماعيل) ؟
- يظن أنى وراء ما حدث فى المحلج اليوم .
- معه حق ... فكل ما يحدث فى المحلج من تدبيرك ، وكان لا يمانع فى ذلك ، فلم فى تلك المرة غضب منك ؟
- الظاهر وجد فى (محمود) البديل عنى ، أو أنه أراد أن يتخلص منى بعد أن أصبح المحلج فى يده .
- وهل يستطيع (محمود) هذا أن يقوم بما كنت تقوم به ؟
لم يجب (قطاوى) ، فقال (كراكيبو) وهو يحاول أن يواسى (قطاوى) :
- ما رأيك أن أخلصك من (محمود) أو (إسماعيل) أو كليهما ؟
- ستظل طول عمرك حمار لا تفهم شيئا .
- الحق على أنى أريد أن أخدمك .
- وماذا سنستفيد من قتلهما يا فالح ؟
- يصبح المحلج فى يدك .
- ومن يضمن أن الباشا سيعطينى إدارة المحلج ، فهو لا يعلم أنى أعمل عنده , ولو علم لطردنى ... لا تنس من أنا والكل يعرف سيرتى
- إذن أحرق لك المحلج .
ضحك (قطاوى) طويلا ، ثم أخذ ينظر إلى مؤخرة (كراكيبو) فتحسس هذا مؤخرته وسأله : -
- علام تنظر ؟
- أرى هل طلع لك ذيل أم لا .
- لا أخذ منك سوى السخرية بى .
مد يده وجذبه من عنقه قائلا : - المحلج بمثابة الدجاجة التى تبيض لنا ذهبا يا حمار , لابد أن نحافظ عليه .
- أنت الآن ليس معك الدجاجة ولا حتى بيضها .

وقف (قطاوى) وسار بضع خطوات نحو الترعة والتقط حجرا وألقاه فى الماء وقال وكأنه يحدث نفسه : - لا أظن أن ما بينى وبين (إسماعيل) ينتهى عند ذلك .

- وماذا ستفعل الآن ؟
- سأنتظر ماذا سيفعل هو .

********** ********** **********

قادته قدماه بعد أن سار طويلا إلى منزل الشيخة (ملك) , وهى امرأة طوفت بين القاهرة والأسكندرية مغنية ، فقد كانت تتميز بصوت حلو , اشتهرت بغناء التواشيح والأناشيد الصوفية فى الموالد التى كانت تقام فى الأقاليم والقرى وانتهى بها المطاف فى (دمنهور) وكونت فرقة لإحياء حفلات الزواج وخلاقه .... وضمت إليها بعض المغنين والمغنيات والراقصات ، وأصبح بيتها مقصدا فى بعض الليالى للراغبين للاستماع والأدوار المشهورة .

كانت الشيخة (ملك) تتميز بقوة شخصية وحكم صادق فى الناس ، لذلك كان الجميع يهابونها ويحترمونها ، البيت الذى كانت تقيم فيه مكون من ثلاث طوابق ، تشغل الطابق الأول أما الطابق الثانى فكان يشغله بعض المقربين لها ومن يقوم على خدمتها , والدور الأول تجرى فيه البروفات ومكان للاستماع .

دخل (قطاوى) وكان هناك شاب يغنى دورا لعبده الحامولى ، وأمامه راقصة تتمايل على الأنغام ، والشيخة (ملك) تتصدر المكان وهى فى كامل زينتها .... ولم يخف الترهل الذى علا ملامح وجهها وجسدها ما كانت تتمتع به من ملاحة فى سنى شبابها .

بعد أن جلس (قطاوى) وأدار نظره فى الجالسن , فإذا به يرى (إسماعيل) فأراد الرجوع من حيث أتى و ولكن رجلا من الجالسين أمسك به قائلا : - إلى أين السهرة لم تبدأ بعد .

- اتركنى يجب أن أنصرف .
- الجلسة لا تكتمل إلا بك و(إسماعيل) يجلس بجوار الشيخة ... ألم تره ؟

فخلص يده من يد الرجل يريد الانصراف إلا أن هذا قال له : - إنه يشير إليك .

وكان (إسماعيل) قد رأى (قطاوى) يحاول الانصراف ، فأشار إليه فلم يصدق ، فتقدم وجلس بالقرب من الشيخة ، ولاحظت ما بين الرجلين من جفوة ، وسألت (إسماعيل) :

- ماذا حدث منه تلك المرة ، المتنيل على عينه وعين أهله ؟

فقال وهو يشعل سيجارة وينفث دخانها فى الهواء : - نسى نفسه ... يريد أن ينفرد برأيه ويخالف أوامرى .

- أنت علمته الكثير فلا تتركه .
- فى حاجة إلى من يعيد إليه عقله .
- لا يستطيع أحد فعل ذلك إلا أنت .

ونهضت فتوقف المغنى وتوقفت الراقصة والموسيقى وأشارت إلى (قطاوى) فنهض وتقدم بدون أن ينظر إلى (إسماعيل) ... قالت له : - سوف يسامحك من أجل خاطرى ... بشرط ألا يتكرر منك ما حدث .

فقال وهو منكس الرأس : - لن يتكرر ما حدث .

- إذن قبل رأسه واجلس بجواره .

ثم قالت لإسماعيل قبل أن تنصرف يصحبها صوت الأساور التى تثقل معصميها :

- سوف يذهب إليك عدد من الرجال غدا ... شغلهم فى المحلج ، وأوصيك بهم .

- كل ما تطلبه الشيخة أوامر لابد أن تنفذ .

وتركت الجميع ، وصعدت إلى مقرها ، واستأنفت الموسيقى والمغنى والراقصة عملهم ... سأله (إسماعيل) وهو يضع قدما فوق الخرى : - أين كنت ؟

فقال وهو يوجه له نظرات لوم وعتاب :

- منذ أن خرجت من المحلج لا أجد مكانا أذهب إليه , وقد ضاقت الدنيا كلها فى وجهى .

فقال (إسماعيل) ساخرا : - كل هذا لأنى طردتك من المحلج .

- لا... ولكن لأنى شعرت أنك غاضب على ... أنت لا تتصور ماذا تمثل لى ... أنت أهم وأعز شخص لدى فى الدنيا كلها .

فابتسم (إسماعيل) وقال وقد عادت إلى صوته نبرة الود : - ومن أجل هذا فعلت ما فعلته .

- أنا حمار ... واستحق الضرب ... أنت أستاذى .. علمنى ..

- دماغك صلبة ... والعلام لا ينفع معك .... لا تريد أن تنسى أنك ...

فقاطعه معاتبا وهو يتلفت حوله : - هل ستظل تذكرنى بأصلى كلما أخطأت ؟

- يا (قطاوى) أريد أن أجعل منك شخصا آخر ، ولكنك مصر على أن تظل (قطاوى) حرامى الغسيل والفراخ والطشوت ... والباقى أنت عارفه .

يحاول (قطاوى) أن يمسك لسان (إسماعيل) ويسد فمه خوفا من أن يسمع أحد الجالسين شيئا مما يقول ، فلا أحد يعلم حقيقته غير (إسماعيل) وكان يطيب له أن يذكره بذلك كلما لمح تمردا أو عصيانا منه , وكان هذا على استعداد أن يفعل أى شئ ليرضيه حفاظا على هذا السر ، فما وصل إليه من مكانة وما توافر لديه من مال جعله يريد أن يتبرأ من ماضيه ، ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن ينتزع جذوره من الوحل ، فما تزال علاقاته بأصدقائه القدامى من لصوص وفتوات وقتلة قوية ، ويدفعه طبعه أحيانا أن يتصرف برعونة وتهور ، كما كان يفعل من قبل ، قال (قطاوى) مستعطفا : - أتريد أن أقبل قدميك كى لا تكرر ما تقول ؟

ضحك (إسماعيل) طويلا وهو يتابع حركات الراقصة ، ثم قال :

- انهض واسأل عن (إنشراح) .. لماذا لم تظهر حتى الآن ؟

ابتسم (قطاوى) ونهض وهو يفرك يديه قائلا :

- الآن عرفت أنك قد رضيت عنى وأنه ستكون ليلة أنس ، وأن مزاجك على صنجة عشرة .

وغاب قليلا ثم عاد قائلا : - لم تحضر الليلة .

فنهض قائلا : - إذن سنذهب نحن إليها .

********** ********** **********

وضع (قطاوى) ما كان يحمله على المنضدة , وأخرج تفاحة وأخذ يقضمها ، قالت (إنشراح) وهى تلملم اطراف قميصها الشفاف والذى يكشف أكثر مما يستر عن مفاتن جسدها البيض الغض ، وقد وضعت قدما فوق الأخرى ، فانسدل طرف القميص عن ساقين مرمرتين تذيب العيون الناظرة إليها : - تسلم لى يا (إسماعيل) وتسلم لى مجايبك .

فقال (قطاوى) : - وفمه ملآن بقطعة التفاح : - وأنا ليس لى سلام .

فقالت بصوتها الممطوط الذى تشوبه بحة : - أسكت يا ولد يا (أطو) ليس لك فيه .

قال (إسماعيل) وهو يشعل سيجارة : - ما الأمر ...؟! نذهب إلى الشيخة فلا نجدك هناك .

فتغيرت ملامحها وعاد إلى صوتها نبرة الأصل القروى :
- لم يعد يصلح لى العمل تحت إمرة الشيخة وتحكماتها .
فتعجب (قطاوى) قائلا : - وهل ستعودين إلى قريتك وترقصين نظير بيض وأرز ؟!!
فالتفتت إليه ووضعت سبابتها فوق حاجبها الأيمن راسمة قوسا :
- بيض وارز إيه يا روح أمك ... سوف أرقص فى الأسكندرية .
فضرب (قطاوى) على رأسه الضخم قائلا : - الأسكندرية مرة واحدة .
فضحكت وتقصعت قائلة : - لا مرة ونص يا روح خالتك .
فضحك (قطاوى) وأخذ يتمايل يمينا ويسارا قائلا : - قصدك واحدة ونص .
فنظرت (إنشراح) إلى (إسماعيل) قائلة له :
- أنا لا أدرى سببا لاصطحابك هذا القطاوى العرة معك !!
فقال (قطاوى) مازحا : - كأنى لو طلبت منك الزواج سترفضين ؟
فشهقت شهقة حادة ، وضربت على صدرها النافر فأحدثت الأساور فى يدها صوتا ، وقالت وهى تنظر من طرف عينيها مشيرة له بسبابتها : - أنت ...!! (إنشراح) تتزوج الــ.....
فقال (إسماعيل) : - أنا عارف أن أصله زفت ، وأنت أصلك نيلة ، ولكن ليس معنى ذلك أن السهرة تضيع بينكما .... كفا عن هذا المزاح .....انهض يا (قطاوى) مع البنت (رومية) لتعدا لنا شيئا نأكله .
فنهض (قطاوى) وهو يتمايل مرددا أغنية مشهورة :

غرامك علمنى الــنوح   يا حبيب القلــب شوف
مع طيفك أرسلت الروح   أترجاك تعمل معروف

سألها (إسماعيل) : - ما حكاية الأسكندرية تلك ؟
فقالت وهى تعبث بخصلات شعرها الأسود : - صاحب ملهى فى الأسكندرية ... شاهدنى أرقص ذات مرة فى كفر الدوار ، أعجب بى ، وطلبنى للعمل عنده فى الأسكندرية .
فقال وقد تكدرت ملامحه : - لماذا لم تخبرينى من قبل ؟
- لم أرك منذ مدة .... وحينما رأيتك أخبرتك .
صمت (إسماعيل) ... فاقتربت منه قائلة : - أأنت غاضب على ؟
لم يحر جوابا , فأمسكت يده قائلة : - دمنهور بلد صغيرة لا ترضى طموحى .
فقال بأسف : - معك حق دمنهور لم تعد تناسبك .
- أنا لا أقصد .... والأسكندرية ليست بعيدة ، ولن أنسى ما فعلته من أجلى ، فأنت الوحيد الذى وقفت بجانبى ووفرت لى الحماية والرعاية .
وقف (إسماعيل) مبتعدا عنها وقال ساخرا : - وها أنا آخذ مكافأتى عن كل ما قدمته .... أنت الوحيد ... وأنت ... وأنت .... وأرى وجهك بخير ومع السلامة ، والأسكندرية ليست بعيدة ، والأفضل أن تخفف من الزيارات ، وأين ستذهب يا (إسماعيل) فى الأسكندرية ؟
انكمشت (إنشراح) فى مكانها كالقطة وأخذت تبكى فى صمت وقالت من خلال دموعها :
- إن كان ذهابى سيغضبك ، فلن أذهب وسأبقى هنا .
وسادت فترة صمت ... أدرك (إسماعيل) ما تفكر فيه (إنشراح) , فإن هى تنازلت عن الذهاب إلى الأسكندرية وتلك تضحية منها ربما تطلب المقابل ، ألا وهو الزواج منه ، وقد بدأت تلمح إليه مؤخرا ، وهذا الذى كان يعكر الصفو بينهما أحيانا .... على هذا فيجب ألا يمانع فى ذهابها إلى الأسكندرية ، ثم ما يدريه فربما لا تصادف نجاحا هناك , فالراقصات فى الأسكندرية من كل أجناس العالم وعلى درجة كبيرة من الرشاقة والجمال ... ربما (

إنشراح) مميزة هنا لأن البلد صغيرة ومستوى الراقصات فى فرقة الشيخة متدنى ، و (إنشراح) لم تزد عن كونها قروية ساعدها جسدها المغرى وجرأتها وسلاطة لسانها أن تصل إلى ما وصلت إليه ، وما وفره لها من الرعاية والحماية ..... إذن ليوافق على ذهابها بل ويشجعها على ذلك .
اقترب منها ، ورفع وجهها إليه ، وتأمل تلك الشفتين الشهوانيتين المنفرجتين والعينين الواسعتين التى تدرك رغبته المتأججة بها دائما ، وبياض وجهها المشرب بحمرة الأنوثة المترعة ، ومشارف صدرها المكتنز على أسرار المتعة والإثارة ... قال متكلفا الأسى :
- وأنا لا يرضينى أن أقف فى طريقك .. وعلى رأيك الأسكندرية ليست بعيدة .
فوقفت (إنشراح) وتعلقت بعنقه ، والتصق جسدها الساخن بجسده المشتعل .

(7)
- رطل لحم -

من المناسبات السعيدة تلك التى يأتون فيها برطل لحم ليتناولوه على العشاء بعد يوم مضنى ... (وابور الغاز) مضى عليه أكثر من ساعة لا يتوقف أزيزه ، وفوقه (الحلة) وبها اللحم لم ينضج بعد ، ولا أحد من الجالسين يعلم متى سيقدر له أن ينضج ، وبين الحين والآخر يكشف (هريدى) الغطاء ويمد أصابعه ليجس اللحم ، والأعين كلها معلقة على أصابعه وعلى شفتيه ، ولكنه يومئ إليهم بالأنتظار ، يضئ الحجرة مصباح الكيروسين المعلق على الحائط الذى تتضاءل ذبالته لأقل نسمة هواء تدلف من الباب المفتوح أو النافذة ... انهمك كل فى عمله إلى أن تحين ساعة الأكل .

(نور) أخذ يرقع جلبابا , ولم ينجح فى أن يتجنب وخز الأبرة لأصبعه فيصرخ فجأة ماصا إصبعه .. لم يتعد العشرين أسمر البشرة , طويل , نحيف , دقيق الملامح ابتسامته المشرقة تظهر أسنانه البيضاء المنتظمة , من (المنيا) فقد والديه وكانا قد نزحا من السودان , عمل خادما فى بيت ثرى من أثرياء المدينة ، ثم رحل مع مجموعة من أصدقائه إلى القاهرة ، وهناك تعرف على (محمد الزواوى) , أعجب بأخلاقه وتدينه , فقرر أن يصحبه أينما ذهب وكان (محمد) يحرص على حضور موالد الأولياء ، فرحل إلى (طنطا) ومنها إلى (دسوق) ومنها إلى (دمنهور) و واستقر ليعمل فى المحلج وانخرط فى الطرق الصوفية التى أخذت فى الانتشار على نطاق واسع فى تلك الأيام .
أما (حسنين) فكان يجلس بجوار المصباح وفى يديه إبرتان يغزل بهما طاقية ليبيعها لمن يدفع أكثر , فتلك كانت هوايته الوحيدة فى أوقات فراغه , لتدر عليه قرشا أو قرشين ، يدخرهما فهو حريص على جمع المال حرصه على روحه نحيف قصير فى غاية المكر والذكاء يحب السفر والتنقل وله خبره فى توثيق صلاته بين الناس ، تلك الصلات التى تعود عليه بالنفع ، خدوم صبور مجامل ولكن المجاملة التى لا تكلفه مالا , وكان يجلس بجواره (شافعى) يضع بين ركبتيه مرآة وفى يده ملقاط يشذب شاربه , متأنق فى ملبسه واثقا من نفسه ومن تأثيره فيمن حوله , لا سيما النساء اللائى يعشقهن ولا يكاد حديثه يخلو منهن ليل نهار , وكان قد ذاع صيته بالأقصر وتلقى تهديدات بالقتل من جراء علاقاته المشبوهة , نصحه أهله بعد يأسهم من اصلاحه أن يترك بلدته ويرحل لعل الغربة تقوم من

أخلاقه ، توثقت العلاقة بينه وببين (هريدى) لأنهما يلتقيان فى الميول والطباع إلا أن (هريدى) يزيد عنه فى غرامه بأنواع الخمور الرديئة وتعاطيه بكميات صغيرة للحشيش والأفيون وتردده على أوكار الدعارة كلما تجمع فى يده مبلغ يسمح له بذلك ، هارب من ثأر عليه لذلك ترك الوجه القبلى وعمل فى أكثر من مكان وكوابيس القتل تلاحقه فى لياليه ويشعر أن عمره قصير لذا فالشعور باليأس والاحباط يلازمه على الدوام .
وبجوار الباب الخشبى كان يجلس (مخيمر) أمام الطشت يغسل جلبابه وغطاء رأسه , ضخم عريض كأنه أحد المحاربين القدامى ، مندفع متهور سريع الغضب معتز بنفسه ، حصل على الإبتدائية وكان أبوه ميسور الحال ، وقد انفق على ابنه بسخاء آملا أن يكمل تعليمه ولكن المنية عاجلته ، استولى الأعمام على ثروة الابن وقام أحد أعمامه بالتزوج من أمه , وكفله جده لأمه الذى كان يعارض تلك الزيجة , عاش (مخيمر) عيشة مرفهة مدللة ، وكانت أمه بارعة الجمال ، وزوجها الجديد شديد الغيرة عليها ، والذى زاد من غيرته تبسطها الشديد مع من حولها مما دفعه إلى أن يسئ معاملتها ويضربها كل حين وحينما كانت تلجأ إلى أبيها شاكية باكية كان يردها إلى زوجها الذى لم يقلع عن معاملتها السيئة ، وتكرر هذا الأمر أكثر من مرة ، وفى يوم اكتشفوا اختفاءها من البلدة ، ولم يعرف أحد أين ذهبت ، وكثرت الأقاويل ، ومنها أنها هربت مع عشيقها ، مات الأب حزنا على ما لحق بسمعة ابنته ، وشعر (مخيمر) الذى لم يكن تجاوز الثانية عشرة أنه منبوذ من الجميع ، وكان رفاقه يعيرونه بأمه ، فكان يبطش بهم لذلك تجنبه حتى الرفاق , وحينما بلغ العشرين طالب أعمامه بميراثه ، لكنهم رفضوا . والذى زاد من حقده على من حوله أنه تقدم لخطبة الفتاة التى هواها قلبه ، رفضه أبوها لسمعته التى ساءت , بسبب أمه من ناحية وبسبب أخلاقه, فضاقت به (أسوان) وضاق بها فحمل عصاه وتقاذفته البلاد واستقر فى (دمنهور) معتمدا على زراعه فى أكل عيشه ، وإن كان هناك حنين يدفعه للعودة إلى بلدته ، ولكنه كان يتساءل فى أسف وحسرة إلى من يعود ؟

الصمت يسيطر على الجميع , ولا يسمع غير أزيز (الوابور) , أشار (هريدى) إلى (نور) فنهض هذا على الفور إلى كومة من الخبز , وأخذ يقطع قطعا صغيرة ليصنع (الفتة) وملأ القصعة ووضعها بجوار (حلة) ضخمة ملآنة بالأرز ، وكان الجميع يراقبه فى حرص واهتمام , وكأنه يؤدى طقس من الطقوس المقدسة ، واتجهت العين إلى (هريدى) حين امتدت يده لترفع الغطاء عن اللحم , وكان صبر المنتظرين قد نفد , فتحلقوا حوله , ولولا أن بادرهم معلنا نبأ نضج اللحم لانفجروا فيه , فقد خدعه الجزار وأعطاه لحما من ذبيحة عجوز من العسير نضجها , وقد تحمل على مضض تعليقاتهم وانتقاداتهم له , وبسرعة حمل (الحلة) وسكب منها المرق على (الفتة) ومكث قليلا حتى يتشرب الخبز المرق , ثم أخذ كميات من الأرز وغطى به الفتة ... ترك كل فرد ما بيده وتحلقوا حول القصعة وبدأ (هريدى) فى اخراج قطع اللحم ووزعها عليهم , ثم سكب بقية المرق فى أوان صغيرة , وامتدت الأيدى وبدأوا فى تجرع المرق الساخن غير مبالين بحرارته , وبدأت الملاعق تصطدم بالقصعة أو تصطدم بعضها ببعض وهى قاصدة الأفواه المفتوحة ملآنة أو راجعة إلى القصعة فارغة بعد أن أفرغت حمولتها فى الأفواه , وقد تساقطت قطع من الخبز والأرز على الصدور وعلى الأرض حول القصعة , وكانوا يأكلون بتلذذ لذلك لم يتحدثوا خوفا من أن يبدد الحديث شيئا من استمتاعهم بالطعام , وبعد أن أتوا على ما بأيديهم من لحم أخذ كل منهم يقلب ما بيده من عظم يبحث فى حناياه عن مزقة لحم ، وحينما لم يجد أخذ فى مص العظم مصا ، وإن كانت أسنانه قوية لطحن العظم طحنا .

أتوا على ما فى القصعة , وشربوا ما فى الأوانى من مرق , حينئذ مسح كل منهم فمه بيده واستندوا إلى جدران الحجرة , وقد تفصدت الأجساد عرقا .
قال (شافعى) وقد التقط عودا من الحصير البالى ليسلك به أسنانه المتآكلة :
- اللحمة بتعمر النافوخ بحق , ياسلام لو تأكلنا يا (هريدى) كل يوم لحمة .
فضحك (هريدى) قائلا : - اللحمة لحست مخك ... تأكل كل يوم لحمة ... والفول والبصل من يأكله ؟
فقال (حسنين) : - ألم يكن من الأفضل أن نأكل عدسا أو بصارة ونوفر ثمن اللحم ؟
فقال (هريدى) منفعلا : -
حتى ونحن نأكل لحما لابد أن تعكر الليلة بذكر العدس والبصارة .... يا أخى منك لله .
فضحك (مخيمر) قائلا : - نحن لا ناتى باللحم فقط , وإنما نأتى به كى نظل على ذكراه ولا ننساه
فقال (محمد) الذى كان طوال الوقت صامتا : - أتركونا من اللحمة والبصارة ولنفكر فى حالنا , ما رأيكم فى كلام (إسكندر) ؟
قال (شافعى) : - نذهب إلى الأسكندرية ... ربما يوسع الله فى رزقنا ... ويقولون بنات الأسكندرية أجمل من بنات دمنهور .
فتهلل (هريدى) ضاحكا : - أنا موافق .. وعلى رأيك بنات الأسكندرية مثل القشدة .
فقال (حسنين) : - إن كان الأجر الذى سنأخذه أكثر من هنا لنسافر على بركة الله .
فقال (مخيمر) : - طبعا أهم شئ عند القروش يا حسنين .
- أمرك غريب .. أهم حاجة فى الدنيا القروش ... فلم تركنا بلدنا وأهلنا ، وجعلنا نتحمل رزالة الناس ؟ !
وقال (هريدى) وهو يتحسس ذراعة التى ضرب عليها فى المحلج صباح اليوم متذكرا ما حدث : - لقد ضربناهم ضربا شديدا اليوم .
فقال (شافعى) : - ما حدث اليوم لن يجعلهم يفكرون فى التعرض لنا .
فقال (مخيمر) : - لا أظن .... بل سيتعرضون لنا مرة ثانية وثالثة .
وعقب (محمد) : - لولا الرجل الطيب لطردنا (إسماعيل) .
فسأل (نور) : - ما اسم الرجل الذى كان يرندى طربوشا ؟
- محمود البستاوى ... يقال أنه كان تاجر قطن مشهور , ولكنه أفلس , فجاء للعمل مكان قطاوى الرزل .
فقال (شافعى) : - لن يبقى طويلا فى المحلج .
- نعم فهو رجل طيب ، ولا يصلح مع قطاوى وأذنابه .
فقال (شافعى) وهو يعبث فى شعره : - لم لا نذهب إلى الأسكندرية كى نتخلص من المحلج وقرفه ؟
فقال (نور) : - أنت تريد الذهاب إلى الأسكندرية من أجل البنات والنسوان ... يا أخى اذهب وتزوج وأرحنا وأرح نفسك .
- لو كان معى مال لتزوجت اليوم قبل الغد .
فقال (محمد) وهو يعبث فى حبات المسبحة بين أصابعه : - إذن عليك بالصيام .
فقال (مخيمر) ضاحكا : - يصوم ويفطر على بصلة .
- الصيام يهده بدلا ما هو كالثور الهائج .
فعلق (نور) : - لا تمر أمامه امرأة إلا وينقلب حاله .

فرد عليه (شافعى) : - أفضل من أن أجلس ساعات أمام (نوال) بائعة الخضار انتظر منها كلمة أو كلمتين أو حتى نظرة .
فاندفع الدم فى نافوخ (نور) ونهض واقفا باسطا ذراعيه وقال :
- لا شأن لك بى , أنا حر , ثم لا تذكر اسم (نوال) .
فوقف (شافعى) واقترب منه وأمسك بتلابيبه : - وأنت ايضا لا شأن لك بى , أنت لست وصيا على .
فوقف بينما (محمد) قائلا : - صلوا على النبى .... وحدوا الله .
فقال (حسنين) الذى كان مستغرقا فى التفكير : - أتركونا من كلامكم الماسخ ... ولنتحدث فى الصالح ... أنتم موافقون أننا نسافر إلى الأسكندرية ؟
فقال (هريدى) : - ولم لا نسافر .... يا جماعة القروش التى نأخذها هنا لا يتبقى منها شئ .
فقال (نور) : - لأنك تضيع كل مليم على المخدرات .
فنظر (هريدى) إلى (نور) مستكبرا أن يوجه إليه نقدا من هذا الشاب الصغير , وشمخ بأنفه قائلا : - لم يعد إلا مثلك يوجه إلى كلاما , ثم أنت لا تخسر لى مليما .
شعر (نور) بالحرج فقال : - انا هدفى مصلحتك .
- كل فرد هنا يهتم بمصلحته ولا شأن له بالآخرين ,
فقال (محمد) : محاولا أن يهدى الجميع : - ماذا حدث ... أول مرة نتشاجر , وبصراحة (نور) معه حق , فلابد كل واحد فينا يهتم بمصلحة الآخرين , نحن فى غربة , وإن لم نكن يدا واحدة ستأكلنا الديابة ... نحن فى غابة .
فقال (هريدى) ضاحكا : - أتعرفون سبب ماحدث بيننا الآن ؟
فسأله (محمد) : - ما السبب يا (هريدى) ؟
- أننا أكلنا لحمة ... أتذكر أن الشهر الماضى حينما أكلنا لحمة تشاجرنا أيضا .
فقال (حسنين) وكان يحصى عدد القروش ويضعها فى كيس من القماش مربوط بحبل حول عنقه : - لقد اخبرتكم أن لا ضرورة للحمة , خيول المحلج لا تاكل لحما ومع ذلك تعيش بصحة جيدة .
فقال (شافعى) مادا يده محاولا أن يختطف الكيس من يد (حسنين) إلا أن هذا أسرع بطية ووضعه فى جيبه : - أريد أن أعرف عدد القروش التى معك .
فقال (هريدى) مازحا : - أنت تأخذ روحه ولا تأخذ قروشه .
فقال (حسنين) بعد أن اطمأن على الكيس فى جيبه : - أنا لست مثلكم أبدد القروش على الطعام أو المخدرات أو النسوان , أنا تركت بلدى كى أجمع مالا وأعود إلى بلدى مرفوع الرأس .
فقال (شافعى) : - وجع فى رأسك التى تريد رفعها .
فقال (محمد) نافد الصبر : - سوف ينتهى الليل , ولم نتفق على رأى .
فقال (مخيمر) : - الذى يريد أن يسافر يسافر , ومن لا يريد فليبق هنا .
رفع (محمد) سبحته إلى أعلى وقال : - ولم لا يكون رأينا واحدا ؟
قال (نور) : - أنا سأبقى هنا .
وقال (هريدى) : - وأنا سأبقى .
وعقب (محمد) : - وأنا لا أستطيع أن أفارق سيدى (عطية أبى الريش) .
وقال (مخيمر) : - إذن سنذهب أنا وشافعى وحسنين ومن يريد الذهاب فليأت .

فقال (محمد) وهو يبسط أجولة القطن لينام : - والله يعز علينا أن نفترق بعدما عشنا مع بعض المدة الطويلة تلك .
قال (شافعى) وهو ينهض متجها نحو الباب : - سأذهب إلى (أسكندر) على المقهى وأخبره بما اتفقنا عليه .

(8)
- الهروب -

كيف استطاعت وهى الكائن الضعيف الهش أن تتحمل كل هذا العذاب .... كانوا يوقظونها مع الفجر كى تحلب ، وبعد ذلك يشعلن الفرن ويمتلأ البيت بالدخان ، ويأتين بمسحوق الحلبة والبامية والأذرة والقمح كى تقوم بعجنه , كانت تعانى الأمرين فى عجن تلك الأشياء الغريبة والعجيبة ، والأعجب من عجن هذا الخليط هو كيفية ازدراده بعد أن يتم خبزه ، فهى لا تستطيع مضغه ، وإن مضغته لا تستطيع بلعه ، وإن بلعته لا تستطيع معدتها هضمه إلا بعسر ، ولكنهم كانوا يأكلونه بشراهة ونهم .
كانت تشعر بالتعب والارهاق يحاصر كل مفصل من مفاصلها ، ولولا تماسكها لأغشى عليها ، كانت تقطع العجين وتفرده وتقوم بخبزه أمام الفرن الذى تلهب نار جلد وجهها الأبيض الرقيق ، ومع أن هذا العمل اليومى كل صباح كان يستنفد كل طاقاتها ، إلا أنها كانت تفضله على بقية الأعمال الأخرى مثل جمع الروث من الزريبة فى أوان فخارية والصعود به إلى السطح وخلطه بالقش والتبن ، وصنع أقراص (الجلة) ولصقها على أرضية السطح أو الجدران لتجف ... وما يتساقط من الروث أثناء حمله على الرأس ، وما ينبعث من رائحة تجعلها على وشك أن تمج ما فى جوفها ...وأخوات (حجازى) وأمه كن يعرفن مقدار تأففها من هذا العمل لذلك كن يكلفنها فوق طاقاتها فلا يمكنها الرفض ، لأن الرفض معناه أن تؤدى الذى تنفر منه ، وكن يسخرن من رفضها وتأففها وقرفها ، وكان هذا يسبب لها ألما فوق ألم .
وإذا كان النهار ينتهى وتنتهى معه ألوان وأنواع من العذاب والمعاناة ، فإن الليل يأتى ومعه أنواع أخرى من المعاناة أشد ، يغلق عليها باب الحجرة وهو معها ، بوجهه المكفهر العابس دوما وطريقته البدائية والهمجية فى معاملتها التى تقترب من التوحش ورائحته .... رائحة الطين والتراب المختلطة بعرقه حينما يقترب منها ليخترقها ويعتصر جسدها ، وهو يلث ويخور كالثور ، وهى لا تطيق لمسات يده الخشنة المتشققة , ولا جسده الأسمر الذى حرقته الشمس ، ولا أنفاسه الكريهة بسبب الزفت الذى يدخنه هو وضيوفه لساعات بعد العشاء , وكثيرا ما حاولت أن تجعل منه مخلوقا محتملا ، فطلبت منه أن يستحم قبل أن يأوى إلى فراشه وأن يغير ملابسه المشبعة بالعرق والتراب ، وأن يجلس معها يتحدث وأن يبتسم .... ولكن ذهبت محاولتها كلها سدى ، كان يسمعها وينظر إليها وكأنه ينظر إلى مخلوق غريب من عالم آخر , ويطيل النظر إليها فاغرا فاه كالأبله ، ثم يضجع ويسحب الغطاء على جسده ويظل غارقا فى النوم بلا حراك حتى الفجر .
كانت تحاول أن ترهق نفسها فى العمل طوال النهار كى لا تقضى ساعات الليل الطويلة تبكى فى صمت وتنعى حظها ، وفكرت أكثر من مرة فى الهروب ولكنها كانت على يقين أنها ستعود مرة أخرى , فقد حكم عليها حكما لا رجعة فبه ... أن تعيش فى هذا العالم الذى حاولت أن تتعايش معه ولكنها فشلت .

ويزداد ارتباطها والتصاقها بهذا العالم رغما عنها حينما التصق بها هذا الجنين الذى بدأ ينمو داخلها ، فقد حملت ، وهذا الخبر قوبل من الجميع بدون أدنى إكتراث ، فالحيوانات التى تعيش معهم تحمل وتلد بصفة مستمرة ، ولا يوجد خط فاصل بين الحيوان والإنسان هنا ، ظنت أن هذا الحدث قد يغير من وتيرة حياتها اليومية ، ولكن لم يتغير شئ فى حياتها , حتى (حجازى) لم تتغير معاملته لها ، بل زاد تجهمه وتجاهله ، إلا أنها اكتشفت جانبا كان خافيا فى شخصيته ،فقد نهضت ذات صباح فى الأيام الأولى من الحمل , وكانت تمج ما فى جوفها , اشتاقت إلى رؤية الزهور وأن تشم رائحتها , وأخبرته ولم يعلق على طلبها هذا كأى شئ تطلبه , ولكن مع الظهر عاد ومعه مجموعة جميلة من الزهور منسقة بطريقة بديعة , وسألته من أين حصل عليها , فأخبرها أنه يزرعها فى أرضه وهو من قام بتنسيقها , وعرفت بعد ذلك أنه اقتطع جزءا من الأرض لزراعة أنواع من الزهور ونباتات الزينة , وأنه منذ صغره وهو يهوى تلك الهواية حتى مهر فيها وأصبح مشهورا فى القرية وما حولها , واصبحت تدر عليه مبلغا لا بأس به , وأعطته فرصة ليتصل بمستويات عليا من الناس , يرسل إليهم بين الحين والحين الزهور والنباتات ، إلا أن تلك الهواية الجميلة لم تغير من طبعه , فقد كان يتعامل مع الزهور كما كان يتعامل معها بكل جفوة وغلظة .

اقترب موعد ولادتها , وتمنت أن تضع مولودها فى بيت أبيها , ولكن تقاليد هؤلاء القوم تقتضى أن تلد فى بيت زوجها , واشتاقت إلى رؤية أمها وظلت تتوسل وتتضرع حتى رضى (حجازى) تحت الحاح أمه وأبيه ... وبمجرد أن ركبت السيارة شعرت بأنها خرجت من هذا العالم الأسطورى , تضع يدها على بطنها المنتفخة وتتمنى أن يأتيها المخاض فى بيت أبيها . ولا تعود إلى بيت زوجها مرة أخرى .

حينما رأت أمها ارتمت فى أحضانها وظلت تبكى وحاولت الأم أن تخفف مما تعانيه ابنتها ما وسعها ذلك .

وعاشت أياما طيبة حينما رجعت إلى عالمها وذكرياتها ونعمت بحنان أبيها وأمها , ولكن السعادة أوقاتها قصيرة , فحالما جاء (عبد العاطى) وأخذها لتعود إلى قدرها ومصيرها ... وبعد أيام ولدت ذكرا ... تغير العالم حولها بعض الوقت , ثم عاد إلى سيرته الأولى , إلا أنها شعرت أن لحياتها هدفا ومعنى استمدته من هذا الكائن الصغير الضعيف , مجرد بكائه لكى تحمله , وتضع فى فمه المفتوح حلمة ثديها وتحتضنه وتذوب فيه . جعل للحياة معنى آخر , الشئ الوحيد الذى لم تستطع أن تتقبله أن المولود يشبه (حجازى) شبها كبيرا , وكأن القدر يحاربها , فإذا كانت لا تستطيع أن تتعايش مع (حجازى) , فهاهو (حجازى) آخر .

كانت تظن فى البداية أن مجئ طفلها سيزيد ارتباطها بهذا العالم أو أنه سيقضى على ما تشعر به من نفور ورفض داخلى , إلا أنه باعد أكثر بينها وبين هذا العالم الكئيب , وقوى إحساسها بالرفض والتمرد , لأنها لا تتخيل أن جزءا منها سيعيش هنا ويقضى عمره هنا , ويصبح فردا من مكونات هذا العالم . لقد كان قدرها أن تعيش هنا . ولكن ما ذنب هذا الكائن أن تحكم عليه هذا الحكم القاسى , وقررت فيما يشبه التصميم أن تهرب وألا تعود , هذا التصميم أعطاها القوة أن تتمرد على نظام حياتها اليومى وتعترض على الأوامر الصادرة من أم حجازى وبناتها , فهى لم تأت إلى هنا لتعمل منذ الفجر إلى غروب الشمس , هن يعملن لأنهن من هذا العالم , وليس معنى أن قدرها رمى بها لتتزوج واحدا منهم أن تسخر هذا التسخير المذل .

كانت بمثابة نبرة غريبة تتردد فى جو الدار , لم يألف أصحابه هذا , بدأ الشجار ينشأ بينها وبين حماتها هينا , ثم بدأ يشتد ويزداد على مر الأيام , حتى أصبح من العادات اليومية ,

ووصل خبر هذا إلى (جازى) لم يكترث فى البداية , ولكن حينما حرضته أمه أمر زوجته أن تنصاع لأوامرها , فالمرأة هنا ليس لها إلا أن تطيع , كانت تستمع إليه بدون اعتراض وإنما تكتفى بالبكاء وهى تحتضن ابنها , وفى مرة اعترضت على كلامه ورفعت صوتها وطالبت بما تراه حقا لها , فما كان منه إلا أن صفعها صفعة ألقتها أرضا وقد سالت الدماء من فيها , تلك أول مرة تتحدث بحرية , وأول مرة تضرب فى حياتها , الصفعة فجرت كل ما فى نفسها من الغضب والكراهية لكل ما حولها , وعزمت على الهرب , وقررت أن تنفذ هذا فى أقرب وقت .

انتظرت حتى خلت الدار فى يوم من أهلها , فى ظهر أحد الأيام , واحتضنت رضيعها وربطته إلى بطنها وأسدلت عليه طرحه سوداء , وأخفت وجهها ... فى تلك اللحظة والطفل مشدود إلى بطنها شعرت بقوة واصرار وتصميم لم تشعر به من قبل , ومشيت فى طرق القرية الضيقة المتعرجة بثبات غير عابئة بتلك العيون المتطفلة المسنفسرة من النساء والرجال , أحست أنها تنسلخ من هذا العالم البغيض إلى قلبها , مشاعر متضاربة متزاحمة تدفعها إلى البكاء تارة , وتارة أخرى إلى السخرية من نفسها أن رضيت وخضعت لهذا القدر طوال تلك المدة , الشمس محرقة ورائحة التراب تملأ أنفها , لم تنظر خلفها ولم تفكر لحظة فى ذلك , وصلت إلى المكان , عدد من السيارات المتهالكة , ومجموعة من السائقين يجلسون على دكة خشبية أسفل شجرة بجوار كشك خشبى يشربون الشاى ويدخنون , وصبى يقف بجوار سيارة ينادى بصوت هزيل : دمنهور ... دمنهور . بسرعة وخفة دلفت إلى السيارة , وجلست فى المقعد الخلفى ... بدأ الركاب يتوافدون , ومضى الوقت ثقيلا والحر شديد والجو خانق ... باق مقعدان شاغران وهى تتلفت يمينا ويسارا وتتحسس ابنها الذى بدأ يتحرك مستيقظا , وتناهى إلى سمعها أصوات تألف بعضها تسأل عن امرأة تحمل طفلا .. أخوة حجازى وعدد من أهل البلد يبحثون عنها بعدما اكتشفوا أمر هروبها داروا حول السيارات .... الوصف امرأة تحمل طفلا , وكل من سألوه نفى رؤيتها , وبدأ الطفل يتحرك بعصبية بعدما استيقظ , خشيت أن يرتفع بكاؤه , أخذ قلبها يدق بسرعة , فكرة الرجوع إلى عالمها تملأ قلبها باليأس والحزن .اقترب من السيارة رجل وامرأة وركبا وتحركت السيارة , حمدت الله , انكمشت فى جلستها , واخرجت ثديها من تحت الغطاء والقمته للفم المفتوح والمرأة بجوارها تراقبها فى ذهول , سألتها :- ألست من يبحثون عنها ؟
لم تجبها , وإنما انهمكت فى ارضاع طفلها , اسندت ظهرها إلى ظهر المقعد وشعرت براحة كبرى . وتساءلت .. أيقدر لها أن تعود إلى ذلك العالم مرة أخرى ؟ وهل سيكون حكم القدر غلاب على إرادتها ؟
ستطلب الطلاق ... فلم تعد تحتمل , ولكن قد يكون ثمن الطلاق طفلها ... يأخذونه منها .. كيف ؟ وكل ما فعلته من أجله , هو الذى أمدها بالقوة وهو الذى أنار حياتها المظلمة , وآنس عالمها الموحش .
نظرت خلفها من خلال الزجاج , سحابات كثيفة من الغبار تتصاعد وتتوالى الأشجار على جانبى الطريق وأغصانها الطويلة وكأنها أزرع ممتدة تحاول الامساك بها .

استقبلتها أمها بوجه تملكته الدهشة والذهول , ولم تفلح القبلات التى انهمرت على خد الأم أن تبدد هذا الإحساس , أخذت الطفل وهى تنظر إلى وجهها وسألتها : - هل حضرت بمفردك ؟

وهنا انفجرت (خديجة) فى البكاء وسط محاولات أمها الفاشلة أن تسكتها , وانفجر الطفل هو الآخر فى بكاء متواصل , وكأن هناك حبل سرى بين الاثنين من المشاعر . قالت (خديجة) :

- هاتيه لأرضعه .

فأبعدتها قائلة : - لا ترضعيه وأنت فى تلك الحالة ..انهضى واغسلى وجهك ... سوف انهض لأعد لك شيئا تأكلينه .

- لا أريد أن أكل الآن .

وسادت فترة صمت نجحت الأم خلالها أن تهدئ من روع الطفل , قالت (خديجة) بصوت حاسم : - أنا هربت من (حجازى) .

هزت الأم رأسها , لم يكن خافيا عليها التغيير الذى طرأ على ابنتها , فخلال المدة الوجيزة التى قضتها متزوجة نضبت نضارتها وجفت حيويتها , ووضع الحزن بصمته على ملامحها , كانت تعلم أن تلك الزيجة لن تستمر ... ولا تدرى أتلوم القدر أم تلوم زوجها ... بمفردها تحملت المسكينة وزر ما حدث لهم , ولم تدر الأم إلا ودموعها تنهمر وبدأ جسدها يرتعش , تنبهت (خديجة) إلى أمها وبسرعة وضعت الطفل على مقعد يجوارها وارتفع نشيج الأم , وأخذت الابنة أمها فى أحضانها وطفقت تقبلها وتمسح دموعها وقالت والبكاء يقطع كلماتها :

- كبدى ... كبدى يا بنتى .. ألقيناك فى النار بأيدينا .

فقالت (خديجة) وهى تنظر إلى طفلها وهو يحرك قدميه ويديه فى الهواء :

- وأنا قررت أن أخرج من هذه النار .

وبعد أن تناوبا نوبات البكاء , وحكت (خديجة) كل ما حدث , قالت أمها وإحساسها بالغضب بدأ يخفف من إحساسها بالحزن والأسى :- لننتظر مجئ والدك .

وحينما حضر استمع فى صمت لابنته وتعليقات زوجته , وهو يحمل حفيده , يقبله تارة ويداعبه تارة أخرى , وبعد ذلك سألته : - ماذا ستفعل يا سى (محمود) ؟

فلم يلتفت إليها وقال : - ربنا يعمل ما فيه الخير .

ونهض وأغلق باب حجرته عليه .

********** ********* **********

انتشر خبر هروب (خديجة) فى القرية , وبدأ (حجازى) يسمع تعليقات أهل القرية , وكان فى قمة الغضب , وشعر انه مطعون فى كرامته حتى أنه كاد أن يبطش بأحد أصدقائه حينما سأله بحسن نية عن زوجته . عاد إلى بيته مهموما غاضبا , فوجد والده وأمه وأخوته جالسين وسط الدار تعلوهم الكأبة والحزن , وأبوه جالس فى هدوء وثبات , وحبات السبحة تنحدر حبة إثر حبة من بين أصابع يده المعروقة النحيلة , وهو يتمتم بأدعية ويحوقل ويستغفر .... وقف (حجازى) أمامهم موجها حديثه إلى والده : - أرأيت ماذا فعلت بنت الأصول ؟ لقد جلبت العار علينا , بأى وجه سأقابل الناس , دائما كنت تلومنى , وتطلب منى حسن معاملتها .... أنت سبب كل ما حدث .

تعجب الأب من اللهجة التى يحدثه بها ابنه أمام باقى أسرته , نهض واقترب منه وهو يربت على كتفه : - اهدأ يا بنى .... وحد الله , وصلى على النبى .

فازداد ارتفاع صوت (حجازى) وأبعد يد والده عنه وقال وهو ينتفض من الغضب :

- إنها لا تستحق أن تبقى لحظة واحدة بعد الآن على ذمتى .... إنها طا....

وقبل أن يكمل (حجازى) كلمته لم يشعر إلا ويد والده تهوى بكل قوة على وجهه , بوغت (حجازى) , فأول مرة يضربه , لم يكن يتوقع ذلك , وأبصر والده أمامه كالمارد , وقد

انزلقت العباءة من فوق كتفه وسقطت على الأرض : - لقد نسيت نفسك , ونسيت مع من تتحدث , أصبحت رجلا وتستطيع أن تطلق , ومن قبل تضرب وتهين زوجتك ... أابنة (محمود البستاوى) تضرب وتهان يا كلب يا ابن الكلب ؟! أهذا جزاء أن قبلت أن تتزوجك .... وهكذا ترد جميل الرجل لنا .
والتفت إلى زوجته التى كانت بناتها يحطن بها وقد علا وجوههن الخوف والفزع وأشار إليها :
- أنت السبب ... أخفيت عنى ما كان يحدث .
فقالت وهى تشوح له بيدها : - زوجته ولابد أن يربيها .
فاقترب منها قائلا :- إن لم تكفى عن هذا الكلام لكسرت عظامك وقطعت لسانك الذى ينضح بالسم يا أم العقارب .... من يربى من يا مجنونة ؟! (حجازى) يربى (خديجة) إنها تربيه وتربى أهله .
فغمغمت متجنبة النظر إليه قائلة : - كان زمان .
انحنى والتقط العباءة , واتجه نحو الباب قائلا وكأنه يحدث نفسه : - الله يلعن الظروف التى جرأتنى وجعلتنى فى يوم أطمع أن أناسب هذا الرجل الطيب ... ويلعنكم يا ولاد الكلب لأنكم لم تصونوا النعمة التى كانت بينكم .
وبصق فى وجوههم وخرج .
********** ********** **********
دخلت عليه وهو ممدد على فراشه ناظرا إلى الكتل الخشبية فى السقف وكأنه يحصيها عددا واضعا ذراعيه خلف رأسه .. جلست بجواره , وقال ولما يحول نظره : - أرسل (عبد العاطى) تليغرافا , وسيحضر غدا .
- طبعا سيحضر ليأخذها .
لم يحر جوابا , سألته : - هل ستتركها لتعود ؟
لم يجبها , سادت فترة صمت , قالت بعد تردد : - إنها تريد أن تطلق .
زفر زفرة شديدة وقال بحزن : - هذا صعب يا أم الأولاد .
قالت وهى تعبث بأصابعها فى عصبية وقد التمعت عيناها بالدموع :
- لابد أن نخرجها من ...
- فقاطعها قائلا : - لن تعود إلى القرية .
- إذن ستطلق.
- لن تطلق .
فقالت متعجبة : - لن تعود إلى زوجها , ولن تطلق .. كيف هذا ؟!
- سيأتى (حجازى) ليعمل هنا , أو فى أى مكان آخر .
- وماذا سيعمل هنا ؟ فى المحلج أيضا .
نظر إليها بانكسار .... أحست أنها أغضبته . فأسرعت معتذرة :- لا تؤاخذنى أنا لم أقصد شيئا .
- أو تقصدين .
صمتت قليلا , ثم قالت محاولة أن تبدد الأثر الذى تركته : - الذى أعرفه أن (حجازى) لا يعرف شيئا سوى الفلاحة ... فما الذى سيعمله هنا , أو فى أى مكان آخر ؟ وهل سيوافق أن يترك قريته ؟
فاستدار نحو الحائط وقال لها : - اتركى كل هذا لله يدبرها كيف يشاء .

فى ضحى اليوم التالى جاء (عبد العاطى) وهو يحمل كميات كبيرة من الفطير والجبن والقشدة والعسل وقفص به عدد من الطيور , وقف على الباب ولم يدخل , فسأله (محمود) :

- ما بك يارجل ....ألا تدخل ؟
- ليس قبل أن تصفح عما حدث من (حجازى) .

فجذبه إلى الداخل قائلا له : - (حجازى) ابنى ... ولم يحدث شئ .. فنحن أهل .

تعانق الرجلان ... وبعد أن شربا القهوة , وتجاذبا أطراف الحديث , قال (عبد العاطى) :

- ما الذى تأمر به يا محمود أفندى ؟
- الأمر لله يا رجل .
- أنت صاحب حق , وقد أخطأ ابنى ولابد أن تحكم بما يرضيك .... سيأتى (حجازى) ليقبل يديك ويعتذر لك .
- لا يا أبو حجازى .

صمت (عبد العاطى) قليلا ونكس رأسه مراقبا حبات السبحة فى يديه وقال :

- إذن تريد تطليق (خديجة) من (حجازى) .
- استغفر الله .

تهللت أسارير (عبد العاطى) وقال : - هذا يدل على عدم غضبك علينا .

- لست غاضبا .... ولكن لى طلب عندك .

فأشار (عبد العاطى) إلى عنقه قائلا : - اطلب .... على رقبتى .

- ألا تعود (خديجة) إلى القرية .

غاضت الابتسامة من على وجه (عبد العاطى) الحليق وقال متعجبا :

- لا تعود ... ما معنى هذا ؟

اقترب محمود منه وقال : - أنا لا أريد تطليق (خديجة) ... وأنت كذلك .

- نعم .
- خديجة مصممة ألا تعود .
- وهل لهذا معنى غير الطلاق ؟
- نعم .
- كيف ؟
- أن يترك (حجازى) الدلنجات ... وسأبحث له عن عمل هنا أو فى الأسكندرية .

صمت (عبد العاطى) قليلا ليستوعب ما قاله (محمود) ثم قال بعد تفكير :

- أى شئ غير الطلاق انا راض به ... ولكن ماذا سيعمل ؟
- الأعمال كثيرة ... المهم تقنع (حجازى) .
- إن شاء الله أمر عليك بعد أسبوع , تكون (خديجة) قد هدأت ... وفرصة لأقنع حجازى .

ونهض لينصرف , فأمسك به (محمود) وقال : - ابق لنتناول الغداء .

- البيت بيتى يا (محمود أفندى) .
- وهل ستنصرف قبل رؤية حفيدك .
- حفيدى وأم حفيدى .

وأتت (خديجة) على استحياء تحمل ابنها , وتناوله وأخذ يقبله ثم قال لها :

- أنا عاتب عليك ... أنك حضرت هنا بمفردك .... لو طلبت منى ذلك لأحضرتك بنفسى ... لا أريدك أن تغضبى على (حجازى) هو غشيم ولكنه طيب ... وإن شاء الله سيكون كل شئ على ما يرام .

************ *********** *********

أثناء عودته أخذ يفكر فيما قاله (محمود) ويقلبه على جميع الوجوه , لم يكن يتوقع أن يطلب منه هذا الطلب الغريب , ولكنه مع ذلك وافق عليه , بدون تردد , هو لا يرى بأسا أن يترك (حجازى) البلد , على الأقل يبتعد عن تأثير أمه , وقد تتغير طباعه التى فشل فى تغييرها , ولكن يبقى عناده وعناد أمه , كيف يقنعه أن يترك البلد ؟ الأمر فى حاجة إلى حيلة وتدبير .

وحينما دخل بيته أقبلت عليه زوجته مستفسرة , وكان قد اختمرت فى ذهنه فكرة , وبدأ فى تنفيذها , جلس متجهما , وأخذ يحوقل ويستغفر فألحت مستفسرة , وكان قد اختمرت فكرة فى ذهنه , وبدأ فى تنفيذها . وجلس متجهما , فالحت عليه أن يخبرها عما حدث فى دمنهور , فقال متكلفا الحزن :

- (محمود أفندى) مصمم على الطلاق .

فلوت بوزها , ولملمت ثوبها حول جسدها الناحل وقالت :

- كان يريد تطليقها ولكنك أنت الذى منعته وضربته وأهنته أمام أخوته .
- أتظنين أن الطلاق أمره يسير هكذا ؟
- إذا طلقها اليوم , أزوجه غيرها غدا ... إنها لا تصلح لشئ , فلا تستطيع أن تعجن أو تخبز أو تحلب ولا حتى تترب تحت البهائم .

نهض وجمع أطراف العباءة حول صدره وقال جادا : - على خيرة الله ... سأبحث عن مشتر لأبيعه فدانا أو فدانيين .

صعقت حينما سمعت بهذا الخبر , وامتقع لونها , وجذبته من يده , وأجلسته وهى فاغرة فاها وسألته : - تبيع الأرض .... لم يا (أبو حجازى) ؟!

- أمرك غريب يا أم (حجازى) !! لكى أدفع المؤخر لزوجة ابنك والنفقة وغيره .
- وهل علينا مؤخر كبير لتلك الدرجة ؟
- ثمن فدان .. ونبيع كم حتة ذهب , وقرشين كنت مدخرهم ... وبذلك أكون قد جمعت المؤخر , وربنا يسهل فى النفقة .

أسود وجهها وأخذ يتلون بأكثر من لون , وشعر أن روحها تكاد أن تفارق جسدها , ولولا أنه يتحدث بكل ثبات لظنت به الجنون , وقالت وأطرافها ترتعش : - هذا خراب , لقد خرب بيتنا .

- وخراب لبيت (خديجة) .

صمت قليلا , ثم وقفت قليلا وقالت بتصميم غريب : - حجازى لن يطلق خديجة . سوف أذهب إليها وأقبل رأسها واستسمحها لتعود إلى بيتها , وسوف آخذ (حجازى) ليعتذر لأبيها وأمها ولها أيضا ...

ونـــــــــــــــادت علـــــــــــــــى إحـــــــــــــــدى بناتهـــــــــــــــا

: - يا بنت يا سعدية ... اذهبى واخبرى حجازى أن يترك كل ما بيده .... سوف نذهب ولن نعود إلا ومعنا زوجة ابنى .

حاول (عبد العاطى) أن يكتم نوبة من الضحك المفاجئ , ذهب نحو الزير وأخذ يتجرع الماء متمهلا , وبعد أن استعاد جديته قال لها :

- ليس الأمر بتلك السهولة فقد لا يقابلونك .

- لم ؟!
- لأن ابنتهم ضربت وأهينت .

أخذت تشد غطاء رأسها وتعقده , وهى لا تفعل ذلك إلا إذا أصيبت بصداع حاد , قالت فيما يشبه التضرع : - وما فى هذا ؟! النساء يضربن من أزواجهن , وكثيرا ما ضربتنى , ولم أشك , ولم أطلب الطلاق !1

- نعم , ولكنك لست ابنة (محمود البستاوى)
- الله يكرم أصلك يا أبو حجازى .
- أنا لا أقصد ...أنت تعرفين أن لو تزوج حجازى فتاة من القرية لهان الأمر ...ولكن (خديجة) أمر آخر .... ثم لا تنس أنك صاحبة الاقتراح أن يتزوج (حجازى) من (خديجة) .
- وما العمل ...؟ ما العمل ....؟
- بالنسبة للطلاق و...

فوضعت يدها على فمه مقاطعة : - لا تذكر سيرة الطلاق ... حجازى لن يطلق خديجة .

صمت قليلا وشعر أنه قد هيأ للأمر وأجاد فى ذلك , اقترب منها وقال :

- هناك بديل واحد عن الطلاق .

فقالت بلهفة : - ما هو ؟

- (خديجة) لم تعد تحتمل العيش معنا , وهى ترفض العودة .

لم تحر جوابا ... وأشفق الرجل على زوجته مما تعانيه : - ما رأيك أن يذهب (حجازى) إلى دمنهور أو أى مكان آخر ليعيش مع زوجته وابنه . ويبحث له عن عمل آخر فى البندر , وقد يأتى بقرشين ويشترى بهم قطعة أرض ؟

- وما فى ذلك , ليذهب ويعمل فى البندر طالما سيعود عليه الفائدة .
- إذن أنت موافقة على هذا .
- ولم لا ... أفضل من الطلاق وبيع الأرض ودفع المؤخر .
- إذن عليك باقناع حجازى .
- ولم لا تقنعه أنت ؟
- حجازى لا يقتنع إلا بكلامك . أعرف أنه من الصعب اقناعه , ولكنك الوحيدة القادرة على ذلك .

وبعد أن تناولوا العشاء , صعد (حجازى) إلى حجرته لينام , صعدت وراءه أمه وجلست معه تجمع كلمة من هنا وكلمة من هناك , ثم قالت بعد تردد :

- ولله كانت (خديجة) وابنها يملآن الدار علينا .

اندهش حجازى من كلامها ... فأول مرة تتكلم عن زوجته بتلك الرقة وهذا الحنين ... وكانت تحرضه لكى يعاملها معاملة قاسية حتى لا تتكبر عليه بأصلها وحسبها , لدرجة أنه كان يرى أن إحساسه بالحب نحوها أو نحو ابنه نوعا من الضعف , فكان يحاول أن يبدده , ويضع مكانه الجفوة والغلظة ... وكان أحيانا يرثى لها , فهو يعلم فى قرارة نفسه أنها لم تخلق لتلك الحياة القاسية , ولم تهيئ لها , وكان إذا استيقظ فجرا يتأملها فيراها مخلوق جميل برئ ملائكى ... يشعر نحوها بتلك المشاعر التى يشعر بها نحو الزهور التى فتن بها وأدمن رعايتها .... ويتعجب من تصاريف الأقدار التى جمعته بها , لم يكن يطمح ولم يكن يظن أنه سيتزوج سوى بفتاة من القرية , سمراء متشققة القدمين , خشنة اليدين , غليظة الشفتين , غبية , فإذا القدر يسوق له ما لا يخطر على بال , إنها كما قالت إحدى أخواته : (غريبة ناعمة) .

حاول (حجازى) أن يستشف شيئا من ملامح الوجه الجامد المعروق , وذبالة المصباح تتراقص لنسمات الليل التى تدلف من النافذة , وأصوات صرار الليل والضفدع تسد فجوات الصمت والسكون . نحى غطاء رأسه وتخللت أصابعه شعره والحيرة والتعجب يحيطان به . قالت وهى تسوى من فراشه : - ألا تحب أن ترى (محمودا) ابنك ؟

- لا أحب أن أراه , ولا أرى أمه بعد أن فعلت فعلتها السوداء .

تقدمت وجلست بجواره : - إذا كانت قد أخطأت ... فأنت أيضا أخطأت .

فاعتدل جالسا وقال : - ما بك يا أمى .... بالأمس توافقيننى على ضربى إياها ... واليوم تتحدثين كما يتحدث أبى ؟!

- أبوك كان على حق .
- ما معنى هذا ؟
- الواجب أن تعتذر لأبيها .

فنهض غاضبا قائلا :

- والله لن أعتذر لأحد , وإن لم يحضرها أبوها إلى هنا , فلن تبقى على ذمتى .

أيقنت أن من العبث الدخول إلى عقل ابنها من هذه الناحية , فغيرت الموضوع قائلة :

- نسيت أن أخبرك أن (محمد أبو حسين) قد اشترى فدانا من جماعة الحوفى , و(عبد الهادى الغرباوى) بنى دارا جديدة فى الناحية الشرقية من البلد .

فقال مندهشا : - ومن أين حصلا على المال وهما يعملان أجيرين ؟

- لأنهما ذهبا إلى البندر وعملا هناك , وفلوس البندر وخيره كثير .

صمتت قليلا ثم قالت : - الأرض لم تعد تأتى بالكثير , وأخواتك كبروا ومصاريفهم زادت , وما يأتى من الأرض يذهب فى الانفاق عليها وعلينا , ولا يتبقى شئ .

- على رأيك , مصاريف الأرض كثيرة .
- ما رأيك أن تذهب وتعمل فى البندر .
- وأترك الأرض !!
- إخوانك يرعونها , وأنت تكون قرشين لنبنى دارا جديدة .
- وماذا سأعمل فى البندر ؟
- الأعمال كثيرة , المهم ما رأيك ؟
- لا أستطيع أن أترك الأرض .
- وهل ستطير الأرض .
- وأين سأعمل ؟
- فى دمنهور أو الأسكندرية

صمت قليلا ثم قال :- أنا لا أعرف شيئا سوى الفلاحة .

- وهل من ذهب إلى البندر من الفلاحين كان يعرف شيئا

أخذ يتثاءب وشعر أن النوم يثقل جفونه فتمدد وجذب الغطاء وقال بعناد :- لا .. لن أذهب إلى البندر . فجذبت الغطاء من على جسده :- ستذهب إلى البندر , وسأخبر والدك أن يبحث لك عن عمل هناك .

فجذب الغطاء وبسطه على جسده قائلا : - افعلا ما تريدانه ... اتركينى لأنام .

شعرت بزهوة الانتصار , وابتسمت وذهبت نحو المصباح واطفأته .

(9)

- الأسكندرية – مقهى القزاز -

بجوار مقهى (القزاز) الواقع على ناصية شارع الأفرنج امتداد ميدان (القناصل) , وعلى جانبى حارة داخلية قابعة فى الظل , تدلف إليها نسمات البحر فى دعة , حتى إذا دخلت الحارة الضيقة , أخذت تعبث بأطراف الملابس المتدلية من الحبال المعلقة فى المشربيات الخشبية المتداعية ... يجلس عدد من الحمارة والحمالين والعربجية , افترشوا الأرض المبلطة بالحجارة السوداء , البعض تمدد وبسط جسده غافيا , والبعض الآخر جاء بأرغفة ساخنة من المخبز المجاور , وبعض ثمرات الطماطم وبصلة وقليل من الملح والفلفل , وأخذ يأكل . وقد اصطفت دوابهم التى لا تقل عنهم اجهادا بجوار الحائط المقابل , وقد وضعوا أمامها القليل من الطعام والشراب . تلك الفترة من الظهيرة تشهد هدوءا فى حركة الميدان و وحركة تنقل الأجانب .

ارتفع صوت الحمارة والحمالين , البعض ناقم من سوء معاملة الناس له , والآخر يتململ من أيام الضنك والفلس وقهر الزمان له , وعدد منهم كان يستخف مما يتعرض له , فكان يطلق النكات البذيئة الصريحة , يقهقهون , وتهتز أجسادهم النحيلة من تحت أسمالهم البالية الممزقة , يغرقون أنفسهم فى الضحك , يريدون أن يحركوا شيئا غامضا راسخا فى نفوسهم .... يمد أحدهم يده خاطفا قبعة من بجواره وهو غافل عنها , وبسرعة يرميها لآخر , وهذا بدوره يناولها إلى من بجواره فيخفيها فى طيات ملابسه , ويظل صاحب القبعة يفتش من يصادفه أمامه , وهو يلعن أباءهم وأجدادهم , وحين ييأس من العثور عليها يخطف أى قبعة من فوق أى رأس يصادفه , وتنشأ المشاحنات والمشاجرات والتى لا تتجاوز حدودا معينة تنتهى بالاعتذار والتقبيل على الرأس .
بعد ذلك يبدأ كل منهم فى العناية بحماره أو حصانه لاستئناف عملهم بعد أن تهدأ حرارة الشمس الحامية , رائحة روث الدواب بدأت تزكم الأنوف كلما اشتد الحر الذى بدأ مبكرا , ولم تفلح نسمات البحر الكسولة أن تحد من عنفوانه , تجمع عدد منهم وركبوا عربة (رفاعى) , التى كانت تقف فى الظل بجوارهم , ليقص عليهم آخر أخبار (عرابى) وأحوال البلد , فقد كان (رفاعى) الشخص الوحيد بينهم الذى يقرأ ويكتب , ويستطيع أن يحصل على أى جريدة مجانا ؛ لأنه كان يقوم بتوزيع جريدة الأهرام ، وعدد م المجلات على مراكز البيع , ويختلط بالمثقفين والصحفيين .
تجمعوا حوله مصغيين , وكانوا فيما مضى لا يهتمون إلا بلقمة عيشهم , ولكن بعد ما فعله (عرابى) أصبح يمثل لهم الأمل والمخلص الوحيد مما هم فيه من هم وكرب , حتى وإن كان (عرابى) لم يفكر فيهم مطلقا , إلا أنه بمثابة جبر لانكسار زمانهم , وثأر لما حدث ويحدث لبلادهم .... قال (رفاعى) يداعبهم : - مالكم أنتم وعرابى ...؟! أهم شئ لقمة عيشكم ... هل سينفعكم (عرابى) .... كلامى صواب ولا إيه يا عم (مصطفى) ؟
فقال (مصطفى) بحماس واندفاع : - نعم , عرابى أهم من لقمة عيشنا , أول مرة الواحد منا يمشى رافع رأسه , ويضع عينه فى عين الأجانب ولاد الصرمة .
فضحك (شعير) وهو رجل هزيل نحيف كحماره الذى يعتنى بع اعتناءا شديدا وقال مخاطبا (مصطفى) : - كل ما تفعله أن تضع عينك فى عينه .. كسبنا كثيرا يا فالح !!
وارتفع صوت (حسن) وشهرته (الأرنب) واطلقوا عليه هذا الاسم لأنه يهرب ويفر ويترك ما بيده إذا أحس بأى خطر , وهو دائم التوجس والحذر والشك , خفيف الحركة ,

ولـه أذنـان مرتفعـان مسـحوبتان لأعلـى , وهـذا مـا جعـل وصـف الأرنـب يلصـق بـه , قـال بصوته النحيف :

- معه حق (مصطفى) , بالأمس ظل رجل إيطالى يناديني , فنظرت إليه ولم أجبه , ومشيت أنا والحمار وكأننا لا نسمعه .

فقال أحد الجالسين ساخرا : - أأنت فعلت ذلك ؟! لا أصدق ما تقوله ... أنت أكثر واحد يخاف منهم .. فأنت جبان ... أنت أرنب .

فهجم عليه (حسن) وهو يرتعش من الغضب وتناثر الزبد حول شفتيه , وكان هذا يحدث كثيرا , وأسرع من حولهما بالتفرقة بينهما .

قال (شعير) بنفاد صبر : - هل ستتكلم يا (رفاعى) أم نذهب إلى حال سبيلنا ؟

قال (مصطفى) : - سمعت أنهم يريدون قتل (عرابى) .هل هذا صحيح ؟

فنظر الجميع بغضب وقالوا فى صوت واحد : - يقتلون عرابى ...!! كيف ؟

قال أحدهم بحماس زائد : - لو قتلوه سوف نشعل فيهم النار .

وقال (حسن) : ونحطم البلد فوق رؤوسهم .

فنظر إليهم (شعير) متعجبا : - هل تعرفون من الذى يريد قتله ؟

- لا .

فعقب (مصطفى) : - أيا كان ... فلن يكفينا الأجانب كلهم .

نظر (رفاعى) إلى حالتهم المزرية , وتعجب كيف تقدر الألسنة على قول ما لا تقدر العقول على مجرد التفكير فيه , قال (شعير) : - من يا (رفاعى) الذى كان يريد قتل (عرابى) ؟

- مجموعة من الضباط الجراكسة ووزير الجهادية (عثمان رفقى) .

فقال (مصطفى) متعجبا : - ألم تقل لنا فى المرات السابقة أن عرابى هو وزير الجهادية .

فقال (شعير) متضايقا : - أنت حمار لا تفهم , (عثمان رفقى) هذا كان وزير الجهادية السابق .

نظر إليه (مصطفى) غاضبا وقد وقف فاهتزت العربة : - نسيت يا أخى ... هو أنا عقلى دفتر ... ولا تقل لى حمار مرة أخرى .

فقال (شعير) : - لم ؟ وهل الحمار شين ؟

- على رأيك ... لولا الحمير لمتنا من الجوع .
- اكمل يا (رفاعى) .. ماذا حدث بعد ذلك ؟
- قبض عليهم (عرابى) وسجنهم كلهم .

فانطلقت الألسنة فى حماس : - ينصر دينك يا عرابى ؟

- ربنا يحميك يا (عرابى)
- يحرسك ربنا يا (عرابى)

فنظر إليهم (شعير) متعجبا : - أأنتم فى مظاهرة ..... ما بكم ؟!

فقال (مصطفى) : - لأننا نحب (عرابى) .... كان نفسى أكون (عرابى) .

- ولو كنت (عرابى) ..... ماذا نت ستعمل ؟
- أعدل حال البلد .

وقال (حسن) : - لو أنجبت زوجتى ولدا سوف أسميه عرابى ؟

فقال (شعير) مبتسما : - ولو ولدت بنتا .

فقال مصطفى ضاحكا : - يسميها عرابية .... ها ....ها ..... يجب أن تحبل زوجتك أولا .

فقال (حسن) وهو يتحفز للهجوم عليه : - احترم نفسك وإلا ....

قال (شعير) غاضبا : - لنسمع بقية الأخبار ... أكمل يا (رفاعى) يا ابن أختى .
قال (رفاعى) : - وبعد أن حكم عليهم (عرابى) لم يرض الخديو بتلك الأحكام .
فتعجب (مصطفى) وخلع غطاء رأسه المهترئ المتسخ وهرش فى شعر رأسه وتساءل :
- الخديو مع عرابى ولا ضده ؟
وسادت فترة صمت قطعها (شعير) بقوله وهو يرفع إصبع يده المعروقة :
- الخديو لم ينس ما حدث من عرابى فى عابدين , لذلك لم يؤيده ولم يقف ضده .
فقال (رفاعى) مبتسما : - والله يا خالى أصبحت تفهم فى السياسة
- الفضل لك يا ابن أختى .
نزل (رفاعى) من العربة وقال لمن حوله : - كفى اليوم سياسة , وهيا لنسعى على لقمة عيشنا ... لقد هدأت حرارة الشمس .... هيا يا رجالة كل واحد على حماره وعربته .
وفجأة خفضت الأصوات وسكنت الأيادى والأقدام الحافية المتشققة المغبرة حينما ظهر رجلان ضخام وبيد كل منهما نبوت , وشوارب تملأ وجيهما ..... غابت الدماء من الوجوه , وكأنهما رأوا عفريتين , وعلى الفور امتدت الأيدى المرتعشة إلى الجيوب لتخرج الملاليم والقروش لتحصيها , وأخذ (زغطة) و (عليش) فتوتى المعلم (كحلاوى) أشهر فتوة فى الأسكندرية , أخذا يمران على الحمالين والحمارة , يأخذون ما امتدت به الأيدى ,وهم ينظرون بخوف وفزع إلى النبوتين الضخمين , وبعد أن أحصى (زغطة) ما جمعاه بصق عليهم , ثم انصرف ورفيقه , رجعوا إلى ما كانوا فيه وهم يتابعون الرجلين بنظرات مؤسفة , قال (شعير) ضاربا كفا بكف :
- الله جاب , الله خد , الله عليه العوض .
فضحك (رفاعى) وكان ينظف عربة الحنطور ويلمعها :
- يوم تدفع ضريبة للحكومة , ويوم تدفع فردة للكحلاوى .
فقال (شعير) وهو يسوى الغطاء على ظهر الحمار :
- سوف آخذ الأولاد وأمهم وأعطيهم للحكومة وفوقهم الحمار .
- وماذا ستفعل أنت يا خال ؟
- أذهب للمعلم (كحلاوى) يشغلنى معاه .
- فتوة !!
فأشار إلى عظام صدره الناتئة وافتر ثغره عن ابتسامة كشفت عن أسنانه المتآكلة :
- لا ... , شماعة يعلقون عليها نبابيتهم .
وقال (حسن) : - تعالوا نرسل مكتوبا لعرابى .
فلم يعلق أحد , وبدأوا يتسربون فى شوارع وميادين وحوارى الأسكندرية , وقال (رفاعى) وهو يشد اللجام مخاطبا خاله : - تعال لنتناول العشاء معنا يا خال .
فنظر إليه بضيق قائلا : - أمك تضع كثيرا من الملح والشطة على الطعام .
- إذن سأخبرها أنك رفضت .
فأسرع ممسكا بلجام الحصان متسائلا : - ماذا ستتناولان على العشاء الليلة ؟
- لقد ذبحت أمى أورزة كبيرة هذا الصباح .
وقف (شعير) يهرش فى شعر صدره العارى تارة ويمد يده فى ظهره تارة أخرى , ونظر إلى الأرض قائلا : - والله يا ابن أختى ....
فقال (رفاعى) وهو يحث الحصان على السير : - سأخبرها أنك رفضت دعوتها .
- أتريد أن تغضب على ؟ سأحضر حتى لو كان طعامها كماء البحر .
- لا أريد أن تكلف نفسك ما لا تطيق يا خال , سأخبرها أنك لن تحضر .

فقال بغضب : - أنت مالك ياأخى ... سأحضر , أنتم لا تذبحون أوزة كل يوم .
ابتسم (رفاعى) قائلا وهو يفرقع بالسوط فى الهواء :
- لن أتناول العشاء إلا بعد حضورك يا خال .

(10)

- رمى البحر -

جلس على المقهى يتابع حركة الحمالين والحمارة وهم ينطلقون فى شوارع وميادين الأسكندرية بعد أن نالوا قسطا من الراحة وهم يتصايحون على بعض ضاحكين عابثين غير عابئين بأى شئ حولهم , وكان يحسدهم على ما هم فيه من انطلاق وانبساط مع أنه يعلم أنه قد يبيت أحدهم أو يصبح وليس فى يده ثمن كسرة خبز , ومع ذلك فهم لا يكترثون , على ما يبدوا أن كثرة ما مروا به من مآسى ومواقف علمتهم التعالى فوق متاعب تلك الحياة و حاول أن يفعل مثلهم ولكنه فشل . أخذ يتابع حركة القوارب المضطربة على سطح الماء من بعيد ,والنوارس تحلق فوقها باسطة أجنحتيها , بدأت الشمس تميل نحو المغيب , جاء صبى المقهى بالشاى والنرجيلة , أخرج من جيب جلبابه قطعة صغيرة من الحشيش فوق الحجر ثم وضع قطعة من الفحم المتقد وأخذ فى جذب الأنفاس بعد أن أرسل نظره إلى الأفق المتسع أمامه , شعر باسترخاء , فارقه الضيق والملل وحل مكانه إحساس بالإنسجام , أغمض عينيه , تخيل أنه الأسكندر الأكبر , يلبس التاج ويركب جواده , ويسير فى شوارع الأسكندرية يطارد الغرباء والدخلاء , يجمعهم ويرميهم فى البحر كما جاءوا منه , ويعيد بناء الأسكندرية مرة أخرى , بيضاء نظيفة متألقة , ينظف شوارعها من السمك المنتن والأعشاب المتعفنة والجثث المتحللة , ولكنهم يزحفون إليه وتلتف أذرعتهم الأخطبوطية نحو أرجل الجواد تكبلة , ويضرب بسيفه ليقطع تلك الأذرع ولكنهم يتكاثرون عليه من كل جانب , يضيقوا عليه , لا يستطيع أن يتنفس , أجسادهم تمنع عنه النور والهواء . فتح عينيه فوجدهم واقفين أمامه يضحكون عليه ويجذبونه من أطراف جلبابه , قال أحدهم وهو يجذب منه النرجيلة :
- ما بك يا (رشيدى) ؟! أول مرة أرى واحدا نائما وهو جالس .
ابتسم فى خجل ونادى على صبى المقهى وقال : - اجلس يا (لويس) ... لم تقف يا (قبارى)؟ ...(مرسى) لا تدخن تلك النرجيلة .
فقال (مرسى) بعناد : - سوف أدخنها .
وأخذ يجذب نفسا عميقا , وفجأة أخذ يسعل وجحظت عيناه , وأشار لهم أنه لا يستطيع أن يتنفس , فقال (قبارى) بعد أن جذب كرسيا وجلس : - ألم يخبرك (رشيدى) ألا تدخن تلك النرجيلة , هل ستظل طوال عمرك عنيدا ؟
فقال (مرسى) وهو يتنفس بصعوبة : - وما أدرانى أنه كان يضع فيها زفتا .
- زفت ولا نيلة ... ألم يخبرك ألا تدخنها .
فقال (مرسى) وهو يتنفس بصعوبة : - ربنا ينتقم منكم .
وقال الصبى الواقف بعد أن نفد صبره : - ماذا تريد يا معلم (رشيدى) ؟
فألتفت إليه قائلا : - أما زلت واقفا .. هات مشروبات للمعلمين يا حمار .
فنظر الصبى إليهم قائلا : - ماذا تريدون يا معلمين ؟
فصفعه (قبارى) على قفاه وقال : - ألا تعرف ماذا نشرب ؟ اذهب هات نيلة .
- لا يوجد عندنا نيلة .
- ماذا عندكم ؟

فقال وهو يبتعد كى لا تنال أيدى أحدهم قفاه كما تعود منهم : - عندنا هباب سادة .
فقال (مرسى) : - هباب عليك وعلى أهلك , أمش يا حمار هات شايا .
سادت فترة صمت قطعها (لويس) بقوله : - منذ متى وأنت تجلس هنا يا (رشيدى) ؟
صمت قليلا ثم قال بحزن : - لا أعرف , فلم يعد للوقت قيمة , بعد حدوث ما حدث .
فقال (لويس) : - هل سنجلس ونضع أيدينا على خدودنا هكذا ؟ لابد وأن يكون فيه حل .
فقال (قبارى) وهو يعبث بعصاه فى حذائه اللامع : - أين الحل ؟ ولاد الصرمة مثل النمل فى كل مكان . وأمام كل ورشة من عندنا فتحوا ورشة من عندهم , وأمام كل وكالة أنشأوا وكالة .
فعقب (مرسى) وهو يضرب كفا بكف : - أنا لا أدرى من أين يأتون بتلك البضائع وبالأسعار الزهيدة ؟!
قال (قبارى) : - كلنا توقعنا خسارتهم ؛ لأنهم يبيعون بأقل من التكلفة , فإذا بهم يكسبون , ونحن الذين نخسر .
فابتسم (مرسى) فى أسى : - قصدك نفلس .
فقال (لويس) وهو يحكم ربطة عنقه : - الضرائب المفروضة علينا كبيرة جدا , بينما لا تفرض عليهم أى ضريبة .
وقال (رشيدى) وهو ينفث سحابات الدخان فى الهواء : - زحفوا على البلد كالجراد , امتلأت البلد بمخازنهم فى شارع الرملة وشارع التلغراف وشريف باشا والبوسطة الإيطالية والعطارين ... كلها يافطات لأسماء إيطالية وأمريكية وإنجليزية وفرنسية ويهودية .... تصدقوا أنا مرة تهت .
فضحك (قبارى) : - أنت دائما تايه يا رشيدى .
وعقب (مرسى) : - توهان عن توهان يفرق .
أخذ (رشيدى) سحب أنفاسا وقال وهويسعل : - معك حق ... توهان عن توهان يفرق , وكله ضياع .
وفى تلك اللحظة وقفت عربة حنطور أمام المقهى ونزل منها رجل فى العقد الخامس , فى قمة أناقته تتقدمه رائحة العطر الباريسى المستورد . اقترب منهم وحيا الجميع ثم قال بصوته الجهورى ضاحكا : - خربتوها وقعدتم على تلها .
فقال (رشيدى) مخاطبا (قبارى) : - أنا شامم ريحة زفرة يا (قبارى) .
- المعلم (قنديل) طل علينا .
سادت فترة صمت بعد الضحك المتواصل . نظر إليهم المعلم (قنديل) ثم جلس وهز رأسه فى سخرية وقال : - لم يعد لكم ما تصنعونه سوى السخرية والضحك على الناس , طوال النهار تنعون حظكم , واحد أغلق ورشته , والآخر أعلن إفلاسه , والثالث يريد أن يترك البلد ويهاجر , والرابع يبيع ما فى مخازنه من بضائع بنصف الثمن .
هبطت سحابة من الغم والضيق على الجميع , وقال (رشيدى) : -
- منك لله يا (قنديل) ... لابد وأن تأتى وتذكرنا بالهم والغم والمشاكل ..
- وإلى متى ستظلون هكذا , حالكم يسوء من يوم إلى يوم , وكنتم بالأمس من أعيان الأسكندرية ؟!
فقال (لويس) : - ليس حالنا فقط , بل حال البلد كلها .
وعقب (رشيدى) : - ولاد الصرمة منعوا عنا الماء والهواء .
فقال (قنديل) : - لا يا جماعة , البلد بلدنا , ومهما حاولوا يجب أن نحاربهم بالعقل و...
فقاطعه (قبارى) : - ونحارب الحكومة أيضا !!

التفت إليه (قنديل) قائلا : - أنا معك أن الحال تسوء كل يوم .. ولكنكم ضعفتم لأن كل واحد مشغول بأشياء غير تجارته ... (رشيدى) أهم ما يشغله المخدرات , ليل نهار مع الحشيش والأفيون , وترك صبيانه ينهبون أكبر ورشة جلود فى البلد , (لويس) ترك مكتب الأستيراد والتصدير وكل يوم فى بلد أوربى , يعيش بالطول والعرض كأنه مليونير , (مرسى) بدلا من أن يبحث عن أحدث تصاميم الموبليا , أخذ يبحث عن أجمل النساء , لم يكتف بالزواج من ثلاثة ويبحث عن رابعة , أما (قبارى) فالغناء والموسيقى طيرا عقله , وطلع فى المقدر جديد فى السهر فى الكباريهات للصبح , وترك مصنع الملابس لأولاده يبيعون معداته .... معهم حق شرازم نابولى وإيطاليا وغيرهم يزاحمونكم فى بلدكم ... ذكاء وشطارة من عندهم , وغباء وكسل من عندكم .

صمت الجميع لحظة , تبادلوا النظرات , ثم أخذوا يصفقون .. ثم قال (رشيدى) :

- ما جرى ... المعلم (قنديل) يخطب بكلام كبير .

فقال (قبارى) : - البركة فى (عبد الله النديم) و(الأفغانى) و(محمد عبده) .

وقال (مرسى) : - أنا سمعت أنه حريص على الاستماع إلى خطبهم وحضور ندواتهم .

فقال (رشيدى) : - بل هم الذين يحضرون إليه لتناول السمك ، فمحلاته من أشهر المحلات , وكبار البلد لا يأكلون إلا من عنده .

فقال (قنديل) وهو يخمس فى وجوههم : - سنبدأ نظام الحسد يا جماعة الخير .

فربت (قبارى) على كتفه قائلا : - أنت تعرف يا (قنديل) أننا نتمنى لك كل خير , فأنت أخونا , وما بيننا صداقة عمر .

- أنا أعرف هذا , ولقد أتيت لأدعوكم على العشاء اليوم .

فسأله (مرسى) : - وما المناسبة .. هل ستتزوج ؟

فقال مبتسما : - مسألة الزواج والنساء تركتها لك يا (مرسى) , ولكن بمناسبة افتتاح المحل الجديد فى العطارين .

فتساءل (رشيدى) متعجبا : - هو (قنديل) يا جماعة أصله فرنسى ولا إنجليزى ولا إيطالى ؟

- لم ؟

- أغلب المصريين يغلقون محلاتهم , والأجانب ولاد الصرمة هم وحدهم الذين يفتتحون المحلات ... السكندرى الوحيد الذى يفتتح محلات هو (قنديل) .

فضحك (قبارى) قائلا : - ربما يشتغل من الباطن .

نهض (قنديل) وتناول العصا والطربوش وقال مخاطبا (مرسى) : - لقد جهزت لك الجمبرى والكابوريا يا مرسى .

وقف (مرسى) وصفق على يديه قائلا : إذن ليلتنا فل ونجف يا معلم (قنديل) .

(11)
- كحلاوى -

كان الفتوات وصبيانهم يجلسون فى القاعة الواسعة فى بيت المعلم (كحلاوى) الذى يشبه القلعة , الجدران مدججة بالنبابيت والشوم والسيوف والخناجر . البعض يجلس على الدكك الخشبية , والآخر واقفا , وعدد من الرجال يجلسون القرفصاء , منهمكين فى أحاديث شتى

, الوجوه وما بها من شوارب كثيفة وندوب وجروح , والأجساد الفارعة العريضة القوية وما ارتسم عليها من معارك من بتر ذراع أو قدم أو جدع أنف أو فقأ عين أو اصطلام أذن ... كل هذا ينطق بالقسوة والشراسة , وقد اكتسبوا شهرة واسعة فى الفتك والبطش بمن يتحداهم أو يقف فى طريقهم .

يتوسط القاعة التى تعبق برائحة التبغ منضدة خشبية وحولها مقعدان , سمع صوت قدم المعلم (كحلاوى) فسكتت الألسنة ووقف الجميع ساكنين واتجهت العيون إلى أعلى السلم , نزل يتكأ على عصاه , فى نهاية العقد السادس , يرتدى جلبابا من الصوف الأسود لا يتناسب مع حرارة الجو , طويل القامة , نحيف , عظامه الناتئة من تحت الجلباب تنبئ عن ضخامة جسمه فى سنى شبابه , أسود البشرة , حليق الرأس والذقن , ذو أنف مرتفع , تحته شارب كث أبيض , إذا ابتسم وقليلا ما يحدث تظهر أسنانه المتأكلة السوداء . يلفت النظر إليه تلك الأذن المجدوعة , والتى قطعت أثناء معركة من معاركه التى لا ينساها أهل الأسكندرية , أغلب سنى عمره كان مسجونا , منذ صغره اختار الفتونة طريقا وحيدا , وبما يتصف به من دهاء ومكر وبطش وفتك استطاع أن يكون أقوى وأشهر فتوة , وأحاط نفسه أو تجمع حوله جيش من شباب الفتوات , الذين يأتمرون بأمره , تزوج من راقصة إيطالية أعجب بجمالها وأنوثتها , وهى أعجبت بشجاعته وسلطانه , أنجب منها (صبح) , وبعد شهرين من ولادتها , اختفت زوجته , وتركت وليدتها , بحث عنها فى كل مكان , وسافر إلى إيطاليا ومكث هناك يبحث عنها , ولكنه لم يجد لها أثرا , ويقال إنه وجدها مع عشيقها فشرب من دمائها , وسجن سنوات , واستطاع الهروب وجاء إلى الأسكندرية متخفيا فى زى بحار , تلك الحادثة جعلته لا يثق فى أحد , لا سيما النساء , وزادت من قسوته , لا أحد يستطيع أن يقنعه بشئ سوى ابنته (صبح) ، فى العشرين من عمرها , ورثت عن أمها جمالها وبياض بشرتها وشعرها الأشقر , إلا ان كراهية والدها للنساء جعلته ينشأها تنشئة الرجال , فورثها خشونة طبعه وغلظته وعلمها أساليب الفتونة , وجعلها لا ترتدى إلا ثياب الرجال , ولولا ملاحة وجه وجمال قد لعددت من الرجال , وحرص على أن تتلقى قسطا من التعليم الذى حرم منه , فكثيرا ما تقرأ وتكتب لتملأ الفراغ الذى يثقل عليها فى بعض الأيام الخالية من المعارك والمشاحنات , وكان يطيب لأبيها أن يراها تمسك بجريدة وتقرأ له بعض الأخبار التى لا يفقه منها شيئا , ويرى فى هذا ما يميز ابنته عن بقية رجاله , فكلهم يحملون فوق أكتافهم رؤوسا كثمرات الدوم , صلب ولا يحتوى على شئ بالمرة , وكان يعجب بذكائها وحسن تصرفها , وكان يعترف بينه وبين نفسه أنها ورثت عن أمها الذكاء , والدليل على ذكائها أنها تركته وهربت , فليس فى حياته شئ يدعو راقصة فاتنة مثلها أن تتزوج بفتوة أو بلطجى , حتى حين طلبها للزواج تعجب من موافقتها , ولا يدرى للآن لم وافقت , ولا يدرى لم هربت منه وتركت ابنتها ؟!

لا يسمع سوى دقات عصاه على درجات السلم الخشبى العتيق , وهو ينزل ببطئ مصوبا نظراته

النارية من عينيه الضيقتين كالصقر . جلس على المقعد , وجلست بجواره ابنته , وبسرعة أتى رجل بفنجان القهوة وآخر بالنرجيلة , شرب وأخذ يدخن واضعا قدما فوق الأخرى , وأخذ يذب بضيق ذبابة تحوم حول رأسه الحليق , رفع نظره إلى الرجال الواقفين الصامتين وتنحنح فتقدم عدد من الرجال بأكياس من القماش وأفرغوا ما بها من نقود على المنضدة أمامه وعادوا إلى أماكنهم , نظر إلى النقود ورفع عصاه وبعثر النقود فى أرجاء المكان , وقال بصوت مبحوح كحفيف الأفعى : - كل يوم تحركون شواربكم وتعودون بالملاليم والقروش ..... ماذا أفعل بهذا ؟ ووراءى جيش من الرجال وبيوت مفتوحة وأرامل

ويتامى وعاجزين ومسجونين ... الأفضل تجلسون فى بيوتكم وتكسرون تلك النبابيت وتحلقون تلك الشوارب .
.سادت فترة صمت , نكس الرجال رؤوسهم ناظرين إلى الأرض , ولم يعد يسمع سوى قرقعة النرجيلة , استأنف (كحلاوى) كلامه : - لم أنتم صامتون ...؟ اتكلموا .
تقدم (زغطة) خطوة قائلا : - يا معلم الحال لم يعد كما كان , أغلب التجار أفلسوا وأغلقوا وكالاتهم ومخازنهم وورشهم , لم يعد أمامنا سوى الحمارة والحمالين والسقايين والصيادين ... وهؤلاء على باب الله .
- البلد خربت ولا أدرى !!
فتقدم (عليش) وقال : - الجماعة الأجانب هم السبب , المحلات والوكالات والورش أغلقت أبوابها لأنهم أقاموا مثلها , وباعوا بضائع أرخص من بضائع أهل البلد .
- ولم لا تأخذون من الأجانب ؟
فتقدم رجل يدعى (سيد حمبوطة) وقال بضيق : - إذا كانت الحكومة لا تقدر أن تأخذ منهم ... أنحن نأخذ منهم .
فقال غاضبا وهو يدق بعصاه على الأرض : - لا شأن لى بالحكومة ... أنا هنا الحكومة .
فقال (عليش) بصوت خفيض : - لهم رجال يحمون تجارتهم ومخازنهم ولا نستطيع الاقتراب منهم .
أخذ المعلم يعبث بعصاه بتوتر وقال : - شئ عجيب وكأن البلد لم تعد بلدنا .... ولا أنتم كبرتم ولم تعودوا تصلحون لشئ .
أراد (زغطة) أن يتكلم , فأشار له المعلم بالسكوت , ونهض قائلا : - من الغد كل المحلات والورش والوكالات الأجنبية تدفع الطاق طاقين .
فقال (أبو الليل) رافعا نبوته : - ومن يرفض نكسر محله ونستولى على بضائعه .
فقال المعلم غاضبا : - لا يا (أبو الليل) لسنا لصوص ولا نهابين , أنا الفتوة الوحيد فى الأسكندرية , وإن لم تستطع الحكومة أن تأخذ من الأجانب , (كحلاوى) سوف يأخذ منهم .
وجلس المعلم , نظرت إليه (صبح) فسألها : - أعندك كلام ؟
فقالت وهى تطوى صفحات جريدة كانت بيدها : - هؤلاء أجانب , وشوكتهم قوية , ويجب أن نعاملهم بطريقة ذكية .
- كيف ؟
- سوف نرسل أولا ونحذرهم , قد يدفعون بهدوء وبدون مشاكل .
- وإذا رفضوا .
- اترك لى هذا الموضوع , وسوف أتفاهم مع الرجال .
فهز المعلم رأسه , وأخذ يدخن فى صمت , ثم قال بصوت حاسم مخاطبا الرجال : - اتفضلوا.
وخرج الرجال , ثم نظر المعلم إليها صائحا : - قلت لك أكثر من مرة لا تراجعنى فى كلام قلته أمام الرجال .
فقالت برقة : - لن أقاطعك مرة أخرى أمام الرجال يا معلم المعلمين .
وضرب بعصاه طرف المنضدة , فأحضر الصبى فنجانا آخر من القهوة , وقامت بوضع قطعة من الأفيون أخرجتها من جيب قميصها , وبعد أن شرب القهوة وهدأ قال لها : - أقنعينى ... ولتكن تلك آخر مرة .
نظرت إليه مبتسمة و واقتربت منه وتناولت يده وقالت :

- الأسكندرية يا معلم لم تعد كما كانت , تغيرت كثيرا .
فنظر إليها مندهشا : - ماذا تقصدين ؟ غيروا الأسكندرية !! أصبح اسمها دمنهور ولا مرسليا ولا نابولى , الذى اعرفه أنى أعيش فى الأسكندرية .
- الأجانب زادوا فى الأسكندرية , وأصبحوا أقوى من أهل البلد أنفسهم .
- هل لديهم فتوات أقوى وأكثر من رجالنا ؟
- لا يا معلم , البلاد التى اتوا منها أقوى من بلدنا .
صمت قليلا ثم قال : - من أجل هذا الحكومة لا تأخذ منهم شيئا .
ربتت على يده قائلة : - بالضبط يا معلم .
صمت قليلا مفكرا , ومس على رأسه الحليق ثم قال : - نعم قد يكونون أقوى منا فى بلادهم , ولكن طالما هم هنا فى بلادنا المفروض أن نكون الأقوى , تلك بلدنا وليس بلدهم .
قالت وهى تسوى أطراف غطاء رأسها الذى أنزلق وأظهر شعرها الناعم .
- من أجل ذلك (عرابى) ....
فقاطعها قائلا : - لقد سمعت عن هذا الرجل أكثر من مرة , والجميع معجبون به , أهو فتوة جديد ظهر فى البلد .
ابتسمت ونظرت إلى الأرض , وصمتت قليلا ثم قالت وهى تتأمل ملامحه :
- ممكن تعتبره فتوة البلد كلها , فتوة مصر , ويريد أن يأخذ للناس حقوقهم .
فقال متعجبا وعلامات الاستفهام ترتسم على ملامحه : - فتوة البلد كلها ... ومن أين حصل على الرجال ؟
- الجيش كله من رجاله .
فقال غاضبا : - لا يا (صبح) و ليس معنى أنى أستمع إليك تقلبين رأسى , كيف يتحول الجيش إلى فتوات ويمسك النبابيت والشوم ؟!
- المهم يا معلم ... سنرسل بعض رجالنا إلى أصحاب المحلات والوكالات والورش , فإذا دفعوا بهدوء يا دار ما دخلك شر .
- وإن رفضوا .
- نجعلهم يأتون إلى هنا ويقبلون الأيدى , كيى يدفعوا ويطلبوا الحماية .
- كيف ؟
- لا تشغل بالك ... أهم شئ أن يدفعوا .
فرفع إصبعين من أصابعه قائلا بثقة وتحد : - الطاق طاقين .
فابتسمت وقالت : - الطاق طاقين يا كحلاوى .
وجمعت النقود من على المنضدة فى منديل ثم قالت : - هذه النقود لا تكفى .
فأخرج من جيبه رزمة من المال , وأعطاها لها فأخذتها وخرجت .

تجمع الرجال جماعات تحت أشجار حديقة البيت المهملة , يفترشون الأرض , وبدأت نسمات الأصيل تخفف من حرارة الجو , خرجت (صبح) ونادت على (أبو الليل)) و (سيد حمبوطة) , تجمعا حولها بعيدا عن بقية الرجال , قالت بعد أن قسمت المال بينهما ليقوموا بدورهم بتوزيعه على الرجال : - من الغد سنرسل إلى كل دكان ووكالة وورشة ومخزن يملكه الأجانب .
أراد (سيد) أن يتحدث فقاطعته قائلة : - أنا عارفة يا (سيد) ..... سيرفضون .
- وماذا سنفعل ؟
- سنقطع عنهم الماء والهواء .

فنظر الرجلان إلى بعضهما , وقال (أبو الليل) متعجبا : - الماء والهواء !!
- نعم . كل الحمالين والحمارين لن يتعاملوا معهم . وسنخبر كل العمال الذين يعملون عندهم أن يتركوا محلاتهم .

قال (سيد) وكأنه فهم ما تقصده (صبح) : - نوقفوا حالهم .
فقال (أبو الليل) وهو يسوى من شاربه : - ولم كل هذا ؟ إن رفضوا هذه المرة نكسر ونحرق وندمر .
وعقب (سيد) : - على رأيك .. نكسر ونحرق عددا قليلا , والباقى يخاف ويدفع .
فقالت (صبح) : - النابوت والشومة لم يعدا يصلحان اليوم .
فقال (أبو الليل) ساخرا وهو يرفع النبوت : - وماذا لدى الفتوة غير النبوت والشومة ؟
فأشارت إلى رأسه قائلة : - لديه عقله .
فرمى النبوت من يده وقال ضاحكا : - إذن نرمى النبوت ونعمل بعقولنا .
وضحك (سيد) قائلا : - ليس لدينا عقل , أهلنا لم يعلمونا القراءة , العقل للأفندية , نحن خلقنا للنبوت والنبوت خلق لنا .
التقطت (صبح) النبوت وقالت : - ومن قال إننا سنرمى النبوت ونكسر الشومة ؟ سيظلان , ولكن سيسبقهما ويقودهما العقل .
قال (أبوالليل) نافد الصبر : - المعلم عند علم بكلامك هذا يا معلمة (صبح) .
اقتربت منه وأعطته النبوت وقالت له : - افهمنى يا (أبو الليل) ... أنت تريد أن تكسر وتحرق وتدمر ... كم رجل من رجالنا سيقتل ويجرح ؟ وكم رجل سيلقى فى السجن ؟
- الكثير .
- ولو فعلت ما قلته أنا , ماذا سيحدث لرجالنا ؟
- لن يحدث لهم شئ .
- قد تقول إننا سنكتفى بكسر وحرق وكالة أو وكالتين للأجانب , والباقى سيخضع لنا , وقد يحدث العكس .

فقال (سيد) : - والله (صبح) معاها حق ... ماذا سنستفيد من قتل وجرح الرجال ... ثم لابد أن نحافظ على الوكالات والمحلات ليدفعوا ... أما إذا حرقنا وكسرنا فعلام سيدفعون ؟
وربت (سيد) على كتف (صبح) : - الله ينور عقلك يا (صبح) .
فقال (أبو الليل) ساخرا : – أخشى فى يوم من الأيام أن نلبس أفندية ونجلس على مكاتب .
فضحك (سيد) قائلا : - أو نشارك الأجانب فى تجارتهم وأعمالهم .
وقال (أبو الليل) مخاطبا (صبح) : - سنسير وراءك لنرى العقل أم النبوت ؟

(12)
- رفاعى هاشم -

أثناء عودته من توصيلة فى ساعة متأخرة من الليل , وبمروره بمنطقة مهجورة بجوار حى (السيالة) سمع صوت استغاثة , اقترب من مصدر الصوت , فشاهد امرأة ومعها فتاة ,

وعدد من الشباب يحيطون بهما , والمرأة كالنمرة الشرسة , خلعت حذاءها وأخذت تضرب كل من يقترب منها والفتاة , وتهجم عليه بأظافرها وأسنانها , انتفش شعرها وانحسرت ثيابها عن أجزاء من جسدها , والفتاة تقف بجوارها وقد ارتفع بكاؤها , أراد أن يواصل سيره , فتلك الأمور كثيرا ما يصادفها فى طريقه , ولكنه فى تلك المرة وجد نفسه متجها بالعربة نحوهم وحينما توسطهم رفع الكرباج وأخذ يهوى عليهم بكل قوة . كانوا حوالى أربعة من الشباب , يرتدون ملابس غريبة تلمع فى الظلام , ولمح الخناجر تبرق فى الظلام , حينئذ أخرج نبوتا كان يخفيه تحت قدميه فى العربة تحسبا لمثل تلك الأمور , ونزل وأعطى ظهره للحصان وتجمع الشباب عليه , وساعده طول النبوت وطول ذراعه أن يضربهم بدون أن يصلوا إليه , ولكن استطاع أحدهم أن يتجنب ضربته ويطعنه فى كتفه , ولم يشعر بالألم وواصل ضرباته , وسمع صراخ المرأة وهى تتجه إلى الذى طعنه ومعها غصن شجرة وجدته وأخذت تهوى به على رأسه فأخذ يطلق صرخات عاليه , وفجأة بدأ الشباب ينسحبون .... قال (رفاعى) : - ما الذى أتى بك هنا , وفى هذه الساعة من الليل ؟!

فقالت وهى تلم من شعرها وتحاول أن تستر ما ظهر من جسدها : - أنا غريبة عن الأسكندرية , وأحدهم ضللنا وقادنا إلى هنا , وكان الباقون فى انتظارنا .

- وأين كنتما ذاهبتان ؟
- إلى ابنة خالتى فى العطارين .
- أين فى العطارين ؟
- لا أدرى فقد كان العنوان فى القبجة التى فيها ملابسنا وسرقوها .
- ألم تذهبى إلى ابنة خالتك من قبل ؟
- أول مرة أحضر إلى الأسكندرية .
- والعمل ؟
- أنا اعرف أن زوجها يعمل بالجمرك , واسمه إبراهيم سيد
- إذن لن تذهبى إليه إلا غدا .

وهنا شعر (رفاعى) بألم شديد فى كتفه , ومد يده فوجد الدم يسيل بغزارة , وفزعت (إنشراح) حينما رأت نزيف الدم , وبحثت حولها ، وبدون أن تشعر مزقت ذيل قميصها الداخلى وربطته باحكام , ثم قالت : - يجب أن تذهب إلى المستشفى .

فقال وهو يصعد بعناء إلى العربة : - الأمر لا يستحق .... هيا أركبا .

فضمت الفتاة مذعورة إلى صدرها وتساءلت : - إلى أين ستذهب بنا ؟

- إلى البيت ... اسرعا , فقد يعودان مرة أخرى .

وبعد تردد صعدت والفتاة .

********** ********** ********** **********

وأمام بيت خشبى متداع فى حارة ضيقة , أوقف (رفاعى) عربته ، ودعا (إنشراح) والفتاة للدخول , ودخلت بعد تردد ، الظلام منتشر فى المكان ، صعد على سلم خشبى يصدر أنينا , أشعل عودا من الثقاب , ووقف أمام باب وطرق عليه , وبعد قليل فتح الباب وانتشر الضوء الصادر من الداخل ، وجاءه صوت أمه : - لم تأخرت يا (رفاعى) ... خالك منتظرك من مدة و....

فقاطعها قائلا : - معى ضيوف يا أمى .

- أهلا وسهلا تفضلوا

وجاءه صوت خاله قائلا فى مرح : - هل ستعزم الأسكندرية كلها على الأوزة ؟

دخلت (إنشراح) وصافحت أم (رفاعى) ونظرت الأم إلى ابنها مستفسرة فأومأ إليها , ورحب بها (شعير) , الحجرة ضيقة يضيئها مصباح من الغاز معلق على الجدران ، وفى المنتصف منضدة ، وفى جانب يوجد دولاب وتطل من خلف أبوابه المكسورة ألوان وأنواع من الملابس وبجواره منضدة صغيرة عليها أكواب الشاى ، وحينما جلس (رفاعى) ورأت الأم كتفه المربوط والدماء ، ضربت على صدرها فزعة وقالت : - ما بك ؟ هل تشاجرت مع أحد ؟

فوقفت (إنشراح) وطلبت مطهرا وقطنا .... غسلت الجرح وطهرته وربطته ، وكانت الأم و(شعير) يراقبان عملها ، ولفت نظرهما جمالها والأساور التى تحيط بمعصميها ... أما (رفاعى) فقد بوهت حينما رأها فى النور ، وأخذ يراقب حركات أصابعها ولمساتها وهى تربط الجرح ، سألت الأم ابنها : - ماذا حدث يا (رفاعى) ... الأ تقدر لهفتى عليك ؟

قالت (إنشراح) : - اللصوص كانوا يريدون سرقتنا ... ولولا سى (رفاعى) ....

فقالت الأم فى عتاب : - ألم أخبرك ألا تتشاجر مع أحد .

فقال (رفاعى) وهو يتحسس الجرح : - خذى الست لتغسل وجهها ... وهيا لنتناول العشاء .

وبعد قليل اجتمعوا على العشاء ، ولم ترد (إنشراح) أن تشاركهم العشاء ، ولكن الأم ألحت عليها وجلست بجوارها وشعرت (إنشراح) بالمودة نحوها .... سألتها : - ومن أين أتيت ؟

- من دمنهور .
- ماذا تعملين ؟

صمتت (إنشراح) ، فقال (رفاعى) : - ممرضة .

فسألته باندهاش : - وكيف عرفت ؟!

فأشار إلى جرحه . وقالت : - كنت ذاهبة لزيارة ابنة خالتى .

سألتها الأم : - وما اسمك ؟

- (إنشراح مغاورى)

فقال (رفاعى) : - الست (إنشراح) ستبيت عندنا الليلة .

فقالت الام بسرور : - إن لم تحملها الأرض نحملها فوق رؤوسنا .

نهض (شعير) وهو يسمح يديه فقال (رفاعى) : - اجلس يا خال ... لم ننتهى من الأوزة بعد .

- الحمد لله يا ابن أختى .. لقد أكلت كثيرا .

وقال وهو يتجه نحو الباب : - إذا ذبحتم أوزة أخرى أخبرونى .. ولا تأكلوها بدونى .

وبعد أن أخذت الأم (إنشراح) والفتاة إلى حجرتها ، تمدد (رفاعى) بعد أن أطفأ المصباح واسترجع ما حدث ... وببطئ تسرب النوم إلى جفونه .

********** ********** **********

قال الرجل وهو يدقق النظر : - من أنت ؟ .... أتعرفيننى ؟

فقالت (إنشراح) وهى جالسة فى عربة (رفاعى) : - أنا (إنشراح) ابنة نعناعة ، خالة سعدية زوجتك .

نظر إليها وأخذ ينشط ذاكرته ، ثم قال وهو يمد يده مصافحا : - أهلا وسهلا .. (إنشراح) ... معقول ، أنت كبرت وأصبحت عروسة ... وجميلة جدا .

فقال (رفاعى) متأففا : - اترك حكاية الجمال ، وأركب معنا لتقوم بتوصيلها إلى بيتك .

فنظر الرجل وراءه قائلا : - لا أستطيع أن أترك العمل الآن .. فنحن ما زلنا فى بداية اليوم .

- إذن الكتب العنوان فى ورقة وعد إلى عملك .

وبعد أن كتب العنوان أخذه (رفاعى) وسار من على طريق الكورنيش ، وحينما رأت الفتاة البحر وقفت وصاحت : - هذا هو البحر المالح يا أختى ؟

ضحك (رفاعى) وإنشراح ، وقام بإيقاف العربة ، وقال : - نعم ، هذا هو البحر المالح ... انزلا لتتفرجا .

وجلسوا على السور الصخرى ، نسمات الضحى تبعثر شعر (إنشراح) رغم أنها عصبت شعرها بالوشاح الأسود الذى أضفى جمالا على وجهها الأبيض المشرب بالحمرة ... أشارت إلى قصر المتزة الذى ظهر من على البعد وتساءلت : - ما هذا ؟

- إنه قصر الملك .

صمتت قليلا وسألته : - هل رأيت الملك ؟

- مرة واحدة .
- وما شكله ؟
- شكله ملك .
- أتمنى ان أراه .
- صعب .
- لم ؟ أليس ابن تسعة مثلنا .

نسيت (إنشراح) نفسها وبدأت تتحدث على طبيعتها ، لاحظت ذلك من دهشة (رفاعى) ، استدركت الأمر بسرعة وقالت لأختها : - هيا يا فرحانة ، لقد أثقلنا على سى (رفاعى) .

فقال وهو يتأمل ملامحها : - ابقيا ... فرصا لتستمتعا بالجو الجميل .

- إننا نعطلك عن أكل عيشك ... هيا .

وحينما وصلوا ، قال(رفاعى) : - هذا هو البيت .

قالت وهى تنظر إلى موضع الجرح فى كتفه : - لا أدرى كيف أشكرك يا سى (رفاعى) لقد عرضت نفسك للموت من أجلى .

قال وهو يتجنب النظر إليها : - أنا لم أفعل سوى الواجب .. وأى إنسان غيرى كان سيفعل ما فعلته.

- هل سأراك مرة أخرى ؟
- لقد تقابلنا بدون موعد ، ونحن لم نعرف بعضنا .. قد نتقابل مرة أخرى .

وصافحها وصافح أختها وأنصرف بعربته .

(13)

- أسكندر المعداوى -

بعد أن انتهوا من تناول الغذاء ، نهض أسكندر وهو يسمع تعليقات ضيوفه بالثناء على السمك ، تقدم ليدفع ثمن الغذاء ، فسأله (فؤاد البستاوى) الذى كان يجلس على مكتب ليحصل من الزبائن :

- من هؤلاء ؟
- إنهم عمال من دمنهور ، سيعملون فى ترميم الطوابى تبع المقاول (عمران)

فابتسم (فؤاد) قائلا : - حسابك وحساب و ضيوفك على المحل .

فمد (فؤاد) يده بالنقود قائلا : لو سمعك خالك المعلم (قنديل) لأعادك إلى دمنهور فى أول قطار .

- لولا شدة حرصه ما استطاع أن يمتلك محلات السمك فى أنحاء الأسكندرية .
- أشعر أنك غير مستريح بوجودك هنا .
- لم أكن أتوقع أن خالى سيكون بهذا الجفاء ، إنه يعاملنى كواحد من موظفيه .
- وماذا كنت تتوقع منه ؟
- كنت اتوقع أن يضمنى إليه وأعيش معه فى بيته .
- كيف ؟1 إن لديه بنتين لم يتزوجا ، وعلى كل ، كلها سنة أو سنتان وتتزوج أنت و (تحية) وتصبح المحلات من نصيبك .
- إنه يريد أن يزوج (سعاد) أولا ، لأنها الأكبر ، ولا أظن أن (سعاد) ستتزوج قريبا .

فضحك (إسكندر) قائلا : - نعم ، لأنها تشبه أباها .

- على هذا فزواجى من (تحية) فى علم الغيب .

ضحك (إسكندر) قائلا : - أنا على استعداد أن أحل مشكلتك يا (فؤاد) .

- كيف ؟
- أن أتزوج (سعاد) كى يوافق خالك على زواجك من (تحية) .

انبسطت أسارير (فؤاد) وأمسك بيد (أسكندر) : - تلك الخدمة لن أنساها لك ما حييت ، ولن تخسر شيئا ... فالمعلم (قنديل) سوف يعطيك ....

أبعد إسكندر يد (فؤاد) عن يده قائلا : - أتظننى معتوها ... لقد كنت أداعبك ... لو أعطونى الأسكندرية كلها كى أتزوج ابنة خالك فلن أوافق .

- كنت أظنك تضحى فى سبيل الصداقة التى بيننا ...
- ما تقول عنه ليس تضحية ، وإنما انتحار ...
- دعنا من هذا الموضوع الممل ... ألم ترى (رفاعى) اليوم ؟

- لقد بحثت عنه فلم أجده .

- ربما يكون مع الأستاذ (رمضان) يقضى له بعض المشاوير .
- ولماذا لا يشترى الأستاذ (رمضان) سيارة بدلا من ان يركب عربة حنطور ؟
- ومن أين له بالمال ؟
- الا يكتب فى صحيفة الأهرام ن ويؤلف كتبا ؟
- كل هذا لا يجلب له المال الكافى .
- أنت أدرى بحاله ، فأنت الذى تعيش معه .
- معيشتى مع (رمضان) فى شقته هونت على الكثير ، فهو إنسان نبيل ومثقف .
- أدعو لى ، فأنا الذى أشرت على خالك أن تشارك الأستاذ (رمضان) شقته .
- خالى كان يريد أن يبعدنى عن بيته فى أسرع وقت .
- نعم أراد أن يبعد النار عن البنزين ، وبالأخص حينما اكتشف ما بينك وبين (تحية) .

سادت فترة صمت قطعها فؤاد بقوله : - وفيم تريد (رفاعى) ؟

فأشار (أسكندر) إلى الجالسين : - كان قد أخبرنى عن حجرة نؤجرها لهؤلاء الرجال .

- ربما تجده فى بيته .
- أنت تعرف أن (رفاعى) إذا خرج فى الصباح لا يعود إلى بيته إلا فى المساء .
- ربما اعطى لنفسه أجازة من العمل هذا اليوم .

- سوف اذهب إلى بيته واترك له خبرا .

واشار إلى الرجال فنهضوا وأتبعوه .

******** ******** ********

- وماذا قال لك الطبيب ؟
- أن أسترح بعض الوقت إلى أن يلتئم الجرح .
- ألم تعرف الذين أعتدوا عليك ؟
- كان الظلام فى كل مكان ... وكل ما عرفته أن ملابسهم كانت غريبة ، وكذلك لهجتهم .

مد (رفاعى) يده وأخرج خنجرا من تحت الوسادة وقال : - وهذا الخنجر سقط من أحدهم أثناء هروبهم .

فقال (مخيمر) وهو يتأمله : - ولماذا لم تذهب به إلى الشرطة ؟

فقال (رفاعى) : - وماذا سأستفد يا أخ (شافعى) من وراء ذلك ؟

- أنا اسمى (مخيمر) وهذا (شافعى) .
- لا تؤاخذنى فلم أتعرف عليكما إلا الآن .

فقال (أسكندر) : - هل أخبرت أحدا من رجال المعلم (كحلاوى) ؟

فقال فى أسى : - رجال المعلم (كحلاوى) ليس لهم من هم سوى جمع الفردة .

- أظن من الضرورى أن نخبرهم ... أعطنى هذا السكين .

تأهب (أسكندر) ومن معه للإنصراف فقال (رفاعى) : - ابقوا لنتناول الغداء معا .

- لقد تناولنا الغداء عند (فؤاد) ، وهو يسأل عنك .
- لم أستطع أن أذهب إليه بالجرائد ، فبعد أن قمت بتوصيل الست التى كانت معى ، شعرت بإعياء شديد .
- كدت أنسى .. أين الحجرة التى حدثتنى عنها ، مخيمر وشافعى وحسنين يريدون تأجيرها .
- إنها فى نفس العمارة التى يسكن فيها الأستاذ (رمضان) وفؤاد ، هى حجرة فوق السطح ... ولكن لا أظن أنها ستصلح للرجال .

فقال (شافعى) : - لا تشغل بالك يا أخ (رفاعى) ، سنجعلها تصلح إن شاء الله .

******* ******* ****** *****

قال (أسكندر) وهو يسير وخلفه مخيمر والشافعى وحسنين يتعثرون فى طريقهم :

- ما رأيكم تأتون معى لتتعرفوا على رجال المعلم (كحلاوى) أو تجلسوا على المقهى حتى أعود .

فقال (حسنين) – معرفة الناس كنز ، نأتى معك .

وسأله (مخيمر) : - ومن المعلم (كحلاوى) هذا ؟

- أكبر فتوة فى الأسكندرية .... وطالما أنتم فى الأسكندرية ، فلابد أن تتعرفوا حتى على رجاله .

****** ********** ******* *********

- ما بك يا (أبو الليل) ؟
- أيعجبك ما نحن فيه ؟ الأفضل أن نكسر النبابيت ونجلس فى بيوتنا .
- لا أفهم ما تقصده ؟
- بصراحة المعلم لم يعد يصلح ، وأصبحت ابنته هى المتحكمة فى كل شئ ، كان من الواجب أن يستمع إلى كلامنا .

- تقصد أن نحرق ونكسر بعض محلات الأجانب ؟
- نعم ... لقد ضاعت هيبتنا ، ولم تعد لنا كلمة على هؤلاء .

أخذ (سيد حمبوطة) ينفث دخان النرجيلة ، ثم نظر إلى وجه (أبو الليل) ؟، ثم قال :

- ألا يعجبك كلام المعلم ... أم أنك رافض لكلام ابنته (صبح) ؟
- بصراحة يا (سيد)... أنا أريد الانفصال عن المعلم .

هز (سيد) رأسه وتوقف عن نفث الدخان ، ونظر حوله ، وقال وقد خفض من صوته :

- المعلم ما زال قويا ، وأغلب الرجال يأتمرون بأمره ، نعم أنا وأنت من أقوى الرجال ، ولكن المعلم على صلة وثيقة بالسلطة هنا فى الأسكندرية ، ومعارفه كثيرون ... وأنت تعرف أن المعلم ليس سهلا ، وقد تخسر كثيرا لو حاولت الخروج من قبضته .

فقال بضيق : - وإلى متى سنظل صبيان المعلم ؟

- بل قل رجال المعلم الأقوياء .
- لقد كسر كلامنا ، وأخذ برأى ابنته .
- يا أبو الليل ... منذ ان رفض المعلم زواجك من ابنته وأنت لا تطيق المعلم ولا ابنته .

شمخ بأنفه وقال : - وما عيبى حتى ترفضنى (صبح)

- (صبح) متعلمة ، وأنت على ذمتك امرأتان ، وتكبرها بعشرين عاما .
- ولكنى اليد اليمنى للمعلم .
- المعلم على استعداد أن يقطع يده ولا يجبر ابنته على شئ .. أنت تعلم أنه يحبها كثيرا .

نظر (أبوالليل) إلى (سيد) غاضبا قائلا له :

- أانت معى أم ضدى يا (سيد) ؟

فوضع (سيد) يده على يد (أبو الليل) وقال : - أنا معك ولكنى لن أتركك تغرق وتغرقنا معك ، ما تفكر فيه خطير ... ولم العجلة ؟ الأمر فى النهاية صائر إليك .

- وصبح ؟
- لن يقبل الفتوات بامرأة .
- ولكنهم يقبلونها الآن .
- لأنها ابنة المعلم .

سادت فترة صمت بينهما ، ثم قال (سيد) : - أتدرى ما أنت فى حاجة إليه الآن يا أبو الليل ؟

- ما هو ؟
- أنت فى حاجة إلى رجال .

فأشار إلى الجالسين : - هاهم يسدون عين الشمس .

- إنهم رجال المعلم ... أنت فى حاجة إلى رجال لك .
- وكيف سأحصل عليهم ؟
- اقترب أكثر من المعلم ... لقد ابتعدت عنه فى الفترة الماضية بما فيه الكفاية ... حاول أن تلتصق به ، بحيث لا يفرق الرجال بينك وبينه .
- وصبح ؟
- تلك منطقة خطر .. لا تقترب منها الآن على الأقل ، وسيأتى الوقت المناسب لتتخلص منها.

دخل (أسكندر) وصافح (سيد) و(أبو الليل) بتوقير واحترام ، وسأله (سيد) عن الرجال الواقفين خلفه ؟، فقال : - إنهم من الصعيد ، وجاءوا ليعملوا فى ترميم الطوابى .
فضحك (أبو الليل) قائلا : - الأسكندرية ليست فى حاجة إلى مزيد من الرجال .
فقال (سيد) مخاطبا (أسكندر) : - اخبر ضيوفك يجلسون مع الرجال فى الخارج ، ومشاريبهم على حساب المعلم أبو الليل .
مال (سيد) على إذن أبو الليل قائلا : - ألم أخبرك إنك فى حاجة إلى الرجال .
وبعد أن خرج الرجال ، أخرج (أسكندر) الخنجر وأعطاه لأبو الليل ، فسأله أبو الليل وهو يتأمل الخنجر : - ما هذا ؟
- مجموعة من الشباب كادوا يقتلون صديقا لى صاحب عربة حنطور .
تناول (سيد) الخنجر وتأمله ثم قال : - إما أن يكون الشبان من الغجر ، أو من العربان .
فقال (أبو الليل) : - ألم أخبرك أن سمعتنا ضاعت ، ولم يعد أحد يهابنا .
- وما علاقة هذا بذاك ؟
- الغجر أو العربان لو يعلمون بأسنا ما تجرأوا على مهاجمة العربجية .
- قد لا يعرفون أنهم تحت حمايتنا .
- حتى لو عرفوا ... فنحن لم نعد نخيف أحدا
ارتفع لغط وضوضاء خارج المقهى ، ووقف الرجال ، وتعالت أصواتهم ، نهض (سيد) و (أبو الليل) ليستطلعا الأمر ، فوجدوا عددا من الفتوات يحيطون بمخيمر وعلى وشك أن يضربوه بالنبابيت ، فاختطف (شافعى) نبوتا وناوله له ، فاتخذ (مخيمر) من مكانه مركزا ثابتا ودار بسرعة حول نفسه متلقيا ضرباتهم وبسرعة خاطفة انهال عليهم ، ساعده فى ذلك طول جسمه ، وطول ذراعه ... تفرق الرجال من حوله متجنبين ضرباته ، وتقدم عدد آخر من الفتوات من مخيمر ، فقفز (شافعى) وسطهم وقد اختطف نبوت أحدهم ، وحمى ظهر (مخيمر) وفى لحظة ارتفعت النبابيت ، وقبل أن تهوى على الأجساد والرؤوس ارتفع صوت أبو الليل ، فتراجع الرجال ، وهبطت النبابيت ، تقدم أبو الليل وسأل بغضب :
- من أنتما ؟ وما الذى جاء بكما إلى هنا ؟
فتقدم (أسكندر) وقال بفزع : - هذا مخيمر وشافعى ، كانوا معى ، وتحدثنا إليك منذ قليل .
فأشار (أبو الليل) للرجال بالجلوس ، وأشار لمخيمر وشافعى وأسكندر أن يتبعوه ، وحينما جلسوا أمامه ، قال لهم بصوت قوى : - أول مرة يضرب أحد فتوات (كحلاوى) أمام أبو الليل ، سينتشر هذا الخبر فى طول الأسكندرية وعرضها ، إشارة من إصبعى للرجال وتصبحان كرماد هذا الفحم .... ما الذى حدث ؟
فقال (مخيمر) والعرق يتصبب من جبينه وصدره يرتفه وينخفض :
- إنهم يسخرون منى ، ويضحكون على .
فقال (أسكندر) وهو يرتعش : - ليس لك حق فيما فعلته ، لو أخبرت المعلم (أبو الليل) لأخذ لك حقك.
فقال (مخيمر) بكل كبرياء : - الرجل يرد الإهانة ولا ينتظر من أحد أن يردها عنه .
فتدخل (اسكندر) وأبعد (مخيمر) من أمامه : - أنا أعتذر يا معلم عنهما ... والذى تحكم به سننفذه ولو على أعناقنا .
دق (أبو الليل) بالنبوت على الأرض وقال غاضبا : - الخبر انتشر يا اسكندر إن فتوات (كحلاوى) ضربوا فى دارهم .

- نحن ضيوفك يا معلم .
- والضيف لابد أن يكون مؤدبا ويعرف الأصول .

فقال (أسكندر) بتضرع : - الذى تحكم به سننفذه 0

- يضربوا كما ضربوا .

فوقف (مخيمر) غاضبا ، وكان النبوت ما يزال فى يده ، وقال : - يا معلم رجالك هم الذين لا يعرفون الأصول ، وسوف أخرج من هنا إما قاتل أو مقتول .

ووقف بجواره (شافعى) ودق بالنبوت على الأرض بعد أن شمر عن ساعديه قائلا :

- إما قاتلان أو مقتولان .

فوقف (إسكندر) بينهم باهت الوجه ، يابس الشفتين : - صلوا على النبى .. يا معلم (أبو الليل) إنهما لا يدركان ما يقولانه ، ولا يعرفان شيئا عن العادات المتبعة هنا .

واتجه (أسكندر) إلى (سيد) الذى كان يتابع ما يحدث فى صمت وقال : - قل شيئا يا معلم سيد .

وقف (سيد) وتقدم من الرجلين ، ورفع عصاه وحركها بينهما وقال فى حزم : - كما قال (أبو الليل) سينتشر خبر أن رجلين غريبين ضربا الفتوات ... وإما أن يضربا أمام الناس ، وتحمل عظامهما متكسورة إلى أقرب مستشفى وإما ....

فأقترب منه (أسكندر) وأمسك بيده وقال : - نعم .. نحن نريد ما بعد إما ..

جلس (سيد) وأخذ يدخن ، وساد صوت القرقرة وسط توقع الجالسين ما سيقوله (سيد) ، قال:

- أن ينضم الرجلان إلى الفتوات ، وما حدث خلاف بين الفتوات كثيرا ما يحدث ، ويتصالح الرجال أمام كل الناس .

أراد (مخيمر) و (شافعى) أن يعترضا ، فقال لهما (أسكندر) بصوت لا يسمعه الآخرون :

- لقد كتبت لكما حياة من جديد ، أنتما لا تعرفان خطورة ما فعلتماه ... أقبلا ما عرضه المعلم (سيد) وإلا لن تخرجا من هنا على أقدامكما .

فقال (شافعى) : - لقد نزلنا الأسكندرية لنعمل فى ترميم الطوابى والقلاع يا (أسكندر) .

فقال (أسكندر) بنفاد صبر : - لا عمل لكما فى الأسكندرية إلا ما أمر به المعلم (سيد) .

سادت فترة صمت عميق بين الرجال ، قطعها (مخيمر) وهو يتقدم من المعلم (سيد) :

- ما يقول به المعلم (سيد) على العين والرأس .

وأتجه إلى المعلم (أبو الليل) : - وكلنا فى خدمة المعلم (أبو الليل) .

وفعل (شافعى) ما فعله (مخيمر) . ثم قال المعلم (سيد) مخاطبا (مخيمر) :

- اذهب وأدعوا الرجال على مشاريب ، فأنت لم تعد ضيفا .

فأخرج (مخيمر) محفظته فى حماس وقال بصوت مرتفع : - نزل يا جدع مشاريب لكل من فى المقهى على حسابى .. بعد إذن المعلمين طبعا .

فقال (أبو الليل) وهو يتأمله : - فتوة بحق وحقيق .

فمال عليه (سيد) وأسر فى أذنه : - بدأت فى جمع الرجال حولك يا أبو الليل ، سيكونان طوع يدك .

(14)

- ميدان القناصل -

نسمات مضمخة برائحة البحر تهب على الميدان الفسيح ، تداعب بواكى المحلات والمقاهى والفنادق الراقية المنتشرة فى نواحيه ، عدد من العصافير فوق التمثال الشامخ الذى يتوسط الميدان ، تثب متنقلة فوق رأس الحصان وذيله ، ثم تثب فوق عمامة الراكب فوقه ، اليدان قابضتان على اللجام بقوة ، وإن كانت بوادر جموح وانطلاق تظهران من حركة قدم الحصان وكأنه يوشك أن يقفز فى الهواء ، إلا إن نظرة الحصان إلى موقع القدم تمنعه كما يمنعه اللجام .

الهدوء يشيع فى الميدان ، فى ذلك الضحى الربيعى . عدد من السيارات الفارهة تقف أمام مبانى بعض القنصليات الأجنبية ، يتأملها بغرابة عدد من البوابين النوبيين والسودانيين الجالسين على أبواب العمارات فى كسل واسترخاء ، وعدد من العمال منهمكين فى تلميع واجهات الفنادق الزجاجية .

فى ساحة فندق من الفنادق الفاخرة كانا يجلسان يدخنان ويشربان القهوة بعد أن تناولا الفطور ، أحدهما فرنسى تجاوز الخمسين بقليل ، فارع الطول ، نحيف ، أبيض البشرة ، بدأ الصلع يغزو جانبى رأسه ، أنيق فى ملبسه ، يعمل محاضرا فى المعهد الفرنسى ، وله عدد من الكتب المترجمة والمؤلفة عن الحضارة المصرية ، كان يعمل فى السفارة المصرية فى القاهرة ، ثم انتقل إلى الأسكندرية واستقر فيها ، والآخر مصرى لم يتجاوز الأربعين ، صحفى فى جريدة الأهرام ، يرتدى حلة غامقة اللون ، ونظارة سميكة العدسات ، لا يهتم بهندامه ، شعر ذقنه لم يحلق منذ أيام .

كانا يتحدثان ، صمت (جوستاف ديوى) حالما يحشو البايب ، وكان الآخر يتابعه باهتمام ، قال بعد أن أشعله : - هنا شئ غريب عندكم لا أفهمه .

وأشار إلى رؤوس الجالسن حوله وأمامه ، فتحفز هذا للرد والدفاع ، فأشار له قائلا :

- مسيو (رمضان) ... لا أريد أن تفهمنى خطأ ، لقد قرأت كثيرا عنكم وكتبت ، وتعاملت معكم سنوات طويلة ، ولاحظت أن تفكيركم لا يرتكز على الواقع فى الأغلب ، وإنما على ما تتمنونه ، وتنطلقون من تلك النقطة ، أنتم تختزلون مساحات واسعة بدون أن تفكروا فيها ، تبدأون من وهم ، ولن تصلوا إلا إلى وهم .

ابتسم (رمضان أبو المكارم) وضرب سطح المنضدة بقبضته نافد الصبر قائلا :

- مسيو (جوستاف) ... كنا نتحدث عن (عرابى) ورفقائه وإذا بك تتحدث عن عيب فى تفكيرنا ... ما علاقة هذا بذاك ؟ !

واستأنف (رمضان) قوله ساخرا : - على ما يبدو أنك أسرفت فى الشرب والسهر بالأمس .

التمعت عينا (جوستاف) وافتر ثغره عن ابتسامه ، وضرب يد (رمضان) الممدودة قائلا :

- سيأتون براقصة بلدى رائعة ... أكيد لن ترفض دعوتى لك هذه المرة .

خيل إلى (رمضان) أن (جوستاف) يحب مصر أكثر من فرنسا وطنه الأصلى ، يستمع إلى الأغانى المصرية ويحفظ بعضها ، و إلى الشعر وإلى الموسيقى ، ومغرم بالرقص الشرقى ، ويمضى سهراته بين الكباريهات والمقاهى البلدية ، يحب أن ينخرط فيما ينخرط فيه عامة الناس من الطبقة الشعبية ، وكان يحرص على أن يتحدث بلهجتهم ويستخدم إشاراتهم فى أثناء الحديث ، وفى مرات ارتدى الجلباب البلدى ، ووصل به الأمر أن أعجب بفتاة إسكندرانية ، وأراد أن يتزوجها ، ولكن أمور كثيرة حالت دون ذلك . ظن (رمضان) أن ما يفعله (جوستاف) نوعا من الإدعاء والتظاهر ، ولكن بعد ذلك أيقن أن (

جوستاف) يحب البلد ويحب أهلها ، ويحب أن يقضى عمره هنا ، مع أنه تلقى أكثر من عرض مغر أن يعود إلى فرنسا ، ولكنه رفض وفضل البقاء ، وكان يطيب (لجوستاف) أن يختبر (رمضان) فى أسماء المطربين وأسماء الراقصات والمقامات الموسيقية ، ولأن كل هذا كان خارج اهتمامات (رمضان) كان يرسب فى الامتحان ، كان يحسد (جوستاف) لأنه يعرف كيف يعيش ويستمتع بالحياة ، يأكل ويشرب ، يسمع ويشاهد ، يفكر ويتأمل ، كل هذا يفعله بحماس وحيوية ، لم يكن ينام إلا قليلا كى لا تفوته متعة من تلك المتع ، وكانت متعا فى غاية التناقض ، فهو يتدنى إلى أقصى حد ، ويتسامى إلى حدود عليا ، فمرة يكتشف أنه قضى وقتا فى لوكاندة سيئة السمعة مع عاهرة ، وليلة أخرى يقضى وقتا فى أرقى فنادق الأسكندرية أو القاهرة مع الوزراء والسفراء ، وتارة يستمع للإسطوانات البذيئة ، وأخرى مستغرقا فى الاستماع إلى أجمل السيفونيات لعباقرة الغرب ، تنبه (رمضان) من سبحاته ،وسأل (جوستاف) الذى كان يراقب فتاة إيطالية تجلس غير بعيد عنهما ، ولفت نظره جمالها الفاتن .

قال (رمضان) : - دع أمور السهر والراقصات ، ونعود إلى ما كنا نتحدث فيه .

- أتعرف يا مسيو (رمضان) أنى معجب (بعرابى) ورفقائه ، وإصرارهم على تغيير واقع مضى عليه مئات السنين .

فقال (رمضان) فى حماس : - إن مصر كلها معجبة (بعرابى) .

انهمك (جوستاف) فى حشو البايب ثم أشعله وأخذ ينفث نفثات ضايقت (رمضان) ، واستأنف (جوستاف) حديثه قائلا : - ولكن للأسف سينتهى الأمر بعرابى إما إلى القتل أو إلى السجن .

فقال (رمضان) وهو يرتشف من فنجان القهوة الذى أتى به النادل توا : - لست الوحيد الذى يقول ذلك أو يتمناه ، بل جميعكم ... كل الأجانب يتمنون ذلك .

أفرغ (جوستاف) البايب وأعاد حشوه مرة أخرى قائلا : - دعك من الأمنيات ... واسألنى لم توقعت ذلك ؟

- لم يا بروفيسور ؟
- الأمر أكبر من ضياع إمتيازات كان يتمتع بها الأجانب فى مصر إذا سيطر عرابى على البلد .
- إذن ما الأمر ؟
- دعنى أسألك سؤالا .. ماذا ستفعل الشعوب التى تسيطر عليها إنجلترا وفرنسا إذا سمعت بقصة الضابط الذى قاوم الملك ، وقاوم نفوذ فرنسا وإنجلترا وبقية الدول ؟
- لا شك سيطمح أحد أبنائها إلى ما فعله عرابى .
- أتصدق أن أخبار عرابى وصلت إلى الهند ، وهنا الخطر الذى يشكله عرابى ، ليس فى مصر وحدها .

أخذ (رمضان) يتأمل الموائد والجالسين عليها من مختلف الجنسيات ، ثم سأل مسيو (جوستاف) : - ومن تظن الذى سيقضى على عرابى .. إنجلترا أم فرنسا ؟

- اظن أن فرنسا لن تمانع أن تقوم إنجلترا بذلك .

فقال (رمضان) بتحد غريب : - وإذا نجح عرابى .

ابتسم (جوستاف) وصمت قليلا مفكرا ، ثم قال : - عرابى غبى ... متردد ... الجيش فى يده ، وعامة الشعب يؤيده ، ماذا ينتظر ليغير كل ما حوله فى يوم وليلة ؟

- ألا ترى أن هناك تناقضا فى كلامك ؟

- تقصد أن فرنسا وإنجلترا لن يسمحا بذلك ؟ ليس هناك تناقضا بالمرة ... إذا لم تجد فرنسا وإنجلترا بديلا عن عرابى ستتعاملان معه اليوم ، وتؤيدانه وتساعدانه ، ثم يقضيان عليه غدا .

ضحك (رمضان) بملء فيه ، حتى أن الجالسين نظروا إليه ... خلع نظارته ، ومسح وجهه بمنديله : - إذن عرابى مقضى عليه لا محالة .

- أتشك أنت فى ذلك ؟
- لا تنس أنك تتوقع ذلك المصير كلما صادف عرابى عقبة ، سواء من الخديوى أو تركيا أو إنجلترا .
- أعترف أنى لم أكن أقدر عرابى حق قدره ، ولكن حتى الآن الظروف هى التى ساعدته .

وفى تلك اللحظة انضمت إليهما (جان ديور) ، شابة فرنسية فى مقتبل العمر ، ممشوقة القوام ، تنطق ملامح وجهها الدقيق بملاحة وجمال آخاذ ، ترفل فى رداء أبيض وكأنها فراشة من فراشات الربيع ، ويتوج شعرها الأشقر قبعة بيضاء ، وقفت أمامهما ووضعت حقيبتها على المنضدة ، وقالت بصوت مترع بالأنوثة : - أنا أراقبكما منذ مدة ، وأنتما منهمكان فى الحديث ... طبعا فى السياسة .

نهض (جوستاف) وقدم لها مقعدا ، جلست وهى تتبادل النظرات مع (رمضان) ، قال (جوستاف) وهو يتملى من ملامحها : - جان .. أنت تزدادين جمالا كل يوم ، من يراك يظنك أميرة من أميرات ألف ليلة .

ابتسمت ابتسامة أضاءت وجهها وضربت بأصابعها الر قيقة يد (جوستاف) فى حياء وعتاب :

- أنت مجامل يا (جو) .
- ليس هذا رأيى ، ولكنه رأى مسيو (رمضان) أيضا ؟.

فرفعت عينيها التى تظللهما أهدابها الطويلة وقالت مندهشة : - مسيو (رمضان) !! ظننت أنه لا يهتم إلا بالسياسة وأمور الصحافة .

فقال (جوستاف) ضاحكا وهو ينظر إلى (رمضان) : - نعم السياسة والصحافة و (جان) . وآه لو تعلمين ماذا يقول عنك .

جفف (رمضان) عرقه ، وأحكم من ربطة عنقه العريضة ، ثم رتب أوراقه فى الملف الذى يصاحبه دائما ونهض قائلا : - (جوستاف) .. لا داعى لمثل هذا الكلام .

فاتجهت إليه (جان) وسهام لحظها يخترق قلبه : - مسيو (رمضان) إن كان الكلام الذى تتحدث به عنى سيئا فأنا من القوة بحيث أسمعه وأفنده ، أما إذا كان الكلام عنى لطيفا ، فيسعد أى امرأة أن تسمع إطراء من أى شخص لا سيما وإذا كانت تقدر هذا الشخص .

فقال (رمضان) بتجهم مصطنع : - أنا شاكر لك هذا .

- انا أقرأ مقالاتك فى (الأهرام) وأعجب بها .

فقال (جوستاف) : - هو أيضا يقرأ مقالاتك فى (البروجرية اجبسيان) .

- برافو ... وما رأيك ؟

فقال (جوستاف) : - يراها جريئة ومتحررة .

ابتسمت ، اقتربت بوجهها منه ، شعر أنها تقتحمه بجمالها وأنوثتها الطاغية ، كان قد أقام خطوطا دفاعية بينه وبين النساء ، بعد مروره بتجربة حب فاشلة ومريرة ، وبمرور السنوات أثبتت تلك الخطوط صمودها وكفاءتها ، وتفرغ للصحافة والكتابة ، وفى مدة

وجيزة استطاع أن يحقق شيئا ، فهاهو قد أصدر ثلاثة كتب ، وأصبح له مكانة متميزة فى الجريدة ، ولكن مع (جان) بدأت تلك الخطوط تتهاوى فلم يمض على معرفته بها سوى أسابيع ، كان قد رآها أول مرة مع (جوستاف) أثناء محاضرة ألقاها (كوكس) قنصل إنجلترا فى الأسكندرية فى المعهد الفرنسى وعرف أنها تعمل صحفية فى جريدة (البروجرية اجبسيان) وتكررت اللقاءات فى أماكن ومناسبات مختلفة ، شعر أنها نوع جديد من النساء لم يسبق أن قابله أو تعامل معه من قبل ، فشئ طبيعى ألا تصلح معها خطوط المقاومة ، فخطوط دفاعه لم توضع أو تصمم لأجلها ، وأحس أنه مقبل على تجربة تختبر مقاومته ، وقد لا يخرج منها سليما على أقل تقدير ، وإن كانت علاقة (جوستاف) بها تمثل لغزا ، وأراد أن يضع لها اسما ، هل الذى بينهما صداقة أم حب ؟ أو ليس بينهما شئ ، مجرد أنهما فرنسيان جمعتهما الظروف ، إن ما يحكم علاقة الرجل والمرأة الغربيين غير ما يحكم المرأة والرجل هنا ، وها هو (جوستاف) يلقى بحجر على سطح البحيرة الهادئة بينهما ، ليعرف إلى أى مدى وصلت علاقة (رمضان) (بجان)... هل كان يقصد شيئا بكلامه هذا ؟

- فيم كنتما تتحدثان مسيو (رمضان) ؟

أخرجه صوتها من سبحاته ، فقال وهو يتأمل شفتيها وأسنانها البيضاء المنتظمة :

- مسيو (جوستاف) يرى أن الذى ساعد فى ظهور عرابى مجموعة من الظروف .

نظرت إلى (جوستاف) وقالت بجرأة : - أنا لا أتفق معك .

- لنقل إنه استغل ظروفا أحاطت بالبلد ، بعض تلك الظروف محلية وأخرى عالمية .
- أفهم ما تقصده ، ولكن عرابى هذا الضابط الأسمر الفلاح ، ليس على ثقافة ولا وعى سياسى ليعرف تلك الظروف ، ويعرف كيف يستغلها .
- وهل من الطبيعى أن يصل هذا الضابط الذى لم يتلق من التعليم أن يؤهله أن يصل إلى ما وصل إليه ؟
- لقد أجريت معه لقاء منذ مدة ... عرابى لا يعرف شيئا عن كل ما تتحدث عنه ، ولا يعى شيئا سوى أن لديه إيمانا راسخا ببلده ، وبعدالة قضيته ، وتجمع مع هذا الإيمان نوع فريد من الفروسية الأصيلة ، وقوة جاذبية استطاع بها أن يجمع حوله عددا من الضباط الذين اتصفوا بما اتصف به .

قال (رمضان) وهو ينظر إليها باعجاب : - أنا أتفق معك ، فلا علاقة هنا بمسألة الظروف واستغلالها .

مضت فترة صمت ، أفرغ (جوستاف) خلالها غليونه ثم ملأه ، وكأنه وجدها فرصة ليفكر فيما قالته (جان) ، قال : - أنا لم أقابله ، ولكن حتى لو كان الأمر على ما تقولانه ، فإن نهاية عرابى معروفة ، وهى نهاية مأساوية .

فسأله (رمضان) : - كيف؟

وعقبت (جان) متعجبة : - نهاية ... ومأساوية !!

- تلك الميزات التى يتصف بها عرابى هى عيوب فى نفس الوقت ... الإيمان القوى الذى تتحدثين عنه هو نوع من الجمود والانغلاق ، فهو يصادر البدائل التى يحتمها الواقع والصراع النابع من الواقع ، وهذا النوع من الفروسية الأصيلة ، قد يكون سببا فى هلاك صاحبه ، لأنه يجنح به إلى التضحية ، وبصفته زعيم لن يضحى بنفسه فقط ، وإنما سيضحى ببلده ومن معه ، فهو وبال على نفسه ، وعلى من حوله .

فقالت (جان) : - كلامك من الوجه النظرية مشكوك فيه، فما بالك لو طبق عمليا ؟

نظر (جوستاف) فى ساعته ، وقال وهو يتأهب للانصراف : لقد اقترب موعد محاضرة لى فى المعهد ، إذا أذنتما لى .
فنهض (رمضان) لينصرف هو الآخر ، فقالت (جان) : - وهل سأبقى وحدى .
فقال (جوستاف) : - اجلس مسيو (رمضان) ... فقد تنتهى الجلسة بينكما بمقال عن عرابى .
وبقى (رمضان) وأخذ يتطلع إلى ساعته ، ويفكر فى حجة للانصراف ، وكانت تراقب حركاته ، وشعر أنها تقرأ أفكاره ، قالت له : - مسيو (رمضان) أشعر أنك تحاول أن تهرب منى ، فما من مكان تواجدنا فيه إلا وأراك تتعمد الهروب .
هجوم مفاجئ لم يتوقعه ، شعر أنه محاصر ، وحاول أن يتجنب النظر إلى عينيها ، قال : - أراك دائما مشغولة ... وحولك المعجبون كثيرون .
صمتت قليلا ، ثم قالت وهى تبتسم وترسم دوائر بإصبعها على مفرش المائدة : - وتريد أن تكون المعجب الوحيد .
كالطائر المعلق فى شرك كلما حاول أن يتخلص ازداد تورطا ... قالت بدلال : - أتنكر أنك معجب بى ؟
- الكثيرون حولك معجبون بك .
- إعجابك من نوع خاص .
- لم تقولين ذلك ؟
- لأن كل من حولى يريد الاقتراب بينما أنت تهرب .. أتخافنى أم تكرهنى ؟
- ولم لا يكون الاثنين ؟
مطت شفتيها ، وأزاحت خصلة من شعرها بعيدا عن عينيها :
- خوف وكراهية فى آن واحد ... أنت معقد يا مسيو (رمضان) .
قالت هذا ثم نهضت قائلة : - ما رأيك أن تتناول العشاء معى الليلة ؟
تسارعت دقات قلبه ، وشعر بحبات العرق على جبينه ، لا فائدة من الهرب ... إذن ليتقدم ، سألها : - أين ؟
فقالت بدون إكتراث : - فى بيتى .
ولم تنتظر منه ردا ، وقالت قبل أن تنصرف : - سأنتظرك فى الثامنة .
وانصرفتت تتهادى كيمامة رشيقة .

(15)
- رمضان أبو المكارم -

سأله (رمضان) : - وما الذى جعلك تتوقع حدوث شئ خطير فى هذا الصيف ؟
ارتشف (صديق الهلالى) رشفات من كوب الليمون البارد ، وصمت قليلا ، ثم قال وهو يضغط على حروف الكلمات كعادته : - وتيرة الأحداث سريعة ، كل يوم حدث ، بل فى اليوم الواحد أكثر من حدث على أعلى المستويات ، حالة غليان .. مجلس النواب ، الوزارة ، القنصل الإنجليزى والفرنسى ، وبقية قناصل الدول ، السرايا ، وفد من وإلى تركيا ... خطوط كثيرة تتقاطع ، إرادات تتصادم .
صمت قليلا ثم قال : - أنا أشم فى الجو رائحة شئ يعد .. أنت لو سرت فى الشارع ستحس فى نفوس الناس شيئا من التذمر والاستفزاز والتوجس .

كان شديدالإعجاب به ... اعتبره أستاذه فى الصحافة ... لم يتزوج وانقطع للصحافة ، وكانت كل حياته ، وكما أعطى وأخلص لها أعطته شهرة ومكانة .. مقالاته تنشر فى أكثر من جريدة ، وتترجم لتنشر فى بعض الجرائد والمجلات الأجنبية ، تنقل بين جرائد عديدة ، وأنتهى به المطاف فى جريدة الأهرام ، تعلم منه الكثير ، حتى أنه أراد أن يسير على نهجه فى كل شئ .
استأنف قوله ، ولسانه يتعلثم ، فاحيانا لا يقدر على اللحاق بغزارة أفكاره ، وأصابعه الطويلة النحيفة تعبث بقلم فى يده : - أت..... أتعرف حينما يكون الج...جو مهيئ لسقوط مطر ... الفترة التى تسبق الرعدوالبرق ... الرياح تهب بسرعة وقوة ، وتشم رائحة غريبة فى الجو .
فسأله : - وهل ما سيحدث شئ طيب أم غير ذلك ؟
صمت قليلا ، ثم قال بأسف : - طالما بعيد عن أيدينا وفوق إرادتنا فهو ليس بخير .
- وما أدراك أنه بعيد عن أيدينا وفوق إرادتنا ؟
- أنت تكتب مسرحيات ... نحن كشخصيات على المسرح ، أسيرة ما يكتبه المؤلف ، وتسير وفق إرادته .
- قد تخرج الشخصيات وتتمرد على ما يكتبه المؤلف .
ضحك طويلا ، ثم نهض متأهبا للانصراف وقال : - إنه نوع من الانتحار لو فعلت ذلك .
وربت على كتفه قائلا : - المهم كن متيقظا لما يجرى ، سوف أذهب إلى القاهرة ، وأعود بعد غد لأمر مهم .

********** ********** **********

دخل (فؤد) الشقة ، فوجد حلة جديدة على فراش (رمضان) وبعد قليل خرج من الحمام حليق الذقن ، يجفف شعره ... تأمله قليلا ، ودار حوله وقال باندهاش : - خير ... ما الذى يحدث ؟! تستحم ، وحلقت ذقنك وتمشط شعرك ، وحلة جديدة !!
فقال له : - إنى جائع ... هل أتيت بالغداء ؟
فوضع (فؤاد) ما بيده على المائدة قائلا : - ها هو الغداء .
- ما هذا ؟
- سمك وجنبرى .
جلس (رمضان) إلى المائدة وفتح اللفافة وقال : - كل يوم سمك ... سمك .
انهمك (فؤاد) فى تأمل الحلة ، فسأله (رمضان) : - ألن تأكل ؟
- اخبرنى ما الأمر .. ؟ هل ستتزوج اليوم ؟ صمت (رمضان) قليلا ، فقال (فؤاد) متكلفا الغضب : - إن لم ترد التكلم فأنت حر و...
فقاطعه (رمضا ن) ضاحكا : - ميعاد ... ميعاد يا (فؤاد)
فصفق (فؤاد) : - أخيرا (رمضان) الجبار وقع ... أخبرنى أين ؟ ومتى ؟
فقال (رمضان) وقد احمرت أذناه : - اليوم فى الثامنة .
- أين ؟
- فى بيتها .
ففغر فاه قائلا : - فى بيتها !! أول ما تشطح تنطح ، كنت أظنك خيبة مثلى .. طلعت معلم ، ومن تلك التى استطاعت أن تغيرك كل هذا التغيير ؟
- (جان) .
- الفرنسية ؟
- نعم .

- ولكنك لم تخبرنى أن بينك وبينها شيئا ، بل كنت تتحدث عنها باشمئزاز ونفور .

توقف عن الأكل وقال : - كان مجرد قناع أتخفى وراءه .

- ومن الذى كشف القناع ؟
- هى .
- أحلى بلد فى الدنيا يا (نور) .... لو كان هناك فى شركة الصيانة التى أعمل بها من يفهم فى صيانة مكن الحلج والله ما أتيت إلى (دمنهور) ولبقيت فى الأسكندرية ... وعلى كل لن أبقى طويلا هنا , فقد دربت عامل من العمال هنا على الصيانة , وسأعود إلى الأسكندرية بعد إصلاح المكن العطلان . لا أستطيع أن أغيب عن الأسكندرية طويلا .

قال (شافعى) وهو يتجشأ بعد أن تجرع كوبا من الماء : - سوف تنشاور فى الموضوع ... والليلة فى المقهى نخبرك على ما اتفقنا عليه .

- والله لن تندموا يكفى أنكم ستعيشون فى الأسكندرية .

********** ********** **********

دخل حاملا فنجان القهوة , وحينما رآه جالسا على المكتب وقف مندهشا فابتسم (محمود) وقال :

- تعال يا رجل يا عجوز .... ما بك أرأيت عفريتا ؟
- من حضرتك ؟

فنهض (محمود) وأخذ فنجان القهوة وقال : - أنا أخوك (محمود البستاوى) , وسوف أحل محل (قطاوى) من اليوم ... وأنت ما اسمك ؟

فقال وهو ينحنى : - خدامك أبو صلاح .

- استغفر الله يا رجل .
- ولكن حضرتك سوف تشرف على الأنفار ؟
- نعم .

فنظر إليه متعجبا وقال وهو يتأمل ملابسه : - بهذا الشكل !!

فنظر (محمود) إلى نفسه متسائلا : - أهناك شئ خطأ ؟

- لا ... ولكن البدلة والغبار والتراب .

فضحك (محمود) قائلا : - وماذا كنت سأرتدى جلبابا ؟!

- إن أذنت لى أحضر لك معطفا ترتديه فوق البدلة .
- إن كنت ترى ذلك فلا مانع .

وعاد (أبو صلاح) بالمعطف وارتداه (محمود) وبعد ذلك سأله :

- وحضرت ماذا كنت تعمل من قبل ؟

- كنت تاجر كنت , ثم أفلست .

فقال وكانه يحدث نفسه : - هذا ما توقعته .

- ماذا توقعت يا عجوز ؟
- لا شئ ... سوف آتى معك لأدلك على مكان رؤساء الورديات كى يعطوك أسماء العمال والعاملات .

وحينما كان (محمود) يمر على رؤساء الورديات سأله أحدهم : - من أنت ؟

- أنا المشرف على الأنفار ... اعطينى كشفا بأسماء العمال .
- واين عشماوى ؟
- من عشماوى هذا ؟
- أقصد (قطاوى) ؟

لم يجبه , وإنما انهمك فى عمله و ولاحظ عن قرب شراسة بعض العمال وضيقهم بالعمل وكأنهم مجبرون عليه ، كما لاحظ انكسار وخضوع البعض وذل البعض الآخر .... ملامح غريبة مرتسمة على تلك الوجوه , وعلى تلك الأجساد السمراء الهزيلة الجافة التى لا يسترها سوى أسمال بالية , لدرجة أن البعض كان يرتدى أكياس من الخيش الذى يعبأ فيه القطن ، وقد تفصد جسدهم عرقا واختلط بالغبار والتراب الذى يملأ المكان , وأزعجه بعض الشئ الضجيج الذى تحدثه دواليب المحلج .

لم يتصور أن عنبرا واحدا ممكن أن يحوى تلك الأعداد الكثيرة من الأنفار !! وأثناء مروره تقدم أحدهم وجذبه من طرف معطفه قائلا : - لقد أحضروا أفنديا يشرف علينا .

لم يجبه , ولكنه استمر فى التحرش به , وبعض العمال يضحكون على تعليقاته ثم مد يده وأخذ منه الأوراق التى كانت بيده ، وبدأ يقلد مشيته والآخرون لا يتوقفون عن الضحك ، والعامل يقفز أمام (محمود) تارة وخلفة تارة أخرى , وحار (محمود) فى كيفية التصرف مع هذا الوقح ، وفجأة اندفع عامل آخر وجذب الأوراق من يد هذا العابث وأعطاها لمحمود ، فشكره وأثناء رجوع هذا العامل إلى دولابه تلقى لطمة على قفاه العارى , فاستدار هذا وبسرعة البرق حمل من ضربه فى الهواء ودار به عدة دورات ثم ألقاه على الأرض بقوة . وهنا انفجر العنبر و واشتبكت الأقدام والأزرع وتصادمت الرؤوس وسالت الدماء وارتفعت الصيحات والصرخات والآهات والتوجعات

وغطى كل هذا على ضجيج المكن , ولا يدرى من أيت أتته تلك الضربة على رأسه فتهاوى ...

فتح عينيه فوجد نفسه ممدا على أريكة فى مكتبه ، وأبو صلاح يضمد الجرح فى رأسه ابتسم له :

- الحمد لله ... إنه جرح بسيط .

فقال (محمود) وهو يتحسس الجرح : - لا أدرى ماذا حدث ؟1

- تلك مشاحنات تحدث أحيانا بين الصعايدة وعدد من البلطجية والفتوات فى المحلج .
- وما دخلى أنا ؟
- على ما يبدو أن صبى من صبيان فتوة اراد أن يضحك الفتوات عليك ، فلم يعجب هذا التصرف الصعايدة .
- ولكنى لا أعرف الصعايدة .. فلم يتعاركون من أجلى ؟ !

فضحك (أبو صلاح) وهو يحمل زجاجة الممطهر والقطن : - أنت بمثابة الشرر ... فما تعرضت له كان الصعايدة يتعرضون له ... وأنت تعرف أن الصعايدة دمهم حامى .

- وهل أصيب الكثيرون ؟
- لا تهتم هذه الأمور كثيرا ما تحدث .
- وما مصير الأنفار الذين تعاركوا
- الطرد طبعا .
- أظن أنهم سوف يشتغلون فى محلج آخر .
- من يطرد من هذا المحلج لا يعمل فى أى محلج آخر .
- لم ؟!
- لأنه لم يأت إلى هنا إلا بعد أن طرد من جميع المحالج فى البلد .
- على هذا فسمعة هذا المحلج سيئة جدا .

فقال (أبو صلاح) وهو يتجه إلى الباب : - كيف لا تعرف شيئا البلد كلها تعرفه ... أظنك بدأت الآن تأخذ فكرة صحيحة عن المحلج . .

- إذن لابد وأن أذهب إلى أسماعيل .
- لم ؟
- كى أمنعه من طرد الأنفار , فما حدث كان بسببى .

********** ********** **********

- لا تقسم ، فإنى لن أصدقك .. الظاهر أنك نسيت نفسك , ونسيت ماذا فعلت لك بعد أن لفظتك السجون وطردتك الحوارى والأزقة .

فقال (قطاوى) متضرعا محاولا أن يقنع (إسماعيل) :

- أقسم لك ، لقد حضرت اليوم متأخرا , بعد ما حدث فى العنبر ، فكيف أكون المدبر له ؟
- كل ما يحدث بين الأنفار أما أن تكون المدبر له أو على علم به .

واستأنف (إسماعيل) حديثه وهو ينظر إلى (قطاوى) المنكمش فى مقعده :

- غرك تساهلى معك ، وغرك أيضا التفاف بعض البلطجية والفتوات فى المحلج ، فأردت أن تستقل بنفسك عنى . صمت (إسماعيل) وهو فى قمة الغضب واقترب من (قطاوى) وربت على كتفه : - لا تظن أنى غافل عنك وعن كل تصرفاتك ... كل ما تقوله وتتلفظ به وتفعله يصل إلى بأسرع مما تتصور ، وكما انتشلتك من الحضيض سأعيدك إليه .

ومد يده إليه قائلا : - أين المفاتيح التى معك ؟

تردد (قطاوى) بعض الشئ ، وحينمكا لمح تصميم (إسماعيل) اخرجها من جيبه ووضعها على سطح المكتب وانصرف لا يلوى على شئ ، وأثناء خروجه اصطدم بمحمود ... وقف بعض الوقت ينقل البصر بين الاثنين ثم انصرف وهو يرغى ويزبد . نظر (إسماعيل) إلى رأس (محمود) المعصوب وقال : - إن شاء الله يكون جرحا بسيطا .

- إنه بسيط للغاية .
- اجلس .... ومعذرة أن أول يوم لك هنا يحدث ذلك .... وعلى كل انا أمرت بطرد الأنفار و....

فقاطعه : - لو سمحت لى رجاء ، وأرجو ألا نرفضه لى .

- خير إن شاء الله
- أن تأمر بإعادة كل الأنفار المطرودين .

فنظر إليه متعجبا : - تطلب منى ذلك بعد ما حدث لك !!

- أنا متنازل عن حقى .
- وحق المحلج .... وحقى .
- أطمع فى كرمك وحلمك أن تعفو عنهم .

صمت قليلا ثم قال : - أنت لا تعرف نوعية هؤلاء الأنفار إن تساهلت معهم تلك المرة ....

فقاطعه قائلا : - أنا المسئول عنهم ... وعما يحدث منهم بعد ذلك

- وهو كذلك ..... وأى شئ يحدث منهم ستكون المسئول أمامى عنهم .

نهض (محمود) قائلا : - أشكرك أنك قبلت رجائى .

(6)

- إسماعيل الداهش -

انتشر خبر توسط (محمود البستاوى) عند (إسماعيل) ليعيد الأنفار بعد أن تم طردهم ، هذا الخبر زاد من عدد المقدرين والمحبين لمحمود ، كما أنه زاد من عدد الكارهين والحاقدين عليه ، وكان أشد الحاقدين (قطاوى) فبسبب (محمود) حدث ما حدث ولأول مرة بينه وبين (إسماعيل) ، وظل (قطاوى) طوال اليوم لا يفارق منزله الكائن فى إحدى حوارى المدينة ، وفى المساء خرج وظل يسير على غير هدى فى الحوارى والأزقة والشوارع ، وسار مسافة طويلة على امتداد ترعة المحمودية ، المكان مظلم وبارد , لا يسمع غير نقيق الضفادع وصرار الليل ونباح الكلاب التى تجمعت واقتربت منه ، فما كان منه إلا أن التقط حجرا وقذف به أكبرهم فأسرع مبتعدا وتبعه الآخرون .

بدد الظلام من على البعد ضوء نار مشتعلة أمام كوخ خشبى متهالك وسط مكان مهجور ، يجتمع فيه أرباب السوابق ومن على شاكلتهم ، يتعاطون أنواعا مختلفة من المكيفات والمشروبات ، ويخططون لبعض عمليات السرقة أو النهب والقتل أو الخطف ، ...كانت قطع من الخشب المشتعل تضئ المكان ، ونسيم المساء يعبث بألسنة النار ويزيدها اشتعالا ... تصادف خروج أحد الأشخاص من الكوخ ... فأخذ يتفرس فى القادم وسأله : - من القادم ؟

فقال له : - أنا (قطاوى) يا (كراكيبو) .

فصافحه بحرارة جاذبا إياه إلى الداخل , وكان هناك مجموعة من الشباب والرجال يشربون ويدخنون ويتحدثون بصوت مرتفع يطغى على طنين (الكولب) الذى يضئ المكان إضاءة خافتة ... وقف الموجودون ليحيوا (قطاوى) فرد عليهم تحيتهم بلا اكتراث ، قال محدثا (كراكيبو) :

- أريد أن أجلس فى الخارج .

فجذب هذا مقعدين ووضعهما فى الخارج وعاد وأحضر النرجيلة والشراب ، وأخذ يتفرس فى ملامح (قطاوى) فى الظلام الذى يتبدد بين الحين والآخر من أثر تراقص ألسنة اللهب :

- أول مرة أراك حزينا ومهموما هكذا .... ما بك ؟

جذب (قطاوى) نفسا عميقا من النرجيلة الممسك بها (كراكيبو) وقال وهو يرسل نظرات متفرقة متفحصا الظلام حوله :- ألم تسمع عما جرى اليوم فى المحلج ؟

- بلى ... ولكن المشرف الجديد توسط عند (إسماعيل) وأعاد الأنفار المطرودين .

صمت (قطاوى) قليلا ، ثم انفجر فى الضحك ، وأخذ يسعل سعالا حادا ويبصق على الأرض . سأله (كراكيبو) : - ما الذى يضحكك ؟1

- إذا كان (محمود) توسط عند (إسماعيل) ليعيد الأنفار المطرودين .. فمن يتوسط لى ؟

فسأله مندهشا : - وهل طردك (إسماعيل) ؟

- بعد كل ما فعلته من أجله , طردنى كالكلب من المحلج .
- أنا لا أصدق هذا !!
- صدق فنحن فى زمن العجائب ..ألم يذهب (عرابى) إلى الخديو راكبا جواده وشاهرا سيفه و.....

صمت (قطاوى) قليلا وهويشعر بحزن وألم دفين ثم قال : - أتفهم شيئا مما أقوله ؟

- من (عرابى) هذا ؟ وما حكاية سيفه وجواده ؟ أهذا رجل مثل أبو زيد الهلالى الذى نسمع عنه فى المواويل ؟

هز رأسه وأخذ يواصل التدخين قائلا : - تقريبا .

- ولكن لم طردك (إسماعيل) ؟
- يظن أنى وراء ما حدث فى المحلج اليوم .
- معه حق ... فكل ما يحدث فى المحلج من تدبيرك ، وكان لا يمانع فى ذلك ، فلم فى تلك المرة غضب منك ؟
- الظاهر وجد فى (محمود) البديل عنى ، أو أنه أراد أن يتخلص منى بعد أن أصبح المحلج فى يده .
- وهل يستطيع (محمود) هذا أن يقوم بما كنت تقوم به ؟

لم يجب (قطاوى) ، فقال (كراكيبو) وهو يحاول أن يواسى (قطاوى) :

- ما رأيك أن أخلصك من (محمود) أو (إسماعيل) أو كليهما ؟
- ستظل طول عمرك حمار لا تفهم شيئا .
- الحق على أنى أريد أن أخدمك .
- وماذا سنستفيد من قتلهما يا فالح ؟
- يصبح المحلج فى يدك .
- ومن يضمن أن الباشا سيعطينى إدارة المحلج ، فهو لا يعلم أنى أعمل عنده , ولو علم لطردنى ... لا تنس من أنا والكل يعرف سيرتى
- إذن أحرق لك المحلج .

ضحك (قطاوى) طويلا ، ثم أخذ ينظر إلى مؤخرة (كراكيبو) فتحسس هذا مؤخرته وسأله : -

- علام تنظر ؟
- أرى هل طلع لك ذيل أم لا .
- لا أخذ منك سوى السخرية بى .

مد يده وجذبه من عنقه قائلا : - المحلج بمثابة الدجاجة التى تبيض لنا ذهبا يا حمار , لابد أن نحافظ عليه .

- أنت الآن ليس معك الدجاجة ولا حتى بيضها .

وقف (قطاوى) وسار بضع خطوات نحو الترعة والتقط حجرا وألقاه فى الماء وقال وكأنه يحدث نفسه : - لا أظن أن ما بينى وبين (إسماعيل) ينتهى عند ذلك .

- وماذا ستفعل الآن ؟
- سأنتظر ماذا سيفعل هو .

********** ********** **********

قادته قدماه بعد أن سار طويلا إلى منزل الشيخة (ملك) , وهى امرأة طوفت بين القاهرة والأسكندرية مغنية ، فقد كانت تتميز بصوت حلو , اشتهرت بغناء التواشيح والأناشيد الصوفية فى الموالد التى كانت تقام فى الأقاليم والقرى وانتهى بها المطاف فى (دمنهور) وكونت فرقة لإحياء حفلات الزواج وخلاقه .... وضمت إليها بعض المغنين والمغنيات والراقصات ، وأصبح بيتها مقصدا فى بعض الليالى للراغبين للاستماع والأدوار المشهورة .

كانت الشيخة (ملك) تتميز بقوة شخصية وحكم صادق فى الناس ، لذلك كان الجميع يهابونها ويحترمونها ، البيت الذى كانت تقيم فيه مكون من ثلاث طوابق ، تشغل الطابق الأول أما الطابق الثانى فكان يشغله بعض المقربين لها ومن يقوم على خدمتها , والدور الأول تجرى فيه البروفات ومكان للاستماع .

دخل (قطاوى) وكان هناك شاب يغنى دورا لعبده الحامولى ، وأمامه راقصة تتمايل على الأنغام ، والشيخة (ملك) تتصدر المكان وهى فى كامل زينتها .... ولم يخف الترهل الذى علا ملامح وجهها وجسدها ما كانت تتمتع به من ملاحة فى سنى شبابها .

بعد أن جلس (قطاوى) وأدار نظره فى الجالسن , فإذا به يرى (إسماعيل) فأراد الرجوع من حيث أتى و ولكن رجلا من الجالسين أمسك به قائلا : - إلى أين السهرة لم تبدأ بعد .

- اتركنى يجب أن أنصرف .
- الجلسة لا تكتمل إلا بك و(إسماعيل) يجلس بجوار الشيخة ... ألم تره ؟

فخلص يده من يد الرجل يريد الانصراف إلا أن هذا قال له : - إنه يشير إليك .

وكان (إسماعيل) قد رأى (قطاوى) يحاول الانصراف ، فأشار إليه فلم يصدق ، فتقدم وجلس بالقرب من الشيخة ، ولاحظت ما بين الرجلين من جفوة ، وسألت (إسماعيل) :

- ماذا حدث منه تلك المرة ، المتنيل على عينه وعين أهله ؟

فقال وهو يشعل سيجارة وينفث دخانها فى الهواء : - نسى نفسه ... يريد أن ينفرد برأيه ويخالف أوامرى .

- أنت علمته الكثير فلا تتركه .
- فى حاجة إلى من يعيد إليه عقله .
- لا يستطيع أحد فعل ذلك إلا أنت .

ونهضت فتوقف المغنى وتوقفت الراقصة والموسيقى وأشارت إلى (قطاوى) فنهض وتقدم بدون أن ينظر إلى (إسماعيل) ... قالت له : - سوف يسامحك من أجل خاطرى ... بشرط ألا يتكرر منك ما حدث .

فقال وهو منكس الرأس : - لن يتكرر ما حدث .

- إذن قبل رأسه واجلس بجواره .

ثم قالت لإسماعيل قبل أن تنصرف يصحبها صوت الأساور التى تثقل معصميها :

- سوف يذهب إليك عدد من الرجال غدا ... شغلهم فى المحلج ، وأوصيك بهم .
- كل ما تطلبه الشيخة أوامر لابد أن تنفذ .

وتركت الجميع ، وصعدت إلى مقرها ، واستأنفت الموسيقى والمغنى والراقصة عملهم ... سأله (إسماعيل) وهو يضع قدما فوق الخرى : - أين كنت ؟

فقال وهو يوجه له نظرات لوم وعتاب :

- منذ أن خرجت من المحلج لا أجد مكانا أذهب إليه , وقد ضاقت الدنيا كلها فى وجهى .

فقال (إسماعيل) ساخرا : - كل هذا لأنى طردتك من المحلج .

- لا... ولكن لأنى شعرت أنك غاضب على ... أنت لا تتصور ماذا تمثل لى ... أنت أهم وأعز شخص لدى فى الدنيا كلها .

فابتسم (إسماعيل) وقال وقد عادت إلى صوته نبرة الود : - ومن أجل هذا فعلت ما فعلته .

- أنا حمار ... واستحق الضرب ... أنت أستاذى .. علمنى ..
- دماغك صلبة ... والعلام لا ينفع معك .... لا تريد أن تنسى أنك ...

فقاطعه معاتبا وهو يتلفت حوله : - هل ستظل تذكرنى بأصلى كلما أخطأت ؟

- يا (قطاوى) أريد أن أجعل منك شخصا آخر ، ولكنك مصر على أن تظل (قطاوى) حرامى الغسيل والفراخ والطشوت ... والباقى أنت عارفه .

يحاول (قطاوى) أن يمسك لسان (إسماعيل) ويسد فمه خوفا من أن يسمع أحد الجالسين شيئا مما يقول ، فلا أحد يعلم حقيقته غير (إسماعيل) وكان يطيب له أن يذكره بذلك كلما لمح تمردا أو عصيانا منه , وكان هذا على استعداد أن يفعل أى شئ ليرضيه حفاظا على هذا السر ، فما وصل إليه من مكانة وما توافر لديه من مال جعله يريد أن

يتبرأ من ماضيه ، ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن ينتزع جذوره من الوحل ، فما تزال علاقاته بأصدقائه القدامى من لصوص وفتوات وقتلة قوية ، ويدفعه طبعه أحيانا أن يتصرف برعونة وتهور ، كما كان يفعل من قبل ، قال (قطاوى) مستعطفا : - أتريد أن أقبل قدميك كى لا تكرر ما تقول ؟

ضحك (إسماعيل) طويلا وهو يتابع حركات الراقصة ، ثم قال :

- انهض واسأل عن (إنشراح) .. لماذا لم تظهر حتى الآن ؟
ابتسم (قطاوى) ونهض وهو يفرك يديه قائلا :

- الآن عرفت أنك قد رضيت عنى وأنه ستكون ليلة أنس ، وأن مزاجك على صنجة عشرة .
وغاب قليلا ثم عاد قائلا : - لم تحضر الليلة .

فنهض قائلا : - إذن سنذهب نحن إليها .

********** ********** **********

وضع (قطاوى) ما كان يحمله على المنضدة , وأخرج تفاحة وأخذ يقضمها ، قالت (إنشراح) وهى تلملم اطراف قميصها الشفاف والذى يكشف أكثر مما يستر عن مفاتن جسدها البيض الغض ، وقد وضعت قدما فوق الأخرى ، فانسدل طرف القميص عن ساقين مرمرتين تذيب العيون الناظرة إليها : - تسلم لى يا (إسماعيل) وتسلم لى مجايبك .

فقال (قطاوى) : - وفمه ملآن بقطعة التفاح : - وأنا ليس لى سلام .

فقالت بصوتها الممطوط الذى تشوبه بحة : - أسكت يا ولد يا (أطو) ليس لك فيه .

قال (إسماعيل) وهو يشعل سيجارة : - ما الأمر ...؟! نذهب إلى الشيخة فلا نجدك هناك .

فتغيرت ملامحها وعاد إلى صوتها نبرة الأصل القروى :

- لم يعد يصلح لى العمل تحت إمرة الشيخة وتحكماتها .
فتعجب (قطاوى) قائلا : - وهل ستعودين إلى قريتك وترقصين نظير بيض وأرز ؟!!

فالتفتت إليه ووضعت سبابتها فوق حاجبها الأيمن راسمة قوسا :

- بيض وارز إيه يا روح أمك ... سوف أرقص فى الأسكندرية .
فضرب (قطاوى) على رأسه الضخم قائلا : - الأسكندرية مرة واحدة .

فضحكت وتقصعت قائلة : - لا مرة ونص يا روح خالتك .

فضحك (قطاوى) وأخذ يتمايل يمينا ويسارا قائلا : - قصدك واحدة ونص .

فنظرت (إنشراح) إلى (إسماعيل) قائلة له :

- أنا لا أدرى سببا لاصطحابك هذا القطاوى العرة معك !!

فقال (قطاوى) مازحا : - كأنى لو طلبت منك الزواج سترفضين ؟

فشهقت شهقة حادة ، وضربت على صدرها النافر فأحدثت الأساور فى يدها صوتا ، وقالت وهى تنظر من طرف عينيها مشيرة له بسبابتها : - أنت ...!! (إنشراح) تتزوج الـــ.....

فقال (إسماعيل) : - أنا عارف أن أصله زفت ، وأنت أصلك نيلة ، ولكن ليس معنى ذلك أن السهرة تضيع بينكما .... كفا عن هذا المزاح .....انهض يا (قطاوى) مع البنت (رومية) لتعدا لنا شيئا نأكله .

فنهض (قطاوى) وهو يتمايل مرددا أغنية مشهورة :

غرامك علمنى الـــنوح يا حبيب القلـب شوف

مع طيفك أرسلت الروح أترجاك تعمل معروف

سألها (إسماعيل) : - ما حكاية الأسكندرية تلك ؟

فقالت وهى تعبث بخصلات شعرها الأسود : - صاحب ملهى فى الأسكندرية ... شاهدنى أرقص ذات مرة فى كفر الدوار ، أعجب بى ، وطلبنى للعمل عنده فى الأسكندرية .

فقال وقد تكدرت ملامحه : - لماذا لم تخبرينى من قبل ؟

- لم أرك منذ مدة .... وحينما رأيتك أخبرتك .

صمت (إسماعيل) ... فاقتربت منه قائلة : - أأنت غاضب على ؟

لم يحر جوابا , فأمسكت يده قائلة : - دمنهور بلد صغيرة لا ترضى طموحى .

فقال بأسف : - معك حق دمنهور لم تعد تناسبك .

- أنا لا أقصد .... والأسكندرية ليست بعيدة ، ولن أنسى ما فعلته من أجلى ، فأنت الوحيد الذى وقفت بجانبى ووفرت لى الحماية والرعاية .

وقف (إسماعيل) مبتعدا عنها وقال ساخرا : - وها أنا آخذ مكافأتى عن كل ما قدمته .... أنت الوحيد ... وأنت ... وأنت .... وأرى وجهك بخير ومع السلامة ، والأسكندرية ليست بعيدة ، والأفضل أن تخفف من الزيارات ، وأين ستذهب يا (إسماعيل) فى الأسكندرية ؟

انكمشت (إنشراح) فى مكانها كالقطة وأخذت تبكى فى صمت وقالت من خلال دموعها :

- إن كان ذهابى سيغضبك ، فلن أذهب وسأبقى هنا .

وسادت فترة صمت ... أدرك (إسماعيل) ما تفكر فيه (إنشراح) , فإن هى تنازلت عن الذهاب إلى الأسكندرية وتلك تضحية منها ربما تطلب المقابل ، ألا وهو الزواج منه ، وقد بدأت تلمح إليه مؤخرا ، وهذا الذى كان يعكر الصفو بينهما أحيانا .... على هذا فيجب ألا يمانع فى ذهابها إلى الأسكندرية ، ثم ما يدريه فربما لا تصادف نجاحا هناك , فالراقصات فى الأسكندرية من كل أجناس العالم وعلى درجة كبيرة من الرشاقة والجمال ... ربما (إنشراح) مميزة هنا لأن البلد صغيرة ومستوى الراقصات فى فرقة الشيخة متدنى ، و (إنشراح) لم تزد عن كونها قروية ساعدها جسدها المغرى وجرأتها وسلاطة لسانها أن تصل إلى ما وصلت إليه ، وما وفره لها من الرعاية والحماية ..... إذن ليوافق على ذهابها بل ويشجعها على ذلك .

اقترب منها ، ورفع وجهها إليه ، وتأمل تلك الشفتين الشهوانيتين المنفرجتين والعينين الواسعتين التى تدرك رغبته المتأججة بها دائما ، وبياض وجهها المشرب بحمرة الأنوثة المترعة ، ومشارف صدرها المكتنز على أسرار المتعة والإثارة ... قال متكلفا الأسى :

- وأنا لا يرضينى أن أقف فى طريقك .. وعلى رأيك الأسكندرية ليست بعيدة .

فوقفت (إنشراح) وتعلقت بعنقه ، والتصق جسدها الساخن بجسده المشتعل .

(7)

- رطل لحم -

من المناسبات السعيدة تلك التى يأتون فيها برطل لحم ليتناولوه على العشاء بعد يوم مضنى ... (وابور الغاز) مضى عليه أكثر من ساعة لا يتوقف أزيزه ، وفوقه (الحلة) وبها اللحم لم ينضج بعد ، ولا أحد من الجالسين يعلم متى سيقدر له أن ينضج ، وبين الحين والآخر يكشف (هريدى) الغطاء ويمد أصابعه ليجس اللحم ، والأعين كلها معلقة على أصابعه وعلى شفتيه ، ولكنه يومئ إليهم بالأنتظار ، يضئ الحجرة مصباح الكيروسين المعلق على الحائط الذى تتضاءل ذبالته لأقل نسمة هواء تدلف من الباب المفتوح أو النافذة ... انهمك كل فى عمله إلى أن تحين ساعة الأكل .

(نور) أخذ يرقع جلبابا , ولم ينجح فى أن يتجنب وخز الأبرة لأصبعه فيصرخ فجأة ماصا إصبعه .. لم يتعد العشرين أسمر البشرة , طويل , نحيف , دقيق الملامح ابتسامته المشرقة تظهر أسنانه البيضاء المنتظمة , من (المنيا) فقد والديه وكانا قد نزحا من السودان , عمل خادما فى بيت ثرى من أثرياء المدينة ، ثم رحل مع مجموعة من أصدقائه إلى القاهرة ، وهناك تعرف على (محمد الزواوى) , أعجب بأخلاقه وتدينه , فقرر أن يصحبه أينما ذهب وكان (محمد) يحرص على حضور موالد الأولياء ، فرحل إلى (طنطا) ومنها إلى (دسوق) ومنها إلى (دمنهور) و واستقر ليعمل فى المحلج وانخرط فى الطرق الصوفية التى أخذت فى الانتشار على نطاق واسع فى تلك الأيام .

أما (حسنين) فكان يجلس بجوار المصباح وفى يديه إبرتان يغزل بهما طاقية ليبيعها لمن يدفع أكثر , فتلك كانت هوايته الوحيدة فى أوقات فراغه , لتدر عليه قرشا أو قرشين ، يدخرهما فهو حريص على جمع المال حرصه على روحه نحيف قصير فى غاية المكر والذكاء يحب السفر والتنقل وله خبره فى توثيق صلاته بين الناس ، تلك الصلات التى تعود عليه بالنفع ، خدوم صبور مجامل ولكن المجاملة التى لا تكلفه مالا , وكان يجلس بجواره (شافعى) يضع بين ركبتيه مرآة وفى يده ملقاط يشذب شاربه , متأنق فى ملبسه واثقا من نفسه ومن تأثيره فيمن حوله , لا سيما النساء اللائى يعشقهن ولا يكاد حديثه يخلو منهن ليل نهار , وكان قد ذاع صيته بالأقصر وتلقى تهديدات بالقتل من جراء علاقاته المشبوهة , نصحه أهله بعد يأسهم من اصلاحه أن يترك بلدته ويرحل لعل الغربة تقوم من أخلاقه ، توثقت العلاقة بينه وببين (هريدى) لأنهما يلتقيان فى الميول والطباع إلا أن (هريدى) يزيد عنه فى غرامه بأنواع الخمور الرديئة وتعاطيه بكميات صغيرة للحشيش والأفيون وتردده على أوكار الدعارة كلما تجمع فى يده مبلغ يسمح له بذلك ، هارب من ثأر عليه لذلك ترك الوجه القبلى وعمل فى أكثر من مكان وكوابيس القتل تلاحقه فى لياليه ويشعر أن عمره قصير لذا فالشعور باليأس والاحباط يلازمه على الدوام .

وبجوار الباب الخشبى كان يجلس (مخيمر) أمام الطشت يغسل جلبابه وغطاء رأسه , ضخم عريض كأنه أحد المحاربين القدامى ، مندفع متهور سريع الغضب معتز بنفسه ، حصل على الإبتدائية وكان أبوه ميسور الحال ، وقد انفق على ابنه بسخاء آملا أن يكمل تعليمه ولكن المنية عاجلته ، استولى الأعمام على ثروة الابن وقام أحد أعمامه بالتزوج من أمه , وكفله جده لأمه الذى كان يعارض تلك الزيجة , عاش (مخيمر) عيشة مرفهة مدللة ، وكانت أمه بارعة الجمال ، وزوجها الجديد شديد الغيرة عليها ، والذى زاد من غيرته تبسطها الشديد مع من حولها مما دفعه إلى أن يسئ معاملتها ويضربها كل حين وحينما كانت تلجأ إلى أبيها شاكية باكية كان يردها إلى زوجها الذى لم يقلع عن معاملتها السيئة ، وتكرر هذا الأمر أكثر من مرة ، وفى يوم اكتشفوا اختفاءها من البلدة ،

ولم يعرف أحد أين ذهبت ، وكثرت الأقاويل ، ومنها أنها هربت مع عشيقها ، مات الأب حزنا على ما لحق بسمعة ابنته ، وشعر (مخيمر) الذى لم يكن تجاوز الثانية عشرة أنه منبوذ من الجميع ، وكان رفاقه يعيرونه بأمه ، فكان يبطش بهم لذلك تجنبه حتى الرفاق , وحينما بلغ العشرين طالب أعمامه بميراثه ، لكنهم رفضوا . والذى زاد من حقده على من حوله أنه تقدم لخطبة الفتاة التى هواها قلبه ، رفضه أبوها لسمعته التى ساءت , بسبب أمه من ناحية وبسبب أخلاقه, فضاقت به (أسوان) وضاق بها فحمل عصاه وتقاذفته البلاد واستقر فى (دمنهور) معتمدا على زراعه فى أكل عيشه ، وإن كان هناك حنين يدفعه للعودة إلى بلدته ، ولكنه كان يتساءل فى أسف وحسرة إلى من يعود ؟

الصمت يسيطر على الجميع , ولا يسمع غير أزيز (الوابور) , أشار (هريدى) إلى (نور) فنهض هذا على الفور إلى كومة من الخبز , وأخذ يقطع قطعا صغيرة ليصنع (الفتة) وملأ القصعة ووضعها بجوار (حلة) ضخمة ملآنة بالأرز ، وكان الجميع يراقبه فى حرص واهتمام , وكأنه يؤدى طقس من الطقوس المقدسة ، واتجهت العين إلى (هريدى) حين امتدت يده لترفع الغطاء عن اللحم , وكان صبر المنتظرين قد نفد , فتحلقوا حوله , ولولا أن بادرهم معلنا نبأ نضج اللحم لانفجروا فيه , فقد خدعه الجزار وأعطاه لحما من ذبيحة عجوز من العسير نضجها , وقد تحمل على مضض تعليقاتهم وانتقاداتهم له , وبسرعة حمل (الحلة) وسكب منها المرق على (الفتة) ومكث قليلا حتى يتشرب الخبز المرق , ثم أخذ كميات من الأرز وغطى به الفتة ... ترك كل فرد ما بيده وتحلقوا حول القصعة وبدأ (هريدى) فى اخراج قطع اللحم ووزعها عليهم , ثم سكب بقية المرق فى أوان صغيرة , وامتدت الأيدى وبدأوا فى تجرع المرق الساخن غير مبالين بحرارته , وبدأت الملاعق تصطدم بالقصعة أو تصطدم بعضها ببعض وهى قاصدة الأفواه المفتوحة ملآنة أو راجعة إلى القصعة فارغة بعد أن أفرغت حمولتها فى الأفواه , وقد تساقطت قطع من الخبز والأرز على الصدور وعلى الأرض حول القصعة , وكانوا يأكلون بتلذذ لذلك لم يتحدثوا خوفا من أن يبدد الحديث شيئا من استمتاعهم بالطعام , وبعد أن أتوا على ما بأيديهم من لحم أخذ كل منهم يقلب ما بيده من عظم يبحث فى حناياه عن مزقة لحم ، وحينما لم يجد أخذ فى مص العظم مصا ، وإن كانت أسنانه قوية لطحن العظم طحنا .

أتوا على ما فى القصعة , وشربوا ما فى الأوانى من مرق , حينئذ مسح كل منهم فمه بيده واستندوا إلى جدران الحجرة , وقد تفصدت الأجساد عرقا .

قال (شافعى) وقد التقط عودا من الحصير البالى ليسلك به أسنانه المتآكلة :

- اللحمة بتعمر النافوخ بحق , ياسلام لو تأكلنا يا (هريدى) كل يوم لحمة .

فضحك (هريدى) قائلا : - اللحمة لحست مخك ... تأكل كل يوم لحمة ... والفول والبصل من يأكله ؟

فقال (حسنين) : - ألم يكن من الأفضل أن نأكل عدسا أو بصارة ونوفر ثمن اللحم ؟

فقال (هريدى) منفعلا : -

حتى ونحن نأكل لحما لابد أن تعكر الليلة بذكر العدس والبصارة .... يا أخى منك لله .

فضحك (مخيمر) قائلا : - نحن لا ناتى باللحم فقط , وإنما نأتى به كى نظل على ذكراه ولا ننساه

فقال (محمد) الذى كان طوال الوقت صامتا : - أتركونا من اللحمة والبصارة ولنفكر فى حالنا , ما رأيكم فى كلام (إسكندر) ؟

قال (شافعى) : - نذهب إلى الأسكندرية ... ربما يوسع الله فى رزقنا ... ويقولون بنات الأسكندرية أجمل من بنات دمنهور .

فتهلل (هريدى) ضاحكا : - أنا موافق .. وعلى رأيك بنات الأسكندرية مثل القشدة .

فقال (حسنين) : - إن كان الأجر الذى سنأخذه أكثر من هنا لنسافر على بركة الله .

فقال (مخيمر) : - طبعا أهم شئ عند القروش يا حسنين .

- أمرك غريب .. أهم حاجة فى الدنيا القروش ... فلم تركنا بلدنا وأهلنا ، وجعلنا نتحمل رزالة الناس ؟ !

وقال (هريدى) وهو يتحسس ذراعة التى ضرب عليها فى المحلج صباح اليوم متذكرا ما حدث : - لقد ضربناهم ضربا شديدا اليوم .

فقال (شافعى) : - ما حدث اليوم لن يجعلهم يفكرون فى التعرض لنا .

فقال (مخيمر) : - لا أظن .... بل سيتعرضون لنا مرة ثانية وثالثة .

وعقب (محمد) : - لولا الرجل الطيب لطردنا (إسماعيل) .

فسأل (نور) : - ما اسم الرجل الذى كان يرندى طربوشا ؟

- محمود البستاوى ... يقال أنه كان تاجر قطن مشهور , ولكنه أفلس , فجاء للعمل مكان قطاوى الرزل .

فقال (شافعى) : - لن يبقى طويلا فى المحلج .

- نعم فهو رجل طيب ، ولا يصلح مع قطاوى وأذنابه .

فقال (شافعى) وهو يعبث فى شعره : - لم لا نذهب إلى الأسكندرية كى نتخلص من المحلج وقرفه ؟

فقال (نور) : - أنت تريد الذهاب إلى الأسكندرية من أجل البنات والنسوان ... يا أخى اذهب وتزوج وأرحنا وأرح نفسك .

- لو كان معى مال لتزوجت اليوم قبل الغد .
فقال (محمد) وهو يعبث فى حبات المسبحة بين أصابعه : - إذن عليك بالصيام .

فقال (مخيمر) ضاحكا : - يصوم ويفطر على بصلة .

- الصيام يهده بدلا ما هو كالثور الهائج .
فعلق (نور) : - لا تمر أمامه امرأة إلا وينقلب حاله .

فرد عليه (شافعى) : - أفضل من أن أجلس ساعات أمام (نوال) بائعة الخضار انتظر منها كلمة أو كلمتين أو حتى نظرة .

فاندفع الدم فى نافوخ (نور) ونهض واقفا باسطا ذراعيه وقال :

- لا شأن لك بى , أنا حر , ثم لا تذكر اسم (نوال) .
فوقف (شافعى) واقترب منه وأمسك بتلابيبه : - وأنت ايضا لا شأن لك بى , أنت لست وصيا على .

فوقف بينما (محمد) قائلا : - صلوا على النبى .... وحدوا الله .

فقال (حسنين) الذى كان مستغرقا فى التفكير : - أتركونا من كلامكم الماسخ ... ولنتحدث فى الصالح ... أنتم موافقون أننا نسافر إلى الأسكندرية ؟

فقال (هريدى) : - ولم لا نسافر .... يا جماعة القروش التى نأخذها هنا لا يتبقى منها شئ .

فقال (نور) : - لأنك تضيع كل مليم على المخدرات .

فنظر (هريدى) إلى (نور) مستكبرا أن يوجه إليه نقدا من هذا الشاب الصغير , وشمخ بأنفه قائلا : - لم يعد إلا مثلك يوجه إلى كلاما , ثم أنت لا تخسر لى مليما .

شعر (نور) بالحرج فقال : - انا هدفى مصلحتك .

- كل فرد هنا يهتم بمصلحته ولا شأن له بالآخرين ,
فقال (محمد) : محاولا أن يهدى الجميع : - ماذا حدث ... أول مرة نتشاجر , وبصراحة (نور) معه حق , فلابد كل واحد فينا يهتم بمصلحة الآخرين , نحن فى غربة , وإن لم نكن يدا واحدة ستأكلنا الديابة ... نحن فى غابة .

فقال (هريدى) ضاحكا : - أتعرفون سبب ماحدث بيننا الآن ؟

فسأله (محمد) : - ما السبب يا (هريدى) ؟

- أننا أكلنا لحمة ... أتذكر أن الشهر الماضى حينما أكلنا لحمة تشاجرنا أيضا .
فقال (حسنين) وكان يحصى عدد القروش ويضعها فى كيس من القماش مربوط بحبل حول عنقه : - لقد اخبرتكم أن لا ضرورة للحمة , خيول المحلج لا تاكل لحما ومع ذلك تعيش بصحة جيدة .

فقال (شافعى) مادا يده محاولا أن يختطف الكيس من يد (حسنين) إلا أن هذا أسرع بطية ووضعه فى جيبه : - أريد أن أعرف عدد القروش التى معك .

فقال (هريدى) مازحا : - أنت تأخذ روحه ولا تأخذ قروشه .

فقال (حسنين) بعد أن اطمأن على الكيس فى جيبه : - أنا لست مثلكم أبدد القروش على الطعام أو المخدرات أو النسوان , أنا تركت بلدى كى أجمع مالا وأعود إلى بلدى مرفوع الرأس .

فقال (شافعى) : - وجع فى رأسك التى تريد رفعها .

فقال (محمد) نافد الصبر : - سوف ينتهى الليل , ولم نتفق على رأى .

فقال (مخيمر) : - الذى يريد أن يسافر يسافر , ومن لا يريد فليبق هنا .

رفع (محمد) سبحته إلى أعلى وقال : - ولم لا يكون رأينا واحدا ؟

قال (نور) : - أنا سأبقى هنا .

وقال (هريدى) : - وأنا سأبقى .

وعقب (محمد) : - وأنا لا أستطيع أن أفارق سيدى (عطية أبى الريش) .

وقال (مخيمر) : - إذن سنذهب أنا وشافعى وحسنين ومن يريد الذهاب فليأت .

فقال (محمد) وهو يبسط أجولة القطن لينام : - والله يعز علينا أن نفترق بعدما عشنا مع بعض المدة الطويلة تلك .

قال (شافعى) وهو ينهض متجها نحو الباب : - سأذهب إلى (أسكندر) على المقهى وأخبره بما اتفقنا عليه .

(8)

- الهروب -

كيف استطاعت وهى الكائن الضعيف الهش أن تتحمل كل هذا العذاب .... كانوا يوقظونها مع الفجر كى تحلب ، وبعد ذلك يشعلن الفرن ويمتلأ البيت بالدخان ، ويأتين بمسحوق الحلبة والبامية والأذرة والقمح كى تقوم بعجنه , كانت تعانى الأمرين فى عجن تلك الأشياء الغريبة والعجيبة ، والأعجب من عجن هذا الخليط هو كيفية ازدراده بعد أن يتم خبزه ، فهى لا تستطيع مضغه ، وإن مضغته لا تستطيع بلعه ، وإن بلعته لا تستطيع معدتها هضمه إلا بعسر ، ولكنهم كانوا يأكلونه بشراهة ونهم .

كانت تشعر بالتعب والارهاق يحاصر كل مفصل من مفاصلها ، ولولا تماسكها لأغشى عليها ، كانت تقطع العجين وتفرده وتقوم بخبزه أمام الفرن الذى تلهب نار جلد وجهها الأبيض الرقيق ، ومع أن هذا العمل اليومى كل صباح كان يستنفد كل طاقاتها ، إلا أنها كانت تفضله على بقية الأعمال الأخرى مثل جمع الروث من الزريبة فى أوان فخارية والصعود به إلى السطح وخلطه بالقش والتبن ، وصنع أقراص (الجلة) ولصقها على أرضية السطح أو الجدران لتجف ... وما يتساقط من الروث أثناء حمله على الرأس ، وما ينبعث من رائحة تجعلها على وشك أن تمج ما فى جوفها ...وأخوات (حجازى) وأمه كن يعرفن مقدار تأففها من هذا العمل لذلك كن يكلفنها فوق طاقاتها فلا يمكنها الرفض ، لأن الرفض معناه أن تؤدى الذى تنفر منه ، وكن يسخرن من رفضها وتأففها وقرفها ، وكان هذا يسبب لها ألما فوق ألم .

وإذا كان النهار ينتهى وتنتهى معه ألوان وأنواع من العذاب والمعاناة ، فإن الليل يأتى ومعه أنواع أخرى من المعاناة أشد ، يغلق عليها باب الحجرة وهو معها ، بوجهه المكفهر العابس دوما وطريقته البدائية والهمجية فى معاملتها التى تقترب من التوحش ورائحته .... رائحة الطين والتراب المختلطة بعرقه حينما يقترب منها ليخترقها ويعتصر جسدها ، وهو يلث ويخور كالثور ، وهى لا تطيق لمسات يده الخشنة المتشققة , ولا جسده الأسمر الذى حرقته الشمس ، ولا أنفاسه الكريهة بسبب الزفت الذى يدخنه هو وضيوفه لساعات بعد العشاء , وكثيرا ما حاولت أن تجعل منه مخلوقا محتملا ، فطلبت منه أن يستحم قبل أن يأوى إلى فراشه وأن يغير ملابسه المشبعة بالعرق والتراب ، وأن يجلس معها يتحدث وأن يبتسم .... ولكن ذهبت محاولتها كلها سدى ، كان يسمعها وينظر إليها وكأنه ينظر إلى مخلوق غريب من عالم آخر , ويطيل النظر إليها فاغرا فاه كالأبله ، ثم يضجع ويسحب الغطاء على جسده ويظل غارقا فى النوم بلا حراك حتى الفجر .

كانت تحاول أن ترهق نفسها فى العمل طوال النهار كى لا تقضى ساعات الليل الطويلة تبكى فى صمت وتنعى حظها ، وفكرت أكثر من مرة فى الهروب ولكنها كانت على يقين

أنها ستعود مرة أخرى , فقد حكم عليها حكما لا رجعة فيه ... أن تعيش فى هذا العالم الذى حاولت أن تتعايش معه ولكنها فشلت .

ويزداد ارتباطها والتصاقها بهذا العالم رغما عنها حينما التصق بها هذا الجنين الذى بدأ ينمو داخلها ، فقد حملت ، وهذا الخبر قوبل من الجميع بدون أدنى إكتراث ، فالحيوانات التى تعيش معهم تحمل وتلد بصفة مستمرة ، ولا يوجد خط فاصل بين الحيوان والإنسان هنا ، ظنت أن هذا الحدث قد يغير من وتيرة حياتها اليومية ، ولكن لم يتغير شئ فى حياتها , حتى (حجازى) لم تتغير معاملته لها ، بل زاد تجهمه وتجاهله ، إلا أنها اكتشفت جانبا كان خافيا فى شخصيته ،فقد نهضت ذات صباح فى الأيام الأولى من الحمل , وكانت تمج ما فى جوفها , اشتاقت إلى رؤية الزهور وأن تشم رائحتها , وأخبرته ولم يعلق على طلبها هذا كأى شئ تطلبه , ولكن مع الظهر عاد ومعه مجموعة جميلة من الزهور منسقة بطريقة بديعة , وسألته من أين حصل عليها , فأخبرها أنه يزرعها فى أرضه وهو من قام بتنسيقها , وعرفت بعد ذلك أنه اقتطع جزءا من الأرض لزراعة أنواع من الزهور ونباتات الزينة , وأنه منذ صغره وهو يهوى تلك الهواية حتى مهر فيها وأصبح مشهورا فى القرية وما حولها , واصبحت تدر عليه مبلغا لا بأس به , وأعطته فرصة ليتصل بمستويات عليا من الناس , يرسل إليهم بين الحين والحين الزهور والنباتات ، إلا أن تلك الهواية الجميلة لم تغير من طبعه , فقد كان يتعامل مع الزهور كما كان يتعامل معها بكل جفوة وغلظة .

اقترب موعد ولادتها , وتمنت أن تضع مولودها فى بيت أبيها , ولكن تقاليد هؤلاء القوم تقتضى أن تلد فى بيت زوجها , واشتاقت إلى رؤية أمها وظلت تتوسل وتتضرع حتى رضى (حجازى) تحت الحاح أمه وأبيه ... وبمجرد أن ركبت السيارة شعرت بأنها خرجت من هذا العالم الأسطورى , تضع يدها على بطنها المنتفخة وتتمنى أن يأتيها المخاض فى بيت أبيها . ولا تعود إلى بيت زوجها مرة أخرى .

حينما رأت أمها ارتمت فى أحضانها وظلت تبكى وحاولت الأم أن تخفف مما تعانيه ابنتها ما وسعها ذلك .

وعاشت أياما طيبة حينما رجعت إلى عالمها وذكرياتها ونعمت بحنان أبيها وأمها , ولكن السعادة أوقاتها قصيرة , فحالما جاء (عبد العاطى) وأخذها لتعود إلى قدرها ومصيرها ... وبعد أيام ولدت ذكرا ... تغير العالم حولها بعض الوقت , ثم عاد إلى سيرته الأولى , إلا أنها شعرت أن لحياتها هدفا ومعنى استمدته من هذا الكائن الصغير الضعيف , مجرد بكائه لكى تحمله , وتضع فى فمه المفتوح حلمة ثديها وتحتضنه وتذوب فيه . جعل للحياة معنى آخر , الشئ الوحيد الذى لم تستطع أن تتقبله أن المولود يشبه (حجازى) شبها كبيرا , وكأن القدر يحاربها , فإذا كانت لا تستطيع أن تتعايش مع (حجازى) , فهاهو (حجازى) آخر .

كانت تظن فى البداية أن مجئ طفلها سيزيد ارتباطها بهذا العالم أو أنه سيقضى على ما تشعر به من نفور ورفض داخلى , إلا أنه باعد أكثر بينها وبين هذا العالم الكئيب , وقوى إحساسها بالرفض والتمرد , لأنها لا تتخيل أن جزءا منها سيعيش هنا ويقضى عمره هنا , ويصبح فردا من مكونات هذا العالم . لقد كان قدرها أن تعيش هنا . ولكن ما ذنب هذا الكائن أن تحكم عليه هذا الحكم القاسى , وقررت فيما يشبه التصميم أن تهرب وألا تعود , هذا التصميم أعطاها القوة أن تتمرد على نظام حياتها اليومى وتعترض على الأوامر الصادرة من أم حجازى وبناتها , فهى لم تأت إلى هنا لتعمل منذ الفجر إلى غروب الشمس , هن يعملن لأنهن من هذا العالم , وليس معنى أن قدرها رمى بها لتتزوج واحدا منهم أن تسخر هذا التسخير المذل .

كانت بمثابة نبرة غريبة تتردد فى جو الدار , لم يألف أصحابه هذا , بدأ الشجار ينشأ بينها وبين حماتها هينا , ثم بدأ يشتدد ويزداد على مر الأيام , حتى أصبح من العادات اليومية , ووصل خبر هذا إلى (جازى) لم يكترث فى البداية , ولكن حينما حرضته أمه أمر زوجته أن تنصاع لأوامرها , فالمرأة هنا ليس لها إلا أن تطيع , كانت تستمع إليه بدون اعتراض وإنما تكتفى بالبكاء وهى تحتضن ابنها , وفى مرة اعترضت على كلامه ورفعت صوتها وطالبت بما تراه حقا لها , فما كان منه إلا أن صفعها صفعة ألقتها أرضا وقد سالت الدماء من فيها , تلك أول مرة تتحدث بحرية , وأول مرة تضرب فى حياتها , الصفعة فجرت كل ما فى نفسها من الغضب والكراهية لكل ما حولها , وعزمت على الهرب , وقررت أن تنفذ هذا فى أقرب وقت .

انتظرت حتى خلت الدار فى يوم من أهلها , فى ظهر أحد الأيام , واحتضنت رضيعها وربطته إلى بطنها وأسدلت عليه طرحه سوداء , وأخفت وجهها ... فى تلك اللحظة والطفل مشدود إلى بطنها شعرت بقوة واصرار وتصميم لم تشعر به من قبل , ومشيت فى طرق القرية الضيقة المتعرجة بثبات غير عابئة بتلك العيون المتطفلة المسنفسرة من النساء والرجال , أحست أنها تنسلخ من هذا العالم البغيض إلى قلبها , مشاعر متضاربة متزاحمة تدفعها إلى البكاء تارة , وتارة أخرى إلى السخرية من نفسها أن رضيت وخضعت لهذا القدر طوال تلك المدة , الشمس محرقة ورائحة التراب تملأ أنفها , لم تنظر خلفها ولم تفكر لحظة فى ذلك , وصلت إلى المكان , عدد من السيارات المتهالكة , ومجموعة من السائقين يجلسون على دكة خشبية أسفل شجرة بجوار كشك خشبى يشربون الشاى ويدخنون , وصبى يقف بجوار سيارة ينادى بصوت هزيل : دمنهور ... دمنهور . بسرعة وخفة دلفت إلى السيارة , وجلست فى المقعد الخلفى ... بدأ الركاب يتوافدون , ومضى الوقت ثقيلا والحر شديد والجو خانق ... باق مقعدان شاغران وهى تتلفت يمينا ويسارا وتتحسس ابنها الذى بدأ يتحرك مستيقظا , وتناهى إلى سمعها أصوات تألف بعضها تسأل عن امرأة تحمل طفلا .. أخوة حجازى وعدد من أهل البلد يبحثون

عنها بعدما اكتشفوا أمر هروبها داروا حول السيارات .... الوصف امرأة تحمل طفلا , وكل من سألوه نفى رؤيتها , وبدأ الطفل يتحرك بعصبية بعدما استيقظ , خشيت أن يرتفع بكاؤه , أخذ قلبها يدق بسرعة , فكرة الرجوع إلى عالمها تملأ قلبها باليأس والحزن .اقترب من السيارة رجل وامرأة وركبا وتحركت السيارة , حمدت الله , انكمشت فى جلستها , واخرجت ثديها من تحت الغطاء والقمته للفم المفتوح والمرأة بجوارها تراقبها فى ذهول , سألتها :- ألست من يبحثون عنها ؟

لم تجبها , وإنما انهمكت فى ارضاع طفلها , اسندت ظهرها إلى ظهر المقعد وشعرت براحة كبرى . وتساءلت .. أيقدر لها أن تعود إلى ذلك العالم مرة أخرى ؟ وهل سيكون حكم القدر غلاب على إرادتها ؟

ستطلب الطلاق ... فلم تعد تحتمل , ولكن قد يكون ثمن الطلاق طفلها ... يأخذونه منها .. كيف ؟ وكل ما فعلته من أجله , هو الذى أمدها بالقوة وهو الذى أنار حياتها المظلمة , وآنس عالمها الموحش .

نظرت خلفها من خلال الزجاج , سحابات كثيفة من الغبار تتصاعد وتتوالى الأشجار على جانبى الطريق وأغصانها الطويلة وكأنها أزرع ممتدة تحاول الامساك بها .

استقبلتها أمها بوجه تملكته الدهشة والذهول , ولم تفلح القبلات التى انهمرت على خد الأم أن تبدد هذا الإحساس , أخذت الطفل وهى تنظر إلى وجهها وسألتها : - هل حضرت بمفردك ؟

وهنا انفجرت (خديجة) فى البكاء وسط محاولات أمها الفاشلة أن تسكتها , وانفجر الطفل هو الآخر فى بكاء متواصل , وكأن هناك حبل سرى بين الاثنين من المشاعر . قالت (خديجة) :

- هاتيه لأرضعه .

فأبعدتها قائلة : - لا ترضعيه وأنت فى تلك الحالة ..انهضى واغسلى وجهك ... سوف انهض لأعد لك شيئا تأكلينه .

- لا أريد أن أكل الآن .

وسادت فترة صمت نجحت الأم خلالها أن تهدئ من روع الطفل , قالت (خديجة) بصوت حاسم : - أنا هربت من (حجازى) .

هزت الأم رأسها , لم يكن خافيا عليها التغيير الذى طرأ على ابنتها , فخلال المدة الوجيزة التى قضتها متزوجة نضبت نضارتها وجفت حيويتها , ووضع الحزن بصمته على ملامحها , كانت تعلم أن تلك الزيجة لن تستمر ... ولا تدرى أتلوم القدر أم تلوم زوجها ... بمفردها تحملت المسكينة وزر ما حدث لهم , ولم تدر الأم إلا ودموعها تنهمر

وبدأ جسدها يرتعش , تنبهت (خديجة) إلى أمها وبسرعة وضعت الطفل على مقعد يجوارها وارتفع نشيج الأم , وأخذت الابنة أمها فى أحضانها وطفقت تقبلها وتمسح دموعها وقالت والبكاء يقطع كلماتها :

- كبدى ... كبدى يا بنتى .. ألقيناك فى النار بأيدينا .

فقالت (خديجة) وهى تنظر إلى طفلها وهو يحرك قدميه ويديه فى الهواء :

- وأنا قررت أن أخرج من هذه النار .

وبعد أن تناوبا نوبات البكاء , وحكت (خديجة) كل ما حدث , قالت أمها وإحساسها بالغضب بدأ يخفف من إحساسها بالحزن والأسى :- لننتظر مجئ والدك .

وحينما حضر استمع فى صمت لابنته وتعليقات زوجته , وهو يحمل حفيده , يقبله تارة ويداعبه تارة أخرى , وبعد ذلك سألته : - ماذا ستفعل يا سى (محمود) ؟

فلم يلتفت إليها وقال : - ربنا يعمل ما فيه الخير .

ونهض وأغلق باب حجرته عليه .

********** ********* **********

انتشر خبر هروب (خديجة) فى القرية , وبدأ (حجازى) يسمع تعليقات أهل القرية , وكان فى قمة الغضب , وشعر انه مطعون فى كرامته حتى أنه كاد أن يبطش بأحد أصدقائه حينما سأله بحسن نية عن زوجته . عاد إلى بيته مهموما غاضبا , فوجد والده وأمه وأخوته جالسين وسط الدار تعلوهم الكآبة والحزن , وأبوه جالس فى هدوء وثبات , وحبات السبحة تنحدر حبة إثر حبة من بين أصابع يده المعروقة النحيلة , وهو يتمتم بأدعية ويحوقل ويستغفر .... وقف (حجازى) أمامهم موجها حديثه إلى والده : - أرأيت ماذا فعلت بنت الأصول ؟ لقد جلبت العار علينا , بأى وجه سأقابل الناس , دائما كنت تلومنى , وتطلب منى حسن معاملتها .... أنت سبب كل ما حدث .

تعجب الأب من اللهجة التى يحدثه بها ابنه أمام باقى أسرته , نهض واقترب منه وهو يربت على كتفه : - اهدأ يا بنى .... وحد الله , وصلى على النبى .

فازداد ارتفاع صوت (حجازى) وأبعد يد والده عنه وقال وهو ينتفض من الغضب :

- إنها لا تستحق أن تبقى لحظة واحدة بعد الآن على ذمتى .... إنها طا....

وقبل أن يكمل (حجازى) كلمته لم يشعر إلا ويد والده تهوى بكل قوة على وجهه , بوغت (حجازى) , فأول مرة يضربه , لم يكن يتوقع ذلك , وأبصر والده أمامه كالمارد , وقد انزلقت العباءة من فوق كتفه وسقطت على الأرض : - لقد نسيت نفسك , ونسيت مع من تتحدث , أصبحت رجلا وتستطيع أن تطلق , ومن قبل تضرب وتهين زوجتك ...

أابنة (محمود البستاوى) تضرب وتهان يا كلب يا ابن الكلب ؟! أهذا جزاء أن قبلت أن تتزوجك .... وهكذا ترد جميل الرجل لنا .

والتفت إلى زوجته التى كانت بناتها يحطن بها وقد علا وجوههن الخوف والفزع وأشار إليها :

- أنت السبب ... أخفيت عنى ما كان يحدث .

فقالت وهى تشوح له بيدها : - زوجته ولابد أن يربيها .

فاقترب منها قائلا :- إن لم تكفى عن هذا الكلام لكسرت عظامك وقطعت لسانك الذى ينضح بالسم يا أم العقارب .... من يربى من يا مجنونة ؟! (حجازى) يربى (خديجة) إنها تربيه وتربى أهله .

فغمغمت متجنبة النظر إليه قائلة : - كان زمان .

انحنى والتقط العباءة , واتجه نحو الباب قائلا وكأنه يحدث نفسه : - الله يلعن الظروف التى جرأتنى وجعلتنى فى يوم أطمع أن أناسب هذا الرجل الطيب ... ويلعنكم يا ولاد الكلب لأنكم لم تصونوا النعمة التى كانت بينكم .

وبصق فى وجوههم وخرج .

********** ********** **********

دخلت عليه وهو ممدد على فراشه ناظرا إلى الكتل الخشبية فى السقف وكأنه يحصيها عددا واضعا ذراعيه خلف رأسه .. جلست بجواره , وقال ولما يحول نظره : - أرسل (عبد العاطى) تليغرافا , وسيحضر غدا .

- طبعا سيحضر ليأخذها .

لم يحر جوابا , سألته : - هل ستتركها لتعود ؟

لم يجبها , سادت فترة صمت , قالت بعد تردد : - إنها تريد أن تطلق .

زفر زفرة شديدة وقال بحزن : - هذا صعب يا أم الأولاد .

قالت وهى تعبث بأصابعها فى عصبية وقد التمعت عيناها بالدموع :

- لابد أن نخرجها من ...
- فقاطعها قائلا : - لن تعود إلى القرية .
- إذن ستطلق.
- لن تطلق .

فقالت متعجبة : - لن تعود إلى زوجها , ولن تطلق .. كيف هذا ؟!

- سيأتى (حجازى) ليعمل هنا , أو فى أى مكان آخر .

- وماذا سيعمل هنا ؟ فى المحلج أيضا .

نظر إليها بانكسار .... أحست أنها أغضبته . فأسرعت معتذرة :- لا تؤاخذنى أنا لم أقصد شيئا .

- أو تقصدين .

صمتت قليلا , ثم قالت محاولة أن تبدد الأثر الذى تركته : - الذى أعرفه أن (حجازى) لا يعرف شيئا سوى الفلاحة ... فما الذى سيعمله هنا , أو فى أى مكان آخر ؟ وهل سيوافق أن يترك قريته ؟

فاستدار نحو الحائط وقال لها : - اتركى كل هذا لله يدبرها كيف يشاء .

فى ضحى اليوم التالى جاء (عبد العاطى) وهو يحمل كميات كبيرة من الفطير والجبن والقشدة والعسل وقفص به عدد من الطيور , وقف على الباب ولم يدخل , فسأله (محمود) :

- ما بك يارجل ....ألا تدخل ؟
- ليس قبل أن تصفح عما حدث من (حجازى) .

فجذبه إلى الداخل قائلا له : - (حجازى) ابنى ... ولم يحدث شئ .. فنحن أهل .

تعانق الرجلان ... وبعد أن شربا القهوة , وتجاذبا أطراف الحديث , قال (عبد العاطى) :

- ما الذى تأمر به يا محمود أفندى ؟
- الأمر لله يا رجل .
- أنت صاحب حق , وقد أخطأ ابنى ولابد أن تحكم بما يرضيك .... سيأتى (حجازى) ليقبل يديك ويعتذر لك .
- لا يا أبو حجازى .

صمت (عبد العاطى) قليلا ونكس رأسه مراقبا حبات السبحة فى يديه وقال :

- إذن تريد تطليق (خديجة) من (حجازى) .
- استغفر الله .

تهللت أسارير (عبد العاطى) وقال : - هذا يدل على عدم غضبك علينا .

- لست غاضبا .... ولكن لى طلب عندك .

فأشار (عبد العاطى) إلى عنقه قائلا : - اطلب .... على رقبتى .

- ألا تعود (خديجة) إلى القرية .

غاضت الابتسامة من على وجه (عبد العاطى) الحليق وقال متعجبا :

- لا تعود ... ما معنى هذا ؟

اقترب محمود منه وقال : - أنا لا أريد تطليق (خديجة) ... وأنت كذلك .

- نعم .
- خديجة مصممة ألا تعود .
- وهل لهذا معنى غير الطلاق ؟
- نعم .
- كيف ؟
- أن يترك (حجازى) الدلنجات ... وسأبحث له عن عمل هنا أو فى الأسكندرية .

صمت (عبد العاطى) قليلا ليستوعب ما قاله (محمود) ثم قال بعد تفكير :

- أى شئ غير الطلاق انا راض به ... ولكن ماذا سيعمل ؟
- الأعمال كثيرة ... المهم تقنع (حجازى) .
- إن شاء الله أمر عليك بعد أسبوع , تكون (خديجة) قد هدأت ... وفرصة لأقنع حجازى .

ونهض لينصرف , فأمسك به (محمود) وقال : - ابق لنتناول الغداء .

- البيت بيتى يا (محمود أفندى) .
- وهل ستنصرف قبل رؤية حفيدك .
- حفيدى وأم حفيدى .

وأتت (خديجة) على استحياء تحمل ابنها , وتناوله وأخذ يقبله ثم قال لها :

- أنا عاتب عليك ... أنك حضرت هنا بمفردك .... لو طلبت منى ذلك لأحضرتك بنفسى ... لا أريدك أن تغضبى على (حجازى) هو غشيم ولكنه طيب ... وإن شاء الله سيكون كل شئ على ما يرام .

********** ********** **********

أثناء عودته أخذ يفكر فيما قاله (محمود) ويقلبه على جميع الوجوه , لم يكن يتوقع أن يطلب منه هذا الطلب الغريب , ولكنه مع ذلك وافق عليه , بدون تردد , هو لا يرى بأسا أن يترك (حجازى) البلد , على الأقل يبتعد عن تأثير أمه , وقد تتغير طباعه التى فشل فى تغييرها , ولكن يبقى عناده وعناد أمه , كيف يقنعه أن يترك البلد ؟ الأمر فى حاجة إلى حيلة وتدبير .

وحينما دخل بيته أقبلت عليه زوجته مستفسرة , وكان قد اختمرت فى ذهنه فكرة , وبدأ فى تنفيذها , جلس متجهما , وأخذ يحوقل ويستغفر فألحت مستفسرة , وكان قد اختمرت فكرة فى ذهنه , وبدأ فى تنفيذها . وجلس متجهما , فالحت عليه أن يخبرها عما حدث فى دمنهور , فقال متكلفا الحزن :

- (محمود أفندى) مصمم على الطلاق .

فلوت بوزها , ولملمت ثوبها حول جسدها الناحل وقالت :

- كان يريد تطليقها ولكنك أنت الذى منعته وضربته وأهنته أمام أخوته .

- أتظنين أن الطلاق أمره يسير هكذا ؟
- إذا طلقها اليوم , أزوجه غيرها غدا ... إنها لا تصلح لشئ , فلا تستطيع أن تعجن أو تخبز أو تحلب ولا حتى تترب تحت البهائم .

نهض وجمع أطراف العباءة حول صدره وقال جادا : - على خيرة الله ... سأبحث عن مشتر لأبيعه فدانا أو فدانيين .

صعقت حينما سمعت بهذا الخبر , وامتقع لونها , وجذبته من يده , وأجلسته وهى فاغرة فاها وسألته : - تبيع الأرض .... لم يا (أبو حجازى) ؟!

- أمرك غريب يا أم (حجازى) !! لكى أدفع المؤخر لزوجة ابنك والنفقة وغيره .
- وهل علينا مؤخر كبير لتلك الدرجة ؟
- ثمن فدان .. ونبيع كم حتة ذهب , وقرشين كنت مدخرهم ... وبذلك أكون قد جمعت المؤخر , وربنا يسهل فى النفقة .

أسود وجهها وأخذ يتلون بأكثر من لون , وشعر أن روحها تكاد أن تفارق جسدها , ولولا أنه يتحدث بكل ثبات لظنت به الجنون , وقالت وأطرافها ترتعش : - هذا خراب , لقد خرب بيتنا .

- وخراب لبيت (خديجة) .

صمت قليلا , ثم وقفت قليلا وقالت بتصميم غريب : - حجازى لن يطلق خديجة . سوف أذهب إليها وأقبل رأسها واستسمحها لتعود إلى بيتها , وسوف آخذ (حجازى) ليعتذر لأبيها وأمها ولها أيضا ...

ونـــــــــــــادت علـــــــــــــى إحـــــــــــــدى بناتهـــــــــــــا : - يا بنت يا سعدية ... اذهبى واخبرى حجازى أن يترك كل ما بيده .... سوف نذهب ولن نعود إلا ومعنا زوجة ابنى .

حاول (عبد العاطى) أن يكتم نوبة من الضحك المفاجئ , ذهب نحو الزير وأخذ يتجرع الماء متمهلا , وبعد أن استعاد جديته قال لها :

- ليس الأمر بتلك السهولة فقد لا يقابلونك .
- لم ؟!
- لأن ابنتهم ضربت وأهينت .

أخذت تشد غطاء رأسها وتعقده , وهى لا تفعل ذلك إلا إذا أصيبت بصداع حاد , قالت فيما يشبه التضرع : - وما فى هذا ؟! النساء يضربن من أزواجهن , وكثيرا ما ضربتنى , ولم أشك , ولم أطلب الطلاق !1

- نعم , ولكنك لست ابنة (محمود البستاوى)
- الله يكرم أصلك يا أبو حجازى .

- أنا لا أقصد ...أنت تعرفين أن لو تزوج حجازى فتاة من القرية لهان الأمر ...ولكن (خديجة) أمر آخر .... ثم لا تنس أنك صاحبة الاقتراح أن يتزوج (حجازى) من (خديجة) .
- وما العمل ...؟ ما العمل ....؟
- بالنسبة للطلاق و...

فوضعت يدها على فمه مقاطعة : - لا تذكر سيرة الطلاق ... حجازى لن يطلق خديجة .

صمت قليلا وشعر أنه قد هيأ للأمر وأجاد فى ذلك , اقترب منها وقال :

- هناك بديل واحد عن الطلاق .

فقالت بلهفة : - ما هو ؟

- (خديجة) لم تعد تحتمل العيش معنا , وهى ترفض العودة .

لم تحر جوابا ... وأشفق الرجل على زوجته مما تعانيه : - ما رأيك أن يذهب (حجازى) إلى دمنهور أو أى مكان آخر ليعيش مع زوجته وابنه . ويبحث له عن عمل آخر فى البندر , وقد يأتى بقرشين ويشترى بهم قطعة أرض ؟

- وما فى ذلك , ليذهب ويعمل فى البندر طالما سيعود عليه الفائدة .
- إذن أنت موافقة على هذا .
- ولم لا ... أفضل من الطلاق وبيع الأرض ودفع المؤخر .
- إذن عليك باقناع حجازى .
- ولم لا تقنعه أنت ؟
- حجازى لا يقتنع إلا بكلامك . أعرف أنه من الصعب اقناعه , ولكنك الوحيدة القادرة على ذلك .

وبعد أن تناولوا العشاء , صعد (حجازى) إلى حجرته لينام , صعدت وراءه أمه وجلست معه تجمع كلمة من هنا وكلمة من هناك , ثم قالت بعد تردد :

- ولله كانت (خديجة) وابنها يملآن الدار علينا .

اندهش حجازى من كلامها ... فأول مرة تتكلم عن زوجته بتلك الرقة وهذا الحنين ... وكانت تحرضه لكى يعاملها معاملة قاسية حتى لا تتكبر عليه بأصلها وحسبها , لدرجة أنه كان يرى أن إحساسه بالحب نحوها أو نحو ابنه نوعا من الضعف , فكان يحاول أن يبدده , ويضع مكانه الجفوة والغلظة ... وكان أحيانا يرثى لها , فهو يعلم فى قرارة نفسه أنها لم تخلق لتلك الحياة القاسية , ولم تهيئ لها , وكان إذا استيقظ فجرا يتأملها فيراها مخلوق جميل برئ ملائكى ... يشعر نحوها بتلك المشاعر التى يشعر بها نحو الزهور التى فتن بها وأدمن رعايتها .... ويتعجب من تصاريف الأقدار التى جمعته بها , لم يكن يطمح ولم يكن يظن أنه سيتزوج سوى بفتاة من القرية , سمراء متشققة القدمين , خشنة اليدين , غليظة الشفتين , غبية , فإذا القدر يسوق له ما لا يخطر على بال , إنها كما قالت إحدى أخواته : (غريبة ناعمة) .

حـاول (حجـازى) أن يستشـف شـيئا مـن ملامـح الوجـه الجامـد المعـروق , وذبالـة المصـباح تتـراقص لنسـمات الليـل التـى تـدلف مـن النافـذة , وأصـوات صـرار الليـل والضفدع تسد فجوات الصمت والسكون . نحـى غطـاء رأسـه وتخللت أصـابعه شـعره والحيرة والتعجب يحيطان به . قالت وهـى تسوى من فراشـه : - ألا تحب أن تـرى (محمودا) ابنك ؟

- لا أحب أن أراه , ولا أرى أمه بعد أن فعلت فعلتها السوداء .

تقدمت وجلست بجواره : - إذا كانت قد أخطأت ... فأنت أيضا أخطأت .

فاعتدل جالسا وقال : - ما بك يا أمى .... بالأمس توافقيننى على ضـربى إياهـا ... واليوم تتحدثين كما يتحدث أبى ؟!

- أبوك كان على حق .
- ما معنى هذا ؟
- الواجب أن تعتذر لأبيها .

فنهض غاضبا قائلا :

- والله لن أعتذر لأحد , وإن لم يحضرها أبوها إلى هنا , فلن تبقى على ذمتى .

أيقنت أن من العبث الدخول إلى عقل ابنها من هذه الناحية , فغيرت الموضوع قائلة :

- نسيت أن أخبرك أن (محمد أبو حسين) قد اشترى فدانا من جماعة الحـوفى , و(عبد الهادى الغرباوى) بنى دارا جديدة فى الناحية الشرقية من البلد .

فقال مندهشا : - ومن أين حصلا على المال وهما يعملان أجيرين ؟

- لأنهما ذهبا إلى البندر وعملا هناك , وفلوس البندر وخيره كثير .

صمتت قليلا ثم قالت : - الأرض لم تعد تأتى بالكثير , وأخواتك كبروا ومصاريفهم زادت , وما يأتى من الأرض يذهب فى الانفاق عليها وعلينا , ولا يتبقى شئ .

- على رأيك , مصاريف الأرض كثيرة .
- ما رأيك أن تذهب وتعمل فى البندر .
- وأترك الأرض !!
- إخوانك يرعونها , وأنت تكون قرشين لنبنى دارا جديدة .
- وماذا سأعمل فى البندر ؟
- الأعمال كثيرة , المهم ما رأيك ؟
- لا أستطيع أن أترك الأرض .
- وهل ستطير الأرض .
- وأين سأعمل ؟
- فى دمنهور أو الأسكندرية

صمت قليلا ثم قال :- أنا لا أعرف شيئا سوى الفلاحة .

- وهل من ذهب إلى البندر من الفلاحين كان يعرف شيئا
أخذ يتثاءب وشعر أن النوم يثقل جفونه فتمدد وجذب الغطاء وقال بعناد :- لا .. لن أذهب إلى البندر . فجذبت الغطاء من على جسده :- ستذهب إلى البندر , وسأخبر والدك أن يبحث لك عن عمل هناك .

فجذب الغطاء وبسطه على جسده قائلا : - افعلا ما تريدانه ... اتركينى لأنام .

شعرت بزهوة الانتصار , وابتسمت وذهبت نحو المصباح واطفأته .

(9)

- الأسكندرية – مقهى القزاز -

بجوار مقهى (القزاز) الواقع على ناصية شارع الأفرنج امتداد ميدان (القناصل) , وعلى جانبى حارة داخلية قابعة فى الظل , تدلف إليها نسمات البحر فى دعة , حتى إذا دخلت الحارة الضيقة , أخذت تعبث بأطراف الملابس المتدلية من الحبال المعلقة فى المشربيات الخشبية المتداعية ... يجلس عدد من الحمارة والحمالين والعربجية , افترشوا الأرض المبلطة بالحجارة السوداء , البعض تمدد وبسط جسده غافيا , والبعض الآخر جاء بأرغفة ساخنة من المخبز المجاور , وبعض ثمرات الطماطم وبصلة وقليل من الملح والفلفل , وأخذ يأكل . وقد اصطفت دوابهم التى لا تقل عنهم اجهادا بجوار الحائط المقابل , وقد وضعوا أمامها القليل من الطعام والشراب . تلك الفترة من الظهيرة تشهد هدوءا فى حركة الميدان و وحركة تنقل الأجانب .

ارتفع صوت الحمارة والحمالين , البعض ناقم من سوء معاملة الناس له , والآخر يتململ من أيام الضنك والفلس وقهر الزمان له , وعدد منهم كان يستخف مما يتعرض له , فكان يطلق النكات البذيئة الصريحة , يقهقهون , وتهتز أجسادهم النحيلة من تحت أسمالهم البالية الممزقة , يغرقون أنفسهم فى الضحك , يريدون أن يحركوا شيئا غامضا راسخا فى نفوسهم .... يمد أحدهم يده خاطفا قبعة من بجواره وهو غافل عنها , وبسرعة يرميها لآخر , وهذا بدوره يناولها إلى من بجواره فيخفيها فى طيات ملابسه , ويظل صاحب القبعة يفتش من يصادفه أمامه , وهو يلعن أباءهم وأجدادهم , وحين ييأس من العثور

عليها يخطف أى قبعة من فوق أى رأس يصادفه , وتنشأ المشاحنات والمشاجرات والتى لا تتجاوز حدودا معينة تنتهى بالاعتذار والتقبيل على الرأس .

بعد ذلك يبدأ كل منهم فى العناية بحماره أو حصانه لاستئناف عملهم بعد أن تهدأ حرارة الشمس الحامية , رائحة روث الدواب بدأت تزكم الأنوف كلما اشتد الحر الذى بدأ مبكرا , ولم تفلح نسمات البحر الكسولة أن تحد من عنفوانه , تجمع عدد منهم وركبوا عربة (رفاعى) , التى كانت تقف فى الظل بجوارهم , ليقص عليهم آخر أخبار (عرابى) وأحوال البلد , فقد كان (رفاعى) الشخص الوحيد بينهم الذى يقرأ ويكتب , ويستطيع أن يحصل على أى جريدة مجانا ؛ لأنه كان يقوم بتوزيع جريدة الأهرام ، وعدد م المجلات على مراكز البيع , ويختلط بالمثقفين والصحفيين .

تجمعوا حوله مصغيين , وكانوا فيما مضى لا يهتمون إلا بلقمة عيشهم , ولكن بعد ما فعله (عرابى) أصبح يمثل لهم الأمل والمخلص الوحيد مما هم فيه من هم وكرب , حتى وإن كان (عرابى) لم يفكر فيهم مطلقا , إلا أنه بمثابة جبر لانكسار زمانهم , وثأر لما حدث ويحدث لبلادهم .... قال (رفاعى) يداعبهم : - مالكم أنتم وعرابى ...؟! أهم شئ لقمة عيشكم ... هل سينفعكم (عرابى) .... كلامى صواب ولا إيه يا عم (مصطفى) ؟

فقال (مصطفى) بحماس واندفاع : - نعم , عرابى أهم من لقمة عيشنا , أول مرة الواحد منا يمشى رافع رأسه , ويضع عينه فى عين الأجانب ولاد الصرمة .

فضحك (شعير) وهو رجل هزيل نحيف كحماره الذى يعتنى بع اعتناءا شديدا وقال مخاطبا (مصطفى) : - كل ما تفعله أن تضع عينك فى عينه .. كسبنا كثيرا يا فالح !!

وارتفع صوت (حسن) وشهرته (الأرنب) واطلقوا عليه هذا الاسم لأنه يهرب ويفر ويترك ما بيده إذا أحس بأى خطر , وهو دائم التوجس والحذر والشك , خفيف الحركة , وله أذنان مرتفعان مسحوبتان لأعلى , وهذا ما جعل وصف الأرنب يلصق به , قال بصوته النحيف :

- معه حق (مصطفى) , بالأمس ظل رجل إيطالى يناديني , فنظرت إليه ولم أجبه , ومشيت أنا والحمار وكأننا لا نسمعه .

فقال أحد الجالسين ساخرا : - أأنت فعلت ذلك ؟! لا أصدق ما تقوله ... أنت أكثر واحد يخاف منهم .. فأنت جبان ... أنت أرنب .

فهجم عليه (حسن) وهو يرتعش من الغضب وتناثر الزبد حول شفتيه , وكان هذا يحدث كثيرا , وأسرع من حولهما بالتفرقة بينهما .

قال (شعير) بنفاد صبر : - هل ستتكلم يا (رفاعى) أم نذهب إلى حال سبيلنا ؟

قال (مصطفى) : - سمعت أنهم يريدون قتل (عرابى) .هل هذا صحيح ؟

فنظر الجميع بغضب وقالوا فى صوت واحد : - يقتلون عرابى ...!! كيف ؟

قال أحدهم بحماس زائد : - لو قتلوه سوف نشعل فيهم النار .

وقال (حسن) : ونحطم البلد فوق رؤوسهم .

فنظر إليهم (شعير) متعجبا : - هل تعرفون من الذى يريد قتله ؟

- لا .

فعقب (مصطفى) : - أيا كان ... فلن يكفينا الأجانب كلهم .

نظر (رفاعى) إلى حالتهم المزرية , وتعجب كيف تقدر الألسنة على قول ما لا تقدر العقول على مجرد التفكير فيه , قال (شعير) : - من يا (رفاعى) الذى كان يريد قتل (عرابى) ؟

- مجموعة من الضباط الجراكسة ووزير الجهادية (عثمان رفقى) .

فقال (مصطفى) متعجبا : - ألم تقل لنا فى المرات السابقة أن عرابى هو وزير الجهادية .

فقال (شعير) متضايقا : - أنت حمار لا تفهم , (عثمان رفقى) هذا كان وزير الجهادية السابق .

نظر إليه (مصطفى) غاضبا وقد وقف فاهتزت العربة : - نسيت يا أخى ... هو أنا عقلى دفتر ... ولا تقل لى حمار مرة أخرى .

فقال (شعير) : - لم ؟ وهل الحمار شين ؟

- على رأيك ... لولا الحمير لمتنا من الجوع .
- اكمل يا (رفاعى) .. ماذا حدث بعد ذلك ؟
- قبض عليهم (عرابى) وسجنهم كلهم .

فانطلقت الألسنة فى حماس : - ينصر دينك يا عرابى ؟

- ربنا يحميك يا (عرابى)
- يحرسك ربنا يا (عرابى)

فنظر إليهم (شعير) متعجبا : - أأنتم فى مظاهرة ..... ما بكم ؟!

فقال (مصطفى) : - لأننا نحب (عرابى) .... كان نفسى أكون (عرابى) .

- ولو كنت (عرابى) ..... ماذا نت ستعمل ؟
- أعدل حال البلد .

وقال (حسن) : - لو أنجبت زوجتى ولدا سوف أسميه عرابى ؟

فقال (شعير) مبتسما : - ولو ولدت بنتا .

فقال مصطفى ضاحكا : - يسميها عرابية .... ها ....ها ..... يجب أن تحبل زوجتك أولا .

فقال (حسن) وهو يتحفز للهجوم عليه : - احترم نفسك وإلا ....

قال (شعير) غاضبا : - لنسمع بقية الأخبار ... أكمل يا (رفاعى) يا ابن أختى .

قال (رفاعى) : - وبعد أن حكم عليهم (عرابى) لم يرض الخديو بتلك الأحكام .

فتعجب (مصطفى) وخلع غطاء رأسه المهترئ المتسخ وهرش فى شعر رأسه وتساءل :

- الخديو مع عرابى ولا ضده ؟

وسادت فترة صمت قطعها (شعير) بقوله وهو يرفع إصبع يده المعروقة :

- الخديو لم ينس ما حدث من عرابى فى عابدين , لذلك لم يؤيده ولم يقف ضده .

فقال (رفاعى) مبتسما : - والله يا خالى أصبحت تفهم فى السياسة

- الفضل لك يا ابن أختى .

نزل (رفاعى) من العربة وقال لمن حوله : - كفى اليوم سياسة , وهيا لنسعى على لقمة عيشنا ... لقد هدأت حرارة الشمس .... هيا يا رجالة كل واحد على حماره وعربته .

وفجأة خفضت الأصوات وسكنت الأيادى والأقدام الحافية المتشققة المغبرة حينما ظهر رجلان ضخام وبيد كل منهما نبوت , وشوارب تملأ وجيهما ..... غابت الدماء من الوجوه , وكأنهما رأوا عفريتين , وعلى الفور امتدت الأيدى المرتعشة إلى الجيوب لتخرج الملاليم والقروش لتحصيها , وأخذ (زغطة) و (علىش) فتوتى المعلم (كحلاوى) أشهر فتوة فى الأسكندرية , أخذا يمران على الحمالين والحمارة , يأخذون ما امتدت به الأيدى ,وهم ينظرون بخوف وفزع إلى النبوتين الضخمين , وبعد أن أحصى (زغطة) ما جمعاه بصق عليهم , ثم انصرف ورفيقه , رجعوا إلى ما كانوا فيه وهم يتابعون الرجلين بنظرات مؤسفة , قال (شعير) ضاربا كفا بكف :

- الله جاب , الله خد , الله عليه العوض .

فضحك (رفاعى) وكان ينظف عربة الحنطور ويلمعها :

- يوم تدفع ضريبة للحكومة , ويوم تدفع فردة للكحلاوى .

فقال (شعير) وهو يسوى الغطاء على ظهر الحمار :

- سوف آخذ الأولاد وأمهم وأعطيهم للحكومة وفوقهم الحمار .
- وماذا ستفعل أنت يا خال ؟
- أذهب للمعلم (كحلاوى) يشغلنى معاه .
- فتوة !!

فأشار إلى عظام صدره الناتئة وافتر ثغره عن ابتسامة كشفت عن أسنانه المتآكلة :

- لا ... , شماعة يعلقون عليها نبابيتهم .

وقال (حسن) : - تعالوا نرسل مكتوبا لعرابى .

فلم يعلق أحد , وبدأوا يتسربون فى شوارع وميادين وحوارى الأسكندرية , وقال (رفاعى) وهو يشد اللجام مخاطبا خاله : - تعال لنتناول العشاء معنا يا خال .

فنظر إليه بضيق قائلا : - أمك تضع كثيرا من الملح والشطة على الطعام .

- إذن سأخبرها أنك رفضت .

فأسرع ممسكا بلجام الحصان متسائلا : - ماذا ستتناولان على العشاء الليلة ؟

- لقد ذبحت أمى أورزة كبيرة هذا الصباح .

وقف (شعير) يهرش فى شعر صدره العارى تارة ويمد يده فى ظهره تارة أخرى , ونظر إلى الأرض قائلا : - والله يا ابن أختى ....

فقال (رفاعى) وهو يحث الحصان على السير : - سأخبرها أنك رفضت دعوتها .

- أتريد أن تغضب على ؟ سأحضر حتى لو كان طعامها كماء البحر .
- لا أريد أن تكلف نفسك ما لا تطيق يا خال , سأخبرها أنك لن تحضر .

فقال بغضب : - أنت مالك ياأخى ... سأحضر , أنتم لا تذبحون أوزة كل يوم .

ابتسم (رفاعى) قائلا وهو يفرقع بالسوط فى الهواء :

- لن أتناول العشاء إلا بعد حضورك يا خال .

(10)

- رمى البحر -

جلس على المقهى يتابع حركة الحمالين والحمارة وهم ينطلقون فى شوارع وميادين الأسكندرية بعد أن نالوا قسطا من الراحة وهم يتصايحون على بعض ضاحكين عابثين غير عابئين بأى شئ حولهم , وكان يحسدهم على ما هم فيه من انطلاق وانبساط مع أنه يعلم أنه قد يبيت أحدهم أو يصبح وليس فى يده ثمن كسرة خبز , ومع ذلك فهم لا يكترثون , على ما يبدوا أن كثرة ما مروا به من مآسى ومواقف علمتهم التعالى فوق متاعب تلك الحياة و حاول أن يفعل مثلهم ولكنه فشل . أخذ يتابع حركة القوارب المضطربة على سطح الماء من بعيد ,والنوارس تحلق فوقها باسطة أجنحتيها , بدأت الشمس تميل نحو المغيب , جاء صبى المقهى بالشاى والنرجيلة , أخرج من جيب جلبابه قطعة صغيرة من الحشيش فوق الحجر ثم وضع قطعة من الفحم المتقد وأخذ فى جذب الأنفاس بعد أن أرسل نظره إلى الأفق المتسع أمامه ,

شعر باسترخاء , فارقه الضيق والملل وحل مكانه إحساس بالإنسجام , أغمض عينيه , تخيل أنه الأسكندر الأكبر , يلبس التاج ويركب جواده , ويسير فى شوارع الأسكندرية يطارد الغرباء والدخلاء , يجمعهم ويرميهم فى البحر كما جاءوا منه , ويعيد بناء الأسكندرية مرة أخرى , بيضاء نظيفة متألقة , ينظف شوارعها من السمك المنتن والأعشاب المتعفنة والجثث المتحللة , ولكنهم يزحفون إليه وتلتف أذرعتهم الأخطبوطية نحو أرجل الجواد تكبلة , ويضرب بسيفه ليقطع تلك الأذرع ولكنهم يتكاثرون عليه من كل جانب , يضيقوا عليه , لا يستطيع أن يتنفس , أجسادهم تمنع عنه النور والهواء . فتح عينيه فوجدهم واقفين أمامه يضحكون عليه ويجذبونه من أطراف جلبابه , قال أحدهم وهو يجذب منه النرجيلة :

- ما بك يا (رشيدى) ؟! أول مرة أرى واحدا نائما وهو جالس .

ابتسم فى خجل ونادى على صبى المقهى وقال : - اجلس يا (لويس) ... لم تقف يا (قبارى)؟ ...(مرسى) لا تدخن تلك النرجيلة .

فقال (مرسى) بعناد : - سوف أدخنها .

وأخذ يجذب نفسا عميقا , وفجأة أخذ يسعل وجحظت عيناه , وأشار لهم أنه لا يستطيع أن يتنفس , فقال (قبارى) بعد أن جذب كرسيا وجلس : - ألم يخبرك (رشيدى) ألا تدخن تلك النرجيلة , هل ستظل طوال عمرك عنيدا ؟

فقال (مرسى) وهو يتنفس بصعوبة : - وما أدرانى أنه كان يضع فيها زفتا .

- زفت ولا نيلة ... ألم يخبرك ألا تدخنها .

فقال (مرسى) وهو يتنفس بصعوبة : - ربنا ينتقم منكم .

وقال الصبى الواقف بعد أن نفد صبره : - ماذا تريد يا معلم (رشيدى) ؟

فألتفت إليه قائلا : - أما زلت واقفا .. هات مشروبات للمعلمين يا حمار .

فنظر الصبى إليهم قائلا : - ماذا تريدون يا معلمين ؟

فصفعه (قبارى) على قفاه وقال : - ألا تعرف ماذا نشرب ؟ اذهب هات نيلة .

- لا يوجد عندنا نيلة .
- ماذا عندكم ؟

فقال وهو يبتعد كى لا تنال أيدى أحدهم قفاه كما تعود منهم : - عندنا هباب سادة .

فقال (مرسى) : - هباب عليك وعلى أهلك , أمش يا حمار هات شايا .

سادت فترة صمت قطعها (لويس) بقوله : - منذ متى وأنت تجلس هنا يا (رشيدى) ؟

صمت قليلا ثم قال بحزن : - لا أعرف , فلم يعد للوقت قيمة , بعد حدوث ما حدث .

فقال (لويس) : - هل سنجلس ونضع أيدينا على خدودنا هكذا ؟ لابد وأن يكون فيه حل .

فقال (قبارى) وهو يعبث بعصاه فى حذائه اللامع : - أين الحل ؟ ولاد الصرمة مثل النمل فى كل مكان . وأمام كل ورشة من عندنا فتحوا ورشة من عندهم , وأمام كل وكالة أنشأوا وكالة .

فعقب (مرسى) وهو يضرب كفا بكف : - أنا لا أدرى من أين يأتون بتلك البضائع وبالأسعار الزهيدة ؟!

قال (قبارى) : - كلنا توقعنا خسارتهم ؛ لأنهم يبيعون بأقل من التكلفة , فإذا بهم يكسبون , ونحن الذين نخسر .

فابتسم (مرسى) فى أسى : - قصدك نفلس .

فقال (لويس) وهو يحكم ربطة عنقه : - الضرائب المفروضة علينا كبيرة جدا , بينما لا تفرض عليهم أى ضريبة .

وقال (رشيدى) وهو ينفث سحابات الدخان فى الهواء : - زحفوا على البلد كالجراد , امتلأت البلد بمخازنهم فى شارع الرملة وشارع التلغراف وشريف باشا والبوسطة الإيطالية والعطارين ... كلها يافطات لأسماء إيطالية وأمريكية وإنجليزية وفرنسية ويهودية .... تصدقوا أنا مرة تهت .

فضحك (قبارى) : - أنت دائما تايه يا رشيدى .

وعقب (مرسى) : - توهان عن توهان يفرق .

أخذ (رشيدى) سحب أنفاسا وقال وهويسعل : - معك حق ... توهان عن توهان يفرق , وكله ضياع .

وفى تلك اللحظة وقفت عربة حنطور أمام المقهى ونزل منها رجل فى العقد الخامس , فى قمة أناقته تتقدمه رائحة العطر الباريسى المستورد . اقترب منهم وحيا الجميع ثم قال بصوته الجهورى ضاحكا : - خربتوها وقعدتم على تلها .

فقال (رشيدى) مخاطبا (قبارى) : - أنا شامم ريحة زفرة يا (قبارى) .

- المعلم (قنديل) طل علينا .

سادت فترة صمت بعد الضحك المتواصل . نظر إليهم المعلم (قنديل) ثم جلس وهز رأسه فى سخرية وقال : - لم يعد لكم ما تصنعونه سوى السخرية والضحك على الناس , طوال النهار تنعون حظكم , واحد أغلق ورشته , والآخر أعلن إفلاسه , والثالث يريد أن يترك البلد ويهاجر , والرابع يبيع ما فى مخازنه من بضائع بنصف الثمن .

هبطت سحابة من الغم والضيق على الجميع , وقال (رشيدى) : -

- منك لله يا (قنديل) ... لابد وأن تأتى وتذكرنا بالهم والغم والمشاكل ..
- وإلى متى ستظلون هكذا , حالكم يسوء من يوم إلى يوم , وكنتم بالأمس من أعيان الأسكندرية ؟!

فقال (لويس) : - ليس حالنا فقط , بل حال البلد كلها .

وعقب (رشيدى) : - ولاد الصرمة منعوا عنا الماء والهواء .

فقال (قنديل) : - لا يا جماعة , البلد بلدنا , ومهما حاولوا يجب أن نحاربهم بالعقل و...

فقاطعه (قبارى) : - ونحارب الحكومة أيضا !!

التفت إليه (قنديل) قائلا : - أنا معك أن الحال تسوء كل يوم .. ولكنكم ضعفتم لأن كل واحد مشغول بأشياء غير تجارته ... (رشيدى) أهم ما يشغله المخدرات , ليل نهار مع الحشيش والأفيون , وترك صبيانه ينهبون أكبر ورشة جلود فى البلد , (لويس) ترك مكتب الأستيراد والتصدير وكل يوم فى بلد أوربى , يعيش بالطول والعرض كأنه مليونير , (مرسى) بدلا من أن يبحث عن أحدث تصاميم الموبليا , أخذ يبحث عن أجمل النساء , لم يكتف بالزواج من ثلاثة ويبحث عن رابعة , أما (قبارى) فالغناء والموسيقى طيرا عقله , وطلع فى المقدر جديد فى السهر فى الكباريهات للصبح , وترك مصنع الملابس لأولاده يبيعون معداته .... معهم حق شرازم نابولى وإيطاليا وغيرهم يزاحمونكم فى بلدكم ... ذكاء وشطارة من عندهم , وغباء وكسل من عندكم .

صمت الجميع لحظة , تبادلوا النظرات , ثم أخذوا يصفقون .. ثم قال (رشيدى) :

- ما جرى ... المعلم (قنديل) يخطب بكلام كبير .

فقال (قبارى) : - البركة فى (عبد الله النديم) و(الأفغانى) و(محمد عبده) .

وقال (مرسى) : - أنا سمعت أنه حريص على الاستماع إلى خطبهم وحضور ندواتهم .

فقال (رشيدى) : - بل هم الذين يحضرون إليه لتناول السمك ، فمحلاته من أشهر المحلات , وكبار البلد لا يأكلون إلا من عنده .

فقال (قنديل) وهو يخمس فى وجوههم : - سنبدأ نظام الحسد يا جماعة الخير .

فربت (قبارى) على كتفه قائلا : - أنت تعرف يا (قنديل) أننا نتمنى لك كل خير , فأنت أخونا , وما بيننا صداقة عمر .

- أنا أعرف هذا , ولقد أتيت لأدعوكم على العشاء اليوم .

فسأله (مرسى) : - وما المناسبة .. هل ستتزوج ؟

فقال مبتسما : - مسألة الزواج والنساء تركتها لك يا (مرسى) , ولكن بمناسبة افتتاح المحل الجديد فى العطارين .

فتساءل (رشيدى) متعجبا : - هو (قنديل) يا جماعة أصله فرنسى ولا إنجليزى ولا إيطالى ؟

- لم ؟
- أغلب المصريين يغلقون محلاتهم , والأجانب ولاد الصرمة هم وحدهم الذين يفتتحون المحلات ... السكندرى الوحيد الذى يقتتح محلات هو (قنديل) .

فضحك (قبارى) قائلا : - ربما يشتغل من الباطن .

نهض (قنديل) وتناول العصا والطربوش وقال مخاطبا (مرسى) : - لقد جهزت لك الجمبرى والكابوريا يا مرسى .

وقف (مرسى) وصفق على يديه قائلا : إذن ليلتنا فل ونجف يا معلم (قنديل) .

(11)

- كحلاوى -

كان الفتوات وصبيانهم يجلسون فى القاعة الواسعة فى بيت المعلم (كحلاوى) الذى يشبه القلعة , الجدران مدججة بالنبابيت والشوم والسيوف والخناجر . البعض يجلس على الدكك الخشبية , والآخر واقفا , وعدد من الرجال يجلسون القرفصاء , منهمكين فى أحاديث شتى , الوجوه وما بها من شوارب كثيفة وندوب وجروح , والأجساد الفارعة العريضة القوية وما ارتسم عليها من معارك من بتر ذراع أو قدم أو جدع أنف أو فقأ عين أو اصطلام أذن ... كل هذا ينطق بالقسوة والشراسة , وقد اكتسبوا شهرة واسعة فى الفتك والبطش بمن يتحداهم أو يقف فى طريقهم .

يتوسط القاعة التى تعبق برائحة التبغ منضدة خشبية وحولها مقعدان , سمع صوت قدم المعلم (كحلاوى) فسكتت الألسنة ووقف الجميع ساكنين واتجهت العيون إلى أعلى السلم , نزل يتكأ على عصاه , فى نهاية العقد السادس , يرتدى جلبابا من الصوف الأسود لا يتناسب مع حرارة الجو , طويل القامة , نحيف , عظامه الناتئة من تحت الجلباب تنبئ عن ضخامة جسمه فى سنى شبابه , أسود البشرة , حليق الرأس والذقن , ذو أنف مرتفع , تحته شارب كث أبيض , إذا ابتسم وقليلا ما يحدث تظهر أسنانه المتأكلة السوداء . يلفت

النظر إليه تلك الأذن المجدوعة , والتى قطعت أثناء معركة من معاركه التى لا ينساها أهل الأسكندرية , أغلب سنى عمره كان مسجونا , منذ صغره اختار الفتونة طريقا وحيدا , وبما يتصف به من دهاء ومكر وبطش وفتك استطاع أن يكون أقوى وأشهر فتوة , وأحاط نفسه أو تجمع حوله جيش من شباب الفتوات , الذين يأتمرون بأمره , تزوج من راقصة إيطالية أعجب بجمالها وأنوثتها , وهى أعجبت بشجاعته وسلطانه , أنجب منها (صبح) , وبعد شهرين من ولادتها , اختفت زوجته , وتركت وليدتها , بحث عنها فى كل مكان , وسافر إلى إيطاليا ومكث هناك يبحث عنها , ولكنه لم يجد لها أثرا , ويقال إنه وجدها مع عشيقها فشرب من دمائها , وسجن سنوات , واستطاع الهروب وجاء إلى الأسكندرية متخفيا فى زى بحار , تلك الحادثة جعلته لا يثق فى أحد , لا سيما النساء , وزادت من قسوته , لا أحد يستطيع أن يقنعه بشئ سوى ابنته (صبح) ، فى العشرين من عمرها , ورثت عن أمها جمالها وبياض بشرتها وشعرها الأشقر , إلا ان كراهية والدها للنساء جعلته ينشأها تنشئة الرجال , فورثها خشونة طبعه وغلظته وعلمها أساليب الفتونة , وجعلها لا ترتدى إلا ثياب الرجال , ولولا ملاحة وجه وجمال قد لعددت من الرجال , وحرص على أن تتلقى قسطا من التعليم الذى حرم منه , فكثيرا ما تقرأ وتكتب لتملأ الفراغ الذى يثقل عليها فى بعض الأيام الخالية من المعارك والمشاحنات , وكان يطيب لأبيها أن يراها تمسك بجريدة وتقرأ له بعض الأخبار التى لا يفقه منها شيئا , ويرى فى هذا ما يميز ابنته عن بقية رجاله , فكلهم يحملون فوق أكتافهم رؤوسا كثمرات الدوم , صلب ولا يحتوى على شئ بالمرة , وكان يعجب بذكائها وحسن تصرفها , وكان يعترف بينه وبين نفسه أنها ورثت عن أمها الذكاء , والدليل على ذكائها أنها تركته وهربت , فليس فى حياته شئ يدعو راقصة فاتنة مثلها أن تتزوج بفتوة أو بلطجى , حتى حين طلبها للزواج تعجب من موافقتها , ولا يدرى للآن لم وافقت , ولا يدرى لم هربت منه وتركت ابنتها ؟!

لا يسمع سوى دقات عصاه على درجات السلم الخشبى العتيق , وهو ينزل ببطئ مصوبا نظراته

النارية من عينيه الضيقتين كالصقر . جلس على المقعد , وجلست بجواره ابنته , وبسرعة أتى رجل بفنجان القهوة وآخر بالنرجيلة , شرب وأخذ يدخن واضعا قدما فوق الأخرى , وأخذ يذب بضيق ذبابة تحوم حول رأسه الحليق , رفع نظره إلى الرجال الواقفين الصامتين وتنحنح فتقدم عدد من الرجال بأكياس من القماش وأفرغوا ما بها من نقود على المنضدة أمامه وعادوا إلى أماكنهم , نظر إلى النقود ورفع عصاه وبعثر النقود فى أرجاء المكان , وقال بصوت مبحوح كحفيف الأفعى : - كل يوم تحركون شواربكم وتعودون بالملاليم والقروش ..... ماذا أفعل بهذا ؟ ووراى جيش من الرجال وبيوت مفتوحة وأرامل ويتامى وعاجزين ومسجونين ... الأفضل تجلسون فى بيوتكم وتكسرون تلك النبابيت وتحلقون تلك الشوارب .

.سادت فترة صمت , نكس الرجال رؤوسهم ناظرين إلى الأرض , ولم يعد يسمع سوى قرقعة النرجيلة , استأنف (كحلاوى) كلامه : - لم أنتم صامتون ...؟ اتكلموا .

تقدم (زغطة) خطوة قائلا : - يا معلم الحال لم يعد كما كان , أغلب التجار أفلسوا وأغلقوا وكالاتهم ومخازنهم وورشهم , لم يعد أمامنا سوى الحمارة والحمالين والسقايين والصيادين ... وهؤلاء على باب الله .

- البلد خربت ولا أدرى !!

فتقدم (عليش) وقال : - الجماعة الأجانب هم السبب , المحلات والوكالات والورش أغلقت أبوابها لأنهم أقاموا مثلها , وباعوا بضائع أرخص من بضائع أهل البلد .

- ولم لا تأخذون من الأجانب ؟

فتقدم رجل يدعى (سيد حمبوطة) وقال بضيق : - إذا كانت الحكومة لا تقدر أن تأخذ منهم ... أنحن نأخذ منهم .

فقال غاضبا وهو يدق بعصاه على الأرض : - لا شأن لى بالحكومة ... أنا هنا الحكومة .

فقال (عليش) بصوت خفيض : - لهم رجال يحمون تجارتهم ومخازنهم ولا نستطيع الاقتراب منهم .

أخذ المعلم يعبث بعصاه بتوتر وقال : - شئ عجيب وكأن البلد لم تعد بلدنا .... ولا أنتم كبرتم ولم تعودوا تصلحون لشئ .

أراد (زغطة) أن يتكلم , فأشار له المعلم بالسكوت , ونهض قائلا : - من الغد كل المحلات والورش والوكالات الأجنبية تدفع الطاق طاقين .

فقال (أبو الليل) رافعا نبوته : - ومن يرفض نكسر محله ونستولى على بضائعه .

فقال المعلم غاضبا : - لا يا (أبو الليل) لسنا لصوص ولا نهابيين , أنا الفتوة الوحيد فى الأسكندرية , وإن لم تستطع الحكومة أن تأخذ من الأجانب , (كحلاوى) سوف يأخذ منهم .

وجلس المعلم , نظرت إليه (صبح) فسألها : - أعندك كلام ؟

فقالت وهى تطوى صفحات جريدة كانت بيدها : - هؤلاء أجانب , وشوكتهم قوية , ويجب أن نعاملهم بطريقة ذكية .

- كيف ؟
- سوف نرسل أولا ونحذرهم , قد يدفعون بهدوء وبدون مشاكل .
- وإذا رفضوا .
- اترك لى هذا الموضوع , وسوف أتفاهم مع الرجال .

فهز المعلم رأسه , وأخذ يدخن فى صمت , ثم قال بصوت حاسم مخاطبا الرجال : - اتفضلوا.

وخرج الرجال , ثم نظر المعلم إليها صائحا : - قلت لك أكثر من مرة لا تراجعنى فى كلام قلته أمام الرجال .

فقالت برقة : - لن أقاطعك مرة أخرى أمام الرجال يا معلم المعلمين .

وضرب بعصاه طرف المنضدة , فأحضر الصبى فنجانا آخر من القهوة , وقامت بوضع قطعة من الأفيون أخرجتها من جيب قميصها , وبعد أن شرب القهوة وهدأ قال لها : - أقنعينى ... ولتكن تلك آخر مرة .

نظرت إليه مبتسمة و واقتربت منه وتناولت يده وقالت :

- الأسكندرية يا معلم لم تعد كما كانت , تغيرت كثيرا .

فنظر إليها مندهشا : - ماذا تقصدين ؟ غيروا الأسكندرية !! أصبح اسمها دمنهور ولا مرسليا ولا نابولى , الذى اعرفه أنى أعيش فى الأسكندرية .

- الأجانب زادوا فى الأسكندرية , وأصبحوا أقوى من أهل البلد أنفسهم .
- هل لديهم فتوات أقوى وأكثر من رجالنا ؟
- لا يا معلم , البلاد التى اتوا منها أقوى من بلدنا .

صمت قليلا ثم قال : - من أجل هذا الحكومة لا تأخذ منهم شيئا .

ربتت على يده قائلة : - بالضبط يا معلم .

صمت قليلا مفكرا , ومس على رأسه الحليق ثم قال : - نعم قد يكونون أقوى منا فى بلادهم , ولكن طالما هم هنا فى بلادنا المفروض أن نكون الأقوى , تلك بلدنا وليس بلدهم .

قالت وهى تسوى أطراف غطاء رأسها الذى أنزلق وأظهر شعرها الناعم .

- من أجل ذلك (عرابى) ....

فقاطعها قائلا : - لقد سمعت عن هذا الرجل أكثر من مرة , والجميع معجبون به , أهو فتوة جديد ظهر فى البلد .

ابتسمت ونظرت إلى الأرض , وصمتت قليلا ثم قالت وهى تتأمل ملامحه :

- ممكن تعتبره فتوة البلد كلها , فتوة مصر , ويريد أن يأخذ للناس حقوقهم .

فقال متعجبا وعلامات الاستفهام ترتسم على ملامحه : - فتوة البلد كلها ... ومن أين حصل على الرجال ؟

- الجيش كله من رجاله .

فقال غاضبا : - لا يا (صبح) و ليس معنى أنى أستمع إليك تقلبين رأسى , كيف يتحول الجيش إلى فتوات ويمسك النبابيت والشوم ؟!

- المهم يا معلم ... سنرسل بعض رجالنا إلى أصحاب المحلات والوكالات والورش , فإذا دفعوا بهدوء يا دار ما دخلك شر .
- وإن رفضوا .
- نجعلهم يأتون إلى هنا ويقبلون الأيدى , كيى يدفعوا ويطلبوا الحماية .
- كيف ؟
- لا تشغل بالك ... أهم شئ أن يدفعوا .

فرفع إصبعين من أصابعه قائلا بثقة وتحد : - الطاق طاقين .

فابتسمت وقالت : - الطاق طاقين يا كحلاوى .

وجمعت النقود من على المنضدة فى منديل ثم قالت : - هذه النقود لا تكفى .

فأخرج من جيبه رزمة من المال , وأعطاها لها فأخذتها وخرجت .

تجمع الرجال جماعات تحت أشجار حديقة البيت المهملة , يفترشون الأرض , وبدأت نسمات الأصيل تخفف من حرارة الجو , خرجت (صبح) ونادت على (أبو الليل)) و (سيد حمبوطة) , تجمعا حولها بعيدا عن بقية الرجال , قالت بعد أن قسمت المال بينهما ليقوموا بدورهم بتوزيعه على الرجال : - من الغد سنرسل إلى كل دكان ووكالة وورشة ومخزن يملكه الأجانب .

أراد (سيد) أن يتحدث فقاطعته قائلة : - أنا عارفة يا (سيد) ..... سيرفضون .

- وماذا سنفعل ؟
- سنقطع عنهم الماء والهواء .

فنظر الرجلان إلى بعضهما , وقال (أبو الليل) متعجبا : - الماء والهواء !!

- نعم . كل الحمالين والحمارين لن يتعاملوا معهم . وسنخبر كل العمال الذين يعملون عندهم أن يتركوا محلاتهم .

قال (سيد) وكأنه فهم ما تقصده (صبح) : - نوقفوا حالهم .

فقال (أبو الليل) وهو يسوى من شاربه : - ولم كل هذا ؟ إن رفضوا هذه المرة نكسر ونحرق وندمر .

وعقب (سيد) : - على رأيك .. نكسر ونحرق عددا قليلا , والباقى يخاف ويدفع .

فقالت (صبح) : - النابوت والشومة لم يعدا يصلحان اليوم .

فقال (أبو الليل) ساخرا وهو يرفع النبوت : - وماذا لدى الفتوة غير النبوت والشومة ؟

فأشارت إلى رأسه قائلة : - لديه عقله .

فرمى النبوت من يده وقال ضاحكا : - إذن نرمى النبوت ونعمل بعقولنا .

وضحك (سيد) قائلا : - ليس لدينا عقل , أهلنا لم يعلمونا القراءة , العقل للأفندية , نحن خلقنا للنبوت والنبوت خلق لنا .

التقطت (صبح) النبوت وقالت : - ومن قال إننا سنرمى النبوت ونكسر الشومة ؟ سيظلان , ولكن سيسبقهما ويقودهما العقل .

قال (أبوالليل) نافد الصبر : - المعلم عند علم بكلامك هذا يا معلمة (صبح) .

اقتربت منه وأعطته النبوت وقالت له : - افهمنى يا (أبو الليل) ... أنت تريد أن تكسر وتحرق وتدمر ... كم رجل من رجالنا سيقتل ويجرح ؟ وكم رجل سيلقى فى السجن ؟

- الكثير .
- ولو فعلت ما قلته أنا , ماذا سيحدث لرجالنا ؟
- لن يحدث لهم شئ .
- قد تقول إننا سنكتفى بكسر وحرق وكالة أو وكالتين للأجانب , والباقى سيخضع لنا , وقد يحدث العكس .

فقال (سيد) : - والله (صبح) معاها حق ... ماذا سنستفيد من قتل وجرح الرجال ... ثم لابد أن نحافظ على الوكالات والمحلات ليدفعوا ... أما إذا حرقنا وكسرنا فعلام سيدفعون ؟

وربت (سيد) على كتف (صبح) : - الله ينور عقلك يا (صبح) .

فقال (أبو الليل) ساخرا : – أخشى فى يوم من الأيام أن نلبس أفندية ونجلس على مكاتب .

فضحك (سيد) قائلا : - أو نشارك الأجانب فى تجارتهم وأعمالهم .

وقال (أبو الليل) مخاطبا (صبح) : - سنسير وراءك لنرى العقل أم النبوت ؟

(12)

- رفاعى هاشم -

أثناء عودته من توصيلة فى ساعة متأخرة من الليل , وبمروره بمنطقة مهجورة بجوار حى (السيالة) سمع صوت استغاثة , اقترب من مصدر الصوت , فشاهد امرأة ومعها فتاة , وعدد من الشباب يحيطون بهما , والمرأة كالنمرة الشرسة , خلعت حذاءها وأخذت تضرب كل من يقترب منها والفتاة , وتهجم عليه بأظافرها وأسنانها , انتفش شعرها وانحسرت ثيابها عن أجزاء من جسدها , والفتاة تقف بجوارها وقد ارتفع بكاؤها , أراد أن يواصل سيره , فتلك الأمور كثيرا ما يصادفها فى طريقه , ولكنه فى تلك المرة وجد نفسه متجها بالعربة نحوهم وحينما توسطهم رفع الكرباج وأخذ يهوى عليهم بكل قوة . كانوا حوالى أربعة من الشباب , يرتدون ملابس غريبة تلمع فى الظلام , ولمح الخناجر تبرق فى الظلام , حينئذ أخرج نبوتا كان يخفيه تحت قدميه فى العربة تحسبا لمثل تلك الأمور , ونزل وأعطى ظهره للحصان وتجمع الشباب عليه , وساعده طول النبوت وطول ذراعه أن يضربهم بدون أن يصلوا إليه , ولكن استطاع أحدهم أن يتجنب ضربته ويطعنه فى كتفه , ولم يشعر بالألم وواصل ضرباته , وسمع صراخ المرأة وهى تتجه إلى الذى طعنه ومعها غصن شجرة وجدته وأخذت تهوى به على رأسه فأخذ يطلق صرخات عاليه , وفجأة بدأ الشباب ينسحبون .... قال (رفاعى) : - ما الذى أتى بك هنا , وفى هذه الساعة من الليل ؟!

فقالت وهى تلم من شعرها وتحاول أن تستر ما ظهر من جسدها : - أنا غريبة عن الأسكندرية , وأحدهم ضللنا وقادنا إلى هنا , وكان الباقون فى انتظارنا .

- وأين كنتما ذاهبتان ؟
- إلى ابنة خالتى فى العطارين .
- أين فى العطارين ؟
- لا أدرى فقد كان العنوان فى القبجة التى فيها ملابسنا وسرقوها .
- ألم تذهبى إلى ابنة خالتك من قبل ؟
- أول مرة أحضر إلى الأسكندرية .
- والعمل ؟
- أنا اعرف أن زوجها يعمل بالجمرك , واسمه إبراهيم سيد
- إذن لن تذهبى إليه إلا غدا .

وهنا شعر (رفاعى) بألم شديد فى كتفه , ومد يده فوجد الدم يسيل بغزارة , وفزعت (إنشراح) حينما رأت نزيف الدم , وبحثت حولها ، وبدون أن تشعر مزقت ذيل قميصها الداخلى وربطته باحكام , ثم قالت : - يجب أن تذهب إلى المستشفى .

فقال وهو يصعد بعناء إلى العربة : - الأمر لا يستحق .... هيا أركبا .

فضمت الفتاة مذعورة إلى صدرها وتساءلت : - إلى أين ستذهب بنا ؟

- إلى البيت ... اسرعا , فقد يعودان مرة أخرى .
وبعد تردد صعدت والفتاة .

********* ********** **********

وأمام بيت خشبى متداع فى حارة ضيقة , أوقف (رفاعى) عربته ، ودعا (إنشراح) والفتاة للدخول , ودخلت بعد تردد ، الظلام منتشر فى المكان ، صعد على سلم خشبى يصدر أنينا , أشعل عودا من الثقاب , ووقف أمام باب وطرق عليه , وبعد قليل فتح الباب وانتشر الضوء الصادر من الداخل ، وجاءه صوت أمه : - لم تأخرت يا (رفاعى) ... خالك منتظرك من مدة و....

فقاطعها قائلا : - معى ضيوف يا أمى .

- أهلا وسهلا تفضلوا
وجاءه صوت خاله قائلا فى مرح : - هل ستعزم الأسكندرية كلها على الأوزة ؟

دخلت (إنشراح) وصافحت أم (رفاعى) ونظرت الأم إلى ابنها مستفسرة فأومأ إليها , ورحب بها (شعير) , الحجرة ضيقة يضيئها مصباح من الغاز معلق على الجدران ، وفى المنتصف منضدة ، وفى جانب يوجد دولاب وتطل من خلف أبوابه المكسورة ألوان وأنواع من الملابس وبجواره منضدة صغيرة عليها أكواب الشاى ، وحينما جلس (رفاعى) ورأت الأم كتفه المربوط والدماء ، ضربت على صدرها فزعة وقالت : - ما بك ؟ هل تشاجرت مع أحد ؟

فوقفت (إنشراح) وطلبت مطهرا وقطنا .... غسلت الجرح وطهرته وربطته ، وكانت الأم و(شعير) يراقبان عملها ، ولفت نظرهما جمالها والأساور التى تحيط بمعصميها ... أما (رفاعى) فقد بوهت حينما رأها فى النور ، وأخذ يراقب حركات أصابعها ولمساتها وهى تربط الجرح ، سألت الأم ابنها : - ماذا حدث يا (رفاعى) ... الأ تقدر لهفتى عليك ؟

قالت (إنشراح) : - اللصوص كانوا يريدون سرقتنا ... ولولا سى (رفاعى) ....

فقالت الأم فى عتاب : - ألم أخبرك ألا تتشاجر مع أحد .

فقال (رفاعى) وهو يتحسس الجرح : - خذى الست لتغسل وجهها ... وهيا لنتناول العشاء .

وبعد قليل اجتمعوا على العشاء ، ولم ترد (إنشراح) أن تشاركهم العشاء ، ولكن الأم ألحت عليها وجلست بجوارها وشعرت (إنشراح) بالمودة نحوها .... سألتها : - ومن أين أتيت ؟

- من دمنهور .
- ماذا تعملين ؟

صمتت (إنشراح) ، فقال (رفاعى) : - ممرضة .

فسألته باندهاش : - وكيف عرفت ؟!

فأشار إلى جرحه . وقالت : - كنت ذاهبة لزيارة ابنة خالتى .

سألتها الأم : - وما اسمك ؟

- (إنشراح مغاورى)

فقال (رفاعى) : - الست (إنشراح) ستبيت عندنا الليلة .

فقالت الام بسرور : - إن لم تحملها الأرض نحملها فوق رؤوسنا .

نهض (شعير) وهو يسمح يديه فقال (رفاعى) : - اجلس يا خال ... لم ننتهى من الأوزة بعد .

- الحمد لله يا ابن أختى .. لقد أكلت كثيرا .

وقال وهو يتجه نحو الباب : - إذا ذبحتم أوزة أخرى أخبرونى .. ولا تأكلوها بدونى .

وبعد أن أخذت الأم (إنشراح) والفتاة إلى حجرتها ، تمدد (رفاعى) بعد أن أطفأ المصباح واسترجع ما حدث ... وببطئ تسرب النوم إلى جفونه .

********** ********** **********

قال الرجل وهو يدقق النظر : - من أنت ؟ .... أتعرفيننى ؟

فقالت (إنشراح) وهى جالسة فى عربة (رفاعى) : - أنا (إنشراح) ابنة نعناعة ، خالة سعدية زوجتك .

نظر إليها وأخذ ينشط ذاكرته ، ثم قال وهو يمد يده مصافحا : - أهلا وسهلا .. (إنشراح) ... معقول ، أنت كبرت وأصبحت عروسة ... وجميلة جدا .

فقال (رفاعى) متأففا : - اترك حكاية الجمال ، وأركب معنا لتقوم بتوصيلها إلى بيتك .

فنظر الرجل وراءه قائلا : - لا أستطيع أن أترك العمل الآن .. فنحن ما زلنا فى بداية اليوم .

- إذن الكتب العنوان فى ورقة وعد إلى عملك .

وبعد أن كتب العنوان أخذه (رفاعى) وسار من على طريق الكورنيش ، وحينما رأت الفتاة البحر وقفت وصاحت : - هذا هو البحر المالح يا أختى ؟

ضحك (رفاعى) وإنشراح ، وقام بإيقاف العربة ، وقال : - نعم ، هذا هو البحر المالح ... انزلا لتتفرجا .

وجلسوا على السور الصخرى ، نسمات الضحى تبعثر شعر (إنشراح) رغم أنها عصبت شعرها بالوشاح الأسود الذى أضفى جمالا على وجهها الأبيض المشرب بالحمرة ... أشارت إلى قصر المتزة الذى ظهر من على البعد وتساءلت : - ما هذا ؟

- إنه قصر الملك .

صمتت قليلا وسألته : - هل رأيت الملك ؟

- مرة واحدة .
- وما شكله ؟
- شكله ملك .
- أتمنى ان أراه .
- صعب .
- لم ؟ أليس ابن تسعة مثلنا .

نسيت (إنشراح) نفسها وبدأت تتحدث على طبيعتها ، لاحظت ذلك من دهشة (رفاعى) ، استدركت الأمر بسرعة وقالت لأختها : - هيا يا فرحانة ، لقد أثقلنا على سى (رفاعى) .

فقال وهو يتأمل ملامحها : - ابقيا ... فرصا لتستمتعا بالجو الجميل .

- إننا نعطلك عن أكل عيشك ... هيا .

وحينما وصلوا ، قال(رفاعى) : - هذا هو البيت .

قالت وهى تنظر إلى موضع الجرح فى كتفه : - لا أدرى كيف أشكرك يا سى (رفاعى) لقد عرضت نفسك للموت من أجلى .

قال وهو يتجنب النظر إليها : - أنا لم أفعل سوى الواجب .. وأى إنسان غيرى كان سيفعل ما فعلته.

- هل سأراك مرة أخرى ؟
- لقد تقابلنا بدون موعد ، ونحن لم نعرف بعضنا .. قد نتقابل مرة أخرى .

وصافحها وصافح أختها وأنصرف بعربته .

(13)

- أسكندر المعداوى -

بعد أن انتهوا من تناول الغذاء ، نهض أسكندر وهو يسمع تعليقات ضيوفه بالثناء على السمك ، تقدم ليدفع ثمن الغذاء ، فسأله (فؤاد البستاوى) الذى كان يجلس على مكتب ليحصل من الزبائن :

- من هؤلاء ؟
- إنهم عمال من دمنهور ، سيعملون فى ترميم الطوابى تبع المقاول (عمران)

فابتسم (فؤاد) قائلا : - حسابك وحساب و ضيوفك على المحل .

فمد (فؤاد) يده بالنقود قائلا : لو سمعك خالك المعلم (قنديل) لأعادك إلى دمنهور فى أول قطار .

- لولا شدة حرصه ما استطاع أن يمتلك محلات السمك فى أنحاء الأسكندرية .
- أشعر أنك غير مستريح بوجودك هنا .
- لم أكن أتوقع أن خالى سيكون بهذا الجفاء ، إنه يعاملنى كواحد من موظفيه .
- وماذا كنت تتوقع منه ؟
- كنت اتوقع أن يضمنى إليه وأعيش معه فى بيته .
- كيف ؟1 إن لديه بنتين لم يتزوجا ، وعلى كل ، كلها سنة أو سنتان وتتزوج أنت و (تحية) وتصبح المحلات من نصيبك .
- إنه يريد أن يزوج (سعاد) أولا ، لأنها الأكبر ، ولا أظن أن (سعاد) ستتزوج قريبا .

فضحك (إسكندر) قائلا : - نعم ، لأنها تشبه أباها .

- على هذا فزواجى من (تحية) فى علم الغيب .

ضحك (إسكندر) قائلا : - أنا على استعداد أن أحل مشكلتك يا (فؤاد) .

- كيف ؟
- أن أتزوج (سعاد) كى يوافق خالك على زواجك من (تحية) .

انبسطت أسارير (فؤاد) وأمسك بيد (أسكندر) : - تلك الخدمة لن أنساها لك ما حييت ، ولن تخسر شيئا ... فالمعلم (قنديل) سوف يعطيك ....

أبعد إسكندر يد (فؤاد) عن يده قائلا : - أتظننى معتوها ... لقد كنت أداعبك ... لو أعطونى الأسكندرية كلها كى أتزوج ابنة خالك فلن أوافق .

- كنت أظنك تضحى فى سبيل الصداقة التى بيننا ...
- ما تقول عنه ليس تضحية ، وإنما انتحار ...
- دعنا من هذا الموضوع الممل ... ألم ترى (رفاعى) اليوم ؟

- لقد بحثت عنه فلم أجده .

- ربما يكون مع الأستاذ (رمضان) يقضى له بعض المشاوير .
- ولماذا لا يشترى الأستاذ (رمضان) سيارة بدلا من ان يركب عربة حنطور ؟
- ومن أين له بالمال ؟

- الا يكتب فى صحيفة الأهرام ن ويؤلف كتبا ؟
- كل هذا لا يجلب له المال الكافى .
- أنت أدرى بحاله ، فأنت الذى تعيش معه .
- معيشتى مع (رمضان) فى شقته هونت على الكثير ، فهو إنسان نبيل ومثقف .
- أدعو لى ، فأنا الذى أشرت على خالك أن تشارك الأستاذ (رمضان) شقته .
- خالى كان يريد أن يبعدنى عن بيته فى أسرع وقت .
- نعم أراد أن يبعد النار عن البنزين ، وبالأخص حينما اكتشف ما بينك وبين (تحية) .

سادت فترة صمت قطعها فؤاد بقوله : - وفيم تريد (رفاعى) ؟

فأشار (أسكندر) إلى الجالسين : - كان قد أخبرنى عن حجرة نؤجرها لهؤلاء الرجال .

- ربما تجده فى بيته .
- أنت تعرف أن (رفاعى) إذا خرج فى الصباح لا يعود إلى بيته إلا فى المساء .
- ربما اعطى لنفسه أجازة من العمل هذا اليوم .
- سوف اذهب إلى بيته واترك له خبرا .

واشار إلى الرجال فنهضوا وأتبعوه .

******** ******** ********

- وماذا قال لك الطبيب ؟
- أن أسترح بعض الوقت إلى أن يلتئم الجرح .
- ألم تعرف الذين أعتدوا عليك ؟
- كان الظلام فى كل مكان ... وكل ما عرفته أن ملابسهم كانت غريبة ، وكذلك لهجتهم .

مد (رفاعى) يده وأخرج خنجرا من تحت الوسادة وقال : - وهذا الخنجر سقط من أحدهم أثناء هروبهم .

فقال (مخيمر) وهو يتأمله : - ولماذا لم تذهب به إلى الشرطة ؟

فقال (رفاعى) : - وماذا سأستفد يا أخ (شافعى) من وراء ذلك ؟

- أنا اسمى (مخيمر) وهذا (شافعى) .
- لا تؤاخذنى فلم أتعرف عليكما إلا الآن .

فقال (أسكندر) : - هل أخبرت أحدا من رجال المعلم (كحلاوى) ؟

فقال فى أسى : - رجال المعلم (كحلاوى) ليس لهم من هم سوى جمع الفردة .

- أظن من الضرورى أن نخبرهم ... أعطنى هذا السكين .

تأهب (أسكندر) ومن معه للإنصراف فقال (رفاعى) : - ابقوا لنتناول الغداء معا .

- لقد تناولنا الغداء عند (فؤاد) ، وهو يسأل عنك .
- لم أستطع أن أذهب إليه بالجرائد ، فبعد أن قمت بتوصيل الست التى كانت معى ، شعرت بإعياء شديد .
- كدت أنسى .. أين الحجرة التى حدثتنى عنها ، مخيمر وشافعى وحسنين يريدون تأجيرها .
- إنها فى نفس العمارة التى يسكن فيها الأستاذ (رمضان) وفؤاد ، هى حجرة فوق السطح ... ولكن لا أظن أنها ستصلح للرجال .

فقال (شافعى) : - لا تشغل بالك يا أخ (رفاعى) ، سنجعلها تصلح إن شاء الله .

******* ******* ****** *****

قال (أسكندر) وهو يسير وخلفه مخيمر والشافعى وحسنين يتعثرون فى طريقهم :

- ما رأيكم تأتون معى لتتعرفوا على رجال المعلم (كحلاوى) أو تجلسوا على المقهى حتى أعود .

فقال (حسنين) – معرفة الناس كنز ، نأتى معك .

وسأله (مخيمر) : - ومن المعلم (كحلاوى) هذا ؟

- أكبر فتوة فى الأسكندرية .... وطالما أنتم فى الأسكندرية ، فلابد أن تتعرفوا حتى على رجاله .

****** ********** ******* *********

- ما بك يا (أبو الليل) ؟
- أيعجبك ما نحن فيه ؟ الأفضل أن نكسر النبابيت ونجلس فى بيوتنا .
- لا أفهم ما تقصده ؟
- بصراحة المعلم لم يعد يصلح ، وأصبحت ابنته هى المتحكمة فى كل شئ ، كان من الواجب أن يستمع إلى كلامنا .
- تقصد أن نحرق ونكسر بعض محلات الأجانب ؟
- نعم ... لقد ضاعت هيبتنا ، ولم تعد لنا كلمة على هؤلاء .

أخذ (سيد حمبوطة) ينفث دخان النرجيلة ، ثم نظر إلى وجه (أبو الليل) ؟، ثم قال :

- ألا يعجبك كلام المعلم ... أم أنك رافض لكلام ابنته (صبح) ؟
- بصراحة يا (سيد)... أنا أريد الانفصال عن المعلم .

هز (سيد) رأسه وتوقف عن نفث الدخان ، ونظر حوله ، وقال وقد خفض من صوته :

- المعلم ما زال قويا ، وأغلب الرجال يأتمرون بأمره ، نعم أنا وأنت من أقوى الرجال ، ولكن المعلم على صلة وثيقة بالسلطة هنا فى الأسكندرية ، ومعارفه كثيرون ... وأنت تعرف أن المعلم ليس سهلا ، وقد تخسر كثيرا لو حاولت الخروج من قبضته .

فقال بضيق : - وإلى متى سنظل صبيان المعلم ؟

- بل قل رجال المعلم الأقوياء .
- لقد كسر كلامنا ، وأخذ برأى ابنته .
- يا أبو الليل ... منذ ان رفض المعلم زواجك من ابنته وأنت لا تطيق المعلم ولا ابنته .

شمخ بأنفه وقال : - وما عيبى حتى ترفضنى (صبح)

- (صبح) متعلمة ، وأنت على ذمتك امرأتان ، وتكبرها بعشرين عاما .
- ولكنى اليد اليمنى للمعلم .
- المعلم على استعداد أن يقطع يده ولا يجبر ابنته على شئ .. أنت تعلم أنه يحبها كثيرا .

نظر (أبوالليل) إلى (سيد) غاضبا قائلا له :

- أانت معى أم ضدى يا (سيد) ؟

فوضع (سيد) يده على يد (أبو الليل) وقال : - أنا معك ولكنى لن أتركك تغرق وتغرقنا معك ، ما تفكر فيه خطير ... ولم العجلة ؟ الأمر فى النهاية صائر إليك .

- وصبح ؟
- لن يقبل الفتوات بامرأة .
- ولكنهم يقبلونها الآن .
- لأنها ابنة المعلم .

سادت فترة صمت بينهما ، ثم قال (سيد) : - أتدرى ما أنت فى حاجة إليه الآن يا أبو الليل ؟

- ما هو ؟
- أنت فى حاجة إلى رجال .

فأشار إلى الجالسين : - هاهم يسدون عين الشمس .

- إنهم رجال المعلم ... أنت فى حاجة إلى رجال لك .
- وكيف سأحصل عليهم ؟
- اقترب أكثر من المعلم ... لقد ابتعدت عنه فى الفترة الماضية بما فيه الكفاية ... حاول أن تلتصق به ، بحيث لا يفرق الرجال بينك وبينه .
- وصبح ؟
- تلك منطقة خطر .. لا تقترب منها الآن على الأقل ، وسيأتى الوقت المناسب لتتخلص منها.

دخل (أسكندر) وصافح (سيد) و(أبو الليل) بتوقير واحترام ، وسأله (سيد) عن الرجال الواقفين خلفه ؟، فقال : - إنهم من الصعيد ، وجاءوا ليعملوا فى ترميم الطوابى .

فضحك (أبو الليل) قائلا : - الأسكندرية ليست فى حاجة إلى مزيد من الرجال .

فقال (سيد) مخاطبا (أسكندر) : - اخبر ضيوفك يجلسون مع الرجال فى الخارج ، ومشاريبهم على حساب المعلم أبو الليل .

مال (سيد) على إذن أبو الليل قائلا : - ألم أخبرك إنك فى حاجة إلى الرجال .

وبعد أن خرج الرجال ، أخرج (أسكندر) الخنجر وأعطاه لأبو الليل ، فسأله أبو الليل وهو يتأمل الخنجر : - ما هذا ؟

- مجموعة من الشباب كادوا يقتلون صديقا لى صاحب عربة حنطور .
تناول (سيد) الخنجر وتأمله ثم قال : - إما أن يكون الشبان من الغجر ، أو من العربان .

فقال (أبو الليل) : - ألم أخبرك أن سمعتنا ضاعت ، ولم يعد أحد يهابنا .

- وما علاقة هذا بذاك ؟
- الغجر أو العربان لو يعلمون بأسنا ما تجرأوا على مهاجمة العربجية .
- قد لا يعرفون أنهم تحت حمايتنا .
- حتى لو عرفوا ... فنحن لم نعد نخيف أحدا
ارتفع لغط وضوضاء خارج المقهى ، ووقف الرجال ، وتعالت أصواتهم ، نهض (سيد) و (أبو الليل) ليستطلعا الأمر ، فوجدوا عددا من الفتوات يحيطون بمخيمر وعلى وشك أن يضربوه بالنبابيت ، فاختطف (شافعى) نبوتا وناوله له ، فاتخذ (مخيمر) من مكانه مركزا ثابتا ودار بسرعة حول نفسه متلقيا ضرباتهم وبسرعة خاطفة انهال عليهم ، ساعده فى ذلك طول جسمه ، وطول ذراعه ... تفرق الرجال من حوله متجنبين ضرباته ، وتقدم عدد آخر من الفتوات من مخيمر ، فقفز (شافعى) وسطهم وقد اختطف نبوت أحدهم ، وحمى ظهر (مخيمر) وفى لحظة ارتفعت النبابيت ، وقبل أن تهوى على الأجساد والرؤوس ارتفع صوت أبو الليل ، فتراجع الرجال ، وهبطت النبابيت ، تقدم أبو الليل وسأل بغضب :

- من أنتما ؟ وما الذى جاء بكما إلى هنا ؟
فتقدم (أسكندر) وقال بفزع : - هذا مخيمر وشافعى ، كانوا معى ، وتحدثنا إليك منذ قليل .

فأشار (أبو الليل) للرجال بالجلوس ، وأشار لمخيمر وشافعى وأسكندر أن يتبعوه ، وحينما جلسوا أمامه ، قال لهم بصوت قوى : - أول مرة يضرب أحد فتوات (كحلاوى) أمام أبو الليل ، سينتشر هذا الخبر فى طول الأسكندرية وعرضها ، إشارة من إصبعى للرجال وتصبحان كرماد هذا الفحم .... ما الذى حدث ؟

فقال (مخيمر) والعرق يتصبب من جبينه وصدره يرتفه وينخفض :

- إنهم يسخرون منى ، ويضحكون على .

فقال (أسكندر) وهو يرتعش : - ليس لك حق فيما فعلته ، لو أخبرت المعلم (أبو الليل) لأخذ لك حقك.

فقال (مخيمر) بكل كبرياء : - الرجل يرد الإهانة ولا ينتظر من أحد أن يردها عنه .

فتدخل (اسكندر) وأبعد (مخيمر) من أمامه : - أنا أعتذر يا معلم عنهما ... والذى تحكم به سننفذه ولو على أعناقنا .

دق (أبو الليل) بالنبوت على الأرض وقال غاضبا : - الخبر انتشر يا اسكندر إن فتوات (كحلاوى) ضربوا فى دارهم .

- نحن ضيوفك يا معلم .
- والضيف لابد أن يكون مؤدبا ويعرف الأصول .
فقال (أسكندر) بتضرع : - الذى تحكم به سننفذه 0

- يضربوا كما ضربوا .
فوقف (مخيمر) غاضبا ، وكان النبوت ما يزال فى يده ، وقال : - يا معلم رجالك هم الذين لا يعرفون الأصول ، وسوف أخرج من هنا إما قاتل أو مقتول .

ووقف بجواره (شافعى) ودق بالنبوت على الأرض بعد أن شمر عن ساعديه قائلا :

- إما قاتلان أو مقتولان .
فوقف (إسكندر) بينهم باهت الوجه ، يابس الشفتين : - صلوا على النبى .. يا معلم (أبو الليل) إنهما لا يدركان ما يقولانه ، ولا يعرفان شيئا عن العادات المتبعة هنا .

واتجه (أسكندر) إلى (سيد) الذى كان يتابع ما يحدث فى صمت وقال : - قل شيئا يا معلم سيد .

وقف (سيد) وتقدم من الرجلين ، ورفع عصاه وحركها بينهما وقال فى حزم : - كما قال (أبو الليل) سينتشر خبر أن رجلين غريبين ضربا الفتوات ... وإما أن يضربا أمام الناس ، وتحمل عظامهما متكسورة إلى أقرب مستشفى وإما ....

فأقترب منه (أسكندر) وأمسك بيده وقال : - نعم .. نحن نريد ما بعد إما ..

جلس (سيد) وأخذ يدخن ، وساد صوت القرقرة وسط توقع الجالسين ما سيقوله (سيد) ، قال:

- أن ينضم الرجلان إلى الفتوات ، وما حدث خلاف بين الفتوات كثيرا ما يحدث ، ويتصالح الرجال أمام كل الناس .

أراد (مخيمر) و (شافعى) أن يعترضا ، فقال لهما (أسكندر) بصوت لا يسمعه الآخرون :

- لقد كتبت لكما حياة من جديد ، أنتما لا تعرفان خطورة ما فعلتماه ... أقبلا ما عرضه المعلم (سيد) وإلا لن تخرجا من هنا على أقدامكما .

فقال (شافعى) : - لقد نزلنا الأسكندرية لنعمل فى ترميم الطوابى والقلاع يا (أسكندر) .

فقال (أسكندر) بنفاد صبر : - لا عمل لكما فى الأسكندرية إلا ما أمر به المعلم (سيد) .

سادت فترة صمت عميق بين الرجال ، قطعها (مخيمر) وهو يتقدم من المعلم (سيد) :

- ما يقول به المعلم (سيد) على العين والرأس .

وأتجه إلى المعلم (أبو الليل) : - وكلنا فى خدمة المعلم (أبو الليل) .

وفعل (شافعى) ما فعله (مخيمر) . ثم قال المعلم (سيد) مخاطبا (مخيمر) :

- اذهب وأدعوا الرجال على مشاريب ، فأنت لم تعد ضيفا .

فأخرج (مخيمر) محفظته فى حماس وقال بصوت مرتفع : - نزل يا جدع مشاريب لكل من فى المقهى على حسابى .. بعد إذن المعلمين طبعا .

فقال (أبو الليل) وهو يتأمله : - فتوة بحق وحقيق .

فمال عليه (سيد) وأسر فى أذنه : - بدأت فى جمع الرجال حولك يا أبو الليل ، سيكونان طوع يدك .

(14)

- ميدان القناصل -

نسمات مضمخة برائحة البحر تهب على الميدان الفسيح ، تداعب بواكى المحلات والمقاهى والفنادق الراقية المنتشرة فى نواحيه ، عدد من العصافير فوق التمثال الشامخ الذى يتوسط الميدان ، تثب متنقلة فوق رأس الحصان وذيله ، ثم تثب فوق عمامة الراكب فوقه ، اليدان قابضتان على اللجام بقوة ، وإن كانت بوادر جموح وانطلاق تظهران من

حركة قدم الحصان وكأنه يوشك أن يقفز فى الهواء ، إلا إن نظرة الحصان إلى موقع القدم تمنعه كما يمنعه اللجام .

الهدوء يشيع فى الميدان ، فى ذلك الضحى الربيعى . عدد من السيارات الفارهة تقف أمام مبانى بعض القنصليات الأجنبية ، يتأملها بغرابة عدد من البوابين النوبيين والسودانيين الجالسين على أبواب العمارات فى كسل واسترخاء ، وعدد من العمال منهمكين فى تلميع واجهات الفنادق الزجاجية .

فى ساحة فندق من الفنادق الفاخرة كانا يجلسان يدخنان ويشربان القهوة بعد أن تناولا الفطور ، أحدهما فرنسى تجاوز الخمسين بقليل ، فارع الطول ، نحيف ، أبيض البشرة ، بدأ الصلع يغزو جانبى رأسه ، أنيق فى ملبسه ، يعمل محاضرا فى المعهد الفرنسى ، وله عدد من الكتب المترجمة والمؤلفة عن الحضارة المصرية ، كان يعمل فى السفارة المصرية فى القاهرة ، ثم انتقل إلى الأسكندرية واستقر فيها ، والآخر مصرى لم يتجاوز الأربعين ، صحفى فى جريدة الأهرام ، يرتدى حلة غامقة اللون ، ونظارة سميكة العدسات ، لا يهتم بهندامه ، شعر ذقنه لم يحلق منذ أيام .

كانا يتحدثان ، صمت (جوستاف ديوى) حالما يحشو البايب ، وكان الآخر يتابعه باهتمام ، قال بعد أن أشعله : - هنا شئ غريب عندكم لا أفهمه .

وأشار إلى رؤوس الجالسن حوله وأمامه ، فتحفز هذا للرد والدفاع ، فأشار له قائلا :

- مسيو (رمضان) ... لا أريد أن تفهمنى خطأ ، لقد قرأت كثيرا عنكم وكتبت ، وتعاملت معكم سنوات طويلة ، ولاحظت أن تفكيركم لا يرتكز على الواقع فى الأغلب ، وإنما على ما تتمنونه ، وتنطلقون من تلك النقطة ، أنتم تختزلون مساحات واسعة بدون أن تفكروا فيها ، تبدأون من وهم ، ولن تصلوا إلا إلى وهم .

ابتسم (رمضان أبو المكارم) وضرب سطح المنضدة بقبضته نافد الصبر قائلا :

- مسيو (جوستاف) ... كنا نتحدث عن (عرابى) ورفقائه وإذا بك تتحدث عن عيب فى تفكيرنا ... ما علاقة هذا بذاك ؟ !

واستأنف (رمضان) قوله ساخرا : - على ما يبدو أنك أسرفت فى الشرب والسهر بالأمس .

التمعت عينا (جوستاف) وافتر ثغره عن ابتسامه ، وضرب يد (رمضان) الممدودة قائلا :

- سيأتون براقصة بلدى رائعة ... أكيد لن ترفض دعوتى لك هذه المرة .

خيل إلى (رمضان) أن (جوستاف) يحب مصر أكثر من فرنسا وطنه الأصلى ، يستمع إلى الأغانى المصرية ويحفظ بعضها ، و إلى الشعر وإلى الموسيقى ، ومغرم بالرقص الشرقى ، ويمضى سهراته بين الكباريهات والمقاهى البلدية ، يحب أن

ينخرط فيما ينخرط فيه عامة الناس من الطبقة الشعبية ، وكان يحرص على أن يتحدث بلهجتهم ويستخدم إشاراتهم فى أثناء الحديث ، وفى مرات ارتدى الجلباب البلدى ، ووصل به الأمر أن أعجب بفتاة إسكندرانية ، وأراد أن يتزوجها ، ولكن أمور كثيرة حالت دون ذلك . ظن (رمضان) أن ما يفعله (جوستاف) نوعا من الإدعاء والتظاهر ، ولكن بعد ذلك أيقن أن (جوستاف) يحب البلد ويحب أهلها ، ويحب أن يقضى عمره هنا ، مع أنه تلقى أكثر من عرض مغر أن يعود إلى فرنسا ، ولكنه رفض وفضل البقاء ، وكان يطيب (لجوستاف) أن يختبر (رمضان) فى أسماء المطربين وأسماء الراقصات والمقامات الموسيقية ، ولأن كل هذا كان خارج اهتمامات (رمضان) كان يرسب فى الامتحان ، كان يحسد (جوستاف) لأنه يعرف كيف يعيش ويستمتع بالحياة ، يأكل ويشرب ، يسمع ويشاهد ، يفكر ويتأمل ، كل هذا يفعله بحماس وحيوية ، لم يكن ينام إلا قليلا كى لا تفوته متعة من تلك المتع ، وكانت متعا فى غاية التناقض ، فهو يتدنى إلى أقصى حد ، ويتسامى إلى حدود عليا ، فمرة يكتشف أنه قضى وقتا فى لوكاندة سيئة السمعة مع عاهرة ، وليلة أخرى يقضى وقتا فى أرقى فنادق الأسكندرية أو القاهرة مع الوزراء والسفراء ، وتارة يستمع للإسطوانات البذيئة ، وأخرى مستغرقا فى الاستماع إلى أجمل السيفونيات لعباقرة الغرب ، تنبه (رمضان) من سبحاته ،وسأل (جوستاف) الذى كان يراقب فتاة إيطالية تجلس غير بعيد عنهما ، ولفت نظره جمالها الفاتن .

قال (رمضان) : - دع أمور السهر والراقصات ، ونعود إلى ما كنا نتحدث فيه .

- أتعرف يا مسيو (رمضان) أنى معجب (بعرابى) ورفقائه ، وإصرارهم على تغيير واقع مضى عليه مئات السنين .

فقال (رمضان) فى حماس : - إن مصر كلها معجبة (بعرابى) .

انهمك (جوستاف) فى حشو البايب ثم أشعله وأخذ ينفث نفثات ضايقت (رمضان) ، واستأنف (جوستاف) حديثه قائلا : - ولكن للأسف سينتهى الأمر بعرابى إما إلى القتل أو إلى السجن .

فقال (رمضان) وهو يرتشف من فنجان القهوة الذى أتى به النادل توا : - لست الوحيد الذى يقول ذلك أو يتمناه ، بل جميعكم ... كل الأجانب يتمنون ذلك .

أفرغ (جوستاف) البايب وأعاد حشوه مرة أخرى قائلا : - دعك من الأمنيات ... واسألنى لم توقعت ذلك ؟

- لم يا بروفيسور ؟
- الأمر أكبر من ضياع إمتيازات كان يتمتع بها الأجانب فى مصر إذا سيطر عرابى على البلد .
- إذن ما الأمر ؟

- دعنى أسألك سؤالا .. ماذا ستفعل الشعوب التى تسيطر عليها إنجلترا وفرنسا إذا سمعت بقصة الضابط الذى قاوم الملك ، وقاوم نفوذ فرنسا وإنجلترا وبقية الدول ؟
- لا شك سيطمح أحد أبنائها إلى ما فعله عرابى .
- أتصدق أن أخبار عرابى وصلت إلى الهند ، وهنا الخطر الذى يشكله عرابى ، ليس فى مصر وحدها .

أخذ (رمضان) يتأمل الموائد والجالسين عليها من مختلف الجنسيات ، ثم سأل مسيو (جوستاف) : - ومن تظن الذى سيقضى على عرابى .. إنجلترا أم فرنسا ؟

- اظن أن فرنسا لن تمانع أن تقوم إنجلترا بذلك .

فقال (رمضان) بتحد غريب : - وإذا نجح عرابى .

ابتسم (جوستاف) وصمت قليلا مفكرا ، ثم قال : - عرابى غبى ... متردد ... الجيش فى يده ، وعامة الشعب يؤيده ، ماذا ينتظر ليغير كل ما حوله فى يوم وليلة ؟

- ألا ترى أن هناك تناقضا فى كلامك ؟
- تقصد أن فرنسا وإنجلترا لن يسمحا بذلك ؟ ليس هناك تناقضا بالمرة ... إذا لم تجد فرنسا وإنجلترا بديلا عن عرابى ستتعاملان معه اليوم ، وتؤيدانه وتساعدانه ، ثم يقضيان عليه غدا .

ضحك (رمضان) بملء فيه ، حتى أن الجالسين نظروا إليه ... خلع نظارته ، ومسح وجهه بمنديله : - إذن عرابى مقضى عليه لا محالة .

- أتشك أنت فى ذلك ؟
- لا تنس أنك تتوقع ذلك المصير كلما صادف عرابى عقبة ، سواء من الخديوى أو تركيا أو إنجلترا .
- أعترف أنى لم أكن أقدر عرابى حق قدره ، ولكن حتى الآن الظروف هى التى ساعدته .

وفى تلك اللحظة انضمت إليهما (جان ديور) ، شابة فرنسية فى مقتبل العمر ، ممشوقة القوام ، تنطق ملامح وجهها الدقيق بملاحة وجمال آخاذ ، ترفل فى رداء أبيض وكأنها فراشة من فراشات الربيع ، ويتوج شعرها الأشقر قبعة بيضاء ، وقفت أمامهما ووضعت حقيبتها على المنضدة ، وقالت بصوت مترع بالأنوثة : - أنا أراقبكما منذ مدة ، وأنتما منهمكان فى الحديث ... طبعا فى السياسة .

نهض (جوستاف) وقدم لها مقعدا ، جلست وهى تتبادل النظرات مع (رمضان) ، قال (جوستاف) وهو يتملى من ملامحها : - جان .. أنت تزدادين جمالا كل يوم ، من يراك يظنك أميرة من أميرات ألف ليلة .

ابتسمت ابتسامة أضاءت وجهها وضربت بأصابعها الر قيقة يد (جوستاف) فى حياء وعتاب :

- أنت مجامل يا (جو) .
- ليس هذا رأيى ، ولكنه رأى مسيو (رمضان) أيضا ؟.
فرفعت عينيها التى تظللهما أهدابها الطويلة وقالت مندهشة : - مسيو (رمضان) !! ظننت أنه لا يهتم إلا بالسياسة وأمور الصحافة .

فقال (جوستاف) ضاحكا وهو ينظر إلى (رمضان) : - نعم السياسة والصحافة و (جان) . وآه لو تعلمين ماذا يقول عنك .

جفف (رمضان) عرقه ، وأحكم من ربطة عنقه العريضة ، ثم رتب أوراقه فى الملف الذى يصاحبه دائما ونهض قائلا : - (جوستاف) .. لا داعى لمثل هذا الكلام .

فاتجهت إليه (جان) وسهام لحظها يخترق قلبه : - مسيو (رمضان) إن كان الكلام الذى تتحدث به عنى سيئا فأنا من القوة بحيث أسمعه وأفنده ، أما إذا كان الكلام عنى لطيفا ، فيسعد أى امرأة أن تسمع إطراء من أى شخص لا سيما وإذا كانت تقدر هذا الشخص .

فقال (رمضان) بتجهم مصطنع : - أنا شاكر لك هذا .

- انا أقرأ مقالاتك فى (الأهرام) وأعجب بها .
فقال (جوستاف) : - هو أيضا يقرأ مقالاتك فى (البروجرية اجبسيان) .

- برافو ... وما رأيك ؟
فقال (جوستاف) : - يراها جريئة ومتحررة .

ابتسمت ، اقتربت بوجهها منه ، شعر أنها تقتحمه بجمالها وأنوثتها الطاغية ، كان قد أقام خطوطا دفاعية بينه وبين النساء ، بعد مروره بتجربة حب فاشلة ومريرة ، وبمرور السنوات أثبتت تلك الخطوط صمودها وكفاءتها ، وتفرغ للصحافة والكتابة ، وفى مدة وجيزة استطاع أن يحقق شيئا ، فهاهو قد أصدر ثلاثة كتب ، وأصبح له مكانة متميزة فى الجريدة ، ولكن مع (جان) بدأت تلك الخطوط تتهاوى فلم يمض على معرفته بها سوى أسابيع ، كان قد رآها أول مرة مع (جوستاف) أثناء محاضرة ألقاها (كوكس) قنصل إنجلترا فى الأسكندرية فى المعهد الفرنسى وعرف أنها تعمل صحفية فى جريدة (البروجرية اجبسيان) وتكررت اللقاءات فى أماكن ومناسبات مختلفة ، شعر أنها نوع جديد من النساء لم يسبق أن قابله أو تعامل معه من قبل ، فشئ طبيعى ألا تصلح معها خطوط المقاومة ، فخطوط دفاعه لم توضع أو تصمم لأجلها ، وأحس أنه مقبل على تجربة تختبر مقاومته ، وقد لا يخرج منها سليما على أقل تقدير ، وإن كانت علاقة (جوستاف) بها تمثل لغزا ، وأراد أن يضع لها اسما ، هل الذى بينهما صداقة أم حب ؟ أو ليس بينهما شئ ، مجرد أنهما فرنسيان جمعتهما الظروف ، إن ما يحكم علاقة الرجل والمرأة الغربيين غير ما يحكم المرأة والرجل هنا ، وها هو (جوستاف) يلقى بحجر على سطح البحيرة الهادئة بينهما ، ليعرف

إلى أى مدى وصلت علاقة (رمضان) (بجان)... هل كان يقصد شيئا بكلامه هذا ؟

- فيم كنتما تتحدثان مسيو (رمضان) ؟

أخرجه صوتها من سبحاته ، فقال وهو يتأمل شفتيها وأسنانها البيضاء المنتظمة :

- مسيو (جوستاف) يرى أن الذى ساعد فى ظهور عرابى مجموعة من الظروف .

نظرت إلى (جوستاف) وقالت بجرأة : - أنا لا أتفق معك .

- لنقل إنه استغل ظروفا أحاطت بالبلد ، بعض تلك الظروف محلية وأخرى عالمية .

- أفهم ما تقصده ، ولكن عرابى هذا الضابط الأسمر الفلاح ، ليس على ثقافة ولا وعى سياسى ليعرف تلك الظروف ، ويعرف كيف يستغلها .
- وهل من الطبيعى أن يصل هذا الضابط الذى لم يتلق من التعليم أن يؤهله أن يصل إلى ما وصل إليه ؟
- لقد أجريت معه لقاء منذ مدة ... عرابى لا يعرف شيئا عن كل ما تتحدث عنه ، ولا يعى شيئا سوى أن لديه إيمانا راسخا ببلده ، وبعدالة قضيته ، وتجمع مع هذا الإيمان نوع فريد من الفروسية الأصيلة ، وقوة جاذبية استطاع بها أن يجمع حوله عددا من الضباط الذين اتصفوا بما اتصف به .

قال (رمضان) وهو ينظر إليها باعجاب : - أنا أتفق معك ، فلا علاقة هنا بمسألة الظروف واستغلالها .

مضت فترة صمت ، أفرغ (جوستاف) خلالها غليونه ثم ملأه ، وكأنه وجدها فرصة ليفكر فيما قالته (جان) ، قال : - أنا لم أقابله ، ولكن حتى لو كان الأمر على ما تقولانه ، فإن نهاية عرابى معروفة ، وهى نهاية مأساوية .

فسأله (رمضان) : - كيف؟

وعقبت (جان) متعجبة : - نهاية ... ومأساوية !!

- تلك الميزات التى يتصف بها عرابى هى عيوب فى نفس الوقت ... الإيمان القوى الذى تتحدثين عنه هو نوع من الجمود والانغلاق ، فهو يصادر البدائل التى يحتمها الواقع والصراع النابع من الواقع ، وهذا النوع من الفروسية الأصيلة ، قد يكون سببا فى هلاك صاحبه ، لأنه يجنح به إلى التضحية ، وبصفته زعيم لن يضحى بنفسه فقط ، وإنما سيضحى ببلده ومن معه ، فهو وبال على نفسه ، وعلى من حوله .

فقالت (جان) : - كلامك من الوجه النظرية مشكوك فيه، فما بالك لو طبق عمليا ؟

نظر (جوستاف) فى ساعته ، وقال وهو يتأهب للانصراف : لقد اقترب موعد محاضرة لى فى المعهد ، إذا أذنتما لى .

فنهض (رمضان) لينصرف هو الآخر ، فقالت (جان) : - وهل سأبقى وحدى .

فقال (جوستاف) : - اجلس مسيو (رمضان) ... فقد تنتهى الجلسة بينكما بمقال عن عرابى .

وبقى (رمضان) وأخذ يتطلع إلى ساعته ، ويفكر فى حجة للانصراف ، وكانت تراقب حركاته ، وشعر أنها تقرأ أفكاره ، قالت له : - مسيو (رمضان) أشعر أنك تحاول أن تهرب منى ، فما من مكان تواجدنا فيه إلا وأراك تتعمد الهروب .

هجوم مفاجئ لم يتوقعه ، شعر أنه محاصر ، وحاول أن يتجنب النظر إلى عينيها ، قال : - أراك دائما مشغولة ... وحولك المعجبون كثيرون .

صمتت قليلا ، ثم قالت وهى تبتسم وترسم دوائر بإصبعها على مفرش المائدة : - وتريد أن تكون المعجب الوحيد .

كالطائر المعلق فى شرك كلما حاول أن يتخلص ازداد تورطا ... قالت بدلال : - أتنكر أنك معجب بى ؟

- الكثيرون حولك معجبون بك .
- إعجابك من نوع خاص .
- لم تقولين ذلك ؟
- لأن كل من حولى يريد الاقتراب بينما أنت تهرب .. أتخافنى أم تكرهنى ؟
- ولم لا يكون الاثنين ؟

مطت شفتيها ، وأزاحت خصلة من شعرها بعيدا عن عينيها :

- خوف وكراهية فى آن واحد ... أنت معقد يا مسيو (رمضان) .

قالت هذا ثم نهضت قائلة : - ما رأيك أن تتناول العشاء معى الليلة ؟

تسارعت دقات قلبه ، وشعر بحبات العرق على جبينه ، لا فائدة من الهرب ... إذن ليتقدم ، سألها : - أين ؟

فقالت بدون إكتراث : - فى بيتى .

ولم تنتظر منه ردا ، وقالت قبل أن تنصرف : - سأنتظرك فى الثامنة .

وانصرفتت تتهادى كيمامة رشيقة .

(15)

- رمضان أبو المكارم -

سأله (رمضان) : - وما الذى جعلك تتوقع حدوث شئ خطير فى هذا الصيف ؟

ارتشف (صديق الهلالى) رشفات من كوب الليمون البارد ، وصمت قليلا ، ثم قال وهو يضغط على حروف الكلمات كعادته : - وتيرة الأحداث سريعة ، كل يوم حدث ، بل فى اليوم الواحد أكثر من حدث على أعلى المستويات ، حالة غليان .. مجلس النواب ، الوزارة ، القنصل الإنجليزى والفرنسى ، وبقية قناصل الدول ، السرايا ، وفد من وإلى تركيا ... خطوط كثيرة تتقاطع ، إرادات تتصادم .

صمت قليلا ثم قال : - أنا أشم فى الجو رائحة شئ يعد .. أنت لو سرت فى الشارع ستحس فى نفوس الناس شيئا من التذمر والاستفزاز والتوجس .

كان شديدالإعجاب به ... اعتبره أستاذه فى الصحافة ... لم يتزوج وانقطع للصحافة ، وكانت كل حياته ، وكما أعطى وأخلص لها أعطته شهرة ومكانة .. مقالاته تنشر فى أكثر من جريدة ، وتترجم لتنشر فى بعض الجرائد والمجلات الأجنبية ، تنقل بين جرائد عديدة ، وأنتهى به المطاف فى جريدة الأهرام ، تعلم منه الكثير ، حتى أنه أراد أن يسير على نهجه فى كل شئ .

استأنف قوله ، ولسانه يتعلثم ، فاحيانا لا يقدر على اللحاق بغزارة أفكاره ، وأصابعه الطويلة النحيفة تعبث بقلم فى يده : - أت..... أتعرف حينما يكون الج...جو مهيئ لسقوط مطر ... الفترة التى تسبق الرعدوالبرق ... الرياح تهب بسرعة وقوة ، وتشم رائحة غريبة فى الجو .

فسأله : - وهل ما سيحدث شئ طيب أم غير ذلك ؟

صمت قليلا ، ثم قال بأسف : - طالما بعيد عن أيدينا وفوق إرادتنا فهو ليس بخير .

- وما أدراك أنه بعيد عن أيدينا وفوق إرادتنا ؟
- أنت تكتب مسرحيات ... نحن كشخصيات على المسرح ، أسيرة ما يكتبه المؤلف ، وتسير وفق إرادته .
- قد تخرج الشخصيات وتتمرد على ما يكتبه المؤلف .

ضحك طويلا ، ثم نهض متأهبا للانصراف وقال : - إنه نوع من الانتحار لو فعلت ذلك .

وربت على كتفه قائلا : - المهم كن متيقظا لما يجرى ، سوف أذهب إلى القاهرة ، وأعود بعد غد لأمر مهم .

********** ********** **********

دخل (فؤد) الشقة ، فوجد حلة جديدة على فراش (رمضان) وبعد قليل خرج من الحمام حليق الذقن ، يجفف شعره ... تأمله قليلا ، ودار حوله وقال باندهاش : - خير ... ما الذى يحدث ؟! تستحم ، وحلقت ذقنك وتمشط شعرك ، وحلة جديدة !!

فقال له : - إنى جائع ... هل أتيت بالغداء ؟

فوضع (فؤاد) ما بيده على المائدة قائلا : - ها هو الغداء .

- ما هذا ؟
- سمك وجنبرى .

جلس (رمضان) إلى المائدة وفتح اللفافة وقال : - كل يوم سمك ... سمك .

انهمك (فؤاد) فى تأمل الحلة ، فسأله (رمضان) : - ألن تأكل ؟

- اخبرنى ما الأمر .. ؟ هل ستتزوج اليوم ؟ صمت (رمضان) قليلا ، فقال (فؤاد) متكلفا الغضب : - إن لم ترد التكلم فأنت حر و...

فقاطعه (رمضا ن) ضاحكا : - ميعاد ... ميعاد يا (فؤاد)

فصفق (فؤاد) : - أخيرا (رمضان) الجبار وقع ... أخبرنى أين ؟ ومتى ؟

فقال (رمضان) وقد احمرت أذناه : - اليوم فى الثامنة .

- أين ؟
- فى بيتها .

ففغر فاه قائلا : - فى بيتها !! أول ما تشطح تنطح ، كنت أظنك خيبة مثلى .. طلعت معلم ، ومن تلك التى استطاعت أن تغيرك كل هذا التغيير ؟

- (جان) .
- الفرنسية ؟
- نعم .
- ولكنك لم تخبرنى أن بينك وبينها شيئا ، بل كنت تتحدث عنها باشمئزاز ونفور .

توقف عن الأكل وقال : - كان مجرد قناع أتخفى وراءه .

- ومن الذى كشف القناع ؟
- هى .
- ومبادئك وشعاراتك ؟
- كانت بمثابة حصون وقلاع انهارت كلها أمام طغيان جمال وأنوثة (جان) .

فسأله (فؤاد) : - متى آخر مرة قابلتها يا (رمضان) ؟

- لم ؟
- لأنك بالأمس فقط كنت تتحدث عنها بطريقة مختلفة .

صب (رمضان) كوبا من الماء وتجرعه ثم قال : - اليوم ، وللأول مرة جلسنا منفردين ، وحاولت ان أهرب ، وأدركت هى ذلك ، فحاصرتنى من جميع الجهات ، شعرت أنى فأر فى مصيدة ذكائها .

- أتحبها يا (رمضان) ؟
- أعراض الحب التى أسمع عنها ، وجربتها من قبل لا أشعر بها نحوها .
- وهى ؟

فقال مفكرا : - لا أظن ... إنها امرأة قوية ، نوع من النساء لا سلطان للحب عليها ، لأنها تريد أن تسيطر ولا يسيطر عليها .

فقال متعجبا : - أنت لا تشعر بالحب نحوها ، وهى امرأة لا تعرف الحب ... إذن لم تذهب ؟

فقال مغيرا الموضوع : - ألن تتناول غداءك ؟

- لا تهرب من سؤالى .

نهض (رمضان) واتجه نحو النافذة ، ومضى وقتا ينظر إلى الخارج ثم استدار وقال :

- لا أدرى .. كنت أدارى ضعفى بالهرب منها ، وكأنها اكتشفت ذلك .

فضحك (فؤاد) وجلس على المائدة لتناول غذاءه : - وجعلتك بدلا من أن تهرب منها تهرب إليها .؟

انهمك (فؤاد) فى تناول غداءه ، ثم سأله (رمضان) : - ألم ترى (رفاعى) اليوم ؟

- لقد مر على مكتبى ، ولم يبق طويلا ، وبدأ كأنه مريض أو مرهق ... ولم تسأل ؟
- كان (أسكندر) يبحث عنه ، ومعه رجال من الصعيد ، يبحث لهم عن مسكن .

فابتسم (رمضان) قائلا : - (اسكندر) هذا ولد جن عفريت شيطان .

- ولد مسكين .
- أهو مسكين ؟! لا يوجد فى الأسكندرية شئ لا يعرفه .. فتوات ، تجار مخدرات ، تجار أسلحة ، ويعرف كيف يتفاهم مع جميع الأجناس ، وبالأخص النساء ، أحيانا أخذ منه بعض الأخبار لأكتبها فى الجريدة .

فضحك (فؤاد) وقال : - إذن هناك فرصة ليعمل بالصحافة .

- لقد عرضت عليه أن يأتى إلى الجريدة ويخبرنى عما يحدث فى بعض الأماكن التى يرتادها لقاء أجر معين ، لكنه رفض .
- لم ؟
- أخبرنى أنه لا يزاول إلا عملا واحدا من الصبح إلى الظهر فى شركة الصيانة ، أما بقية اليوم فهو حر لا يحب التقيد بأى شئ .

- كل الذين قابلتهم هنا أشعر أنهم طارئون على الأسكندرية إلا هو ، أشعر أنه سكندرى للنخاع ، فيه كل ما فى الأسكندرية من سماحة وحب للحياة والآخرين .

فضحك (فؤاد) قائلا : - وهو يحب جميع الأجناس ، فى الصباح مع إيطالية وفى الظهر مع فرنسية ، وفى الليل مع إنجليزية .

فقال (رمضان) متعجبا : - وكيف يتفاهم معهم ؟!

- ألم تقل عنه أنه جن .

فهز (رمضان) رأسه قائلا : - ليس مثل واحد صاحبنا لا يستطيع أن يقابل من يحبها .

- تقصد من ؟
- أنت و(تحية) .

توقف (فؤاد) عن الأكل ومسح يده وقال بأسف : - أشعر أن إفلاس والدى له أثر فى علاقتى

(بتحية).

- كيف ؟
- أتظن لو لم يفلس والدى كان خالى (قنديل) منع عنى (تحية) و...

فقاطعه (رمضان) : - الأمر ليس له علاقة بحالة والدك المادية ، الأمر واضح ، خالك لا يريد تزويج (تحية) منك أو من غيرك قبل أن يزوج (سعاد) ابنته الكبرى ، ثم أين سيجد أفضل منك يا (فؤاد) شاب متعلم ومثقف .

فقال بحزن وأسف : - سوف يجد ... أنا مجرد موظف فى مطعم من مطاعمه العديدة ، وقد يتقدم لها من هو أفضل منى .

- ولكن القلب وما يريد ... وأنا أعرف أن (تحية) تريدك .
- (تحية) قلبها مثل البحر ، كل ساعة فى حال ... لقد فكرت أن أترك العمل هنا ، وأترك مصر كلها .
- إلى أين ؟
- إنجلترا ... فرنسا ..إيطاليا .

فصفق (رمضان) على يديه قائلا : - والله هذا أمر غريب وعجيب .

- لم ؟
- جميع أجناس البشر هنا فى الأسكندرية ، يعيشون ويعملون ، وصاحب البلد يريد أن يتركها ويهاجر .
- وماذا أفعل ؟

اقترب منه (رمضان) وربت على كتفه قائلا : - يا (فؤاد) أنت ما تزال صغيرا ، والعمر أمامك ، واصبر ، وإن شاء الله ستحقق ما تحلم به .

- على ما يبدو سنمضى عمرنا كله نحلم .
********** ********** ******

تأملته بامتعاض ، كانت تمسك بإحدى يديها بمجلة والأخرى بنظارة ، سألته : - من أنت ؟

فقال وهو ينظر إلى الأرض : - رمضان أبو المكارم .

فابتسمت وتراجعت لتفسح له مكانا ليدخل ، وقالت بصوت ودود : - مسيو (رمضان) .. تفضل مسيو (رمضان) . وقادته عبر ردهة طويلة إلى حجرة الصالون ، المكان يدل على ما لأصحابه من ثراء وذوق رفيع ، لوحات زيتية على الجدران ، وتحف وفارزات فى كل مكان ، وضعت ما بيدها على المنضدة ، وقالت وهى ما تزال واقفة :

- أهلا مسيو (رمضان) ... لقد تحدثت (جان) عنك كثيرا .
كانت ترتدى الروب دى شامبر ، تشبه (جان) إلى حد كبير ، وإن كانت أقصر وأنحف ، جلست أمامه وقالت بإرستقراطية فرنسية ذكرته بطريقة (جان) فى الكلام :

- أنا أحب المصريين كثيرا ، وكذلك مصر .
فقال (رمضان) وهو مبهور بما حوله : - على ما يبدو أنك عشت مدة طويلة فى مصر .

فقالت وهى تتفحصه : - لقد حضرت مع أسرتى منذ ثلاثين سنة ، وقت الخديو (سعيد) وكان والدى يعمل بالقنصلية الفرنسية بالقاهرة ، وتعرفت بزوجى وتزوجنا وأتينا إلى الأسكندرية ، لأن زوجى كان مدير البنك الفرنسى بالأسكندرية ، وأنجبت (جان) ، وبقينا هنا بعد أن أنهى عمله بالبنك ، لأننا لم نجد فرقا بين الأسكندرية وفرنسا .

سادت فترة صمت تبادلا خلالها الابتسامات ، ثم سألته : - ماذا تشرب ؟

- لا أريد شيئا ؟
- سوف أحضر لك شيئا تشربه ، الخادمة بالخارج لتشترى بعض الأشياء .
وقبل أن تذهب نادت بصوت هادئ النبرات على (أردوين) زوجها ، فجاء رجل قصير القامة فى قمة أناقته ، أبيض البشرة أشقر الشعر ممتلئ بالحيوية والنشاط ، حياه بطريقة مسرحية ، فيها شئ من المبالغة ، وقالت له وهى تسوى له الكرافت :

- أمكث مع مسيو (رمضان) حتى أعد له القهوة .
جلس ووضع قدما فوق الأخرى .. وقال وهو ينظر إليه بمكر :- ماذا تعمل مسيو (رمضان) ؟

- صحفى .
فلوح بيده قائلا : - لا أحب الصحافة ولا من يعمل بها .

فوجئ (رمضان) بكلامه ، تململ فى جلسته ثم سأله : - لم ؟

- إنها تسبب الكثير من المشاكل ، ثم أن الصحفيين بشر مشاغبون كالأطفال الذين يحركون كل شئ ويقلبون كل شئ .
صمت قليلا ، فسأله (رمضان) : - و(جان) ؟

فقال منفجرا وهو يتحرك كثيرا فى جلسته ، وزاد من ارتفاع نبرة صوته :

- إنها أكبر مشاغبة قابلتها فى حياتى ، وحاولت كثيرا أن أبعدها عن الصحافة ، ولكنى فشلت ، فهى عنيدة جدا .
جاءت السيدة تحمل القهوة وقدمتها لرمضان ، وغابت قليلا ثم عادت ومعها ألبوم صور ، وجلست بجواره لتريه الصور ، واستطاع فى دقائق أن يعرف كل شئ عن (جان) أصدقائها ، معارفها ، زملائها ، علاقاتها ، ومن حديث الأبوين عنها أدرك أنها تمثل لهما كل شئ فى حياتهما ، وإنهما يفعلان أى شئ فى سبيل إسعادها ، ومضى الوقت ، وزالت الكلفة بين رمضان والزوجين ، وانطلق الحديث كل منهما يتحدث عن مصر والمصريين والمواقف التى حدثت له حينما جاء إلى مصر أول مرة ، وعن خفة دم المصريين وسماحتهم .

وفجاة شعر (رمضان) بنوع من الحيرة والضيق ... أين (جان) ؟ وأراد أن يسأل عنها ، فقد أمضى ساعتين ، أنها لم تقل له صراحة إنها ستقضى وقتا معه ، ولكنها دعته إلى بيتها ، والشئ البديهى أن يجدها ، وكأن المرأة قرأت ما يدور بخلده ، فقالت : - لقد تأخرت (جان) كثيرا .

فنظر فى ساعته متململا : - أين هى ؟

- لقد اتصلت بها الجريدة قبل حضورك ، وقالت إنها لن تتأخر .
فتأهب (رمضان) للإنصراف وقد شعر بالغضب والخجل وقال : - إن سمحتما لى بالإنصراف .

فقالت المرأة : - لا مسيو (رمضان) ، (جان) ستحضر حالا ... قد تغضب حينما تعرف أنك انصرفت .

وسمعوا جرس الباب ، فقالت المرأة وهى تتجه نحو الباب : - أكيد إنها (جان) .

ودخلت (جان) وكان يبدو عليها التعب والارهاق ، ابتسمت له ونظرت إلى الألبوم والصور المطلة منه وإلى والديها وقالت : - إذن لم يعد شئ خافيا على مسيو (رمضان) .

نهض والدها واستأذن فى الخروج ، ونهضت الأم أيضا ، وبقى هو (جان) جلست بجواره وقالت : - آسفة أن جعلتك تنتظر .

فقال بعتاب : - أبدا ... ساعتين فقط .

نظرت إلى الأرض وقد اصطبغت وجنتيها بحمرة الخجل ولم تجب ، ثم نهضت وقالت : - استسمحك فى عشر دقائق أيضا .

وأنصرفت وعادت بعد قليل ، وقد إرتدت ثوبا ورديا خفيفا أظهر مفاتن جسدها ، وأطلقت شعرها ، وبدأت تتحرك حوله كالفراشة الحائمة ، جلست بجواره وسحابات العبير المتصاعد من أعطافها يسكره ، قالت وهى تتأمله :- أرجو ألا تكون قد شعرت بالملل خلال المدة التى جلست فيها معهما .

- أظن أنى استفدت خلال الساعتين كما لم استفد من قبل .
- لقد كان تأثيرك عليهما هائلا حتى أنهما أطعلاك على أشياء كثيرة .
- كل ما سمعته ورأيته يزيدنى خوفا منك .

اقتربت منه حتى أنه شعر بحرارة جسدها ، وقالت فيما يشبه الهمس :

- ولكنه لن يزيدك ابتعادا بعد اليوم .

شعر بجفاف حلقه ، وقطرات العرق البارد تتفصد من جبينه ، ولكى يدارى اضطرابه مد يده وأخذ كوبا من الماء .

قالت وهى تراقبه : - إلى متى ستظل خائفا هكذا .

- الخوف يجنب الإنسان الكثير من الحرج .
- ولكنه يعلمه الجبن .
- الاقتحام غير مأمون العواقب .
- والجبن صورة من صور الموت .

شعر بنوع من التحدى ، امتدت يده المرتعشة لتمسك يدها الثابتة ، وكانت تنتظر أن يترك يدها ، وكان هو أيضا ينوى ترك يدها المستسلمة له ، ولكنه بذل جهدا جبارا ليواصل طريقه الذى بدأه ، ولم يدر أهو الذى جذبها إليه أم هى التى هوت إليه ، كل الذى يدريه أنه هوى معها إلى أعماق سحيقه لا قرار لها ، خلصت شفتيها من شفتيه النهمتين ، وابتعدت عنه قليلا ، وشبح من الخجل يصبغ وجنتيها ، قالت وهى تسوى شعرها بأصابعها الرقيقة بصوت مترع بالفتنة :

- أيهما أفضل الآن ، الشجاعة أم الجبن ؟
- لم أصل إلى نتيجة أى منهما بعد .

ضحكت وشعرت بالانطلاق ، تناولت علبه سجائرها ، وأشعلت واحدة ، جلست أمامه وهو يتأملها بعمق ، سألته : - لم تنظر إلى هكذا ؟

- مندهشا .

- مم ؟
- من ازدواج شخصيتك .
- كيف ؟
- (جان) التى رأيتها فى المؤتمرات والندوات واللقاءات مع القناصل والوزراء والقواد والزعماء ، التى تمسك بيدها الأوراق وتسأل وتسجل وتحاور وتنتقد بكل جدية وقوة وصرامة ... و(جان) الآن .
- وأيهما أعجبتك ؟
- الاثنان .

أزاحت شعرها الناعم من فوق جبينها المضئ وضحكت قائلة : - ليس ازوداج شخصية ولكنه أدوار ، ، وأنا احب أن أتقن الأدوار التى اقوم بها ، وما رأيك ؟

- أتفق معك ، وهذا مصدر عجبى .

- لم ؟
- لأن أكثر الناس لا يتقنون إلا تأدية دور واحد فقط .
- هذا نوع من الفقر وضيق الأفق .

كانت تدخن بشراهة ، أطفأت السيجارة ، ثم قالت وهى تنهض : - إنى جائعة .

وقف (رمضان) وقال : - سوف انصرف الآن .

اقتربت منه والتصقت به ، ووضعت زراعها فى زراعه وقالت : - سوف تتناول العشاء معى ... أم أنك تريد أن أتناوله بمفردى .

شعر أن كل الحواجز قد انهارت ، وكل المسافات قد زالت ، وكأن القبلة التى تبادلنها إعلان عن بداية مرحلة جديدة ، وأن حرارة نار تلك القبلة صهرت الكثير من الفوارق بينهما ، أخذته وذهبت به إلى قاعة الطعام ، وجد المائدة معدة ، وأدارت أسطوانة موسيقى هادئة ، وأشعلت بعض الشموع ، وكان هناك الكثير من الزهور الناضرة على المائدة .. وقبل أن يجلس سألها :

- وماما وبابا ؟

ضحكت ، أجلسته بجوارها ، وقالت : - بابا تجده الآن فى النادى مع حسناء من الحسناوات يسهر إلى ساعة متأخرة من الليل ، ويعود مخمورا، أما ماما فهى الآن تغط فى نوم عميق .

فقال وهو يتناول منها قطعة من اللحم فى طبقه : - وهى تعرف ذلك ؟

- نعم .
- وراضية !
- لقد حاولت أن تمنعه ، ولكنها فشلت ، فاستسلمت للوضع .
- وأنت ألم تتحدثى معه ؟

فقالت بلا مبالاة : - هذه حياته ، لا أتدخل فيها ، يفعل ما يشاء وقتما يشاء .

- أظن هذا الرأى متبادل بينكما .
- نعم ، وهو لا يتدخل فى حياتى بالمرة .

فقال ساخرا : - وهذه هى الحرية .

توقفت عن الأكل وقالت له : - ألديك شك فى هذا ؟

أراد أن يتكلم ، ولكنها أسرعت وسددت فمه بقطعة من اللحم وقالت : - أعلم ما سوف تقوله ... مسيو (رمضان) أعظم شئ لدى الإنسان الحرية ، وأن يموت الإنسان فى طلب الحرية أفضل من أن يعيش عبدا .

فقال ساخرا : - أكثر من يتحدث عن الحرية الفرنسيون ، ويتمتعون بها ، ومع ذلك المستعمرات الفرنسية فى جميع أنحاء العالم ، أليس هذا بغريب ؟

- لا ، لأن الذى يحكم فرنسا الآن ليس الفرنسيون .
- من إذن ؟
- الطمع ، الجشع ، وحب السيطرة والهيمنة والمصلحة والصراعات .
- أليس الحكام من الشعب ؟
- لا ، الحكومة مثل الزوج الخائن ، والشعوب مثل الزوجة المخدوعة ، والتى تعرف خيانة زوجها ، ومع ذلك تصمت ، لأنه يقوم بالإغداق عليها كلما ارتكب خيانة
- ولماذا لا تمنع المرأة زوجها من خيانتها ؟
- ليس أمامها إلا طريق واحد .
- ما هو ؟
- قتله .
- تقصدين الثورة ؟
- نعم ، ولكن سيأتى حكام آخرون ويخنون شعوبهم .
- لم ؟
- لأن الخيانة من طبع الرجال ... ولا أقصد خيانة الرجل للمرأة ، فتلك من أهون الخيانات .
- إذن ما تقصدين ؟
- خيانة الرجل لمبادئه .

وامتد الليل البهيج بهما ، وسط الموسيقى والشموع والزهور والفتنة والجمال ... وحينما هب للإنصراف ، لم ينسيا أن يجددا شوقهما بقبلة حارة .

(16)

- المخدوع -

حينما وصل إلى مقر الجريدة ، شعر أن المحررين فى حالة استنفار ، وأخبره أكثر من زميل أن رئيس التحرير طلبه أكثر من مرة ، تعجب من الأمر ، وعلى الفور اتجه إلى مكتبه ، وجده واقفا بجوار النافذة ، وحينما ألقى عليه التحية لم يجبه ، وإنما أشار إلى عدد من الصحف مبسوطة على مكتبه ، تناولها ... العنوان الرئيسى بتاريخ (20 – 5 – 1882) الإعلان عن وصول الأسطولين الإنجليزى والفرنسى فى جريدة (البروجرية اجبسيان) وتحليل لهذا الخبر بقلم (جان ديور) فى الصفحة الأولى ، شعر بالغيظ والخزى ، مكث عندها طوال الليل ، ولم تحضر إلا بعد أن كتبت المقال ، وبذلك حققت سبقا صحفيا ، حاول أن يهرب من نظرات (صديق الهلالى) الذى جلس إلى مكتبه، وطلب منه الجلوس وقال بتأثر : - لو لم أكن تحدثت معك عن الوضع فى البلد وطلبت منك أن تكون على يقظة لعذرتك .

صمت قليلا ، ثم قال : - أين كنت طوال الليل ؟

فقال بعد تردد : - كنت فى زيارة صديق لى .

- كلفتك كثيرا تلك الزيارة .

فقال (رمضان) مهونا الأمر : - كنا نتوقع وصولهما و...

فقاطعه ضاربا سطح مكتبه بقبضة يده قائلا : - إنه خرج من مجال التوقعات وحدث فعلا ، ثم ألم تسأل نفسك ، ماذا سيكون تأثيره على البلد ؟

صمت (رمضان) مفكرا ، ولم يتح له (صديق) الوقت الكافى وقدم له نسخة من الجريدة وقال له : - أفضل تحليل قرأته منذ مدة طويلة للصحفية الفرنسية (جان ديور) ، أظنك قابلتها فى بعض المؤتمرات واللقاءات الصحفية .

وتناول الجريدة وقال له : - هى ترى أن وصول الأسطولين سيكون له الأثر أن الوزارة ستستقيل ، ويبعد (عرابى) عن الساحة ، وأنه سيثبت من سلطة الخديو ، الأمر الذى قد يجعله يفعل كل ما يريده بدون رقابة من مجلس النواب أو الوزارة .

صمت قليلا ، ثم سأله : - ما رأيك فى مثل هذا الكلام يا أستاذ (رمضان) ؟

حاول (رمضان) أن يلملم من شتان نفسه وقال : - أظن أنها على حق فى ذلك .

- لا يا أستاذ (رمضان) يا رئيس القسم السياسى فى الجريدة .

شعر (رمضان) بالخزى كما لم يشعر به من قبل ، تلميذ مهمل أمام أستاذه ، آه لو يعلم أنه قضى الجزء الأكبر من الليل عند (جان ديور) ، وأنه أمضى ساعتين كاملتين فى حديث مع عجوزين فى أمور تافهة ... تخلص من تشتت أفكاره وسأله : - إذن ماذا ترى من مناورة الأسطولين على الأوضاع فى البلد ؟

نظر إليه بعمق ومس على جبهته ثم قال : - وصول الأسطولين ليست مناورة ، وإنما تمهيد لاحتلال البلد .

ابتسم (رمضان) فى سخرية وقال : - احتلال البلد !! كيف ؟ ولم ؟

- باختصار شديد الأمور وصلت فى البلد بالنسبة لانجلترا وفرنسا إلى حد الأزمة ، وتهديد لمصالحها الاستعمارية ، والخروج من تلك الأزمة لن يكون إلا باحتلال البلد .
- وبقية الدول هل ستوافق على ...

فدق (صديق) سطح مكتبه قائلا : - قلت لك أكثر من مرة ... قانون واحد يحكم العالم ويتحكم فى مصائر الأمم على مدى التاريخ .. القوة ... ثم القوة .

سادت فترة صمت ، وتساءل (رمضان) :- وما الذى سيحدث فى الأيام القادمة ؟

- أيام معدودة وتسقط الوزارة .
- وتشكل وزارة أخرى ترضى بوجود الأسطولين ، وتنفذ ما تطلبه الدولتان ، وينتهى الأمر ، ويرجع الأسطولان .
- لن يرضى الضباط وعلى رأسهم (عرابى) ، وإن كانت الحكمة تقتضى خضوعهم .
- الحكمة تقتضى خضوعهم ! كأنهم سيقاومون !
- الضباط يمثلون القوة ، ووجود الأسطولين استفزاز لتلك القوة ...وأظن أن الضباط سيحاولون عزل (توفيق) ومقاومة الدولتين .
- - إذن هى الحرب .
- وهل هناك احتلال بدون حرب .
- على هذا فهى نهاية لحركة الضباط فى مصر .

صمت (صديق) قليلا ، وهو يرسل بنظره عبر النافذة ، ثم قال :

- - قد يحدث ما ليس فى الحسبان ، وأتمنى أن ما تفعله الدولتان يكون مجرد مناورة ، وإن كنت اشك فى هذا .

وقبل أن ينهض (رمضان) سأله (صديق) :- بصراحة يا (رمضان) أين كنت ليلة الأمس ؟

فقال بدون أن يدرى : - كنت فى موعد غرامى .

نظر إليه (صديق) من قمة رأسه إلى أخمص قدميه وقال : - ولم لا ... أشياء غريبة تحدث هذه الأيام .

********** ********** **********

خرج (رمضان) من مبنى جريدة الأهرام ، وذهب إلى مبنى جريدة (البروجرية اجبسيان) وحينما رأته (جان) ابتسمت له ، ولكن حالما اختفت ابتسامتها حينما رأت تكدر ملامحه ، سألته : - ما بك ؟ أحدث شئ ؟

فقال بغضب وهو يشير لها بأصبعه : - كنت تعلمين بوصول الأسطولين إلى الميناء ، وكتبت مقالك فى الجريدة فى الصفحة الأولى .

اندهشت (جان) وتساءلت : - وما فى ذلك ؟ !

فقال فى انفعال : - لقد جعلتينى أنتظرك ساعتين ، وجلست معك وقتا طويلا ، ولم تخبرينى عن هذا الأمر .

فقالت وهى تحاول أن تكظم غيظها : - لأنك لم تسألنى .

- لقد خدعتينى ولولا وجودى عندك لكنت كتبت عن هذا ، واحتل مقالى الصفحة الأولى .

أدركت (جان) ما يقصده (رمضان) ، اصطبغ وجهها بحمرة الانفعال ، وأخذت أصابعها تتحرك بعصبية ، حاولت أن تسيطر على أعصابها ثم قالت :

- كأنك تقصد أنى دعوتك واستبقيتك كى لا تكتب عن الموضوع ، وأحقق أنا سبقا صحفيا ، وأنى تعمدت ذلك ؟

لم يجب (رمضان) واستأنفت حديثها : - مسيو (رمضان) ، أنا لم أندم على شئ قدر ندمى على الوقت الذى قضيته معك بالأمس .

قال (رمضان) وكأنه كتلة من الغضب : - وأنا لم أتصور أنك تحملين هذا الكم من الغدر والخداع .

وتركها وأنصرف .

********** ********** **********

- يا نهار أسود ، وقضيت الليل مع رجل غريب !!
- ما بك يا (سعدية) ؟! لقد بتنا مع أمه فى حجرة مغلقة علينا .... ماذا تظنين ؟

صمتت (سعدية) قليلا ، ونظرت إلى الأساور حول معصم (إنشراح) وربتت على يدها وقالت : - وهل سرقوا شيئا آخر ؟

- كانوا يريدون سرقة الأساور ، ولكنى لم أمكنهم .
- الأفضل ألا ترتدى ذهبك أثناء سفرك .
- وأين أتركه ؟ ثم أنى أستطيع أن أحمى نفسى وأصونها .
- مدت يدها بين نهديها وأخرجت ورقة مطوية ، تساءلت (سعدية) : - ما هذا ؟
- عنوان الكازينو الذى سوف أشتغل فيه ، مع أن بدايتى هنا لا تسر .

صمتت (سعدية) قليلا ، ثم قالت : - لا أدرى ما الذى جعلك تشتغلين راقصة ؟

فانفجرت (إنشراح) غاضبة وقالت : - لو كنت اشتغلت خدامة فى البيوت والكل طمعان فيك ، ولا اشتغلت أجيرة فى الأرض طوال النهار تحت الشمس الحارقة ، وأيام لا تجدين سوى الخبز الجاف لفضلت أن تعملى أى عمل لا تشعرين فيه بالذل والمهانة والجوع ، ثم أن الكل يحترموننى ، وأنا لا أفعل شيئا أندم عليه .

ربتت على ظهرها قائلة : - لا تغضبى منى .. أنا أتحدث معك فقط .

- أنا لا أغضب منك ، المهم ... هل (إبراهيم) زوجك يوافق على أن يأتى معى إلى الكازينو ؟

- (إبراهيم) يذهب إلى أى مكان فى العالم طالما سيعود عليه بالنفع .

- كنت أخشى أن يرفض .

- أنت لا تعرفينه .

- أنا فى حاجة إليه فأنا لا أعرف أحدا هنا .

فقالت ضاحكة : - ولكن احترسى منه ، فعينه زائغة ، وأنت ما شاء الله جميلة .

فضحكت قائلة : - أيحب زوجك النساء أم المال ؟

- الأثنين .
- متى سيعود ؟
- فى الثالثة وإن كنت تريدننى أن ...
- لا أبقى .. وستبقى معك (فرحانة) أختى .
- إنها فى عينى .

وبعد أن عاد (إبراهيم) من عمله ، اصطحب (إنشراح) إلى الكازينو ، وهناك تقابلت مع الرجل الذى طلب منها المجئ إلى الأسكندرية ، لتعمل عنده ، وحينما رآها وقف مندهشا قائلا :

- (إنشراح) لم أكن أتصور أنك ستأتين !!

فقالت بغضب : - ألم تعطينى العنوان وتطلب منى المجئ للعمل ؟

ظلت (إنشراح) واجمة بعض الوقت ، ثم فجأة نهضت وجذبت (إبراهيم) من يده الذى كان يتابع صور الراقصات الأجنبيات المعلقة على الحائط ، وقالت :

- هيا يا (إبراهيم) ... انا المخطئة أنى صدقت إنسانا مثلك .

فأسرع (درويش) ليمنع (إنشراح) من الوصول إلى الباب :

- تنصرفين ... معقول هذا !! نحن نعرف الأصول ،أنت والأستاذ ضيفان على الليلة ، ولن تنصرفا إلا بعض أن تأخذا واجب الضيافة .

- أنا لم آت إلى هنا للضيافة ... يا أستاذ أنا حضرت للعمل ... للشغل .. للرقص ، وإما أن أشتغل أو أعود من حيث أتيت . والآن أبعد عن الباب حتى أخرج .

ولكن(درويش) أمسك بيدها، فنظرت إليه بغضب وهى تبعد يده : - ابعد إيدك يا أستاذ وإلا ...

فقال (درويش) : - أتيت لترقصى ام تتشاجرى ... اجلسى لنتفاهم ، أنا لم أقل شيئا .

ونظر إلى (إبراهيم) وقال : - اتفضل اجلس يا أستاذ .

ودق الجرس فجاء العامل ، وطلب لهما مشروبا ، جلست (إنشراح) ، وقال (درويش) بعد أن جلس إلى مكتبه وقدم سيجارة إلى (إبراهيم) وأشعل واحدة :

- لا تغضبى ... كل ما فى الأمر أنى لم أتوقع مجيئك فجأة هكذا ... والكازينو وصاحبه تحت أمرك .

وبعد فترة صمت ، أخذ (درويش) يتأملها بتأن وعمق قال : - أتعرفين أنك محظوظة .

- كيف ؟
- كنا قد اتفقنا مع راقصة من القاهرة ... ووضعنا الإعلانات ، ولكنها أعتذرت بالأمس فقط .

فرك (إبراهيم) يديه قائلا وهو ينظر إلى (إنشراح) :

- إنها فعلا محظوظة ... إذن سيكون لها لقمة عيش هنا .
- وأين تقيمين يا ست (إنشراح) ؟

فأشارت إلى (إبراهيم) : - عند (إبراهيم) زوج ابنة خالتى .

فتح (درويش) درج مكتبه ، وأخرج مفتاحا وأعطاه لإنشراح قائلا :

- هذا مفتاح شقة مفروشة بالقرب من الكازينو ، وهذا هو العنوان .... وإن شاء الله سوف أحضر إليك لأكتب العقد .

تناولت العنوان والمفتاح وقالت : - لا أحب أن يحضر أحد عندى ، سوف أحضر هنا غدا .

صمت قليلا ثم قال : - غدا فى الواحدة ... تحضرين لعمل بروفة وتتدربين .

فقالت متعجبة : - وما فائدة تلك التدريبات ... ألم يعجبك رقصى ؟

- يا (إنشراح) العمل هنا فى المحل ، ليس كالعمل فى الأفراح ، وفى القرى وكفر الدوار المحل هنا كما رأيت وسترين ، له سمعته وزبائنه ، وعلى مستوى راق جدا .

نهضت (إنشراح) وقالت سوف أحضر فى الساعة الواحدة .

فقال (إبراهيم) : - ولكنى أنهى عملى فى الثالثة .

فنظر إليه (درويش) فى احتقار ، وقال : - حينما نحتاج إليك سننتظر الساعة الثالثة . وقال مخاطبا (إنشراح) : سوف أرسل لك المساعدة لتساعد وتجهزك .

وسمعوا طرقا على الباب ، ودخلت امرأة فى العقد الخامس من عمرها ، ملابسها ومكياجها لا يتناسبان مع عمرها ، نظرت إلى (إنشراح) وأخذت تتأملها فى شئ من القرف ، فنهضت تلك وانصرفت وتبعها (إبراهيم) ، وسألت المرأة (درويش) : - هل رجعت تحن إلى هذا الصنف .. ألم تنسى أصلك .

اقترب منها واحتضنها وقبلها : - قلبى لا يعشق إلا واحدة فقط (شاهيناز) .

جلست والتقطت سيجارة ن، فأسرع بإشعالها ، وسألته: - من تلك ؟

- (إنشراح) ... سترقص فى الكازينو .
فوقفت مندهشة وقالت : - تلك سترقص هنا !! ومن أين انتشلتها .

- رأيتها فى كفر الدوار ، كانت ترقص وكأنها تعانى من مغص كلوى .
ضحكت طويلا ثم سألته : - إذن لماذا سترقص هنا ؟

- خامة تصلح بعد التعديل والتمرين ، ثم إن راقصة القاهرة اعتذرت .
- ألا تكفى الراقصات الأجنبيات .
- عدد كبير من رواد الكازينو الدائمين يريدون راقصة بلدى ، حتى الرواد الأجانب .

وقفت أمام مرآة معلقة على الحائط ، وتأملت وجهها وجسدها وقالت وكأنها تحدث نفسها :

- كنت الراقصة البريمو فى الأسكندرية كلها ، لولا المرض اللعين فى عظامى .
كانت أشهر وأجمل راقصة ، وأحبها صاحب الكازينو اليونانى ، وتزوجها وكان مهرها الكازينو ، مات وأصبحت المتصرفة الوحيدة فى فى كل ما تركه زوجها ، وكان (درويش المزين) أحد الموظفين ، ولاحظت تفانيه وإخلاصه ، والأهم شبابه ووسامته ، فأرادت أن تعوض الأيام التى عاشتها مع اليونانى العجوز ، فتزوجته مع أنه كان يصغرها بعشرين عاما ، وأصبح كل شئ فى حياتها ، إلا أن فارق السن بينهما وعدم ثقتها فى جمالها ونفسها وكثرة شكوكها فى سلوك زوجها ، وإحاطة النساء به من كل لون جعل حياتها معه غير مستقرة ، فكثيرا ما تنشأ المشاحنات والمعارك بينهما ، وكانت فى النهاية تخضع له حينما يهددها أنه سيهجرها ، وتلك نقطة ضعفها ، وعرف بذكائه ومكره كيف يستغلها ، سألته :

- الإيراد بالأمس نقص كثيرا .
- حالة البلد غير مستقرة ... ألا تعيشين فى البلد ؟

- وما شأن حالة البلد بالإيراد يا روحى .
- حينما يشعر الناس بالخوف لن يسهروا خارج بيوتهم .
- وما سبب خوفهم .

قال (درويش) بنفاد صبر : - تلك مسائل لا تشغلى بالك بها .

- إذن لم أتيت براقصة جديدة ؟
- وجود راقصة جديدة سيجعلهم يتغلبون على خوفهم ويحضرون إلى الكازينو .
- لا أدرى ما الذى يجعلنى أصدقك فى كل ما تقول .

اقترب منها وأخذها بين زراعيه وقال : - الحب هو الذى يجعلك تصدقين .

ولكنها نفرت منه وقالت تحذره : - (درويش) ابتعد عن الراقصة الجديدة ... وإلا لن يحدث لك إلا كل ما تكره ... لم تسلم راقصة منك فى الكازينو .

- دائما تشكين فى إخلاصى لك وحبى .

وعاد وأخذها بين زراعيه ، وقالت وهى تترك نفسها له : - أنا أراقبك وأحصى عليك حتى أنفاسك .

فابتسم قائلا : - أعلم أنك تشغلين نصف عمال وموظفين الكازينو رقباء على .

فتكلفت الانهاش وقالت : - أنا !!

- أنا قلت نصف العمال والموظفين ، ولم أقل كلهم .

أرادت أن تدافع عن نفسها فقاطعها قائلا : - لن نظل نتكلم ...وراءنا عمل .... هيا .

(17)

- أنطونيادس -

جلس (كارمليو بوليدانيو) فى وكالته الكائنة فى منتصف شارع العطارين ، يتابع من وراء مكتبه الزجاجى حركة العمال ، يفرغون شحنة المواد الغذائية القادمة من الميناء ، والبعض الآخر يحمل بضائع أخرى خارج الوكالة لتوزيعها على المحلات فى أنحاء الأسكندرية . وكان يجلس بجواره شريكاه (كانتو بانتى) المشغول بتسجيل بيانات فى سجل أمامه ، و(أنجلو باسيلا) الذى عكف على شرب الخمر من زجاجة موضوعة أمامه على منضدة خشبية وقد رفع قدميه فوق المنضدة .

قال (كارميلو) مخاطبا (كانتو) وهو ينظر إلى السجل : - هل كل أصدقائنا دفعوا ؟

- لم يبق إلا عدد قليل ، وسيرسلون المال اليوم .
- إذن اجمع المال وقم بإرساله إلى (كحلاوى) اليوم .

أخرج (كانتو) رزمة كبيرة من المال من درج مكتبه ووضعها أمامه ، نظر إليها (أنجلو) طويلا وهو يجفف عرقه ، ثم قال : - أنا لا أدرى لم وافقتم على الدفع لهؤلاء الأوباش .

وتناول قطعة من الجبن الرومى الموضوعة بجوار زجاجة الخمر بطرف سكين ، ثم أفرغ كأسا فى جوفه وقال ضاحكا : - كنا فيما مضى نفعل مثلهم فى (نابولى) ، وكثيرا ما كنا نضرب ضربا مبرحا و....

فقاطعه (كارمليو) بغضب وخصلة من شعره الأسود الناعم ينسدل على جبينه : - أنت لم تحضر هنا لتذكرنا بماضينا القذر ، أنا وأنت و(كانتو) أصبح لنا مركز هام هنا ، ونحن لم نصل إليه بسهولة ، وكل ما فعلناه وأصدقاؤنا معرض للزوال ، فالبلد على فوهة بركان ، والغضب والتمرد فى كل مكان ، وإن لم نحتاط للأمر سيقضى علينا .
لم يهتم (أنجلو) بكلام (كارميلو) ، وواصل الشرب والتقط قطعة جبن ، مما أثار (كارمليو) فنهض وطوح بالزجاجة وبالكأس قائلا : - وكف عن الشرب ، وخذ الأمور ولو مرة على محمل الجد .
فنظر إليه (أنجلو) والشرر يتطاير من عينيه قائلا : - أنتم جبناء ، حفنة فتوات جعلتكم ترتعدون وتخضعون وتدفعون لهم ، لن يكفوا عن طلب المزيد .
فقال (كارميلو) : - لسنا جبناء ، ولكن أعمالنا فى اليومين السابقين تعطلت ، فقد هددوا العمال والحمالين كى لا يعملوا عندنا ، لقد عرفوا كيف يتحكمون فينا .
- لو وفرنا الحماية للعمال والحمالين لما خافوا من رجال (كحلاوى) .
فقال (كارمليو) ساخرا : - وهل سنتفرغ لحماية العمال والحمالين أم سنتفرغ لأعمالنا ؟
- إذن ادفعوا لهم ، وستظلون تدفعون وتخضعون حتى تطردوا من هنا كالكلاب .
- يالك من أحمق لا تعرف ما تتفوه به ، سوف أقطع لسانك إذا تفوهت مرة أخرى بتلك الترهات .
شعر (كانتو) أن الأمر قد يصل بين (كارمليو) و (أنجلو) إلى نقطة اللاعودة ، فنهض وقال محاولا أن يلطف الأمر بينهما : - لا تغضب يا (كارمليو) من (أنجلو) ، أنت تعرف أنه يأخذ كل الأمور باستخفاف وعدم جدية .
ثم ألتفت إلى (أنجلو) : - وأنت يا (أنجلو) كف عن وصفنا بالكلاب والجبناء ... الأمر كما يقول (كارمليو) خطير .
جلس (أنجلو) وجسده ينتفض وقال : - لقد قررتم أن تدفعوا لرجال (كحلاوى) ليعود العمال إلى العمل ، انتهت المشكلة ، إذن ما المبرر أن تقلق وتتوتر ، أنت دائما تعطى الأمور أكثر من حقها ، وكف عن فرض وصايتك على ، وإلا سأخرج ولن ترى وجهى مرة أخرى .
وبعد أن هدأوا وسادت فترة صمت قال (كانتو) مخاطبا (كارمليو) :
- أشعر أنك تفكر فى شئ ما .
- كلام (أنجلو) فكرنى بشئ .
فقال ساخرا : - كلامى أنا .
وسأله (كانتو) : - ماذا تقصد ؟

- الحماية .
- حماية من ؟
- حماية أنفسنا ، نحن فى حاجة إلى أن نحمى أنفسنا ، فكل الأجانب فى خطر .
فقال (كانتو) مندهشا : - والأساطيل على مرمى البصر .
- هذا ما زاد الأمر خطورة ، لقد أشعلوا روح التحدى فى الأهالى ، كذلك الخطب كل يوم ، والندوات ، وما يسمى بعرابى والضباط ... لابد لنا من سلاح يكون فى أيدينا وبوفرة .
قال (كانتو) : - لو كنا فى بلادنا لعرفنا كيف نحصل عليه ... اما الآن فمن أين ؟
وقف (أنجلو) وسار بضع خطوات، ونظر مبتسما إلى (كارمليو) و (كانتو) وقال :
- نحصل عليه من (أنطونيادس) .
قال الاثنان فى صوت واحد : - أنطونيادس !!
- نعم ، إنه يفعل أى شئ ، ويبيع كل شئ فى سبيل المال .
قال له (كانتو) : - وكيف سنصل إليه ؟ كنا نعمل فى شركة من شركاته طوال عشر سنين ، ولم نره مرة واحدة .
فقال (أنجلو) بعد أن جلس ورفع قدميه فوق المنضدة : - نصل إليه عن طريق (بربارة) .
فسأله (كارمليو) : - من (بربارة) تلك .
- أجمل امرأة فى الأسكندرية ، نظرة واحدة منها تشعر أنك كقطعة الثلج التى تذوب تحت حرارة الشمس ، وذراع (أنطونيادس) الأيمن .
- وكيف سنصل إليها ؟
- لى أصدقاء سيدبرون لى مقابلة معها ، ولكن كله بحسابه ، النظرة إلى (بربارة) بثمن ، والكلام معها بثمن .
- وهل ستقنع (بربارة) تلك (أنطونيادس) ليبيع لنا سلاحا ؟
- ما عليك إلا أن تجمع ما تقدر عليه من مال ، وأترك الباقى على .
فضحك (كانتو) قائلا:- (أنجلو) يستحق زجاجة خمر غير تلك التى كسرتها يا (كارمليو) .
فابتسم (كارمليو) : - انتظر لنرى صدق ما يقوله ... فأنت تعرفه كلامه أكثر من فعله ، فمن العسير مقابلة أنطونيادس ، فما بالك أن نتعاقد معه على شراء سلاح ؟
فشعر (أنجلو) بالتحدى فنهض قائلا : - سوف أذهب على الفور ، وسأدبر مقابلة مع أنطونيادس ، حينئذ ستعرف أن (أنجلو) لديه عقل يفكر به ، رغم الفكرة الخطأ التى تأخذها عنى .

********* ********** **********

قال (سيد) مخاطبا (أبو الليل) : - أرأيت أن (صبح) على حق ؟ لقد أرسل ولاد الصرمة مبلغا ما كنا نحلم به بدون أن يرفع فتوة نبوته .
أزاح (أبو الليل) غطاء رأسه وهو يأخذ نفسا عميقا من النرجيلة قائلا :
- كل يوم يمر يزداد إصرارى على التزوج بها ، (صبح) تلك جمال وعقل ، معها حق ، غلبتنا بعقلها .
- الظاهر يا أبو الليل أن هذا زمن العقل ، وليس زمن النبوت .

صمت (أبو الليل) وهو يراقب توهج قطعة الفحم : - لا يا (سيد) ، كما قالت (صبح) العقل بدون نبوت عقل أعرج ، والنبوت بدون عقل نبوت أعمى ، وإن كنت غير راض على طريقة جمع الفردة من الأجانب بتلك الطريقة .

- لم ؟
- أشعر أننا كالكلاب التى رمى لها قطعة لحم ، أهم من المال الذى نأخذه من الآخرين ، تلك الهيبة التى ينظرون بها إلينا ، ثم كلها أيام ويلقى الفتوات الشوم والنبابيت من أيديهم وينسون الفتونة .
- محال أن يحدث هذا .
- أخرج وأنظر ، أغلب الرجال لم يحضروا معهم حتى العصى ، خطورة (صبح) أنها ستقضى على الفتونة يا (سيد) وتقضى علينا ، لا تفرح بالمال الذى أتى إلينا ، ثم أنت لا تعرف فيما يفكرون ولاد الصرمة .
- فيم يفكرون ؟
- قد يفكرون أن يعملوا هم بالفتونة ، ويأخذوا منا مالا بعد ذلك للحماية .

ضحك (سيد) طويلا حتى دمعت عيناه ، وأخذ يربت على كتف (أبو الليل) :

- أحلى نكتة سمعتها يا (أبو الليل) .

وبعد أن سادت فترة صمت ، سأل (أبو الليل) : - ما رأيك فى (مخيمر) و (شافعى) ؟

- كأنهما مولدان فتوات .
- أعطيتهما المال الذى أمرتك به ؟

فقال بعد تردد :

- نعم ، ولكن ألست معى أنك أعطيتهما كثيرا ؟
- ألم تخبرنى أنى فى حاجة إلى تجميع الرجال حولى ؟
- نعم ، ولكن بهذا أنت تدللهما .

صمت طويلا وشرد بفكره ، وقال وكأنه يحدث نفسه : - إنى أعدهما لأمر خطير .

- ما هو ؟
- ستعرف فى الوقت المناسب يا (سيد)
- نحن لا نعرفهما إلا من مدة بسيطة ، الرجال عندنا كثيرون يقومون بكل شئ .
- لا أظن أن غيرهما يستطيع القيام بما سأكلفهما به .
- كلامك يحير اليوم يا (أبو الليل) .
- أمرهما ليقضيا السهرة معنا الليلة .

فنظر إليه مندهشا قائلا : - أرى أنهما وصلا إلى مكانة عالية عندك .. إنهما مولدان وفى فمهما ملعقة من ذهب طالما (أبو الليل) راض عنهما .

********** ********** *********

وقف (حسنين) بعدما فشلت كل محاولاته فى إيقاظهما قائلا : - سبحان الله !! كنتما تستيقظان قبل الفجر ، وتظلان تعملان إلى المغرب ، أما الآن فما زلتما تغطان فى النوم وقد اقترب الوقت من العصر .

تململ (شافعى) فى نومه ، وأزاح الغطاء وقال وهو يتثاءب : - ما بك يا (حسنين) لابد أن تذكرنا بأيام الغم والهم .

وقال (مخيمر) وهو تحت الغطاء : - ثم أنه ليس وراءنا شئ لننهض مبكرا .

قال (حسنين) : - وراءكما الصلاة ، أنتما لم تصليا الصبح ، أم أن الفتوات لا يصلون .
حيينئذ نهض (شافعى) و (مخيمر) ، وقال : - معك حق فى هذا ، حق الله لابد وأن نؤديه .
- سوف أعد لكما الفطور والشاى .
وحينما اجتمعوا على الفطور ، سألهما (حسنين) :- متى رجعتما بالأمس ؟
فقال (شافعى) : - فى الساعة الرابعة ، كانت سهرة ولا فى الأحلام ... نحن لم نكن أحياء فى (دمنهور) ، حياة الفتوات فيه أشياء جميلة قوى يا (حسنين) يا ليتك جئت معنا .
- أنا لا أصلح للفتونة ولا الفتونة تصلح لى .
ثم قال بأسف : - ما أهمية تلك السهرة التى مكثتما فيها إلى الرابعة ؟
فقال (شافعى) بعد أن توقف عن الأكل:- أكل .. وشرب .. وكيف ...ونسوان .. نسوان يا (حسنين) لم أر مثلهما فى عمرى ... عصيدة .. عصيدة معجونة فى الزبدة والسكر .
ونظر إلى (مخيمر) وسأله : - لم أنت صامت ؟ ثم أنك لم تأكل .
فمسك رأسه وقال : - رأسى يكاد أن ينفجر من الصداع .
فضحك (شافعى) : - لأنك شربت كثيرا بالأمس .
- لابد أن نثبت لهم أننا أقوى منهم فى كل شئ .
فضحك (حسنين) : - وتلك هى النتيجة .
تناول (شافعى) كوب الشاى من يد (حسنين) وأخذ يرتشف وهو منهمك فى التفكير ، فضحك (حسنين) الذى كان يراقبه : - العصيدة المعجونة فى الزبدة والسكر لحست مخك .
فسأل (شافعى) مخيمر : - ألم تلاحظ شيئا يا مخيمر ؟
- ماذا تقصد ؟
- اهتمام (أبو الليل) الزائد بنا ، وحرصه أن نجلس بجواره دونا عن بقية الرجال ، والمال الذى أعطاناه لنا .
فقال (مخيمر) : - لقد سمعت بعض الرجال يتهامسون بذلك .
- وشئ آخر .
- ما هو ؟
- ألم تلاحظ أنه يبعدنا عن المعلم الكبير، وكلما سنحت الظروف لنذهب إليه يصرفنا عن ذلك .
أمسك (مخيمر) برأسه ، وتمدد على الأرض قائلا:- ربما يريد أن يزوجنا فتاتين من أقربائه .
وكان (حسنين) يسمع باهتمام ما يدور بين الاثنين ، فقال بعد تفكير : - (أبو الليل) هذا إما أنه يدبر ليكون المعلم الكبير بدلا من المعلم (كحلاوى) أو أن أنه يعد لشئ خطير .
فأعتدل (مخيمر) جالسا وسأله : - ما هذا الشئ الخطير يا (حسنين) ؟
صمت قليلا مفكرا ثم قال : - لا أعرف .
قال (شافعى) بعد أن فكر فى كلام (حسنين) : - أنت وصلت لشئ كان محيرنى فعلا .

- (حسنين) معه حق ، ولكن لم نحن بالذات وحوله الرجال كثيرون ؟
فقال (حسنين) : - كل الرجال رجال (كحلاوى) وليسوا رجال (أبو الليل) للآن أنتم لم تتعاملوا إلا مع (أبو الليل) ولم تقابلا المعلم الكبير .
- كلامك يا (حسنين) معقول قوى .
فوقف (حسنين) ووضع يده فى يب جلبابه وشمخ بأنفه قائلا:- أنا كنت ناوى أرجع دمنهمور .
فقال (شافعى) متعجبا : - ترجع دمنهور ... لم ؟!
- ليس لى فى شغل الفتونة .. أرجع أشتغل فى المحلج .
- لم يا خويا ... أنت ترعى مصالحنا ، وكل ما فى أيدينا من مال يقسم علينا نحن الثلاثة ، وإن كان على الشغل (أسكندر) يبحث لك عن شغل فى الأسكندرية .
فقال (مخيمر) : - ولم يشتغل ... المال بدأ يجرى فى أيدينا .
فسألهما (حسنين) : - وأنتما ماذا تشتغلان ؟
فنظر مخيمر إلى شافعى حائرا ، ثم قال (شافعى) :
- نحن لا نعمل شيئا ... طوال النهار جالسين على المقهى ، وفى المساء نقضى السهرة كل يوم فى مكان ، نأكل ونشرب .
فقال (حسنين) ساخرا : - ربما تكون تلك الفتونة وأنا لا أعلم .
فقال (مخيمر) : - المهم يا (حسنين) نريدك أن تشغل مخك معنا ، وتعرف قصد ونية (أبو الليل) من ناحيتنا .
فقال (شافعى) : - كلامك سبب القلق لنا ، ونحن نعتمد عليك فى تنوير طريقنا .
انتشى (حسنين) من هذا الثناء ، فجلس بينهما قائلا :
- سوف أذهب معكما ، وأخبر الجميع أنى أخوك ، وتبحث لى عن عمل ... واتركا الباقى على .
فقال (مخيمر) مندهشا : - أخو (شافعى) .... كيف ؟ ألا يعرفون أنك ...
ضحك (شافعى) ضحكا متواصلا حتى دمعت عيناه : - لا أحد للآن يعرف (حسنين) فحينما ذهبنا أول مرة ، وحدثت المشاجرة اختفى (حسنين) من المكان كعادته ، ولم يقترب من المقهى حتى الآن .
فقال (حسنين) مدافعا عن نفسه :
- وماذا كنتما تظنان منى أن أفعله ، وانا أرى النبابيت مرفوعة ، أأنتظر حتى أتلقى نبوتا فوق رأسى ؟
فقال (مخيمر) ضاحكا : - تبقى لتدافع عنا .
- أنا لا أستطيع أن أدافع عن نفسى ، فكيف أدافع عنكما ، وسط غابة أسود ؟
فقال (مخيمر) : - يوم لا ينسى ... لولا أسكندر لكنا الآن فى المستشفى .
********** ********** **********

بناية (ألن والدرسن) تطل بكل شموخ وغرور على (ميدان القناصل) بنيت على الطراز الإنجليزى ، معظم قاطنيها من الأوربيين ، موظفين فى القناصل ، وفى البنوك وفى البورصة ، وأصحاب مكاتب وشركات ووكالات ، وشقق تدار لأعمال غير مشروعة ، ومكاتب تعقد صفقات بعيدة عن عين القانون ، فلا رقيب ولا سلطان لغير المال ، وما يقيمه من علاقات واستغلال ، وما يجلبه من بذخ ورفاهية .
يحتل طابقين من البناية الثرى اليونانى (أنطونيادس) ، تضمان شركاته ومكاتبه ، جاء إلى الأسكندرية فى بدايات عهد الخديو (إسماعيل) واستغل استغلالا ذكيا تلك

الامتيازات الى منحت برعونة للإجانب، وامتد نشاطه إلى السودان وعمل بتجارة الرقيق ، وحينما أبطل
(إسماعيل) تلك التجارة ، مارس جميع الأعمال التى تدر عليه مالا ، وكون شبكة علاقات أخطبوطية ، تصل إلى السرايا ، أعطاه المال مركزا ونفوذا خطيرا فى الأسكندرية وخارجها .

بعد أن تناول العشاء مع أصدقائه وكبار موظفيه فى ساعة متأخرة من الليل ، انتقلوا إلى قاعة الشراب ، وهى عبارة عن بار يحتل مساحة كبيرة ، يشتمل على أجود أنواع الخمور المستوردة ، وهناك مقاعد وثيرة وأمامها المناضد مرصوصا عليها الكؤوس ، ومعلق على الحائط لوحات فنية لكبار الفنانين الأجانب ، وتماثيل نحاسية لنساء عاريات ، والثريات المتدلية التى تضئ المكان بقوة ، ونساء وفتيات يخطرن هنا وهناك فى قمة الرشاقة والجمال ، يرتدين ثيابا تكشف عن مفاتن أجسادهن بجرأة وتحد .

أومأ (أنطونيادس) إلى (بربارة) سكرتيرته ومحظيته ، لم تتجاوز الثلاثين ، تتميز بجمال وفتنة باهرة ، أرتدت ثوب سهرة أسود شفافا ، أظهر مفاتن جسدها الأبيض الممتلئ الفارع ، تعقص شعرها الأشقر إلى الوراء ، وتضع فوق رأسها تاجا رصع بالأحجار الكريمة والألماظ الذى يتلألأ خلال انعكاس الأضواء عليه ، تسير بكل ثقة وأعتداد بنفسها ، وكأنه ملكة ، الجميع يهابونها ، تأمر وتنهى فيمن حولها بإشارة من إصبعها ، وصلت إلى هذه المكانة عند (انطونيادس) بما تتصف به من ذكاء ودهاء ومعرفة عميقة بمواطن الضعف الإنسانى مع من تتعامل معهم ، وكيفية استغلال هذا الضعف ، تلك الخبرة اكتسبتها من خلال عملها فى بيت من بيوت البغاء ، حينما قدمت من (نابولى) إلى الأسكندرية ، تعرفت على (أنطونيادس) ، أعجب بها لجمالها وأنوثتها ، وأعجبت به لذكائه وحيويته وماله ، كان فى حاجة إلى امرأة مثلها ، وكانت فى حاجة إلى رجل مثله ، نسجت حوله خيوطها العنكبوتية ، استنام فى بداية أمره لملمس تلك الخيوط الحريرية الناعمة ، وخلال تلك المدة التى عاشت معه استطاعت أن تعرف عنه كل كبيرة وصغيرة ، ما يجب أن يعرف وما لا يجب أن يعرف ، وحينما شعر بثقل وطأتها عليه أراد أن يتخلص منها ، ولكنها كانت تعد لمثل هذا اليوم ، كانت قد ملكت من أمره وشئونه الكثير ، ساومته ... خضع ، ورأى أن وجودها فى حياته لا يكلفه ما سيكلفه خروجها ، وأصبحت علاقتهما فى غاية الشذوذ والغرابة ، بين شد وجذب .. حرب باردة طويلة الأمد ، ما تكاد تشتعل حتى يسارع أحدهما أو كلاهما بإطفائها ... وظلا هكذا على أمل أن يضيق أحدهما بالوضع فيحرر الآخر ويتحرر منه ، ولكن على ما يبدو أنهما تعودا على نوعية مثل هذا الصراع ، حتى أصبحا لا يتخيل أحد منهما أن يعيش بعيدا عن مضايقات ومراقبة الآخر .

قامت (بربارة) بصب كأس كبير من الخمر المعتق ، وأخرجت سيجارا من علبة الخشب الفاخر المطعم بالذهب والفضة وقدمتهما لأنطونيادس ، الذى أخذ يشرب بتلذذ كبير ويدخن بنهم شديد ، وهو فى أثناء ذلك يتحرك بين ضيوفه بكل حيوية وانطلاق ، قصير ، بدين ، أبيض شعر الرأس ، أنيق ، تتجلى قوة شخصيته فى نظراته المقتحمة التى يصوبها بكل تركيز لمن أمامه ، يعشق النساء بعد المال ، ويقدرهن كما يقدر الصائغ الجوهر النفيس ، فقد ورث من تجارته بالرقيق تلك الخبرة ، ويرى فى كل

امرأة شيئا يستحق أن يقدر ويستثمر ويستغل ، ويعتبر أنهن أكبر مصدر من مصادر البهجة فى الحياة ، ولكن أبدا لم يطغ حبه للنساء على حبه للمال ، فالنساء وسيلة للمال بالنسبة له .
سار يفرق ابتساماته وعباراته الغزلية على كل حسناء تمر به ، وأصابع يده لا تمتنع عن العبث فى أجساد النساء وهن يطلقن ضحكات داعرة تشجعه فى التمادى فيما يفعله ، فإذا لمح نظرات (بربارة) تحاصره حاول أن يخفف مما يفعله أو يبتعد قدر الإمكان عنها إلا أنه فوجئ بها تطبق عليه ، أسرت إليه ببضع كلمات ، فأومأ إليها عابسا ، ثم أشارت إلى (كارمليو) و (كانتو) و (وأنجلو) ، وكان الأخير غارقا فى الشرب ، فنهره (كارمليو) ، وأسرع الثلاثة وتقدموا من (أنطونيادس) الذى نظر إليهم باحتقار شديد كعادته ، وأخذ يستمع إلى (كارمليو) وهو نافد الصبر ، وبين الأونة والأخرى يعرض عنه محييا هذا أو ضاحكا لتلك ، أو يتركه لبعض الوقت ، ثم يعود إليه ، وحينما نفد صبره قال غاضبا :
- لن أقضى الليل أستمع إلى حثالة الإيطاليين فى أشياء تافهة .
وألتفت إلى (بربارة) غاضبا : - لماذا لم تنهى أنت الأمر معهم ؟
شعر الثلاثة بالحرج ، وأنتظروا من (بربارة) أن ترفع عنهم الحرج ، فقالت محتدة :
- إنهم يطلبون شيئا لا أستطيع أن آخذ فيه برأى .
فقال بصوت مرتفع بعض الشئ : - ماذا تطلبون ؟
فقال (كارمليو) بعد تردد بصوت لا يكاد يسمع : - نريد سلاحا .
فقال بعجب ممتزج بالاحتقار : - سلاحا !! وماذا ستفعلون به ؟
قال (كانتو) وهو ينظر إليه بتحد : - نحمى به أنفسنا ونحمى به أعمالنا المعرضة للخطر .
صمت قليلا مفكرا ، وخرج (كانتو) عن صمته قائلا : - كل الإيطاليين يعلقون عليك أملهم أن تساعدهم فى هذا الأمر .
نظر إليه بعمق ، ثم قال : - الإيطاليون فقط .
- كل الأجانب الضعفاء لن ينسوا لك هذا العطف والحماية التى ستوفرها لهم إذا سمحت لنا بالسلاح . رفع سبابته قائلا : - وجود السلاح معكم قد يسبب مشاكل كثيرة .
- لن نستعمله إلا فى الدفاع عن أنفسنا ، وفى أضيق الحدود .
قبل أن ينصرف (أنطونيادس) من أمامهم ، أومأ إلى (بربارة) بإشارة ففهمت وطلبت من الرجال ان يتبعوها ، إلا أن (أنطونيادس) أستوقفهم قائلا : - آخر مرة تأتون إلى هنا ، ولا أريد أن أرى وجوهكم القبيحة مرة أخرى .
سارت (بربارة) أمامهم ، ودخلت حجرة جانبية ، وجلست على مقعد وثير كاشفة عن ساقين كالمرمر ، ولم تكترث بالعيون المتلصصة ، قالت تخاطب (أنجلو) : - كل شئ تم كما خططنا يا (أنجلو) ، سأضع طلبكم أمامه غدا ، كل ما عليكم هوتجهيز المبلغ فى أقرب وقت ، فقد تحدث أمور تجعله يغير من وعده ، فكما تعلمون البلد كل يوم فى حال ، ويجب أن يتم كل شئ فى سرية تامة ، وإذا تسرب أى شئ سيلغى الصفقة .
نهضت (بربارة) وعبير عطرها الساحر يذيب الرجال ، أخرج (أنجلو) ظرفين قائلا :
- هذا كشف بأنواع الأسلحة وعددها ، والظرف الأخر ...
لم تتركه يكمل كلامه ، وألتقطت المظروفين وقالت بنبرة حميمة :

- ما بيننا يا (أنجلو) لا يحتاج إلى هذا .
- هذا شئ بسيط للتعبير عن أمتناننا .
التمعت عيناها ، وقالت تخاطب الرجال الثلاثة ، وخصصت (كارمليو) بالحديث لأنها أدركت أنه بمثابة القائد لهم : - وأنا أعتبر أن هذا اللقاء بداية لتوطيد العلاقة بيننا ، وأى عقبة أو مشكلة تصادفكم ، فأنا موجودة .
فتشجع (كارمليو) وقال : - لقد أثنى أصدقاؤنا عليك كثييرا ، وهم على ما يبدو لم يوفوك حقك من الذكاء والجمال .
ضحكت ونظرت إليهم بإغراء وقالت تخاطب (كارمليو) : - بعد غد اتصلوا بى لتعرفوا التفاصيل .
وحينما عادت (بربارة) إلى القاعة ، وجدت (جان) تخطر بكل رشاقة وجمال إلى داخل القاعة ، والعيون تتابعها ، ووراءها (جوستاف) ، شعرت بغيرة شديدة ، مع أنها أجمل وأكثر فتنة منها ، إلا أن أرستقراطية (جان) وجمالها الفرنسى الرفيع وثقافتها كل هذا يجعلها محط الأنظار ، لا سيما من (أنطونيادس) التى تغير عليه غيرة شديدة ، فهى تعلم أن علاقات (أنطونيادس) الغرامية كثيرة ومتنوعة ، ولكنها مع جميع النساء تشعر بثقة شديدة إلا مع (جان) فهى تشك فى نفسها ، وتشعر بضاءلة وهى بجوارها .
حينما رأى (أنطونيادس) (جان) نهض واتجه إليها وقبل يدها بشوق ولهفة ، ثم صافح (جوستاف) وابتسم له ابتسامة ذات مغزى فقال له : - ظنك ليس فى محله يا (أنطونيو) لقد تقابلنا صدفة أثناء قدومنا إلى هنا .
فقال (أنطونيو) وعيناه تلتمع وهو يلتهم (جان) بنظراته : - ولكن ألم تكن تتمنى أن يكون ظنى فى محله ؟
- (جان) تفضلنى صديقا فوق كل اعتبار ، وأنا أحترم رغبتها فى ذلك .
فقال (أنطونيادس) وهو يقترب من (جان) مشيرا إلى صدره : - إذن اقبلينى زوجا .. ولن تندمى أبدا ، وستسعدين ، عاشق متيم بك يا أميرة الجمال والحسن .
أشرق وجه (جان) وتوردت وجنتاها واختلجت شفتاها الرقيقتين من كلام (أنطونيادس) الذى دأب عليه كلما قابلها ، قالت بدلال وبصوت مترع بالأنوثة والرقة :
- أطونيو ... كف عن هذا الكلام ، وإلا انصرفت .
- إنه ليس كلاما ، ولكنها مشاعر وعواطف صادقة يا مليكتى .
فأرادت أن تتخلص منه ، فقالت تخاطب (بربارة) التى كانت تقف وراءه وتسمع كل ما يدور : - (بربارة) كيف حالك ؟
فوجئ (أنطونيادس) ببربارة تقف خلفه ، فتخلص من الموقف بأن قال مخاطبا (جوستاف) :
- تعال .... أريدك فى أمر هام .
قالت (جان) وهى تلمح مظاهر الضيق والغيرة مرتسمة على وجه (بربارة) :
- على ما يبدو أنك فقدت تأثيرك على (أنطونيو) .
فقالت (بربارة) وهى تتأمل طريقة تسريحتها ومكياجها : - (أنطونيو) شديد الإعجاب بكل ما هو فرنسى ، ثم أنه يحب التنقل بين النساء دائما .
سارتا وجلستا على أقرب مقعد ، وقدمت (بربارة) كأسا وسيجارة ، سألتها (جان) :
- لماذا لم تتزوجا حتى الآن ؟

فنظرت (بربارة) إلى حيث يجلس (أنطونيو) و (جوستاف) وقالت : - نفس السبب الذى جعلك أنت و (جوستاف) لم تتزوجا .
(جوستاف) مجرد صديق ... وأظنك تمثلين لأنطونيو شيئا أكثر من ذلك ، وهو أيضا .
- لهذا السبب لم نتزوج .
فقالت مندهشة : - عجبا لأمركما !!
فقالت (بربارة) وهى تنفث دخان سيجارتها : - لو تزوجنا سيخسر كثيرا ، وهو قد يتحمل أى شئ إلا الخسارة .
- وأنت ؟
- أحيانا يكون الزواج أكبر خسارة فى حياة المرأة ، وقد تقضى عمرها كله فى تعويض تلك الخسارة .
- وحياتك معه الآن ؟
أفرغت (بربارة) بقية الكأس فى جوفها ، وأعادت طرف ثوبها الذى أنزلق فكشف عن مشارف نهدها البض : - حياتى معه عبارة عن أشياء كثيرة مختلطة ، العاطفة بالمال ، بالمباح بالمحظور ، المكشوف بالمستور ، والحقد والأنانية والكراهية والأستغلال ... أنطونيولم يصل إلى ما وصل إليه إلا بعد المرور بتجارب لو قلتها لك لن تصدقيها .
- وأنت وراءه .
- وأحيانا أمامه .
ابتسمت (بربارة) وقالت : - لن أقول لك أكثر من ذلك عن حياته خوفا أن تنشرى شيئا ، ففى حياته أشياء كثيرة يخجل ويرتعد منها ، ولا يتخيل أنه قام بها ، ولا يعرفها إلا أنا .
فضحكت (جان) قائلة : - نفوذ (أنطونيو) الطاغى يمنع أن ينشر إلا كل ما يرضيه .
وأخذا يتحدثان فى أمور شتى . أما (أنطونيادس) فقد سأل (جوستاف) بعد أن شرب واتشى وهو يتابع الحسناوات يخطرن حوله : - (جوستاف) ما حكاية الأساطيل فى البحر ؟
- من أجل تأمين مصالحكم فى البلد .
- وهل مصالحنا مهددة ؟
- نسيت أن أهتماماتك بعيدة عن السياسة ... نعم المصالح الأجنبية مهددة بسبب تحركات الضباط فى الجيش ، وخضوع الخديو لهم ، ومطالب بعض السياسيين .
- وكيف ستحمى الأساطيل مصالحنا بدون تدخل ؟
- ستتدخل .
- متى ؟
- حينما تضار مصالحكم .
- قبل أم بعد ؟
- بعد .
- وماذا سنستفيد ؟
ضحك (جوستاف) ثم قال : - خسارة قليلة يعقبها مكاسب كثيرة ، ثم إنكم منذ أن أتيتم إلى هنا وأنتم تكسبون ، فلم لا تخسرون ولو مرة ؟ فكر (أنطونيو) قليلا ثم قال : - أخشى أن تكون الخسارة التى لا يعقبها مكسب .

- لا أظن .. فإنكم ستكسبون مكاسب لم تكسبوها من قبل .
- المهم كيف ستضار مصالحنا ، وكيف سنحميها ؟
- لا أدرى ...المهم خذوا حذركم .

غمغم (أنطونيو) قائلا وكأنه يحدث نفسه : - حثالة الإيطاليين معهم حق .

- ماذا تقول ؟
- لا شئ .

وأخذ (جوستاف) يتابع النساء والفتيات اللائى يتمايسن حوله ، وهن فى كامل زينتهن ، وقال : - مستوى الفتنة والجمال ارتفع عند موظفاتك .

- أمتع ما فى الحياة النساء .... ولولا أن الخديو (إسماعيل) ألغى تجارة الرق ، لكنت أكبر تاجر رقيق فى الشرق ، ومعظم أولئك كانوا رقيق عندى .

ابتسم فى مكر قائلا : - وما زلن .

- نعم ، ولكن بإرادتهن .

أفرغ كأسا فى جوفه ونظر إلى (بربارة) و (جان) ثم قال : - ما رأيك أن تأخذ (بربارة) تلك الليلة ؟

نظر إليه متعجبا قائلا : - (بربارة) لن تتركك وحيدا لحظة ، طالما رأت (جان) هنا .

فقال بأسف : - حتى لو حدث ذلك ، فلن أظفر (بجان) ولو لحظة .

فضحك (جوستاف) قائلا : - كل أولئك حولك ، وتطمح إلى ما لا تملكه .

- هكذا نحن ، سفلة ... أحيانا أشعر أنى شيطان ، الجحيم مأوى ، كل الشرور والمفاسد التى تعرفها والتى لا تعرفها قمت بها ، وعلى استعداد أن أقوم بها ... لم ؟! لا أدرى ... فساد طبع ، فى يوم من الأيام سأكون جثة عفنة وسأترك كل هذا ؟، ولا أعرف لمن ؟ إذن لم جمعته و أجمعه ؟

ضحك (أنطونيادس) لما يقوله ، وقال ضاحكا مغيرا الموضوع :

- لا تؤاخذنى ، فلا أكاد أقابلك حتى أتحدث معك بكل صراحة ، فلا أعرف إنسانا مثقفا مثلك ، كل من أعرفهم سفلة وأفاقين .

رأى (أنطونيادس) (بربارة) و (جان) متجهتان إليهما ، نهض قائلا :

- أظنك ستنصرفين .
- نعم ، فورائى مقال لابد أن أكتبه الليلة .
- ما يزال الليل طويلا وأنا لم أجلس معك .

فنظرت إلى (بربارة) وقالت : - الليل أجمل مع (بربارة) .

- وأشد جمالا معكما أنتما الاثنتان .

ونظر إلى (بربارة) قائلا : - أعطى الإعلانات الخاصة بالشركات الجديدة كى تنشر فى جريدة (جان) ، ومرى السائق كى يوصلها إلى البيت .

وبعد أن أنصرفت ، تململ (جوستاف) فسأله (أنطونيادس) : - ما بك ... أتريد الإنصراف أنت أيضا ؟

- نعم .
- إلى أين ؟
- أقضى سهرتى .
- ولم لا تقضيها معى ؟
- الليلة سأذهب لمشاهدة أجمل راقصة فى الأسكندرية كلها .
- ما نوع الرقص الذى ترقصه .

- راقصة بلدى .
نظر إليه باحتقار قائلا : - ألن تقلع عن عاداتك السيئة تلك ؟ ما زلت تمارس تلك الهوايات البغيضة ... تجلس على مقاهى بلدية ، وتسير فى الأحياء الشعبية ، وتشاهد راقصة بلدى ، وأين الراقصات الفرنسيات والإيطاليات والإنجليزيات ؟
- لا ... لقد فاقت كل أولئك ... إنها نوع مختلف ، نوع لم تشاهده من قبل .
فقال وما زالت ملامح السخرية مرتسمة على ملامحه :
- وفى أى مقهى بلدى ترقص تلك الراقصة؟
فقال مندهشا : - إنها لا ترقص فى مقهى .
- إذن فى أى حارة من حارات الأنفوشى ؟
- إنها ترقص فى أفخم كازينوهات الأسكندرية .
- وهل تسمح أفخم كازينوهات بوجود راقصة بلدى ؟
- حينما تراها ستغير كل أفكارك عن الرقص والراقصات البلدى ، تعال معى نسهر سويا ولن تندم .
فأخذه من ذراعه وقال : - الندم أن أقضى بقية السهرة هنا مع (بربارة) هيا بنا قبل أن ترانا .

(18)
- إنشراح -

الظلام مطبق على المكان ، فلا تسمع ولا ترى غير الموسيقى وشعاع من نور يحاولان أن يلاحقا هذا الجسم الذى يكاد أن يمس الأرض مسا ، وكأنه يسبح بكل رشاقة وإنسيابية وسط هالات من النور الساطع ، الحركات المحسوبة بكل دقة ، والموسيقى التى تحيط بالجسم إحاطة الغلالة الرقيقة ، والنور الذى ينعطف مع كل إنعطافة عضو ، أضفا معانى سامية للجسم ، وكأنك وسط معبد فرعونى ، والراقصة تؤدى طقوس تعبدية ، لم يعد للجسم هذا الإغراء الرخيص أو الجاذبية الشهوانية ، وإنما أصبح وحدة كونية تصلك بكل ما فى الكون من جمال وإبداع وفتنة ، وتطفئ هذا الظمأ الأبدى إلى الجمال . وبعد أن صمتت الموسيقى ، وسكن الجسم وأضيئت الأنوار ، ظلت القاعة فى صمت وسكون لحظات ، وكأنها فى أسر صدى ما كان ، وبعد لحظات إلتهبت الكف بالتصفيق ، وأنساب الجسم خارج حلبة اللرقص كدفقة ضوء غاربة .
التفت (أنطونيادس) إلى (جوستاف) مبهورا بما رأى وقال :
- إنها كما قلت وأكثر .... منذ مدة طويلة لم أر راقصة بتلك الفتنة أو هذا الجمال ... إنها متوحشة فى الرقص والفن .
فضحك (جوستاف) وهو يلمح التعبيرات التى بدت على ملامح (أنطونيادس) وقال :
- أأعجبتك ؟
التمعت عينا (أنطونيادس) وارتعش كعادته كلما أعجب بشئ إعجابا شديدا :
- أريدها ... أريدها لترقص لى وحدى .
فقال بأسف : - صعب أن ترضى تلك الرغبة .
فنظر إليه مندهشا : - لم ؟
- لأنك كما قلت عنها متوحشة ، لا أحد يستطيع الاقتراب منها ، كل ما تستطيعه أن تشاهد فقط ، وهنا فقط وليس فى مكان آخر .

- وصاحب الكازينو ؟
- إنها فى حرب معه .
- لم ؟
- منذ أن حضرت إلى هنا ، وكتب معها عقد احتكار بأجر زهيد ، وحينما أشتهرت تساقطت عليها العقود المغرية من أصحاب كبرى المسارح والنوادى والفنادق فى الأسكندرية وخارجها ، حاولت بكل الوسائل فسخ العقد .
- تدفع له تعويضا .
- أحاطها بحراس أشداء وهددها بالقتل إن فكرت أن تترك الكازينو .
- ونظير بقائها .
- رفع من أجرها ... فهى تتقاضى أجرا لا تتقضاه راقصة فى الأسكندرية .

صمت قليلا ثم قال فى تصميم : - سأشتريها .

- ممن ؟
- من صاحب الكازينو .
- وهى ؟
- أكثر شئ يلين النساء ويجعلهن طوع يدك الذهب ، وأظنك توافقنى أن له فعل السحر ، بل أقوى .

أخذ (جوستاف) جرعة من كأسه ، وبدأ فى إشعال غليونه ، وصمت قليلا مفكرا ثم قال : - أنا اختلطت بجميع المستويلات هنا فى الأسكندرية ، وعاشرتهم وعايشتهم ...رجل البلد هنا غريب والأغرب المرأة ... فقد تصادف امرأة فقيرة تتمسك برجل فقير مثلها ، وتضحى من أجله بالكثير ، وترفض فى نفس الوقت شخصا مثلك بكل ما يمتلكه من مال وذهب .

- أتقصد .
- ربما يكون الرابط بينهما أقوى من الحب .
- ما اسم هذا الرابط ؟
- لا أدرى .. فمثلما تنبت الأرض هنا نباتات غريبة لا تجد مثيلا لها فى العالم ، كذلك تنبت بشرا .

نظر (أنطونيادس) إلى (جوستاف) قائلا : - أنت تحب هذه البلد يا (جوستاف) حبا عجيبا .

- جدا ، والدليل أنى أعيش هنا وليس فى فرنسا .
- وأنا أيضا تركت بلدى منذ مدة طويلة ، وأعيش هنا .. فأنا أيضا أحب هذه البلد .

فضحك (جوستاف) ونظر إلى (أنطونيادس) نظرة ذات مغزى ، فسأله هذا :

- علام تضحك ؟ هل فى كلامى ما يضحك ؟
- أنت لا تحب هذه البلد يا (أنطونيو) أنت تستغلها أسوأ استغلال ، مثل بقرة حلوب تحافظ عليها خوفا من أن يأتى يوم لا تحلب لك فيه ، وإن حدث ذلك فسوف تفكر فى بيعها بأرخص الأثمان ، لتبحث عن أخرى .

أراد أن يعترض على كلامه ، ولكنه بلع غيظه وصمت . (جوستاف) من القلائل الذين يعرفون كل شئ عنه ، وأنه يفعل كل شئ محتميا وراء نفوذه وماله ، وإذا جرده من هذين ، لا يتبقى أمامه إلا سافل من السفلة الذين لفظتهم موانئ إيطاليا ، ورمى بهم موج البحر على شواطئ الأسكندرية ، عار جائع ، شريد ، وتشبث بالأرض كما يتشبث القراد بضحيته ، ليمص دمائها فى سكون وصمت ، وشئ غريب حار فى

تفسيره .. إن تلك الأرض تحتضن الغرباء عنها ، وتمنحهم كل ما يريدون ن ويجد الغرباء فيها كل ما يطلبون سهلا يسيرا ، بينما أبناؤها تتجهم فى وجوههم ، وتتعنت معهم ، ربما لكثرة الغرباء الذين ترددوا عليها على مر التاريخ ، حدثت ألفة بينها وبينهم ، أو أن الغرباء هم الذين عمروها وبنوها ، فهى ترد الجميل لكل غريب يجلؤ إليها ، أو أنها أرض ملعونة تأكل أبناءها ، فقد قرأ كثيرا عنها ، لم يحكمها إلا الغرباء ، وأهلها مادة خام يشكلها الغرباء كيفما يشاءون إلى درجة أن يتحول الغريب إلى صاحب البلد والأهل هم الغرباء ... كثيرا من الغرباء الذين قابلهم أصبح لديهم شبه يقين أن الأسكندرية هى بلدهم ، وسوف يعيشون ويدفنون فى أرضها ، لا يتخيلون لحظة أنها ليس ببلدهم ، وأنه قد يأتى يوم ويسترد صاحب الحق حقه ... أيمكن أن يحدث هذا فى فرنسا ؟!

قال (أنطونيادس) وسحابات دخان سيجارة يرتفع فى الهواء : - لنتراهن يا (جو) .

- علام ؟
- على أن تلك الراقصة ستخضع تحت قدمى ولن تقاوم إغراء الذهب .

نظر إليه طويلا ... ثم قال : - أنا لا أعرفها جيدا ، قليلة تلك المرات التى تحدثت معها ولاحظت أنها سطحية ، ولكنها ذكية ذكاءا فطريا ، تدرك ما يريده الرجل منها بحدسها وفراستها فتنفر من البعض وتتقرب من البعض .

- وما أدراك بكل هذا ؟
- فى مرة طلبتنى أن أجلس معها ، وطوال الجلسة كانت تسأل وأنا أجيب ... تريد أن تعرف كل شئ عن العالم الذى يحيط بها ، وتكررت الجلسات معها .
- ولم أنت بالذات ؟

فأبتسم (جوستاف) : - ألم أقل لك أن لديها نظرة صائبة فى الرجال .

فقال بسخرية : - آه ... نسيت أنك تقدر الفن والمال تقديرا رومانسيا .. أنتم الفرنسيون هكذا .

وصمت قليلا ثم قال : - كأنك وثقت علاقتك بها .

- تقريبا
- دعنا نتراهن .
- موافق .

نظر إليه متعجبا : - أنت تراهن على مجهول فأنت لا تعرفها جيدا ، فكل الذى بينكما عدة جلسات هى تسأل وأنت تجيب كما تقول .

- أنا أراهن على فراستى .. ومقدار صواب حكمى على الناس .
- وإن خابت فراستك وحكمك .
- العيب عندى .
- وعلام يكون الرهان ؟
- أنا لست فى ثرائك .... ولكن لدى المال .
- الرهان سيكون تافها ، لأن الموضوع تافها .
- ليس غريبا عليك أن تقول هذا
- ليكن الرهان زجاجة نبيذ وعشاءا فاخرا .
- موافق .

********** ********** *******

بعد أن تناولوا العشاء ، قام (فؤاد) بعمل الشاى ، وأخرج (أسكندر) علبة سجائره الفاخرة ، وقدم لفافتين لفؤاد ورمضان ، وأرتشف من الشاى وأخذ ينفث دخان سيجارته ، وقال وهو ينظر حوله : - الجلسة لا ينقصها إلا امرأة جميلة لتكتمل السهرة .
فأنفجر (رمضان) قائلا : - لا تأت بسيرة النساء .. إنهن خائنات .
وعقب (فؤاد) : - وكلهن كائنات مملات ... لا خير فيهن .
دهش (أسكندر) مما سمعه ، وكان يعرف قصة حب (فؤاد) مع ابنة خاله ، وعرف مؤخرا ما بين (رمضان) والفرنسية (جان) ، وكان يعتبر أن الشابين خائبان ، ولا يجيدان التعامل مع النساء ، وكثيرا ما أعطاهما دروسا مجانية ، ولكن على ما يبدو أن الطالب الخائب لا يجدى معه النصيحة ، قال لهما :
- لا أريد سماع أى شئ يهين النساء ... وإلا سأغضب عليكما .
فقال (رمضان) ساخرا : - لم ... هل وكلوك لتدافع عنهن ؟
وعقب (رمضان) : - أم أنت النصير الهمام للمرأة بدون أن نعرف ؟
- إنكما فلاحان غشيمان لا تعرفان قيمة النساء .. إنهن أجمل ما فى الحياة ... بدونهن لا قيمة للحياة ، بل لا حياة بالمرة ، أتتخيلان حياة بدون زهور ، بدون خمر ، بدون موسيقى ؟ لا شئ يعطى للحياة اللون والطعم والرائحة غيرهن .. أهناك أجمل أو أمتع من أن يجلس الإنسان مع المرأة ... يتحدثان .. يأكلان .. يشربان .. يضحكان .. يتعانقان ... ينامان و ...
فقال (فؤاد) : - كفى ...كفى ... لاتحرك مواجعنا .
وقال (رمضان) : - أنت شيطان يا (أسكندر) .
وتمادى (أسكندر) قائلا : - لو مر يوم فى حياتى بدون نساء ، أشعر أنى لم أعش ، الدنيا كالبحر الواسع ملئ بأنواع جميلة ومغرية من الأسماك ، المفروض أن نستمتع ... فى الصباح مع إيطالية ، وبعد الظهر مع فرنسية ، وفى المساء مع إنجليزية ، وتمضى الليل مع أمريكية .
نظر إليه (رمضان) وكأنه ينظر إلى مخلوق من عالم آخر متعجبا :
- أتعرف كل أولئك يا (أسكندر) ؟!
فأخرج (أجندة) من جيبه ولوح بها : - وحياتك وأجناس أخرى غير معروفة لكما .. ومعى عناوينهن وأسماؤهن .
فقال (فؤاد) وهو يحاول أن يختطف (الأجندة) بدون جدوى :
- أنت كما قال (رمضان) عنك ... شيطان .
- لا شيطان ولا جن ، أنا إنسان بسيط أحب أن أعيش الحياة ، والحياة جميلة ، ومغفل الذى يقضى حياته يوما وراء يوم ، بدون أن يستمتع ويعيش
فغمز (فؤاد) (رمضان) وقال مخاطبا (أسكندر) :
- لماذا يا (أسكندر) تتعامل مع كل الجنسيات ؟ لماذا لا تكتفى بجنسية واحدة ؟
أطفأ (أسكندر) سيجارته وأشعل أخرى ، وأخرج من جيبه زجاجة خمر صغيرة ، وأحضر كوبا ، وأفرغ لنفسه كأسا ، وشرد ببصره بعيدا ، و(فؤاد) و (رمضان) صامتان ينتظران ما سيقوله الأستاذ (أسكندر) قال وهو ينفث دخان سيارته :
- كل جنسية ولها ميزة ؟
- كيف ؟

بدأ (أسكندر) يستعين بزراعيه لتساعداه فى التعبير عما يريد : - الفرنسية جمالها فى قوامها وحديثها ، الإيطالية فى أردافها ونهديها ، الأمريكية فى سيقانها ونهمها ، الإنجليزية فى شفتيها وعينيها ، والحبشية فى عنقها وحرارتها و...
فقاطعه (رمضان) ضاحكا : - أنت لست شيطانا .. بل زعيم الشياطين ... أنت تستحق أن تضرب بالنار فى ميدان القناصل .
- وأنتما تستحقان أن تدفنا بالحياة .... أنتما مدفونان فعلا ... (فؤاد) يحب ابنة خالة ، وهى تلعب به ولا يعرف للآن إن كانت تحبه أم لا ، أما الأستاذ (رمضان) فقد خسر صداقة وحب فرنسا فى لحظة طيش وغضب .
وضع (فؤاد) يده على خده قائلا : - وماذا نفعل يا بروفيسور الحب والغرام ... يا مقطع السمكة وذيلها ؟
- المرأة تحب وتعشق الرجل الذى يقدرها ويقدر جمالها وشخصيتها ... الذى يستهين بالعالم كله فى سبيلها ، تحب الرجل المقتحم .. الرجل المغامر .
واتجه إلى (فؤاد) سائلا : - أنت ماذا فعلت ؟ تضع يدك على خدك حتى يتعطف خالك ويوافق على زواجك من ابنته ... تضع كل أملك على خالك ، وتعمل عنده كالعبد ، بينما لم تفعل شيئا للآن مع ابنة خالك .... تنتظر المناسبة التى تجمع بينكما ، هل واعدتها مرة وخرجت معها ؟ هل أرسلت لها هدية ، أو خطابا ملتهبا ؟ هل قبلتها عانقتها ؟ الذى بينك وبينها حب رسمى .. عائلى .. وتريد تصريحا كتابيا منها أنها تحبك .... كلام فارغ .
ثم اتجه إلى (رمضان) : - وأنت أيها الكاتب الصحفى الهمام ، خسرت إنسانة كان من الممكن أن تبدأ معها قصة حب جميلة ... برعونتك حطمت كل شئ ، ولم تفكر أن تصلح ما حطمته بعدما عرفت أنها لم تقصد شيئا مما فكرت فيه .
صمت قليلا ، ثم قال وهو يأتى على بقية الزجاجة ، وقد بدأت الخمر تلعب برأسه :
- أنتما أسوأ من قابلت من الرجال ، وأنا غلطان أنى قضيت الليلة معكما ، وكانت ليلة سوداء ، أنتما فاشلان لا تستحقان أن تكونا موجودين فى أجمل بلد فى العالم .
صمت قليلا ، وهو يهتز من أثر الخمر ، ثم نظر إليهما طويلا ، وفجأة بصق عليهما .
نظر (فؤاد) و (رمضان) إلى بعضهما غير مصدقين ، ثم هجما عليه وأوسعاه ضربا ، وقد غرق فى نوبة جنونية من الضحك الهستيرى .
********* **********
****
قالت أمه بعد أن اطمأنت على الجرح : - الحمد لله يا رفاعى ... الجرح طاب .
تحسس (رفاعى) الجرح ، وأخذ يحرك زراعيه :
- نعم يا أمى ... ولكنه كان جرحا مؤلما .
سادت فترة صمت ، ثم سألته : - ألم تر الست (إنشراح) ؟
ترآءت صورتها أمامه ، وحاول أن يتشاغل عنها قائلا : - منذ أن قمت بتوصيلها لم أرها ، ولا أعرف عنها شيئا .
- كان من الواجب أن تسأل عنها ... إنها يا بنى غريبة فى البلد .
- نعم ياأمى ... ولكن بأى حجة سأذهب إليها ؟
- لا أعرف يا بنى ... ولكن كان يبدو عليها أنها ست طيبة ، وقلبى انفتح لها .
- لقد قمنا معها بالواجب .
- ربنا يحميك لشبابك يا رفاعى .

لم يتناول عشاءه ، كلام أمه ذكره بها شعر بإحساس غامض نحوها ، ولكنه حاول أن يبدد هذا الإحساس ... سألته وهو شارد : - رفاعى .... لم لا تأكل ؟
تنبه وقال : - الحمد لله يا أمى .... لقد شبعت .
قامت بعمل الشاى ، سألته : - ألن تتزوج يا رفاعى ؟
فابتسم فى حزن قائلا : - من أين ؟ كل ما نحصل عليه يكاد يكفى ثمن طعامنا .
- لدى قطعتان من الذهب ، ومدخرة قرشين ،فلا تحمل هما ، هيا نبحث عن بنت الحلال .
- أنا لا أفكر فى الزواج الآن يا أمى .
- إلى متى يا ابنى ؟
فضحك (رفاعى) قائلا : - ألا تخشين أن تأتى بامرأة تأخذنى منك ؟
- سعادتى أن أراك سعيدا ، وأنت تعبت كثيرا بعد موت أبيك .
- كل واحد يأخذ نصيبه يا أمى ، وأنا راض بنصيبى .
نظرت إليه وقالت بأسف : - نصيبك قليل فى الدنيا يا ابنى .
- الحمد لله يا أم رفاعى، نحن أفضل من غيرنا .
فقالت وهى تتثآب : - ألن تأوى إلى فراشك ؟
- (سعيد) ما زال بالخارج ... سأحل اللجام من عليه وأبيته .
تركته وذهبت إلى فراشها ، أما هو فخرج كى يدخل (سعيد) إلى حظيرته ، ولكن حينما اقترب منه طوح برأسه يمينا ويسارا ، وأخذ يدق الأرض بقوائمه ، فضحك (رفاعى) وقال وهو يربت على عنقه : - أتشعر بالضيق مثل صاحبك ، ولا رغبة لك بالنوم ، أم أنك تريد الزواج ؟ لا نستطيع أن نطعمك وزوجتك يا (سعيد) . هيا نسير على الكورنيش بعض الوقت .
وخرج (رفاعى) من الحارة الغارقة فى الظلام والسكون والصمت إلى الكورنيش ، وكان الجو جميلا وهواء الليل الساحر مندى بنسيم البحر ، وحديث الموج الرخيم يتناهى إلى سمعه ، البعض أشار له ، ولكنه لم يستجب لهم فهو خارج ليرفه عن نفسه ، عدد من عشاق الليل يجلسون على السور الصخرى ، وأثناء سيره بتمهل سمع صوتا ينادى :
- يا سى (رفاعى) ... يا سى (رفاعى) .
التفت إلى مصدر الصوت ، فوجد امرأة فى قمة الجمال والأناقة تقف على باب كازينو ، وحولها عدد من الشباب الأقوياء المتحفزين ... ظن أنها لا تقصده ، ولكنه وجدها تشير إليه وتتقدم نحوه والشباب خلفها ونحوها ، أوقف العربة مندهشا وشعر بالحيرة ... من تلك المرأة الجميلة التى تشير إليه ، وتعرف اسمه ؟ ومن هؤلاء الذين يحرسونها ؟ ولم ؟ وحينما اقتربت منه أكثر ، تذكرها على الفور ، إنها (إنشراح) وحينما تخلص من أثر المفاجأة نزل بسرعة واقترب منها ، صافحته بكل حرارة ، ونظراتها تكاد أن تحتضنه ، قال وهو لا يصدق عينيه : - ست (إنشراح) !!
- إلى أين أنت ذاهب ؟
وترددت نظراته بينها وبين الشباب الذى يقف خلفها وحولها ، فقالت وهى تتهيأ لصعود العربة : - هيا لتقم بتوصيلى يا سى رفاعى .
وأشارت إلى الشباب بالانصراف ، ولكنهم لم يتحركوا ، فاستدارت لهم ونهرتهم فرجعوا وهم يرمقونه بنظرات نارية ، ركبت العربة وسار ، ومضى وقت لم يتحدثا ، ثم قالت له :

- مستغرب ... أليس كذلك ؟
فالتفت مبتسما ولم يجب ، وواصل سيره ، قالت بعد تردد : - إنى أعمل راقصة فى الكازينو .
لم يقل شيئا ... سألته : - كيف حال الست أم رفاعى ؟
- الليلة سألت عنك ، وطلبت منى أن أذهب إليك كى أطمئن عليك .
شعرت بالخجل والحرج حينما أخبرها بذلك ، شئ ما جعلها تنجذب إليه أول ما رأته ، والتضحية التى أقدم عليها فى تلك الليلة السوداء جعلت صورته لا تنمحى من ذاكرتها ، كان لديها يقين أنها ستقابله ... وعاتبت نفسها ، لماذا لم تفكر فى زيارته بعد أن استقر بها المقام ، حتى لترد جزءا من جميله عليها ، لقد بهرت بعالمها الذى لم تكن تحلم به ، والنجاح الذى صادفته فى وقت وجيز أصابها بالدوار ، والمال والرجال والإغراءات من كل نوع .... وآخرهم (أنطونيادس) الذى يلاحقها بهداياه ووعوده وإغراءاته والإلحاح الذى وصل إلى درجة الضغط على (درويش) كى يقنعها أن تستجيب له ، ولكن شيئا ما وقر فى ضميرها أن تقاوم وتتمرد ، فهى فى غابة والذئاب تريد ان تنهشها ولابد أن تتوحش وتستعمل أنيابها وتصنع من أظافرها مخالبا ، فلا سند لها من جاه ولا مال ، ليس لديها شئ سوى جمالها وفنها وأنوثتها ... وعرفت كيف تستخدم كل هؤلاء وتحولهم إلى أسلحة تحمى نفسها بل وتهاجم الآخرين ، وتعلمت أن لا تصد أحدا ، وأن لا تعطى أحدا ، لذلك أحاط بها الكثير من الرجال من كل نوع ، وأغدقوا عليها ، رفضت عروضا مغرية للزواج تجعلها تعيش كملكة متوجة ، ولا تدرى لم رفضت .
قالت وهى تسوى شعرها الذى عبث به نسيم الليل : - سى (رفاعى) .. أعذرنى يا خويا .
- لم ؟
- لأنى لم اسأل عليكم .
- أهم شئ أن تكونى بخير .
سادت فترة صمت لم تدر ماذا تقول .. كل ما تريده ألا يضيع منها هذه المرة ، تريد أن تحتفظ به .. قطع عليها تفكيرها : - إلى أين سنذهب يا ست (إنشراح) ؟
- سر بنا .
- ولكن الوقت متأخر .
- وما فى ذلك ؟
فضحك قائلا : - ألا تخشين اللصوص ؟
- أأخاف وأنت معى يا سى (رفاعى) ؟ أى امرأة تتمنى أن تكون فى حماية رجل مثلك .
لا ينكر أنه شعر بدوار ، وتصبب عرقا ، ولم يدر ماذا يقول ... فلزم الصمت ...قالت له :
- سى (رفاعى) ... أريدك أن تأتى إلى كل ليلة لتقوم بتوصيلى ... ألديك مانع ؟
فنظر إليها مبتسما وقال : - وما المانع يا ست (إنشراح) .
وأرشدته إلى البيت الذى تقيم به ، وقبل أن تنزل وجدت يدها تمتد إليه بمبلغ من المال ، وما حيت لن تنسى نظراته إليها وملامحه وتعبيرات وجهه وهو ينظر إلى يدها الممدوة وعينيها ، ووقعت عينيها على أثر الضمادة التى كانت تربط كتفه ، شعرت أن الأرض تميد من تحت قدميها ، وارتعشت شفتاها وتوردت وجنتاها ، وأرادت أن تبكى

فتخلصت من هذا الموقف فأسرعت بالنزول ، وقالت بصوت مخنوق : - تصبح على خير ياسى (رفاعى) .
وعاد إلى بيته ولم ينم ليلته .

(19)
- لقاء -

انتظرها طويلا تحت جدار من جدران قلعة (قايتباى) العتيقة ، لسان صخرى ممتد فى البحر يلجأ إليه العاشقون هربا من العيون المتلصصة ، الموج يعربد بكل رعونة فى البحر ، يداعب اللسان فى عنف مرة ، ومرة فى هدوء واسترخاء .
جلس على صخرة وهو يتأمل الطحالب وقد لونت الصخور بلونها الداكن ، البحر واسع وممتد ، ومشاعره مضطربة كاضطراب الموج ، وأحاسيس حادة تنتابه ، لم يشعر بها من قبل ، ينهض ويسير خطوات ويتلفت حوله ، ثم يجلس ناظرا فى ساعته فى قلق ولهفة ، يلتقط بعص الحصى ويقذف بها إلى البحر ة... قد لا تأتى ... أول مرة يواعدها ، بذل جهدا جبارا مخترقا كل الموانع والحجب التى وضعها خاله بينهما وقرر فى لحظة يأس إن لم تأت سيصرف نظره عنها ، ولن يفكر فيها بعد ذلك .. وليخرج نفسه من تلك الحالة الرمادية .
إفلاس والده ، ومجيئه إلى الأسكندرية والعمل فى محل من محلات خاله والقدر ، كل هؤلاء وضعوا (تحية) أمامه ، أحب فيها جمالها وانطلاقها وحيويتها واستهتارها ، ولكن كان حبا صامتا ، حاولت أن تجعله يتكلم ، ولكن لسانه كان ينعقد ، كان يتهيب أن ينساق معها ، لا سيما وهو يرى نظرات خاله تحيط به وترصد عليه تحركاته ، وعلى ما يبدو يأست منه ومن تحفظه ، فانصرفت عنه غير زاهدة وغير راغبة ، وكان يكتشف بالصدفة تجاربها الغرامية الصبيانية مع شباب الجيران أو شباب الحى ، ولكنه يعلم أنه شئ تشغل به وقت فراغها ، أو شئ يرضى فيها غرور فتاة معجبة بجمالها ، وأن أحلام مراهقتها تدفعها لتتلمس أطراف عالم الحب والغرام .
دق قلبه بشدة ، وتسارعت أنفاسه ، رآها من على البعد وهى تسير متعثرة فى خطواتها ، وقد لفت قوامها الممشوق بملاءة سوداء ، تلملم أطرافها بصعوبة من عبث الرياح بها ، أسرع إليها وهو يحتضن بنظراته ملامح وجهها ذى القسمات الدقيقة الجميلة ، وخصلة من شعرها الأشقر الناعم تنسدل على عينيها الحالمتين التى لا تستقران على شئ ، غمغمت بأشلاء كلمات لم يتبينها ؛ لأنه فتن بالشفتين المرتعشتين المغريتين ، وهى تعض بأسنانها البيضاء على الشفة السفلى خجلا أو خوفا ، تناول يدها النحيلة وأحس باضطرابها وقد توردت وجنتاها ، لم يرها جميلة هكذا من قبل ، تأملها وقد انسدلت الملاءة من فوق صدرها فأظهرت مشارف نهدين يستتران بكل خفر وحياء تحت ثوبها القرمزى الذى يكشف عن ذراعين نحيفين ينبئان عن مستقبل أنوثة طاغية ، وقد أرتدت فى قدميها حذاء ذا كعب عال جعلها مقيدة فى سيرها ... خلصت يدها من يده وهى تتلفت .. سألها :
- أول مرة أراك بملاءة ؟
فقالت وقد بدأ المكر والدهاء يطلان من عينيها الخائفتين :
- - أخشى أن يرانى أحد ، ويبلغ المعلم (قنديل) ويعرف أنى أقابلك سرا .
فقال متشجعا بحماس على غير عادته : - ليعرف ، فإنى لا أخشاه .

فنظرت إليه مندهشة ، فهى تعرف أنه يحترم والدها احتراما شديدا ويخشى غضبه ، أشارت بإصبعها الرقيقة قائلة وهى تضحك : - ظننتك تخشى المعلم (قنديل) و تخاف أن يعرف مقابلتك لى سرا ؟!
لا يدرى سبب القوة المفاجئة التى هبطت عليه ، ربما وجودها هو الذى شجعه على ذلك ، قال : - أنا لا أخشى أحدا ، وعلى استعداد أن أقول للعالم كله أنى أحبك .
المفاجأة هى التى جعلت مشاعرها متضاربة ، وشعرت أن قدميها لا تكاد تحملانها ، جلست على أقرب صخرة ، ونظرت إليه ، ربما أخطأت فى تقديره ، كانت تنفر منه بسبب تردده وخوفه واحترامه المبالغ فيه لوالدها ، ولكن ها هى لا ترى إلا قوة واندفاع وتهور ، وهذا ما تعشقه فى الشباب والرجال .
تأمل ساقيها الرشيقتين وهى تحركهما فى استرخاء ودلال ، نظرت إليه فى سخرية ممتزجة بالإعجاب ، سألته : - وماذا بعد ذلك ؟
أرادت أن تختبر سر شجاعته ، فربما تكون شجاعة مؤقتة تزول حالما تزول المقابلة ، سألها : - ماذا تقصدين ؟
- أقصد أبى وأمى وسعاد أختى و...
فقاطعها فى غضب : - لا شأن لى بكل هذا .... لقد أتيت لأخبرك ....
واقترب منها ومسك يديها بقوة وقال : - إنى أحبك ، ولا أطيق أن أبتعد عنك لحظة ، ولا أستطيع أن أصبر حتى تتزوج (سعاد) أو يوافق والدك ... (تحية) لابد أن تقدرى مشاعرى ... أكيد كنت ترين فى نظراتى هذا الإعجاب الصامت بك ، تشعرين من حركاتى حينما أراك تلك اللهفة الخرساء .
لملمت الملاءة حول خصرها النحيل ، ونظرت إلى الأرض وأضاءت وجهها الجميل ابتسامة خجولة ، وهزت رأسها ، وخلصت يدها المرتعشة من يده وقالت بصوت مخنوق : - أعرف هذا .
فقال متعجبا : - ولم تكونى تظهرين لى شيئا !
فضربت فخذها بيدها ، فأحدثت الأساور الذهبية حول معصمها صوتا رخيما ، وقالت بمرح صبيانى : - يادى النيلة .... من الذى يقول .. أنا أم أنت ؟
- وقد قلت كل ما فى قلبى .
وزحفت أصابعه لتحتضن بقوة أصابعها ، وقالت وهى متوردة الوجنتين :
- فؤاد ... واحدة واحدة ... كأنى أول مرة أعرفك ، ولا أستطيع أن أجاريك ... لقد قلبت كيانى بكلامك ... أنت متعلم وأنا علامى قليل وأخشى أن يكون كل هذا مجرد كلام بتضحك به على .
- قلبى هو الذى يتكلم وليس لسانى .
نظرت فى ساعتها ، نهضت لتنصرف وسار معها بضع خطوات حتى إذا اقتربا من جدار القلعة بعيدا عن الأنظار وفى إنحناءة جذبها إليه فجأة وأحاط خصرها بزراعيه واقترب من وجهها والتهم شفتيها ، شعر بها تنتفض كطائر مذعور ، وارتسمت فى عينيها نظرة خوف وفزع ، لبثت لحظات مستسلمة بين يديه ، ثم تنبهت ، وأبعدته بكلتا يديها وانحنت لتلتقط الملاءة التى سقطت وقالت وهى تتجنب النظر إليه :
- فؤاد ... ما هذا الذى فعلته ؟ لن أقابلك مرة أخرى ، كنت أظنك أعقل من ذلك .
- نظر إلى عينيها فرآها تلتمع بالدموع فقال معتذرا : - أعذرينى ، لا أعرف كيف فعلت هذا ؟
- لم تجب وإنما أسرعت فى السير .

استوقفها قائلا : - إن لم تعذرينى فلن أسامح نفسى أبدا .
ابتسمت ، وواصلت سيرها ، سار بجانبها ، واصطدمت اليدان ، ثم تشابكت الأصابع ، وفى تلك المرة لم تهرب الصابه ، وإنما استكانت وسارا حتى وصلا إلى الشارع ، أوقف عربة حنطور ، وركبت ، ونظرت إليه نظرة حار فى تفسيرها وظل راقب العربة حتى اختفت عن ناظريه .

********** **********

****

أطلت من خلف الباب مستطلعة ، وحينما رأته فتحت الباب ورحبت به ، جاذبة إياه إلى الداخل : - أهلا مسيو (رمضان) ، لم أرك منذ مدة ، ستفرح (جان) بزيارتك كثيرا .

وحينما جلس ، وأحضرت له مشروبا وتحدثا فى أمور شتى ، تململ فى جلسته وهو يتوقع دخول (جان) فى أى لحظة ، ولكن مضى الوقت ولم تحضر ، سألها بعد تردد :

- أليست موجودة ؟
- لم تحضر منذ أن خرجت فى الصباح .

شعر أن موقفه حرج للغاية ، وإن زيارته تلك ما كان يجب أن تكون ، نوع من التهور لم يتعود عليه فى حياته ، فهو من الذين يحسبون خطواتهم جيدا قبل أن يخطوها ، ويغلب عليه التردد ، ولكنه شعر أن زيارته فى بيتها نوع من الاعتذار ... بسرعة توثقت علاقته بها ، وبسرعة انتهت تلك العلاقة ، أهم ما يميز الاجانب السرعة فى كل شئ ، والمبادرة دائما فى أيديهم ، فليجرب مرة أن تكون المبادرة فى يده ، ولكن كل ما خططه إنهار ... أخرجه صوتها المهموس من سبحاته : - ألم تكونا على موعد ؟

- لا .

وقعت عيناه على زهرية بها زهور ، فتذكر أنه كان يجب أن يحضر لها شيئا يعبر عن إعتذاره ، زهورا مثلا ، إنها تحب الزهور كثيرا ، ولكن حالته وهو قادم لم تكن تسمح بالتفكير فى هذا ، عليه أن ينصرف الآن ، شعر براحة لهذا القرار ، على الأقل سيجنبه اللقاء ولكن قبل أن ينصرف سمع صوتا من ناحية الباب ، ودخلت (جان) دهشت لرؤيته ، جلست على أقرب مقعد ، متوردة الوجنتين ، واضعة يديها فوق ركبتيها متجنبة النظر إليه ، لم تخف غضبها منه ، تشاغلت عنه بالعبث فى أصابع يديها ، انصرفت الأم ، وبقيا وحدهما ، شعر بجفاف فى حلقه وقال بعد تردد : - لقد أتيت لأعتذر عما بدر منى .

ولم يجد كلاما آخر يقوله ، نظرت إليه طويلا ، ثم حولت نظرها عنه ، وأخذ صدرها يعلو ويهبط ، وهى لا تتحرك من مكانها ، لقد عمل ما عليه ، وعليه الان أن ينصرف ، قام متجها نحو الباب ، وقبل أن يغادر المكان سمع صوتها : - ولكنى لم أقبل الاعتذار .

تراجع وسألها : - وماذا تقبلين ؟

- تبريرا لما فعلته .
- ما فعلته خطأ ، والخطأ لا تبرير له .
- وما الذى تتوقع أن أفعله الآن ؟

نهض وسار بكل ثقة لحفظ ماء وجهه وقال : - لا شئ ، إما أن تقبلى الاعتذار ، أو ترفضيه .
شعرت بأن غضبها بدأ يتلاشى ، وحصرته أنه مجرد خلاف مهنى ، قالت وقد بدأت تتخلص من جمودها : - كأن الأمر لا يهمك ... قبلت أم رفضت .
- لو كان الأمر لا يهمنى ما أتيت إلى هنا .
نظرت إليه وشبح ابتسامة تتراقص على شفتيها المغريتين ... قالت :
- أعرف أن مجيئك هنا قد كلفك الكثير .
شعر أن وراء كلامها شعور بالانتصار ، وأنها تريد أن تبقيه ليدوم لها هذا الإحساس ، وأدركت أن الأمر بدأ يثقل عليه ، وأنه فى غاية الحرج ، فنهضت واقتربت منه قائلة :
- سأقبل إعتذارك بشرط أن تتناول العشاء معى .
صمت قليلا ، ثم وضع يده فى جيبه قائلا : - دعينا نتناوله بالخارج .
رحبت بالفكرة ، وأستأذنته ريثما تغير ملابسها .

********** ********** ********

قال (فؤاد) : - أتظن أن ما فعلناه صوابا ؟
فقال (رمضان) بعد صمت: - بالنسبة لك كان لابد أن تصارح (تحية) بحقيقة مشاعرك ، أما بالنسبة لى كان يجب أن أتخذ قرارا إما بقطع علاقتى (بجان) نهائيا أو أن أعيد علاقتى بها .
شرد (فؤاد) قليلا ثم قال : - أخشى أن ما فعلناه يكون نوعا من التهور ... على الأقل بالنسبة لى .
- أسوأ شئ فى حياة الإنسان التردد ، تصور أن (أسكندر) علمنا درسا مهما فى حياتنا .
- نعم ، لأنه تلميذ نجيب فى مدرسة الحياة ، أما نحن فتلاميذ كسالى .
لمح (رمضان) خطابا موضوعا على المنضدة ، فقال ضاحا :
- لقد كان تأثيرك قويا .. لدرجة أن (تحية) أرسلت لك خطابا .
فابتسم فى أسى قائلا : - لا ، إنه من والدى يطلب منى أن أبحث عن عمل لزوج أختى (حجازى) .
- لم ؟ ألا يعمل ؟
- هذا من نتائج إفلاس والدى ، تزوجت أختى من فلاح ، ولم يكن هناك أى توافق بينهما ، ولم تحتمل المعيشة فى القرية ، وإما أن تطلق أو تترك القرية ، وأظنهم توصلوا إلى حل ... أن يترك (حجازى) القرية ، ويعمل هنا فى الأسكندرية .
- وماذا سيعمل هنا ؟
- حاول أن تفكر معى .
- الأعمال كثيرة ، ولكن ماذا يجيد (حجازى) هذا غير الفلاحة ؟
وسمعا دقا على الباب ، وكان (أسكندر) ، صاح (رمضان) به : - أتيت فى وقتك .
وجذبه (فؤاد) قائلا : - أنت الذى ستجد حلا لتلك المشكلة وبسرعة .
فقال وهو يحاول التخلص منهما : - لم آت لكى أحل مشاكل ، أتيت لأزور أصدقائى فوق .
فتساءل (رمضان) : أصدقاءك !!
- نعم ، أكبر فتوات فى الأسكندرية كلها .
- أيسكن معنا فى هذا البيت فتوات ؟

فقال (أسكندر) وهو يسوى قميصه الحريرى ذى اللون الزهرى ، ناظرا فى المرآة ممشطا شعره الأسود الذى ينسدل على جبينه الأسمر : - نعم ، لأنهم فتوات متواضعون .
- وماذا ستفعل معهم ؟
- أقضى السهرة .
فقال (فؤاد) ساخرا : - والنساء والبنات من كل جنس ولون .
فضحك (أسكندر) قائلا : - أنا فى أجازة الليلة ... والجلسة مع الرجال لا تعوض .
- تقصد مع الفتوات .
جلس (أسكندر) وأخرج علبة سجائره ، وأشعل لفافة ، قال (رمضان) مخاطبا (فؤاد) :
- أخبره بموضوعك .
فقال (فؤاد) : - نريدك أن تبحث عن عمل .
- لمن ؟
- لفلاح .
فقال متعجبا : - ولم لا ، الأسكندرية أصبحت مأوى لكل أجناس العالم .
فقال (رمضان) جادا : - (أسكندر) نحن نتحدث عن زوج أخت (فؤاد) .
فقال (أسكندر) : - لا تؤاخذنى يا (فؤاد) ... لم فعلتم ذلك ؟
فتعجب (فؤاد) قائلا : - ماذا فعلنا ؟
- تزوج أختك من فلاح ... وأين كان (أسكندر) ؟
فقال (رمضان) : - احترم نفسك يا (أسكندر) ... وكن جادا .
- ما العمل الذى تريد أن أبحث لك عنه .
- أى عمل .
صمت (أسكندر) مفكرا ، ثم قال : - مدير المستشفى الأوربى الدكتور (أردوين) يبحث عن عامل يعتنى بحديقة منزله ، لأن المشرف على الحديقة توفى منذ شهر ، هل زوج أختك لديه خبرة بالزهور ونباتات الزينة ؟
فقال (فؤاد) : - لا أدرى .
فقال (رمضان) : - الفلاح المصرى له خبرة بكل ما يخرج من الأرض .
فقال (أسكندر) وهو يلتقط علبة سجائره : - إذن غدا سأتصل ب (نيرفاندا) .
فسأله (رمضان) متعجبا : - من (نيرفاندا) هذه ؟!
فقال (أسكندر) فيما يشبه السكران : - نيرفاندا ... أجمل مديرة منزل فى الأسكندرية كلها ، الجمال التركى المعجون بالنبيذ الفرنسى ، المخبوز فى الفرن الإيطالى ، المحشو بالمكسرات الشامية ، جمالها جعلها لا تسير على الأرض ، وإنما تسبح فى الهواء .
فقال (فؤاد) منفعلا : - حرام عليك يا أخى ... أرحمنا .
وسأله (رمضان) : - وكيف تعرفت عليها ؟
- ذهبت إلى فيلا الدكتور (أردوين) لأقوم بتصليح الثلاجة ، ومنذ أن رأيتها وقلبى مرهون عندها ، لا يمر أسبوع إلا ونقضى يوما معا أو سهرة للصبح .
فقال (فؤاد) : - وجع فى قلبك ... أأنت شيطان أم إنسان .
- أنا عاشق للجمال بكل أنواعه وأشكاله وألوانه ، أشعر أنى نحلة وسط روضة ملآنة بالزهور والياسمين والنرجس والفل والبلدى .

فسأله (فؤاد) : - وكيف تجد وقتا لكل هؤلاء النساء والبنات ؟
صمت قليلا مفكرا ثم قال : - أنا أشعر أن عمرى قصير ، لذا لا أضيع وقتى ، ولو أملك ألا أنام لفعلت ، الحياة جميلة ، والمتع فيها أصناف والوان .
- ألم تحب يا (أسكندر) ؟
فضحك ونهض متجه نحو الباب : - أنا أحب فى اليوم أربع وعشرين ساعة .
وقبل أن ينصرف سأله : - ما اسم زوج أختك ؟
- حجازى عبد العاطى .
وقف مندهشا قائلا : - فلاح وحجازى عبد العاطى !! كان الله فى عون أختك .
أراد (فؤاد) أن يمسك به ليلقنه درسا فى الأدب ، ولكن (أسكندر) كان يتوقع ذلك ، فوثب بكل خفة نحو الباب وفتحه ، وكان فى لحظة خارج الشقة ، و (رمضان) لا يتوقف عن الضحك ، ثم قال : - (أسكندر) حل مشكلة أختك .
- أتراه جادا فيما يقول ؟
- رغم كثرة مزاحه إلا أن كلامه جاد للغاية ... أخبرنى متى ستقابل (تحية) ؟
- لو الأمر بيدى لقابلتها كل يوم .
- وما المانع ؟
- أشعر أنى أسير فى طريق مسدود .
فربت على كتفه قائلا : - الحب يفتح كل الطرق يا صديقى ، ولا يعرف مستحيلا .

********** ********** ********

وفى اليوم التالى ذهب (أسكندر) إلى (فؤاد) فى المطعم ، وأخبره أن الدكتور (أردين) وافق أن يعمل (حجازى) لديه مشرفا على حديقة منزله ، وأنه سيقيم فى الفيلا ، والأجر الذى سيتقضاه مغر للغاية ، وبسرعة اتصل (فؤاد) بوالده ، وبعد محاولات مستميتة من أم (حجازى) ووالده ، وبعض الشخصيات فى القرية ، بعد شد وجذب وعناد وتمنع وافق (حجازى) أخيرا أن يترك الأرض والقرية ، وأن يعمل فى الأسكندرية ، وانتقل هو و (خديجة) وابنهما إلى مقرهم الجديد .

كانت الفيلا فى شارع جانبى متفرع من شارع (السبع بنات) من جهة البحر ، الشارع هادئ به عدد قليل من البيوت ، وأغلبها لأجانب ، وقد فرشت أرض الشارع بالأوراق الخضراء الصغيرة وبتلات الزهور الصفراء والحمراء التى تساقطت من أغصان الأشجار المصطفة على جانبى الطريق ، وأظلت مساحة الشارع بأغصانها الممتدة المتفرعة المتشابكة ، وزقزقة المئات من العصافيرتملأ المكان ، تثب بين الأغصان المتمايلة إذا هبت نسائم رقيقة من جهة البحر .
بنيت الفيلا خصيصا لأحد قواد (إبراهيم باشا) ، على الطراز الإنجليزى ، مكونة من دورين وحديقة واسعة خلف الفيلا ، تحيط بها سور ليس بالمرتفع ، تغطى النباتات المتسلقة المزهرة أعلاه يحيط بها من الجانبين مجموعة من الأشجار ، الباب الخارجى الحديدى مغلق دائما ، بجواره حجرة الحارس ، ويمتد طريق طويل معشوشب ينتهى إلى باب الفيلا الداخلى ، ، وخلف الفيلا يوجد مبنى ملحق بها لا يفصله سوى طريق رصف بالحجارة البيضاء ، كان يقيم به المشرف على الحديقة وأسرته .

وقف (حجازى) أمام باب الفيلا المغلق حائرا ماذا يفعل ، وخلفه (خديجة) تحمل ابنها ، وبجوارها حقيبة ضخمة ، وقفة ملآنة بأنواع مختلفة من الأطعمة ، طالت وقفة (حجازى) وهو يتلفت حوله .. قالت (خديجة) : - لماذا لا تدق الباب ؟
فنظر إليها بغضب ، ثم تقدم من الباب وطرقه بعنف ، وبعد قليل خرج الحارس منزعجا وفتح الباب ونظر إليهما ، ثم سأله : - ماذا تريد يا بلدينا ؟
لم يجب (حجازى) وظل صامتا ، فسأله الحارس مبتسما وهو ينظر إلى الحقيبة و والقفة :
- من أين ؟
فانطلق لسان (حجازى) : - من الدلنجات .
- بالجودة ... ما اسم الكريم .
- حجازى عبد العاطى .
- أتبحث عن شئ ؟
فأخرج (حجازى) قصاصة الورق المكتوب عليها العنوان ، فتناولها الحارس ونظر إليها وقلبها بين يديه قائلا : - ما هذه ؟
- أنا حجازى ... أتيت لكى أزرع الحديقة للدكتور .
فقال الحارس وهو ينظر فى الورقة : - انتظر حتى أخبر الست هانم .
وبعد أن مكث قليلا عاد قائلا وهو يجذبه للداخل : - لا تتؤاخذنى ... أدخل أنت وحريمك ، تعال لأريك مكانك .
وحمل الحقيبة ، وحمل (حجازى) القفة ، ودخل وعيناه تسجل تسجيلا دقيقا كل ما يمر به من نباتات وزهور وأشجار ، أما (خديجة) فلم تكن سعيدة كما أنها لم تكن حزينة إحساس غريب وجديد فى نفس الوقت ، استشراف لشئ مجهول ، ومع ذلك هى تطمئن إليه ، لا لشئ إلا لأن المعلوم تمقته ، تحتضن ابنها بقوة ، تسير وراء (حجازى) كأنها تراه لأول مرة ، موافقته على المجئ إلى هنا ، وترك بلدته ، أزالت الكثير من الكراهية والخصام له ، فتلك أول تضحية يقوم بها تبرهن على تمسكه بها ، اقتربوا من مبنى خلف الفيلا مطلى باللون الأبيض من دور واحد ، فتح الحارس الباب الخشبى وقال بصوت عال : - تفضل يا ريس (حجازى) .
كان المكان غارقا فى الظلام ، انتشر النور بعدما فتح الحارس النوافذ المطلة على الحديقة ، ساروا فى صالة بها بعض المقاعد وفى الوسط منضدة ، والأرض مفروشة بالحصير ، يعلوه كم من التراب ، ثم دخل الحارس إلى دهليز ومنه إلى حجرة موضوع فيها سرير حديدى ذى أعمدة نحاسية ، وبجواره دولاب خشبى ، مخلوع الأبواب ومصدع المرآة ، وبجوار الحائط يوجد بعض أدوات الزراعة ، وهذا ما لفت نظر (حجازى) فتناولها متأملا إياها ، ثم تركها بدون إكتراث ، ثم انتقلوا إلى المطبخ ، كانت جدرانه قد حالت إلى اللون الأسود من كثيرة الهباب والدخان المتصاعد من موقد الغاز المتهالك الموضوع على منضدة خشبية بجوار صندوق خشبى معلق على الحائط به أدوات المطبخ ، وبجوار النافذة المصدعة الزجاج حزم من الثوم والبصل معلقة على الحائط ، رائحة التراب والغبار تملأ المكان ، سادت فترة صمت ، ثم قال الحارس : - المكان محتاج للتنظيف ... (سعد الله) الجناينى الله يرحمه كان يعيش وحيدا ، وظل مريضا شهورا .
وقبل أن ينصرف الحارس قال مخاطبا (حجازى) :
- أنت تعرف مكانى ... أى خدمة أنا تحت أمرك .

وبقى (حجازى) واقفا لا يدرى ما يفعل ، وقطعت (خديجة) عليه حيرته ، فأعطته (محمودا) وغيرت ملابسها ، وأخذت فى تنظيف المكان .
وفى صباح اليوم التالى استيقظ (حجازى) مبكرا كعادته ، وأخذ فى تفقد الحديقة ، وأحواض الزهور الخالية ، لمحه الحارس فتقدم منه وقال : - ما الذى أيقظك مبكرا هكذا ؟
- أنا دائما أصحو فى هذا الوقت .
- يا ريس (حجازى) ... العمل هنا غير العمل فى القرية ، النهار طويل والحديقة لن تحتاج للعمل الكثير .
نظر حوله متأففا وقال : - كيف ؟ إنها فى حاجة إلى عمل كثير ، كأنها لم يهتم بها منذ

- معك حق ، (سعد الله) كانت صحته ضعيفة ، أحيانا كنت أساعده .
ظهر من على البعد رجل فى العقد الخامس ، متأنق فى ملبسه ، خفيف شعر الرأس ، وكان (حجازى) منهمكا فى تنقية حوض الزهور من الحشائش ، قال له الحارس وهو يجذبه من يده :
- ها هو الباشا الدكتور قادم .... صاحب الفيلا .
تقدم منهما وقال مخاطبا (حجازى) : - أنت (حجازى) ؟
- نعم يا سعادة الباشا .
نظر إلى الفأس فى يده اليمنى ، وحزمة من الحشائش فى يده اليسرى وقال له :
- ما رأيك فى الحديقة ؟
نظر (حجازى) حوله وقال بصراحته المعهودة : - أين تلك الحديقة يا سعادة الباشا ؟
فضحك الدكتور قائلا : - معك حق ... فقد أهملت مدة ، وضاع منى المعرض الذى كنت أشترك فيه كل عام .
صمت قليلا ثم سأله : - هل تستطيع أن تنشئها من جديد ؟
- أظن أنى هنا من أجل ذلك .
- ألك خبرة بالزهور والنباتات ؟
- سترى بنفسك يا سعادة الباشا .
- أرى أنك واثقا من قدراتك كثيرا .
- كله بأمر الله يا سعادة الباشا .
وقال مخاطبا الحارس : - يا سالم ، أره المخزن ... به كل ما تحتاجه يا (حجازى) .
- ما أنواع الزهور والنباتات التى تريدها يا سعادة الباشا ؟
- اجعلها مفاجأة لى ... المهم أريد أن أرى أجمل حديقة فى الأسكندرية ... وسو تسعد

هنا .
قال سالم : - الباشا كريم جدا يا (حجازى) . لم يعقب (حجازى) وأنهمك بالعمل .

(20)

- المؤامرة -

قال (رشيدى) وهو ينفث دخان النرجيلة فى الهواء : - أنا شمتان فى ولاد الصرمة ، الحكومة لم تقدر عليهم ، ولكن فتوات المعلم (كحلاوى) قدروا يضعون أنوفهم فى التراب .
فقال (قبارى) وهو يرتشف فنجان القهوة بتأن : - أخذوا بثأرنا منهم ، هذا جنس لا ينفع معه إلا القوة ، يخافون ولا يختشون .
- من أجل هذا (عرابى) باشا سيريهم الويل .
فقال (لويس) : - تفتكروا (عرابى) يقدر عليهم ؟
فرد (قبارى) فى حماس : - أكيد ... ربنا معاه ، ونحن معاه ، وإن شاء الله سوف ينتصر عليهم .
فقال (لويس) وهو ينظر باتجاه البحر : - الأسطول فى الميناء الشرقية والميناء الغربية ، وإنجلترا وفرنسا دولتان عظميان .
فقال (رشيدى) بحماس زائد : - الله أكبر منهما وأعظم .
- نعم ، ولكن يا جماعة القوة غير متكافئة ، تسليح الجيش عندنا ضعيف جدا ، ليس لدينا حتى سفينة حربية ، بينما عند إنجلترا أسطول كامل .
فقال(رشيدى) : - لا تنس أنهم فى البحر ، و(عرابى) على البر .
فسأله (لويس) متعجبا : - وما أهمية ذلك ؟!
- الذى على البر يقف على أرض ثابتة ، بينما الذى فى البحر يقف على الماء .
انفجر (لويس) ضاحكا من سذاجة (رشيدى) وقال : - معك حق تقول ذلك .
- - هل كلامى به خطأ يا (لويس) ؟
- لا ، كلامك فى منتهى العقل .
نظر (قبارى) إلى (مرسى) الذى كان شاردا وسأله : - ما بك يا (مرسى) ؟ أأنت مريض ؟
فقال (رشيدى) : - ربما يفكر فى زيجة جديدة
فضحك (قبارى) قائلا : - بقى له زيجة ، فقد تزوج ثلاثة وباقى واحدة ليكمل الأربعة .
فابتسم (مرسى) وخلع طربوشه ، ومس على شعره ، ثم وضع الطربوش وقال :
- اليد قصيرة والعين بصيرة .
فقال (قبارى) : - إذا كان من تحته ثلاث نساء يقول ذلك ، فماذا نقول نحن ، وليس معنا سوى امرأة واحدة ؟
فقال (مرسى) ضاحكا : - وهذا بسبب خيبتكم ، فالنساء أمامكم ... فلم لا تتزوجوا ، بدل الواحدة مثنى وثلاث ورباع .

فقال (لويس) : - يا رجل زوج ابنك.
- معك حق يا (لويس) ، الولد كبر ولا يفكر فى الزواج ، وإن لم أزوجه قد لا يتزوج أبدا .
فقال (رشيدى) : - لم يرث عنك شيئا .... وبالأخص حبك للنساء .
- أليس لدى أحدكم عروسة ؟
فقال (قبارى) بعد تفكير : - ابنة المعلم (قنديل) ... البنت مؤدبة وأبوها كلكم تعرفونه .
فسأله (لويس) : - ابنك له مواصفات معينة فيمن سيتزوجها .
- إنه لا يفكر فى الزواج ... وهذا ما يقلقنى ، وإذا لم أزوجه فقد لا يتزوج مطلقا مثل خاله .
فقال (لويس) : - ربما يكون مرتبطا عاطفيا بإحدى البنات .
- ليت الأمر على ما تقول .
فقال (رشيدى) : - لا تضيع الفرصة ، واطلب ابنة المعلم (قنديل) لابنك .
فقال (مرسى) بعد تردد : - أنتم تعرفون وضع (قنديل) الآن ووضعنا .
فقال (قبارى) : - المعلم (قنديل) رجل أصيل ، وكلنا نعرف كيف بدأ .. وأنت يا (مرسى) على وشك الإفلاس ، ولكنك لم تفلس بعد ، وقد تتعدل الأمور مستقبلا .
فقال (مرسى) : - افعلوا ما ترونه .
فعقب (لويس) : - إذن نحدد ميعادا مع (قنديل) لنخطب ابنته .
فانبرى (قبارى) متحمسا :- لم نحدد ميعادا ... هيا الآن نذهب إليه فى محل الأنفوشى ونفاتحه فى الموضوع .
فقال (مرسى) متحرجا : - الواجب أن نحدد ميعادا قبل أن ....
فقاطعه (قبارى) وهو ينهض : - خير البر عاجله .. وأظن أن (قنديل) سيفرح بهذا .
********** ********** *******
حينما رآهم (قنديل) اندهش واستقبلهم ضاحكا : - لو اخبرتمونى لكنت فرشت الأرض لكم رملا .
فضحك (رشيدى) قائلا : - لا وأنت الصادق ... فرشت الأرض بطارخ .
وعقب (قبارى) : : - أو أستكوزا وجمبرى .
وتجمعوا فى ركن من المحل ، وسادت فترة صمت قطعها (رشيدى) قائلا : - طبعا عقلك الآن يدور ويتساءل عن سبب مجيئنا هكذا بدون ميعاد ؟
وغمز (قبارى) للأخرين قائلا : - توجد عروسة ... جمال ومال وحسب ونسب ، اتفقنا كلنا أنها لك ، وقد أخذنا ميعادا الليلة لتراها .
ضحك (قنديل) طويلا ثم قال : - أول مرة أعرف ان النوارس تلقى سمكا .
فسأله (قبارى) : - ماذا تقصد ؟
- طالما هى بتلك المواصفات ، فلم لا يتزوجها هو ؟
- أنت تعلم أن كل واحد منا تزوج مرتين أو ثلاث ، الوحيد الذى لم يتزوج إلا مرة واحدة هو أنت ، فقلنا الواجب أن نضحى من أجل صديقنا (قنديل) .
وقال (رشيدى) : - وعيب أن يكون رجل مثلك للآن متزوج امرأة واحدة .
- يا أخى أنا حر ، وأنا لا رغبة لى بالزواج مرة أخرى .
- كأنك رافض للموضوع .
- بالثلاثة .

فقال (رشيدى) : - الموقف حرج للغاية ... لقد أخذنا ميعادا من أهل العروسة .
فقال (قنديل) : - (مرسى) يذهب بدلا عنى .
- انا لدى ثلاث نساء فى البيت .
- ما المانع أن يصبحن أربع .
- وحرام أن يكون واحدا متزوجا من أربع وآخر من واحدة
نظر (قنديل) إليهم طويلا ثم قال : - أنا أعرف أن ليس هذا الموضوع الذى جعلكم تأتون بدون ميعاد هكذا .
فضحك الجميع ، ثم ربت (لويس) على كتفه قائلا : - معك حق الموضوع باختصار (مرسى) طالب يد ابنتك (سعاد) لابنه (فوزى) والولد أنت عارفه ومربيه .
نظر(قنديل)إلى (مرسى) فتجنب هذا النظر إليه وسادت فترة صمت قطعها (قنديل) بقوله : - (مرسى) أخ لى ، والبنت بنته ، وهذا شرف لى .
- الشرف لى ولابنى يا معلم (قنديل) و...
قفاطعه (قبارى) : - قبل كل شئ الولد يرى البنت ، ونأخذ رأيها .
فقال (قنديل) : - أنتم معزمون على العشاء عندى الليلة .
فقال (لويس) ضاحكا : - أنت تقصد (مرسى) وابنه فقط .
- أنتم الخير والبركة ... أنا فى أنتظاركم على العشاء الليلة .
وتعانق (مرسى) و (قنديل) ، وأنصرف الجميع .
********** ********** **********
قال (مخيمر) بعد أن مزق رغيف الخبز نصفين ، وهو ينظر إلى الأطباق الموضوعة على المائدة بتجهم : - كل ما قاله (حسنين) صدق .
فسأله (شافعى) : - كيف ؟
فقال(مخيمر) وهو يتناول بيضة ويقشرها : - بعد أن أمضيت السهرة ، انفرد بى (أبو الليل) .
فسأله (شافعى) وهو يضع قطعة كبيرة من الجبن الرومى فى فمه : - وماذا كان يريد ؟
صمت (مخيمر) قليلا ، وهو يراقب انهماك (شافعى) فى تناول فطوره وقال :
- قتل المعلم (كحلاوى) .
تسمرت يد (شافعى) وتصلب فمه وجحظت عيناه وامتقع وجهه ، قال (مخيمر) وهو يصب قليلا من الماء من الدورق الزجاجى : - أكمل فطورك .
وحينما تخلص (شافعى) من أثر المفاجأة قال : - كنت أعرف أن وراء المال الذى يغدقه علينا والشقة التى أعطاها لنا والمعاملة الخاصة التى يعاملنا بها واهتمامه المبالغ فيه دونا عن بقية الرجال شيئا، ولكنى لم أكن أفكر أن الأمر يصل إلى القتل ... وقتل من ؟! المعلم (كحلاوى) .
صمت (شافعى) قليلا غير مصدق ما سمعه ، ثم سأل (مخيمر) : - وقالها لك صراحة ؟
نهض (مخيمر) وأحضر علبة السجائر من فوق المنضدة ، وأشعل واحدة ، واعطى أخرى لشافعى ، ثم قال:- أبو الليل ليس رجلا سهلا ، قال كلاما كثيرا ، تفهم منه الذى يريده بالضبط .
- ولكن لم يريد قتل المعلم كحلاوى ؟
- عالم الفتوات كالغابة ... إما أن تكون آكلا أو مأكولا .

- أنا لا أدرى ما الذى جعلنا نرضى أن ندخل فى هذا العالم ؟
- لم يكن بأيدينا ... إنه قدرنا .
ضحك طويلا وأخذ يسعل بشدة ، سأله (شافعى) : - عم تضحك ؟
- تتقاذفنا البلاد ، وأرض تحملنا وأخرى تلفظنا ، ونأتى هنا لنقتل رجلا لم يضرنا فى شئ .
- ولم نقتله ؟
نظر إليه (مخيمر) مندهشا وقال : - لأن (أبو الليل) يريد ذلك .
صمت (شافعى) قليلا ثم قال : - ليذهب هو ليقتله ... أما نحن فلن نقتل أبدا .
- أما أنك عبيط أو تدعى العبط ... ليس أمامنا إلا أن نقتل ... أم أنك لك رأى آخر ؟
- نهرب من الأسكندرية كلها .
فقال (مخيمر) بغضب :- ونرجع إلى دمنهور نعمل كالحمير فى المحلج ، ونتحمل إهانات
(قطاوى) ونعيش كالفئران فى الجحر القذر ونمضى اليوم على وجبة فول وبصل .
وقف (مخيمر) وأطفأ سيجارته، ثم استأنف كلامه : - أنا لم أعرف أن الدنيا فيها أشياء جميلة هكذا ، اللبس والأكل والشرب والاحترام من الجميع ، وأماكن لم أكن أحلم أنها موجودة أصلا ، بعد كل هذا تقول لى أهرب .
فوقف (شافعى) وهو لا يكاد يصدق أذنيه : - من الذى يتكلم (مخيمر) أم شخص آخر ؟ أتريدنا أن نتاجر فى دماء الخلق ، أصبحت ذئبا مثلهم ... كانت الطرق أمامنا كثيرة لنصبح أغنياء ، نتاجر فى المخدرات أو فى السلاح ، ولكننا أخترنا أن نعيش بما يرضى الله ، تحملنا البرد والحر والتعب والجوع والحرمان ، خسرنا كثيرا ، ولكن كسبنا عزة النفس ، وجباهنا لم تعفر إلا لله .
صمت (شافعى) قليلا ، ثم قال وقد تحشرج صوته وبدأت عيناه تلتمع بالدموع ، وأشار إلى رغيف الخبز: - آخر قطعة خبز نقتسمها من الآن يا ولد العم ، أنت من طريق وأنا من طريق .
أسرع إليه (مخيمر) وأمسك به وأجلسه : - الله يلعن مخك الصعيدى ... حاول أن تفهمنى .
حاول (شافعى) أن يتخلص منه قائلا : - أنا مخى صعيدى ، وسوف أعيش صعيدى وأموت صعيدى ... اتركنى .
أمسك بكتفيه والتمعت عيناه وقال : - وأهون عليك أن تتركنى وترحل .
- إلا القتل يا ولد العم .
- ومن قال لك أننا سنقتل أحدا ؟
- كلامك .
- اجلس وصلى على النبى ، ودعنا نفكر .
جلس (شافعى) وأدار وجهه كى لا ينظر إلى (مخيمر) : - اسمع يا (شافعى) ... طالما
(أبو الليل) وضع فى دماغه قتل (كحلاوى) سوف يقتله بأيدينا أو بأيدى غيرنا .
- ليقتله ولكن بأيدى غيرنا .
- معنى هذا أننا سنقتل قبل أن يقتل (كحلاوى) .
- لم ؟

- رفضنا قتل (كحلاوى) سيعرضنا أن يدبر (أبو الليل) قتلنا ، لأنه كشف لى عن نيته ، أصبحنا بين أمرين ... إما قاتلين أو مقتولين ، ولا تقل لى الهرب ... رجال (أبو الليل) حولنا فى كل مكان ، وبالأخص بعد أن كشف لى عن نيته .
- والحل يا ولد العم .
- إما أن نقتل (أبو الليل) قبل أن يقتلنا ، أو أن نقتل (كحلاوى) .
- أنت لم تعد (مخيمر) الذى أعرفه ... إنى أخاف منك ، ولن أتعجب لو حاولت قتلى فى يوم من الأيام ، لقد أكلت معهم وشربت وسهرت ... أنت الآن واحد منهم ... لم يعد أى واحد منا يصلح للآخر ، سوف أعود إلى دمنهور ... أعيش بعرق جبينى ، وأمضى اليوم على وجبة فول وبصل و...

فقاطعه قائلا : - سوف نعود فعلا إلى دمنهور ... ولكن لا لنعمل .

- إذن لم سنعود ؟
- المحلج كما تعلم فيه الكثير من القتلة المأجورين ، سوف نختار واحدا ونعطيه مبلغا من المال ، ويقوم هو بقتل (كحلاوى) .
- كأننا نحن الذى قتلناه .... ولا هذا .

فأنفجر (مخيمر) غاضبا وقال : - لقد احترت معك ... ما الذى يرضيك ؟ ولا تقل لى إنك ستتركنى ... نحن مربوطان معا ... الفرق بينى وبينك أنك تريد أن تهرب فى جلدك ، لقد قلت لك يا ولد العم إما أن نكون قاتلين أو مقتولين ، وكأننا فى ثأر ... حياتنا كلها ثأر فى ثأر .. سواء بقينا فى الصعيد أو هربنا منه ، ولقد اخترنا طريق الفتونة ولابد أن نسير فيه إلى نهايته .

- لا انا ولا أنت أخترنا .
- نحن لا نختار قدرنا .

سادت فترة صمت ، ثم قال (شافعى) بعد تفكير : - اتركنى أتحدث مع (أبو الليل) .

- وماذا ستقول له ؟
- أننا لسنا قتلة .
- أنت لا تفهم شيئا عما حولك .
- إذن نذهب إلى المعلم (كحلاوى) ونخبره بالأمر كله .
- (كحلاوى) ليس بيده شئ ، الأمر كله بيد ابنته (صبح) .
- (صبح) جميلة جدا ، إلا أن ملابسها وكلامها وجلوسها مع الفتوات .

شرد (مخيمر) بذهنه بعيدا ، إلى أن نبهه (شافعى) : - ما الذى تفكر فيه ؟

- جاءت لى الفكرة التى ستخرجنا من هذا المأزق .
- كيف ؟
- ألم تفكر فى السبب الذى من أجله يريد (أبو الليل) قتل المعلم ؟
- لياخذ مكانه ، وسمعت بعض الأخبار انه يريد التزوج من (صبح) إلا أنها رفضت ، وكذلك المعلم (كحلاوى) .
- ما رأيك لو جعلت (أبو الليل) بنفسه يتوسط لى عند (كحلاوى) ليطلب لى يد (صبح) .

صمت (شافعى) قليلا مفكرا ، ثم قال : - تقصد أن ثمن قتل (كحلاوى) يد ابنته ، ولأن
(أبو الليل) يريد (صبح) سيرفض ، وبذلك لن يطلب منك أن تقتل (كحلاوى) .

ابتسم (مخيمر) قائلا : - أكل الجبنة الرومى واللحم والسمك لهم تأثير كبير على مخك يا
(شافعى) .

********** ********** **********

سأله (أبو الليل) : - متى ستنفذان العملية ؟
فقال (مخيمر) : - فى الوقت الذى ستحدده أنا جاهز .
أسند (أبو الليل) ظهره إلى المقعد ، وأخذ نفسا عميقا من النرجيلة ، ووضع قدما فوق الأخرى ، ونظر إلى (مخيمر) فشعر أنه يريد شيئا فقال له : - أشعر أنك تريد أن تقول شيئا ، تكلم ، أنت أصبحت ذراعى اليمنى ولن أبخل عليك بشئ .

- لى طلب عند ، ولكنى خجلان .
- أطلب يا (مخيمر) أتريد مالا ؟
- لا ، الحمد لله أنت خيرك مغرقنا .
- إذن ماذا تريد ؟
- (صبح) .

فأندهش قائلا : - (صبح) !!

- نعم ، أريدك أن تطلبها لى من المعلم (كحلاوى) .

نظر أبو الليل إلى (مخيمر) وحاول أن يخفى غضبه ، بأن نادى على الصبى ليغير له النرجيلة ، وطلب فنجانا من القهوة ، ثم سأل (مخيمر) : - ولم تريد الزواج من (صبح) ألا يكفيك أن تكون يدى اليمنى ؟

- أنا كما تعلم مقطوع ، ليس لى أهل ، وأريد أن يكون لى وضع هنا .
- ولم (صبح) بالذات ؟ إن أردت الزواج زوجتك من أحسن البيوت ومن أجمل بنات الأسكندرية .

شعر (مخيمر) بالحرج وأنه محاصر بنظرات (أبو الليل) تصنع الخجل وقال :

- القلب وما يريد يا معلم .

عبث فى شاربه وقال وكأنه يحدث نفسه : - على رأيك ... القلب وما يريد .
صمت وانهمك فى تدخين النرجيلة ... ثم رفع عينيه قائلا :

- وتريد أن اطلبها قبل العملية أم بعدها ؟

فضحك (مخيمر) وقال : - ممن ستطلبها بعد قتل المعلم (كحلاوى) ، ثم أن هذا لا يجعل أحدا يشك فى .
فغمغم قائلا : - أول مرة أعرف أن الصعايدة يفكرون جيدا ، أترك لى فرصة لأفاتح المعلم
(كحلاوى) .

********** ********** ********

- ما رأيك فى (مخيمر) و (شافعى) ؟
- الفتونة تجرى فى دمائهما ، وكأنهما ولدا للفتونة بعدما حدث بيننا وبين فتوات العطارين وفتوات السلخانة وكرموز ، أثبتا أنهما أبطال بل وحوش ، ولا فتوة استطاع أن يقف أمامهما ، مجرد ذكر اسميهما ينشر الرعب والفزع ... لك نظرة صادقة فى الرجال يا معلم ... ربنا يحرسهما .
- أريد أن أتخلص منهما .

هز (سيد) رأسه وصمت ، فقال (أبو الليل) : - ليس لسبب الذى تفكر فيه .

- إذن لم ؟
- (مخيمر) طلب يد (صبح) منى ، وأراد أن أتوسط عند المعلم (كحلاوى) .
- (صبح) لابد أن تتزوج ، ولن تتزوج إلا فتوة من الفتوات ، و(مخيمر) ليس به عيب .

وصمت قليلا ، ثم قال : - إلا إذا كان لك رأى آخر .
- أنت تعلم إذا وافق المعلم (كحلاوى) ماذا سيكون (مخيمر) ؟
- أعرف ، ولكن لا أظن المعلم (كحلاوى) سيوافق ولا (صبح) .

ابتسم (أبو الليل) وشعر براحة كبرى ، ثم سأله : - إذا كنت مكان المعلم (كحلاوى) .. هل ستوافق ؟
- أوافق طبعا .
- الحمد لله أنك لست مكانه .
- أمازلت تريد (صبح) ؟
- لا فائدة من الكلام فى هذا الموضوع يا (سيد) . ... المهم أنت كنت تريد أن تخبرنى بشئ عن جمع الفردة من الأجانب .
- الرجال لاحظوا شيئا غريبا بالنسبة للمخازن والوكالات والورش التى يمتلكها الأجانب .
- ماذا لاحظوا ؟
- يوجد حراس ومعهم أسلحة .
- ومانوع الأسلحة ؟
- مسدسات وبنادق ... ورجالنا ليس معهم سوى النبابيت .
- ومن أين يحصلون على تلك الأسلحة ؟
- كل شئ يأتى عن طريق البحر .
- لا تخش منهم شيئا ، إنهم لا يقدرون على استخدام تلك الأسلحة .
- وإن حدث واستخدموها ضد رجالنا .
- إذن سنفتح عليهم أبواب جهنم .

نهض (سيد) لينصرف ، ودق بالنبوت على الأرض ، وسأل أبو الليل :
- بالنسبة لمخيمر وشافعى .. هل نرميهم للنوارس ؟

صمت أبو الليل طويلا مفكرا ، ثم أشار بأصبعه أن لا .

******** ********** **********

تجمع الحمالون والحمارة كعادتهم كل يوم فى الظهيرة فى الحارة الجانبية بالقرب من قهوة(القزاز)

يستريحون ويريحون دوابهم ، يفترشون الأرض ، يسكنون سعار الجوع ، ويطفئون لهيب الظمأ ، وكانت تهب نسمات رقيقة من جهة البحر ، فأشاعت فى الأجساد السمراء المجهدة العارية بعض الكسل والاسترخاء ، فتمددت على الأرض بجواردوابهم ، وجلس البعض يتجاذبون بقايا أحاديث مكررة ومعادة ومملة ككل شئ فى حياتهم .

قال (حسن الأرنب) وهو يتلفت حوله ، ويهرش فى شعر صدره الأشهب العارى :
- (عليش) و (زغطة) لم يمرا علينا منذ مدة طويلة .

فقال (شعير) وهو يشد قطعة الحبل حول نطاقه التى يربط بها سرواله الواسع : - أدعو الله أن ينسونا ، لا نجنى من ورائهم سوى الخسارة ووجع القلب .

فقال (مصطفى) : - اليوم الذى لا يحصلون منى الفردة أسهر فى الخمارة وأشرب ربعا مع المزة ، وأرجع البيت على صنجة عشرة .
فقال (حسن الأرنب) : - يا نهارك أسود ومنيل ، تشرب خمرة بفلوس (زغطة) و (عليش) ... أنا أدخر كل يوم قرشا وأضعه فى صرة ،وأربطه على بطنى ، حتى إذ جاءا أعطيتهما ما أدخرت .
فقال (مصطفى) وهو يربط قدميه المتشققتين العاريتين بقطعة من القماش القذر : - على رأيك ، فأنت لا تتحمل ضربة نبوت . فضحك (حسن الأرنب) وقال : - أريد أن أربى (عرابى) .
فقال (مصطفى) ضاحكا : - أسوأ ما فى ابنك (عرابى) هذا أنه يشبهك .
فقال (حسن الأرنب) متباهيا : - طبعا يشبهنى ، وماذا تريد أن يشبه ؟
- يشبه (عرابى) باشا ، أليس يحمل اسمه .
فقال (شعير) : - الله أعلم ماذا سيكون ابنك ... ربنا يبارك فيه .
وأثناء تحرك (حسن الأرنب) للاعتناء بحماره سقطت صرة القروش التى يربطها على بطنه ، فالتقطها (الشحات) إلا أن (حسن الأرنب) تنبه لسقوط الصرة فى الوقت المناسب ، فألقى بجسده فوقه ولم يطلقه إلا بعد أن أخذ الصرة ، وقال (الشحات) :- اصرف يا (حسن) القروش(عليش) و (زغطة) لن يعودا ليجمعا منا القروش ، إنهم يأخذون من الأجانب الكثير .
فسأله (حسن) بتعجب : - الأجانب يدفعون لزغطة وعليش !!
- إنهم يدفعون غصبا عنهم ، والبركة فى المعلم (كحلاوى) الذى جعلهم يلبون طرحا .
- وقال (حسن) : - الفتوات أصبحوا آخر أملة .
وعقب (مصطفى) : - (زغطة) لم يكن له ذكر ... تزوج للمرة الثانية ، واشترى منزلا فى الجمرك ، ولو رأيته لن تعرفه ، وكل الفتوات أصبحوا أغنياء .
فقال (حسن) مندهشا : - (زغطة) تزوج وأشترى بيتا !! وكل ما كان يفعله أن يحمل نبوتا ويضرب به خلق الله !!
فضحك (مصطفى) وقال مخاطبا (شعير) : - ما رأيك نشترى نبوتين ونسير فى ميدان القناصل ، والأجنبى الذى نقابله نأخذ ما فى جيبه .
فقال ساخرا : - فالح ... فتوات المعلم (كحلاوى) سيكسرون دماغك بالنبوتين .. ربنا يسهل لعبيده ... نحن لا نريد منهم ألا أن يتركونا فى حالنا .
نظر (شعير) إلى (رفاعى) الذى كان يسند ظهره إلى الحائط شاردا ، وقال له :
- ما بك يا ابن أختى ... منذ أن جلسنا ، وأنت لا تتحدث ؟
فقال له (مصطفى) : - خير يا (رفاعى) أأنت مريض ؟
وعقب (حسن) : - وأنت لم تحدثنا عن آخر الأخبار ... أهم صادروا الجرائد ؟
فتنبه (رفاعى) وقال : - لا شئ ، وإنما أفكر فى حالنا .
فنكس كل منهم رأسه أسفا ، وقال (شعير) وهو يربت على كتفه : - أيام نقضيها ، وسوف تمر حلوة كانت أم مرة ، أنت تغيرت يا (رفاعى) لم تكن تتوقف على الضحك والهزار ، على ما يبدو أنك كبرت .
فقال (حسن) : - كيف يكبر ، وهو ليس لديه زوجة ولا أولاد يحمل همهم ؟
فعقب (مصطفى) : - هذا هو السر ، لو كان (رفاعى) متزوجا وعند أولاد لما حمل هما فوق رأسه .

- لم ؟
- لأنهم كانوا سيخربون رأسه كما يحدث لنا .

وسأله (حسن) : - المهم ... هل حقا الإنجليز سيضربون الأسكندرية بمدافع الأسطول ؟

فأجابه (مصطفى) : - كيف يضربون الأسكندرية وبينهم وبين الملك وفاق ؟
- إذا ما سبب وجودهم فى الميناء الشرقية والميناء الغربية ؟

فقال (رفاعى) : - اطمئنوا .. لن يضربوا السكندرية .

فقال (شعير) : - طبعا ، كيف يضربون الأسكندرية وعدد الأجانب فيها أكثر من عدد ولاد البلد .

فأشار (مصطفى) إلى رأسه الحليق وقال : - نريد أن نفهم ... إذا كانوا يريدون ضرب الأسكندرية إذن لم كل تلك السفن فى البحر ، ألا يكلفهم هذا أموالا كثيرة ؟

فقال (شعير) : - معك حق يا (مصطفى) .

فقال (رفاعى) ومايزال شاردا : - هم يريدون أن يقضوا على (عرابى) .

فقال (حسن) متعجبا : - كل تلك السفن فى البحر لأنهم خائفون من (عرابى) ... على هذا فعرابى أكبر وأعظم من إنجلترا نفسها .

فقال (شعير) : - والله أنا خائف عليه منهم ... ربنا يحميه منهم .

وبدأت حركة واهنة أخذت تقوى بين الحمالين والحمارة حينما هدأت حرارة الشمس ، وارتفع لغطهم ، وأخذ كل منهم يتجه إلى ميدان أو شارع أو حارة مستأنفين عملهم اليومى بعد استراحة الظهيرة ، وقبل أن ينصرف (رفاعى) انتحى به خاله جانبا وقال له : - شئ ما يشغل بالك يا (رفاعى) ، ولا يشغل بال شاب فى مثل سنك بهذا الشكل إلا المرأة ، لا تجعل الأمر يطول ، واستشر يا بنى ، أنا لم أتعلم فى مدارس ولكن الحياة علمتنى الكثير ... وربنا معاك .

ركب عربته وانطلق ، وحرك كلام خاله أفكاره وزاد من حيرته ، الأمر فعلا فى حاجة إلى من يخرجه من الحالة التى هو فيها ، كان على وشك أن يحكى لخاله ، ولكن لا المكان ولا الزمان يتناسبان .... لقد زلزلت أركان كيانه وجعلته لا يذوق للراحة طعما ، وجعلت باله مشغولا دائما حينما طلبت منه صراحة أن يتزوجها ... (إنشراح) التى يتمنى أغنى أغنياء الأسكندرية أن تبتسم له أو تجلس معه ، والتى أصبحت صورها تتصدر واجهات أكبر الفنادق والملاهى ، ونزلت صورها فى المجلات والجرائد ... تعرض عليه الزواج ، لم يصدق أذنيه فى بدايةالأمر ، إلا انها كررت وألحت وقالت له بصريح العبارة أنها تتمنى أن تكون زوجة له تخدمه وتخدم أمه ، زللت كل العقبات له ، وعرضت أن تترك مهنة الرقص وتعيش معه على الحلوة والمرة ، وعرضت عليه أن يذهبا إلى مكان بعيد لا يعرفهما فيه أحد ، ولم يدر (رفاعى) بم يجيبها ؟ أيوافق أم يرفض ؟ وفى كلتا الحالتين لا يدرى لم ؟

وحينما رأت تردده أخبرته أنها تريد الزواج لتحمى نفسها من زيجات لا ترغب فيها ، ومع ذلك ظل مترددا ... حينئذ أعطته مهملة ليفكر ، وبعدها ستصرف نظرها عن الموضوع ، ولن تعاود الحديث معه .

قال (رفاعى) وهو جالس يتصبب عرقا أمام (رمضان أبو المكارم) فى بيته :
- انت تعلم ... أنا لا أعرف أحدا استشيره ويبصرنى بما يجب أن أفعله ، وأرجو ألا أكون قد أثقلت عليك .

فقال (رمضان) وهو يربت على كتف (رفاعى) :
- سوف أسألك سؤالا وتجيب عليه بصراحة ... أتحب (إنشراح) يا (رفاعى) ؟
فأخذ يفرك فى يديه قائلا : - يا أستاذ (رمضان) أنا رجل غلبان ، ومسألة الحب أو غيره ليس لها مكان فى حياتى .
- وما علاقة الغلب بالحب .... أتعرف يا (رفاعى) أكثر من هم فى حاجة إلى الحب الناس الذين تقول عليهم غلابة ، لأنهم لا يملكون شئ فى حياتهم سوى الحب ... فإذا كنت تحبها ... فما المانع أن تتزوجها ؟
فقال (رفاعى) متعجبا : - هى ليست من توبى ولا أنا من توبها .
صمت (رمضان) مفكرا ، ثم قال : - معك حق ، فهى تعيش فى عالم ، وأنت تعيش فى عالم آخر ، ولكن مع ذلك قالت لك إنها على استعداد أن تضحى بكل شئ .
فقال (رفاعى) : - وهذا ما يخيفنى .. إنها ستضحى بالشهرة والثراء وعالم الأضواء .
- هى راضية بذلك يا (رفاعى) ، ولم يجبرها أحد على فعل ذلك .
- والمقابل .
- لا أفهم ماذا تقصد .
- وماذا سأقدم أنا بإزاء تلك التضحية ... فقرى ولا غلبى ، أنا لا أملك سوى حصانى وعربتى ، وهل إذا هى صبرت شهرا أو سنة ستقدر تصبر إلى الأبد ؟
- أأنت على يقين أنها تحبك يا (رفاعى) ؟
- أنت رجل مثقف ومتعلم ، ما الذى يجعل امرأة تعرض على عربجى هذا العرض ؟
- شئ يحير فعلا يا (رفاعى) إنها امرأة فى غاية الغرابة .
فقال (رفاعى) : - لا تنشر شيئا فى جريدتك عنها .
فضحك (رمضان) قائلا: - هى تستحق أن يكتب عنها .. ولكن اطمئن ... المهم ماذا ستفعل ؟
- هذا ما جئت من أجله لك .
- قلبك يقول نعم ، وعقلك يقول لا .
سادت فترة صمت ، قطعها (رفاعى) بقوله: - أستاذ (رمضان) لو كنت مكانى ماذا ستفعل ؟
صمت (رمضان) مفكرا ، ثم قال بحسم : - أرفض عرضها .
نهض (رفاعى) مصافحا (رمضان) قائلا :
- أظن أنى وصلت إلى ما كنت أسأل وأبحث عنه .

(21)
- الأسد العجوز -

قال (أنجلو) غاضبا : - كما قلت لكما ... الفتوات لن يقفوا عند حد ، كل يوم طلباتهم تزيد ، لم يبق إلا أن يأتوا ويشاركونا فى الوكالات والورش والمخازن .
وعقب (كانتو) : - لم أكن أتصور أن يطلبوا كل تلك الطلبات ، وهذه المبالغ ، لو استمر الوضع على ذلك ، فنحن على وشك أن نفلس .
قال (أنجلو) : - وأضعنا مبالغ طائلة على شراء السلاح ، وها هو فى أيدينا وأيدى رجالنا لا قيمة له .
قفال (كانتو) محاولا أن يخفف من كلام (أنجلو) على (كارميلو) : - لا داعى لمثل هذا الكلام ... السلاح فى أيدينا على الأقل يعطينا الثقة فى أنفسنا .

- أنا أنقل لكما ما أسمعه ... معظم أصدقائنا غاضبون ومتذمرون من طلبات فتوات المعلم

(كحلاوى) التى تزيد كل يوم ، بدأوا يفرضون شروطا غريبة علينا ويتدخلون فى أمورنا ... نبيع هذا ولا نبيع ذاك ، نتعامل مع هذا ولا نتعامل مع ذلك ، لم يبق إلا أن يرسلوا فى كل وكالة وورشة رجلين يراقبان كما تفعل إنجلترا وفرنسا مع مصر .

فضحك (كانتو) قائلا : - على ما يبدو أن الفتوات ينتقمون منا بسبب ما تفعله فرنسا وإنجلترا فيهم .

فقال (كارمليو) وماذا تقترح أن نفعله يا (أنجلو) ؟

- نتحرك ... نفعل شيئا ... يجب أن يقفوا عند حد .
- ما الذى يجب أن نفعله بالتحديد ؟
- نستخدم السلاح الذى دفعنا فيه الألوف ... نهددهم ... نقاتلهم .
- لو قتلنا منهم سيقتلون منا .
- ولم لا ... على الأقل يعرفون أننا لن نخضع لطلباتهم .

نظر (كارمليو) إلى (كانتو) و (أنجلو) وطلب منهما أن يقتربا منه ، وتحدث بصوت منخفض وهو يتلفت حوله : - وهذا ما فكرت فيه ، وأنوى أن أنفذه .

فقال (أنجلو) معاتبا : - بدون أن تخبرنا أو تشركنا معك .

فقال (كانتو) : - ليس هذا مهما ... المهم اخبرنا يا (كارمليو) ماذا دبرت ؟

صمت (كامليو) طويلا مترددا ، فقال (أنجلو) غاضبا : - دعه فربما الأمر سر ، ولا ينبغى أن يطلعنا عليه .

- لا ، سأخبركما بكل شئ ... ولكن بعد ذلك لا تتحدثا به حتى لأنفسكما .

ازدات لهفة وشوق (كانتو) و (أنجلو) لمعرفة ما يدبره (كارمليو) قال بعد طول صمت :

- سنضرب رأس الأفعى .
- أفعى ... ماذا تقصد ؟

فسألهما : - من زعيم الفتوات ؟

- سمعنا رجل يقال له (كحلاوى) .
- سنقتله .

فقال (أنجلو) :- الفعل ليس سهلا كالكلام .

وسأله (كانتو) : - وكيف ستصل إليه ، لقد سمعت أنه يقيم فى مكان أشبه بالقلعة ، وحوله رجال ليل نهار ... ولا يخرج إلا نادرا .

- لسنا من سنقتله .
- من إذن ؟
- فتوة من فتواته .
- كيف هذا ؟!
- (زغطة) ، فتوة فى غاية الفقر والغباء ، أتى إلى هنا مرة منفردا ليأخذ الفردة ، قدمت له الطعام الشراب وأخذت أتحدث معه واستدرجه ، فعلمت أنه ناقم على كل شئ ، فهم لا يعطونه إلا الفتات ، ويسيئون معاملته نظرا لغباءه وسوء تصرفه ، وأدركت مناطق ضعفه .... أغدقت عليه مالا كثيرا ، وأجرت له منزلا وزوجته خادمة إيطالية ، وأصبح كالخاتم فى إصبعى ، ورصدت له مكافأة عظيمة ووعدته أن يعمل معى إن هو نجح فى قتل المعلم (كحلاوى) .

فقال (أنجلو) غاضبا : - تفعل كل هذا بدون أن تخبرنا بشئ ، أنت لا تثق فينا .. إذن ليذهب كل منا إلى حال سبيله .
فنهره (كانتو) غاضبا وقال : - كل ما تقوله فى غاية التفاهة يا (أنجلو) ، المفروض أن تشكر (كارمليو) لأنه دبر كل هذا بدون أن يشغل بالنا .
ثم التفت إلى (كارمليو) وسأله : - ومتى ينفذ (زغطة) هذا مهمته ؟
صمت (كارمليو) ووقف ، وأخذ يتحرك هنا وهناك ، وهما يتبعانه ، ثم قال :
- قد يكون اليوم أو غدا أو بعد غد .
- ألم تتفقا على موعد ؟
- (زغطة) ينتظر الفرصة المناسبة ، وفى الوقت المناسب سينفذ مهمته .

********** ********** **********

قالت وهى تتأمل ملامح أبيها المتجهم محاولة أن ترفه عنه كعادتها : - ما بك يا (كحلاوى) ؟ الأفيون والحشيش الأجنبى مغشوش ... لقد أخبرتك من قبل لا شئ أفضل من المحلى والبلدى .
فأشاح بيده قائلا بصوته المتحشرج المبحوح والمتقطع : - لم يعد يهمنى حشيش ولا أفيون .
- إذن أخبرنى ما يشغل بالك ؟
نظر إليها طويلا ثم تنهد تنهيدة عميقة ، ولم يجب ، كثيرة تلك المرات التى يكون فيها مزاج المعلم متعكر لأمور كثيرة ، تعرف بعضها وتجهل البعض الآخر ، إلا أنه فى السنوات الأخيرة أصبح لها كالكتاب المفتوح ، وعرفت أن انشغال باله وتعكير مزاجه إما أن يكون بسبب خلاف بين الفتوات وبعضهم ، أو بين قادة الفتوات وبينه ، وكان يلجأ إلى أساليب البطش والقتل لتصفية تلك الخلافات ، وإما بسبب الماضى المظلم الكئيب له ، وهذا ما لا حيلة له فيه ، ولا يستطيع أن يصرف حزنه ، وإن كانت (صبح) تحاول أن تخرجه من حزنه هذا . قالت وهى تأخذ يده الطويلة السمراء المعروقة الممتلئة بالندوب والأخاديد :
- - إذن لقد عرفت ما يشغل بال حبيبى .
نظر إليها ومس على عينيه الملتهبة الجفنين وسألها : - ماذا عرفت ؟
- تريد الزواج ..... ما رأيك فى الست (صافيناز) إنها تتمنى تراب قدميك ، وإن لم تريدها فهناك الست (ألدس) ست جميلة ومخلصة و....
فنهرها فى غضب وأشاح بوجهه عنها ... أدركت أن الأمر الذى يحزنه ويجعله مكتئبا هكذا خطير ، نهضت ومست على رأسه الحليق وضمته إلى صدرها وقالت بصوت مترع بالحنان والعطف : - إذن أخبرنى يا حبيبى ما الأمر ؟
لم يحر جوابا ، فتركته وقالت : - إذن لم تعد تحبنى و...
فأدار وجهه إليها وقال بتضرع : - (صبح) .... لا تكررى هذا .
لا يطيق أن تشكك فى حبه لها ، يحبها بكل خلية من خلاياه ، وكانت تتعجب فى بدايةالأمر ، كيف يعرف الحب هذا القلب القاسى الجامد المتحجر ، الذى ضرب وحرق وقتل ودمر ، كانت تخشى منه وهى صغيرة ، فما كانت تراه وتسمعه وتلك القصص التى كانت تحكيها (نيرة) قريبته والتى عهد إليها برعايتها بعد اختفاء أمها ، تلك القصص التى كانت تملأ ليلها بالأحلام المرعبة ، تجعلها ترتعش لمجرد أن تحس بأصابعه الغليظة القوية تحيط بعنقها الرقيق أو بوجهها الغض .

ولكن حينما كبرت وأقتربت منه ، أيقنت كم هو عطوف ورقيق فى حقيقته ، وكلما كبرت إزداد أرتباطها به ، وكبر هذا الحب بينهما . قالت وكأنها تعتذر عما قالته :
- إذن ما سبب الحالة التى أنت فيها ؟
فقال بعد تردد : - سمعت من خطيب المسجد الذى بجوارنا أنه من قتل يقتل ولو بعد حين ، وأنا قتلت الكثير ، قتلت من يستحق ومن لا يستحق ، قتلت من أعرفه ومن لا أعرفه ... على هذا فأنا لابد وأن أقتل .
قالت وهى تحاول أن تبعد تلك الأفكار السوداء عن ذهنه : - يا أبى الأعمار بيد الله .... فلا تخش شيئا .
- أنا لا أخاف من الموت ، حياتى كلها كانت مواجهة مع الموت ، كنت أتوقع فى اليوم الواحد الموت أكثر من مرة .... أنا لا أخشى الموت ولا أفكر فيه بالمرة .
- إذن لم أنت حزين ؟
- خائف عليك .
- فقالت بانهاش : - خائف على !!
- نعم ... أنا أشعر أن نهايتى قد اقتربت ، سواء بالقتل أو الموت على فراشى ، وإن كنت أفضل القتل .
- لم تقول هذا يا أبى ؟
- فى عالمى هذا ، لم يعش أحد إلى السن التى وصلت إليها ... كان المفروض أن أقتل منذ سنوات ، هذا هو قانون العالم الذى أعيش فيه .
- سبب أنك لم تقتل للآن أن رجالك يحبونك .
ضحك ضحكة مرعبة وأخذ يسعل سعالا متواصلا ، ثم قال :
- الرجال الذين تتحدثين عنهم ماتت قلوبهم منذ زمن بعيد .. تجدى بعضهم الآن يفكر كيف يتخلص منى ، وبأى وسيلة يقتلنى ... أنا أقرأ ذلك فى عيونهم ... أمثل كابوسا يمنع أطماعهم وطموحاتهم .
سادت فترة صمت ، أخذ يطرد بيده ذبابة تحوم حوله لا وجود لها ، ونبهته (صبح) أكثر من مرة أن لا وجود للذباب الذى يتوهمه ويضايقه هكذا .
قال (كحلاوى) وهو يتأمل أصابع يده المعروقة والمعوجة :- ولكن ليس هذا ما يقلقنى ..
- وماذا يقلقك ؟
- أنت .
- أنا !!
- ماذا سيكون مصيرك بعد قتلى وسط هؤلاء الذئاب ، ولا أظن أنهم سيخضعون لك ، فهم يأكلون بعضهم ، ويأكلون القوى ، فما بالك وأنت ....
العجيب إنها لم تفكر مطلقا فى وضعها بعد موته ، هل ستستطيع أن تعيش كما تعيش الآن ؟
إن أقوى رجال والدها وأشدهم شراسة (أبو الليل) قد طلبها أكثر من مرة ، ولكن المعلم رفض فى كل مرة ، شئ طبيعى أنها ستكون ضمن الميراث الذى سيرثه ، إن ذكائها وخبرتها يساندنها على أن تتعامل مع هؤلاء الرجال ولكن هذا حادث فى وجود والدها ، وكأنه كان يقرأ ما جال بذهنها ، فقال وهو منكس الرأس : - ألم أقل لك أن الأمر يقلق ... على هذا فلابد أن نفكر فى زواجك اليوم قبل غدا ، وللأسف لن تتزوجى إلا فتوة من هؤلاء .

فقالت منزعجة : - لا يوجد إلا (أبو الليل) فالوحيد الذى طلبنى أكثر من مرة ، ولن يجرأ أحد أن يتعدى عليه .
فقال باشمئزاز : - لا... أبو الليل لا يصلح لك ولا أنت تصحلين له .
- إذن من ؟
- نريد رجلا من رجالنا وليس من رجالنا .
- كيف هذا ؟
- رجلا يعيش معنا ، ولكن طبعه يختلف عن طبع رجالنا .
- طالما يعيش معهم فلابد أن يتطبع بطباعهم .
- نعم ، ولكن لم يتطبع بما فيه الكفاية ... المدة التى قضاها بيننا لم تخرجه عن طبعه .
نظرت إليه بمكر ودهاء وقالت : - كأنك تعرف الرجل وأخترته لى .
فأومأ إليها ، فسألته : - من ؟
- منذ مدة وأنا أسأل عنه وعن أهله بدون أن يشعر أحد وأراقبه من خلال بعض الرجال ، وأيقنت أنه يصلح لك ، مع أنه صعيدى إلا أنه رجل .
فقالت بسخرية : - ومن سعيد الحظ هذا .
- (مخيمر).
توردت وجنتاها ، لقد سمعت باسمه يتردد على ألسنة الرجال ، وهم يتحدثون عن قوته وشجاعته ، ورأته مرة أو اثنتين أثناء قتاله وأعجبت به كثيرا دونا عن الآخرين ، ولكنها لم تفكر فيه كزوج ، أو شئ من هذا القبيل ، ، وهل كانت تفكر فى أحد بالمرة ؟ ولا تدرى لماذا لم تفكر ؟ ولماذا لم ينبض قلبها لأحد من الرجال ؟ ربما العيش فى هذا العالم مثلما قتل الحب فى قلوب الرجال أيضا وأد مشاعر وأحاسيس الأنثى فى كيانها ... وبدون أن تدرى قالت لوالدها : - ولكنى لا أفكر فى الزواج .
فقال بهدوء : - من الآن لابد وأن تفكرى ... أشعر أن أيامى معدودة فى الدنيا ، وأريد أن أموت وأنا مطمئن عليك .
- أرادت أن تقاطعه ، فأشار لها أن تتركه وحيدا .

********** ********** **********

قال (كارمليو) مخاطبا (زغطة) وهو يقدم له كأسا آخر :- أظنك أخذت ما يكفى يا مسيو (زغطة) .
تجرع (زغطة) الكأس وهو يضحك قائلا : - أحسن شئ قلته (مسيو زغطة) أنا مسيو .
ثم دق بالكأس على المنضدة قائلا : - وأنت تطلب شيئا مستحيلا يا مسيو (كارمليو) .
- ولكنك وافقت يا حبيبى ، وأخذت منا الكثير .
مد (زغطة) له الكأس ليملأه ونظر إليه بغضب قائلا : - ليس أكثر مما أخذه ويأخذه المعلم
(كحلاوى) .
صمت (كارمليو) ولم يملأ كأس (زغطة) فمد هذا يده وأختطف الزجاجة وبدأ يعب منها فقال له (كارمليو) : - أنت خائف ، ولن تقدر أن تقتل .
انتفض (زغطة) واقفا ، وأسقط ما على المنضدة من طعام وشراب ، وأقترب منه وهو يترنح من أثر الخمر ، وأمسك به قائلا : - لقد قتلت الكثير والكثير ، وكان القتل

سهلا وممتعا كمعاشرة امرأة .. ولكن الأمر مختلف مع (كحلاوى) ، وكثيرا ما سألت نفسى ، لم أريد قتله .

- لأنى دفعت لك الكثير .. وسأدفع و...
- أشار له (زغطة) أن يصمت ، وجلس وتناول الزجاجة الذى انسكب بعض ما فيها على المنضدة وتجرع قليلا منها ، ثم قال وهو يمسح فمه بكم جلبابه :
- - ليس من أجل ما دفعته وتدفعه سأقتل (كحلاوى) .... منذ زمن بعيد ذهبت إليه طالبا الانضمام إلى رجاله ... أهاننى وضربنى وكلفنى بأمور لا يرضاها أى رجل ، ومع ذلك أطعته طاعة عمياء ، كنت أخافه وأحترمه وأحاول أن أقلده فى كل شئ ، ولكن نبت داخلى شئ مبهم نحوه ، أن أقتله ولا أدرى هل لأخذ مكانه أو لأرد الإهانة ، أو لأنى حاقد عليه لأنى لم أستطع أن أكون مثله مع أنى فعلت كل ما فعله من قتل وحرق ونهب وسرقة ، كنت فى حاجة إلى من يضع السكين فى يدى ويخدعنى بالمال والنساء والخمر ، ولا تظن أنك خدعتنى ، أنا الذى تركت نفسى لك لتخدعنى ، أنا لست غبيا كما يقولون عنى ، أعلم أنى قد أقتل قبل قتل (كحلاوى) أو بعده ، حتى ولو لم يحدث ذلك فحينما أقتله فكأنى قتلت نفسى ... كحلاوى هذا شئ كبير كبير جدا ... إنه أكبر من الأسكندرية والبحر ...إنه ...

وأخذ (زغطة) يحكى حكايات عن (كحلاوى) وكان (كارمليو) قد حفظ تلك الحكايات من كثرة ما رددها (زغطة) ، فتركه هذا يحدث نفسه ، وانصرف وقد ترك على المنضدة رزمة من الأوراق المالية .

********** ********* **********

فوجئ به يقف أمامه على باب بيته الجديد ، وقف مندهشا لا يدرى ما يفعله ، فقال له (عليش) وهو يتأمله:- ألن تدعونى للدخول يا (زغطة) ولا أقول لك يا معلم (جابر) كا سميت نفسك ؟

بعد ما تخلص من أسر المفاجأة صافحه وجذبه إلى الداخل قائلا : - تفضل يا (عليش) ... البيت بيتك .

خطا خطوات داخل البيت وهو يتلفت حوله ، ويدق بالنبوت على الأرض وقال : - قلت أسأل عنك طالما لا تسأل أنت وبالمرة أهنئك على البيت الجديد والزواج الجديد .

نكس (زغطة) رأسه ، ثم قال : - لم ؟ لقد كنت عند المعلم (كحلاوى) أول أمس .

- انا لم أرك منذ شهر ... وكان لا يمر يوم إلا ونتقابل .
- أنت تعلم أن كل الأمور تغيرت فى المدة الأخيرة .

تلفت حوله وقال : - نعم ، كما تقول ،ولكن لا تؤاخذنى فى السؤال ... من أين حصلت على كل هذا ؟

فضحك (زغطة) قائلا : - أنت تعرفنى أننى مدبر وحريص .

- نعم ، ولكن ما كنت تسرقه من الإتاوة وتنهبه من الناس لا يجعلك ....

فقاطعه ضاحكا : - قد أكون ورثت ورثا ، ومنه أشتريت هذا البيت وتزوجت .

فانفجر (عليش) ضاحكا وقال وهو يمس على شاربه : - نصف أهلك فى السجون ، والنصف الآخر لا يجدون ما يأكلون .... فمن أين ورثت يا (زغطة) ؟

صمت قليلا وهو يتجرع كوب الشاى الثقيل ، ثم قال وهو يضرب بالنبوت جانب حذاءه الجديد اللامع : - أكيد يا (زغطة) أنت تعمل لحسابك الخاص ، وتعمل عملا هاما

وخطيرا ، هذا الذى يدر عليك هذا المال الذى جعلك تشترى بيتا وتتزوج من إيطالية و...
فنهض (زغطة) وقال فى غضب : - أتيت لتحاسبنى ... وهنا فى بيتى .
هز (عليش) رأسه وغمغم قائلا : - معك حق .... فى بيتك .
جذب (عليش) (زغطة) من يده وأجلسه قائلا : - نعم أحاسبك ، لأننا أصقاء منذ زمن ، كنا نقتسم الرغيف والسيجارة وكأس الخمر وقطعة الحشيش ، ورأينا أياما سوداء ، دخلنا السجن معا وخرجنا معا وضربنا وعذبنا ، قتلنا وكنا على وشك أن نقتل ، كنا معا لدرجة أن الناس ظنوا أننا أخوان ... ولكن على ما يبدو أنك نسيت كل هذا .
واستأنف قوله وهو ينهض لينصرف : - أنت حر يا (زغطة) .... سلام .
إلا أن (زغطة) أمسك به محاولا أن يزيل ما أحدثه بكلماته : - اجلس يا (عليش) ... لا تؤاخذنى يا رجل ... لم أرد أن أخبر أحدا ، فالمرأة التى تزوجتها كانت قد ورثت ثروة كبيرة عن زوجها ، وكانت تخاف من أهل زوجها لأنهم يريدون الاستيلاء على تلك الثروة ، طلبت منى الحماية على أن أتزوجها فلم أرفض .... هذا كل ما فى الأمر .
جلس (عليش) وابتسامة غريبة تلوح على شفتيه ، وضحك قائلا : - الله يلعنك يا (زغطة) ... ولماذا لم تقل ذلك ؟
- أنت تعرف الناس .. سيقولون يعيش على مال امرأة .
- وهل أنت عاطل ؟
- المهم أنت لست غاضبا على .
- على هذا فزوجتك جميلة .
فضحك (زغطة) قائلا : - ليس المهم الجمال يا صاحبى ، ولكن المال .
فضحك (عليش) قائلا : - على رأيك .. الجمال على الأرصفة فى شوارع الأسكندرية ... الأهم المال .
- طالما ضحكت ... دعنا نشرب .
فرفع (عليش) قدميه متربعا ، وقال وهو يشمر عن ساعديه : - نشرب ونأكل أيضا ... مر زوجتك لتعد لنا الغداء .
- البيت بيتك يا (عليش) يا خويا .
وبعد أن أكل (عليش) مس على شاربه الكث وقال : - يا سلام ... الطعام لذيذ جدا ... أنا فى حاجة إلى أن أتزوج يا (زغطة) .
- أنت متزوج يا (عليش)
- أتزوج زيجة كما فعلت أنت .
وضع (عليش) الشال على كتفه وتناول نبوته فسأله (زغطة) : - إلى أين ؟
- أجمع الإتاوة من الأجانب ... أنت ربنا تاب عليك .
فقال (زغطة) : - أنا فتوة ... وسوف أعيش وأموت فتوة ... أنتظر لأتى معك .
- لا ، ابق أنت مع عروستك . ولا تنس بعد غد سيجتمع الفتوات فى دار المعلم (كحلاوى) .
- لم ... هل حدث شئ ؟
- أنت تعرف أن (صبح) كل مدة تطلب أن يجتمع الفتوات لنتكلم فى أحوالنا ، وتوزع المال .. أم أنك لست فى حاجة إلى حصتك الآن ؟
صمت (زغطة) قليلا ثم قال : - ولو ... لن أتخلف عن مثل هذا التجمع ... سوف أذهب إن شاء الله .

أدرك (زغطة) أن رائحته بدأت تفوح ، وإنه إذا استطاع أن يقنع (عليش) بتلك الكذبة قد لا يقتنع غيره ، لذا فلابد من أن ينتهى من تلك المهمة بأسرع وقت ، وهاهى الظروف تهيئ له الوقت المناسب ، ففى تلك الليلة يجتمع الفتوات فى بيت المعلم (كحلاوى) ويضيق البيت على اتساعه ، ويأتى بعض كبار الفتوات من المناطق الأخرى لقضاء السهرة ، الرجل عجوز ومريض ، ولكن المشكلة فيمن حوله ، وفى ابنته التى لا تفارقه ... قد تسنح فرصة يكون فيها وحيدا ... حينئذ يقضى عليه .

********** ********** **********

- وما أهمية كل ما قلته عن الغبى (زغطة) يا (سيد) أنه رجل أهبل .
- (عليش) غير مقتنع بكلامه ... حكاية المرأة التى تزوجها ليوفر لها الحماية لأن لديها مال .. ثم أنه تزوج من خادمة إيطالية .
- وما فى ذلك يا (سيد) ... إنهم أكثر من الهم على القلب من كل الأجناس .

صمت (سيد) مفكرا ، فسأله (أبو الليل) : - أتخشى من شئ ؟

- كما قلت عنه غبى وأهبل ..... أخشى أن يكون هناك من يستميله ويستعمله .
- تقصد أحد من الفتوات المعارضين لنا .
- ولم لا .

انصرف ذهن (أبو الليل) إلى (مخيمر) ... أيمكن أن يكون هناك من يلعب لعبته ليتخلص من (كحلاوى) ... لقد فكر فى هذا وشرع فى تنفيذه ... فلم لا يفكر آخر بذلك ؟ ولكن إذا كان هو فكر بذلك ليأخذ مكان (كحلاوى) ويتزوج من (صبح) فما هدف هذا الآخر إذا كان يفكر فى قتله ؟

لقد حاول الكثيرون فيما مضى قتله ، ولكنهم فشلوا ... مرات من فتوات الأحياء الأخرى ، ومرات من رجال الأمن .. ومرات من تجار المخدرات وتجار السلاح ... أينتظر حتى تنجح محاولة من تلك المحاولات مستقبلا ؟ فشل تلك المحاولات فيما مضى ، وطول عمر الرجل ، وظهور ذكاء وعقل (صبح) جعله يتعجل موعد قتله ، وجعله يفكر أن يضع نهاية له ... أم تراه أنه قد تسرع فى هذا ؟

أخرجه (سيد) من أفكاره قائلا له : - ليس هذا ما أردت التحدث فيه .

- أهناك شئ آخر؟
- نعم ، شئ هام وخطير .
- ما هو ؟
- حراس الورش والمخازن والوكالات، أصحابها الأجانب يضربون الحمالين والحمارة .. وقاموا بالأمس بحبس مجموعة منهم وتعذيبهم .
- وما شأننا نحن بذلك ؟
- أنسيت أننا نوفر لهم الحماية .
- هذا فيما مضى ... هل نأخذ منهم شيئا الآن ؟
- لا نأخذ شيئا ولا هم يدفعون .
- إذن لماذا نوفر لهم الحماية ؟
- عجبا لك يا (أبو الليل) ، طول عمرنا نوفر لهم الحماية .
- يا معلم (سيد) من الذى يدفع لنا الآن وبسخاء .... الأجانب أم الحمالون والحمارة ؟
- الأجانب .
- إذن الواجب علينا حماية الأجانب .

- ولكنهم ليسوا فى حاجة إلى الحماية ، فهم المعتدون على الحمالين والحمارة .
- فليقتلوهم .... أهم من بقية أهلنا .

فنظر إليه بغضب قائلا : - نعم من بقية أهلنا ... لو لم يعطنا الله الصحة والقوة وعملنا بالفتوة لكنا الآن مثلهم ... والله أعلم بعد أن تضيع قوتنا ولا نصلح لشئ ماذا سنعمل أنا وأنت ؟

مد (أبو الليل) يده وانتزع النبوت من يد (سيد) قائلا له : - هذا النبوت لمن يدفع .

- تقصد لمن يشتريه ... الظاهر كثرة المال أعماك يا (أبو الليل) .
- أنت الذى تأثرت بكلام (صبح) ، وهى امرأة لا تصلح لهذا الأمر .
- كنت فيما مضى فى حيرة من أمرى ... أسير مع كلامك أم مع كلام (صبح) .
- والآن ؟
- جذب النبوت من يد (أبو الليل) وقال : - الآن عرفت أسير مع كلام من .

وتركه وأنصرف.

********** **********

****

- هذا ما قاله (أبو الليل) لى .

فقالت (صبح) غاضبة : - نحن لا نأخذ من الجانب لنتركهم يضربون ويعذبون الحمالين والحمارين ... ما نأخذه هو حق لنا ... والواجب علينا حماية الحمالين لا لشئ إلا لأنهم أهلنا بالفعل ، وتحملوا أيام ضنك ومعاناة حينما طلبنا منهم ألا يعملوا فى ورش ووكالات ومحلات الأجانب ... ولولاهم لما خضع الأجانب لنا .

- والعمل ... كل يوم يمر يزداد الظلم والجبروت الواقع على الحمالين ... وصل الأمر بهم أن يحبسوا ويعذبوا .

صمتت (صبح) مفكرة ، ثم قالت : - على الفتوات النزول إلى الشوارع والميادين والحوارى ، وأن يحموا أى حمال أو حمار يتعرض للأذى .

- ولكن (أبو الليل) قد يغضب لأن هذا ليس على هواه ، بالأضافة أنك لم تخبريه بهذا الأمر .
- ستأخذ مجموعة من الفتوات ، وأنا سأكون على رأس مجموعة أخرى ، ونتفرق فى الأحياء والميادين ، وحينما يعرف أنى نزلت سيخجل من نفسه .
- ولكنك تعرضين نفسك للخطر .

فابتسمت قائلة وهى تحكم قبضتها على النبوت الذى كان بجوارها : - إلى من تتحدث يا معلم

(سيد) ؟

فقال بحماس : - إلى أجدع فتوة فى الأسكندرية كلها ، وبنت المعلم (كحلاوى) ، لا يوجد فتوة فى الأسكندرية كلها إلا ويخشى من نبوتها .

أسكرها هذا المديح ولم يكن مبالغة ، فلم يدخل (كحلاوى) معركة من معاركه إلا ومعه

(صبح) ، وتفتحت عيناها على مشاهد الدماء والأشلاء والضرب والقتل ، وشاركت بكل قوة وشجاعة وجرأة فى تلك المعارك والمشاجرات ، وكان (كحلاوى) فى أثناء ذلك عين على خصومه يسحقهم بنبوته ، وعين على (صبح) يحميها من أى ضربة طائشة ، وأرادت هى أن تثبت لنفسها أولا وللآخرين أنها لا تقل عن أى فتوة ، فتمادت فى ذلك وأتت من الأفعال والتصرفات ما جعل الآخرين يشهدون لها بأن دماء الفتونة

الحقة تجرى فى عروقها ، وحينما مرض (كحلاوى) ولزم بيته حلت محله فى الخروج تقود الفتوات فى معاركهم .
قبل أن ينصرف (سيد) وقف مترددا، فسألته(صبح):- أهناك شئ تريد قوله يا معلم (سيد) .
- حراس الوكالات والورش الأجنبية معهم أسلحة نارية .
ابتسمت (صبح) ابتسامة أضاءت ثغرها العذب ، ومدت يدها بالنبوت قائلة :
- النبوت أم اليد القابضة على النبوت يا معلم (سيد) ؟
- معك حق يا (صبح) .
********** ********** **********
- أيرضيك ما تفعله (صبح) ؟
فقال المعلم (كحلاوى) وهو يحدق فى عينى (أبو الليل) بكل تحد :
- كل ما تفعله (صبح) يرضينى .
هز (أبو الليل) يده بالنبوت وتنهد قائلا : - ألديك علم بما تفعله ؟
- مجرد أن تفكر فى شئ يكون لدى علم به .
وقف (أبو الليل) غاضبا ، وقد انتفخت أوداجه وجحظت عيناه وقال : - إذن ليس لوجودى أى أهمية هنا ، وعلى أن أنسحب فى هدوء .
يعلم أنه يتحرق شوقا أن يحل محله ، منذ زمن بعيد وهو يخطط لذلك ، لقد كان له منافسون من الفتوات ، مثله فى القوة أو يتفوقون عليه ، إلا أنه تخلص منهم بذكائه ومكره ودهائه ، وشدة بطشه ، وكان يتركه يفعل ذلك ، ليبرز الأصلح للبقاء ، ولولا أن (كحلاوى) متيقظ له ويعلم ما يدبره لتخلص (أبو الليل) منه فى يوم وليلة ، وفى بعض الأحيان كان يفكر أن يترك له كل شئ ويرحل هو وابنته (صبح) ولكن لم يكن حرا ، فهو لا يملك هذا العالم ، ولكن عالم الفتونة هو مالكه ، كانت هناك خطوط حمراء لا يجرؤ (أبو الليل) أن يتجاوزها ، ولكن بمرور الوقت وحينما أعتلت صحته ، بدأ الأسد القوى الشاب يجس نبض الأسد العجوز ، وكان لابد له أن صانع ويستعمل الحيلة والذكاء ، هكذا علمته وأخبرته (صبح) . قال له :
- كيف يا (أبو الليل) وأنت ذراعى اليمين ؟
فأولاه ظهره وقال بصوت مرتفع : - بأفعالك قطعت تلك الذراع .
- اهدأ يا (أبو الليل) ... أنت من ستأخذ مكانى ... لا يوجد أحد غيرك يصلح لهذا الأمر .
أول مرة يصارحه بهذا ، ولكن اللهجة التى يتحدث بها لا تريحه ، أيكون قد علم بما يدبره ؟
ومع ذلك فإن هذا القول قد أسعده وأراحه ، فهو تفويض صريح له ، وتمكين مباشر لمكانته الآن ، جلس محاولا أن يدارى سروره ، وسادت فترة صمت بينهما .. كل هذا الجبروت والقوة والاستبداد والبطش استحالوا أمامه إلى ضعف ، ولكنه ضعف متشامخ جرئ ، يشعر نحوه بالخوف الممزوج بالاحترام ، وإن كان هذا الشعور قد ضعف مؤخرا ، وحل محله رغبة فى السيطرة ، وطمعا فى مكانته ومكانه ، قال له وبريق عينيه الذى لم يخفت مع أن كل شئ قد خفت فى كيانه يخترقه : - دوام الحال من المحال يا (أبو الليل) ... وأنا أشعر أن نهايتى قد اقتربت ... وأنا مطمئن على رجالى تحت يدك ، باقى أن أطمئن على ابنتى (صبح) .

أراد أن يكرر طلبها منه ، ولكنه رأى أن يطلب منه ذلك بطريق غير مباشر ، ويعرف دخيلة نفسه ، قال له : - لن تطمئن إلا إذا تزوجت .

- أكثر رجالى قربا منى لابد أن يعلم فيما أفكر .
- لقد طلبها (مخيمر) منى ، وطلب منى أن أتوسط له عندك .
- وما رأيك يا (أبو الليل) ؟
- الرأى رأيك يا معلم ، ورأى (صبح) .
- ليطلبها بنفسه منى .
- كأنك موافق .
- نعم ، موافق .

نزلت الكلمة عليه نزول الصاعقة ، صمت قليلا ، يشعر أن نظرات (كحلاوى) سهام تحاصره من جميع الجهات فقال بتحد :

- ولكنى طلبتها من قبل ورفضت ، ومازلت أطلبها .
- أنت عدو نفسك يا (أبو الليل) ... تريد كل شئ .. لقد أخبرتك من قبل أن (صبح) لا تصلح لك ، ولا أنت تصلح لها .
- وهل يصلح لها (مخيمر) ؟
- نعم ، على الأقل يده غير ملوثة بالدماء ... لا تنس يا (أبو الليل) أننا قتلنا وضربنا ونهبنا ، لا توجد جريمة من الجرائم لم نفعلها .
- تلك ضريبة الفتونة يا معلم ... تعلمنا منك .
- أمثالك وأمثالى لم نكن فى يوم من الأيام فتوات .
- إذن ماذا كنا ؟
- بلطجية ، وكنا نختبئ وراء الفتونة .
- إذن الذنب ذنبك ... لأننا كنا نسير وراءك ونتعلم منك .
- فى نهاية عمرى فقط عرفت ما الفتونة .

فقال بسخرية : - المعلم يتعلم .

- نعم ، ومن (صبح) ، الوحيدة بيننا ينطبق عليها وصف فتوة ، لقد هربت منى كما هربت أمها من قبل ، هربت من (كحلاوى) الظالم المستبد القاسى المجرم ، ولجأت إلى
- (كحلاوى) المنكسر المنهزم الخاضع الطيب.

فقال باستهزاء : - (كحلاوى) الطيب !!

- لا تتعجب يا (أبو الليل) ... نحن لسنا شياطين ، كثيرة تلك الليالى التى بكيت فيها ، وأنا أسمع صرخات المقتولين ، وآهات المظلومين ، ولعنات ودعوات الناس على ، كالأفاعى تصب سمها فى عروقى وتشعل النار فى صدرى ، ولا ينقذنى من كل هذا سوى (صبح) ... (صبح) الشئ الوحيد الطاهر النقى فى حياتى ، حاولت طول حياتى أن أبعدها على أن تتلوث من عالمنا هذا .

صمت قليلا ، مسح خلالها عينيه المقرحتين بأصابع يده المعروقة وقال وكأنه يسمعه لأول مرة : - الشئ الوحيد الذى نجحت فيه فى حياتى ، وربما هى التى نجحت لأنها أرادت ذلك .

واستأنف قوله : - أعرفت لماذا لا تصلح لك (صبح) .

قليلة تلك المرات التى كانا يجلسان وجها لوجه ويتحدثان فى أمورهما الشخصية ، وأقل تلك المرات الى كان يصارحه فيها بمكنون نفسه ، فقد أمضى معه هذا العمر الطويل وهو بالنسبة له صندوق مغلق ، يدور حوله كثيرا ، ولكن لم يقدر له أن ينفذ إلى داخله ، كل ما كان يشعر به نحوه إحساس بالخوف ممزوج بإحساس من الحب أو الرجاء أن يظفر منه بكلمة أو كلمتين استحسان ، وكان يخشى أن يقترب منه ، ولكن بمرور السنين زالت تلك المشاعر وحل محلها رغبة فى الانتقام ، ورغبة فى أن يحل محله ، ووصل به الأمر أن يدبر ليقتله ، ولا يدرى أدافعه إلى ذلك رغبة فى امتلاك (صبح) أم رغبة فى أن يكون هو الرجل الأول ، أم الأثنين معا ، نهض (أبو الليل) وأمسك بكتف (كحلاوى) بقوة لم تخل من قسوة ، وقال بصوت حاسم : - سأظل رجلك وذراعك اليمين ... وسامحنى فى طلب (صبح) ، فهى جوهرة غالية أريد الحفاظ عليها وصيانتها ... و (مخيمر) من خيرة رجالنا ، وسوف أخبره بموافقتك ليتقدم بنفسه لك .

وتركه وانصرف ، ومازالت أثار يده يشعر بها على كتفه .

********** ********** **********

قادته الخادمة حيث يجلس (أبو الليل) وحينما دخل ورآه جاسا يدخن النرجيلة هوى على يده لاثما إياها ، وجلس تحت قدميه ،وقال وهو يمس على شاربه المفتول :

- كيف حالك يا (عليش) ؟

فأعاد تقبيل يده قائلا : - بخير طالما أنت راض عنى .

أشار (أبو الليل) إلى منضدة فى وسط الحجرة عليها رزمة كبيرة من المال وقال له :

- خذ هذا المال لك يا (عليش) .

فقال معترضا : - لا يا معلمى ... لقد أخذت الكثير ... وماذا سأفعل بكل هذا المال ؟

- وستأخذ أكثر وأكثر ... أنت منذ الآن ذراعى اليمين .
- أنا خادمك ، وكالخادم الذى تضعه فى أصغر إصبع من أصابعك .

ابتسم (أبو الليل) وسأله : - ماذا فعلت ؟

- كما أمرتنى يا معلمى ... أخذت (زغطة) ، وذهبت به إلى البيت الذى جهزته لنا وقدمت له الخمر والمخدرات وأشهى الأطعمة والنساء ، وفى نهايةالليل حلت عقدة لسانه .

وصمت (عليش) متهيبا أن يكمل حديثه ، ولم يعد يسمع سوى صوت النرجيلة ، سأله (أبو الليل) : - لم سكت ؟

- لا أستطيع أن أنطق بما قاله (زغطة) فهو شئ خطير .
- لا تخش شيئا ... تحدث يا عليش .

تلفت (عليش) حوله ، ثم نهض متجها نحو الباب ، وفتحه وألقى نظره هنا وهناك ، ثم عاد واقترب من أذن (أبو الليل) ، وأسر له بكلمات ، وعاد وجلس تحت قدميه منكس الرأس ، فسأله (أبو الليل) : - أأنت متأكد من هذا ؟

- لو لم أسمعه بنفسى ما صدقت أذنى .
- ولم يريد هذا الأجنبى قتل المعلم (كحلاوى) ؟
- لقد أخبرتك بكل ما سمعته من (زغطة) .
- ومتى سيقوم (زغطة) بهذا الأمر ؟
- كان ينتظر أن نجتمع كلنا فى بيت المعلم ، وينتهز فرصة امتلاء البيت بالغرباء ، ويقتل المعلم ، ولكن الاجتماع لم يتم .

أخذ (أبو الليل) يدخن بشراهة ، وصمت وطالت فترة صمته ، حتى أن (عليش) تململ فى جلسته ، وأراد أن يستأذن ، ولكن (أبو الليل) أبقاه ، ورفع قدما فوق الأخرى واضعا حذائه فى وجه (عليش) وسأله : - ماذا لو طلبت منك أن تقتل (زغطة) ؟
على الفور أخرج (عليش) خنجرا من جيبه قائلا : - لن يطلع عليه نهار .. ولو طلبت أكبر رأس لن أكسر لك أمرا .
- ليس الليلة .
- إذن سأراقبه لأقتله قبل أن يقتل المعلم .
- لا ، ولكن بعد أن يقتل المعلم .
لم يفهم (عليش) شيئا ، وفغر فاه كالأبله ، وسأله (أبو الليل) :
- لو قتلت (زغطة) قبل أن يقتل المعلم (كحلاوى) ، فلم قتلته .
- لأنه كان يريد قتل المعلم .
- ولكنك قتلته قبل أن يقتل المعلم ، وسوف يقبض عليك وتسجن وقد تعدم ... أما إذا قتلته بعد قتله المعلم فلن يؤذيك أحد ، لأنه قتل المعلم .
صمت (عليش) قليلا محاولا أن يفهم كلام (أبو الليل) ، وحينما عجز عن ذلك ، قال له وهو ينفض الغبار عن حذاء (أبو الليل) : - سأقوم بتنفيذ ما تأمرنى به ، بدون كلام .
- هذا ما أريده منك ... من الآن أريد أن تراقب (زغطة) كظله ... وأخبره أن بعد غد سيمتلأ بيت المعلم بالفتوات والضيوف ، وتأكد أنه سيحضر .
- طبعا سيحضر .
- وأريدك أن تكون قريبا منى لتنفذ ما آمرك به .
- أنا تحت أمرك .
- مع السلامة يا (عليش) .
وقبل أن ينصرف أشار له بأن يأخذ رزمة المال من على المنضدة .
********** ********** **********
قال (سيد) وهو يدق بنبوته على الأرض مخاطبا (صبح) :
- ذهبنا ولم نفعل أى شئ ، ولا أظن أننا سنقدر على حماية الحمارين والحمالين بعد الآن .
قالت (صبح) وهى شاردة : - الأمر أكبر من حماية حمارين وحمالين ، وأكبر منا أيضا .
- كيف يا معلمة (صبح) ؟
- أرأيت عدد الحراس على الورش والمخازن والوكالات كيف زاد ؟ والأسلحة التى فى أيديهم ، وكيف ينظرون لنا ... وشكلهم وكأنهم مقدمون على حرب .
- نعم ، ومعهم أسلحة لم أرها من قبل .
قالت وكأنها تحدث نفسها : - لمن تلك الأسلحة ؟ إذا كنا نوفر لهم الحماية ، وهم يدفعون لنا .
- نعم ، هم كانوا يدفعون ، ولكن الله اعلم غدا ماذا سيفعلون ... ثم لا تنسى أننا فرضنا عليهم مالا كثيرا فى الفترة الأخيرة .
- تقصد أنهم سيرفضون بعد ذلك الدفع لنا ويتولون هم حماية أنفسهم ؟
- لقد أوقفنا حالهم منذ شهر حينما أمرنا الحمالين والحمارين ألا يعملوا معهم ... أظن أن الحمالين لن يقدروا على أن يعصوا أوامرهم ويطيعوا أوامرنا ... فالآن من يعترض على ما يأمرون به يضربوه ويعذبوه ... وقد رأيت بنفسك وسمعت كثير

من الشكاوى ... وأظن أن الناس يوازنون بين المسدس والنبوت ، وهم يعرفون من يطيعون ومن يعصون .
أخفت خصلة من شعرها الأشقر تحت غطاء رأسها ، وقالت بصوت تنطق نبراته بالحيرة والقلق : - كل ما تقوله يا معلم (سيد) معقول ، ولكن أشعر أن الأمر أكبر من ذلك ، وهذا ما يشغلنى .
قال (سيد) وهو يتهيأ للانصراف : - لا تشغلى بالك يا معلمة ... إن توقفوا عن الدفع ، أو استمروا فى ضرب وإهانة الحمالين فمخازنهم وورشهم ووكالاتهم مكشوفة لنا فى الليل ، سنحرق ونكسر ونهدها فوق رأسهم .
فأشاحت عنه بوجهها قائلة : - أنت تتحدث بلسان (أبو الليل) .
- لابد أن نفعل شيئا ، وإلا لن يكون لنا أى أهمية .
- على رأيك يا معلم (سيد) ... الظاهر أن زمن الفتونة سيزول وينتهى ... أخشى أن يكون المعلم (كحلاوى) آخر الفتوات .
- وستبدأ فتونة من نوع آخر .
- ماذا تقصد ؟
- فتونة الأجانب فى شوارع وميادين وحوارى الأسكندرية ، وفتونة إنجلترا وفرنسا .
ابتسمت (صبح) وتهللت أساريرها وقالت بسخرية :
- أتتحث فى السياسة يا سيد ؟ منذ متى وأنت تهتم بتلك الأمور ؟!
- وهل الناس يتحدثون إلا فى هذا ؟ ! فى المقاهى والشوارع والميادين... كما تفعل إنجلترا مع عرابى ، يفعل الأجانب معنا .
ضحكت (صبح) طويلا ، ووضعت كفيها على نهديها البارزين ، وتأملت ملامح (سيد) وكأنها تراه لأول مرة ، وأخذ يضحك هو الآخر ، والخجل يأخذ بملامحه ، وسألته :
- وإيه حكاية عرابى يا (سيد) ؟
- اليس هو أكبر فتوة فى البلد كلها ، ويريد أن يحمى البلد من الأجانب والملك ... وجاءت إنجلترا بسفنها لتحاول أن تهدده وتفرض رأيها عليه ، وتحمى الأجانب والملك .
صمتت (صبح) قليلا ثم قالت : - هل تحب (عرابى) يا (سيد) ؟
- حينما تسمعين اسم رجل يردده الناس صباح مساء ، وفى كل مكان ، رجل يقف ضد الملك وضد الأجانب ، وإن كنت لا أدرى لماذا ، والناس يسمون أبنائهم باسمه ، وهو فى الأصل رجل من أهل البلد ... أظن لا تملكين إلا أن تحبينه .
- معك حق يا (سيد) .
سادت فترة صمت أخذ خلالها يعبث بمقبض نبوته وفجأة سألها : - ألن تتزوجى يا معلمة ؟
نظرت إليه باندهاش ، فلم تكن تتوقع هذا السؤال ، ومن (سيد) وكأنه شعر أن سؤاله تدخل فى خصوصيات ابنة معلمه ، ولكنه أحس فى المدة الأخيرة أنه قريب منها ، ومسألة زواجها بدأت تشغل الكثيرين ....ابتسمت فى صمت وتشاغلت بالعبث فى أساور ذهبية فى معصمها ، وسألته : - ألديك عريس لى ؟
- لا تؤاخذينى يا معلمة ، أنا مندفع ، وما فى قلبى على لسانى .
ضحكت وشجعه هذاعلى الاسترسال فى كلامه : - لقد سمعت أن (مخيمر) ...
وصمت (سيد) ، فتوردت وجنتا (صبح) حينما سمعت باسم (مخيمر) ، وسألته وهى تتجنب النظر إليه : - ماذا سمعت يا معلم (سيد) ؟
- أنه تحدث مع المعلم (أبو الليل) بشأنك ؟

فسألته مندهشة : - ولم يتحدث (أبو الليل) بشأنى ؟
- أقصد أنه طلب من المعلم (أبو الليل) أن يتوسط عند المعلم (كحلاوى) ليطلب يدك .
وكأن تلك الكلمة فتحت ابواب عالم كانت تحرص أن يظل مغلقا ، عالم أنها امرأة لها أحاسيس ومشاعر ، وأنها أنثى مرغوبة ، وهناك من يسعى إليها ، وهى وإن كانت بقادرة أن تجعل تلك الأبواب مغلقة إلا أن هناك أمور كثيرة تدفعها لا أن تفتح تلك الأبواب ، بل على الأقل تعرف ماذا يوجد خلف تلك الأبواب ، حاولت أن تتماسك أمام (سيد) وأن لم تستطع أن تخفى التغيير الذى طرأ على ملامحها وصوتها ، قالت وهى تدير خاتم ذهبى فى إصبعها :
- أنا لا أفكر فى هذا ... ألا تقدر الظروف التى نحن فيها ؟
- نحن دائما فى تلك الظروف ... وإن لم تفكرى الآن فمتى تفكرين ؟
أحس (سيد) للمرة الثانية أنه تدخل فى خصوصيات المعلمة (صبح) ، وأن ليس هناك ما يعطيه الحق فى ذلك ، نهض وقال : - لابد أن أنصرف ، لأن لسانى كالنبوت الطائش ، لا أدرى كيف أوجهه .. لا تؤاخذينى يا معلمة (صبح) ، أنا كما قلت لك ما فى قلبى على لسانى .
ابتسمت (صبح) ، وبقيت وحيدة تفكر فيما قاله (سيد) وفى نفسها ، وكأنها أول مرة تكتشف ذاتها الغريبة عنها ... أو التى كانت غريبة عنها .

(22)
- حب وحرية -

وقفت سيارة فاخرة سوداء اللون أمام بناية (ألن والدرسن) ،فى ذلك المساء من شهر يونيو ، نزل منها مجموعة من الرجال ، يتقدمهم رجل يسير فى ثبات وسرعة ، وما هى إلا دقائق حتى كانوا أمام (أنطونيادس) بدون سابق استئذان ، فوجئ بهم ، ترك ما بيده على الفور ونهض مرحبا بالقادم فى حرارة :
- أهلا مسيو (ميكادللى) ، إنه لأمر خطير الذى جعلك تأتى هكذا من القاهرة بدون أن تعطينى خبرا لأكون فى شرف استقبالك .
أومأ إليه مسيو (ميكادللى) وقال له وهو ينظر إلى الرجال الواقفين خلفه :
- أريد أن أحدثك على إنفراد .
تقدم (أنطونيادس) أمام ضيفه ، وفتح باب حجرة داخلية ، وأغلقها خلفه ، نظر مسيو (ميكادللى) حوله ، خلع قبعته وتحرر بعض الشئ من ربطة عنقه ، وجلس فى مقعد وثير وتناول كأسا وسيجارا من (أنطونيادس) الذى جلس أمامه متلهفا لما سيقوله ... قال له بصوت منخفض : - صدرت الأوامر بتجهيز المسرح .
- والهدف من المسرحية ؟
- حماية مصالحنا فى مصر كلها .
فقال بتعجب : - فى مصر كلها !!
- نعم ، لابد أن يحدث تغيير فى مصر كلها ... وإلا كل المصالح معرضة للضرب .
- أفهم من هذا أن الأسطول فى البحر ...
- وماذا كنت تظن غير ذلك ؟
- إذن هى الحرب .

صمت قليلا مفكرا ثم قال : - لا أظن ، فهناك بديلا آخر لنعيد الأمر إلى ما كان عليه قبل عرابى ،ونعيد الاستقرار إلى البلد .
- والملك ؟
- نحن نقدم له خدمة عظيمة ....
- كيف ؟
- نحافظ على عرشه ، ونساعده فى استقرار البلد لنستطيع أن نعمل فى هدوء .
- وما الدور المطلوب منى ؟
- لقد وزعنا الأدوار .... ودورك هنا فى الأسكندرية أهم وأخطر دور ... مطلوب منك أمرين
الأول تسليح الأجانب على مختلف جنسياتهم .
- والأمر الثانى ؟
أخرج من جيبه مجموعة من الأوراق وقال : - هذا كشف بأسماء القلاع والحصون والمناطق العسكرية فى الأسكندرية ، نريد تقرير يومى ودقيق عن عدد الجنود والأسلحة ونوعيتها ، وسيكون هناك ضابط اتصال بينك وبين قائد السطول المستر (سيمور) .
أخذ (أنطونيادس) الأوراق ووضعها فى خزانة حديدية وأغلقها بإحكام .
نهض (ميكاديللى) متجها نحو الباب فاستوقفه (أنطونيادس) قائلا :
- ألن تبقى ... يوجد سهرة جميلة الليلة .
- لقد سمعنا عن سهراتك الأسطورية ، وسوف نسهر سويا بعد الانتهاء من تلك المهمة .
وتركه وانصرف .
********** ********** **********
نظرت إليه (بربارة) مندهشة قائلة : - كيف تسمح لهم بأسلحة أخرى وهم لم يسددوا ما أخذوه
؟ بالأمس فقط أمرتنى أن أطالبهم بتسديد ثمن ما أخذوه .
قال (أنطونيادس) وهو مشغول بتصفح كومة من الأوراق أمامه :
- الأمس شئ ، واليوم شئ آخر .
فقالت بربارة بالحاح شديد : - نعم ... ولكنى أريد أن أفهم سبب هذا التغيير .
دق سطح المكتب بقبضته ونهض واقفا وهو فى قمة الغضب والانفعال قائلا :
- أنت هنا لتنفيذ ما آمر به ، أما فهم أسباب ذلك فليس هذا من شأنك .
وقفت (بربارة) أمام هذا الغضب المفاجئ صامتة ، ثم سألته فى مكر :
- وأمر السهرة الليلة والمفاجأة التى وعدت بها ضيوفك ، ليس من شأنى .
هدأ (أنطونيادس) وجلس وحاول أن يهرب من نظرات (بربارة) بالانشغال فى قراءة ما أمامه من أوراق وقال : - إنها سهرة ككل السهرات .
دارت حول المكتب الجالس عليه ، وكأنها تحاول أن تقنعه أنه محاصر ، اقتربت منه وأخذت تعبث بأصابعها فى شعر رأسه الأبيض ، وقالت وهى تقترب بوجهها منه وقالت :
- ما يحدث فى القاعة منذ الصباح لا ينبئ على أنها على أنها سهرة ككل السهرات .... ثم ما المفاجأة التى تخفى أمرها عن الجميع حتى عنى ؟
أقصى لحظات السعادة حينما ينجح أن يخفى عنها أمرا من أموره الكثيرة ، وهى تتحول إلى كتلة من الغضب المشتعل حينما تشعر أنه يخفى عنها أمرا ، ولا تستريح ولا يهدأ لها بال إلا حينما تعرف ما يخفى ، وهى تفعل ما لا يخطر على بال ، وتقدم على تضحيات كثيرة حتى تصل إلى هذا المخفى .... نوع من الصراع والتحدى بين الاثنين ، ينتهى

باستسلام طرف للآخر ، وغالبا يكون هو المستسلم ، وهى المنتصرة ، سعيدة بما وصلت إليه ، وهو سعيد بما حصل عليه . ولكن فى تلك المرة شعرت أنه منذ أن حضر إلى مكتبه فى الصباح وهو مصر ألا يبوح لها عن شئ ، وخمنت بغريزة الأنثى أن أمر تلك المفاجأة متعلق بامرأة ، ربما سيعلن خطبته أو زواجه ، ولكنها استبعدت ذلك الخاطر ، لأن هناك اتفاق بينهما غير مكتوب أنه لو تم ذلك سيكون أحدهما فى عداد الموتى أو كلاهما .... فمحور حياتها كلها تدور حوله ، ولولا هذا ما أخذت تلك المكانة فى حياته . قالت فى شبه استسلام وخضوع :

- كلها ساعات وأعرف تلك المفاجأة .

حاول أن يخفى سعادته ، وقال وكأنه يحدث نفسه : - تلك الساعات ستمر على البعض وكانها دهور .

بلعت ما شعرت به من إهانة وغضب فى هدوء وثبات ، وغادرت حجرة مكتبه إلى مكتبها .

********** ********** **********

لم يصدق (رمضان أبو المكارم) ما تراه عيناه وهو يخطو داخل القاعة وتكاد قدماه تغوص فيما فرش من سجاد ، أخذ يسير وكأنه فى عالم آخر لا علاقة بينه وبين عالمه ، أخرجه

(جوستاف) من ذهوله قائلا له : - هل ستظل واقفا هكذا ؟ تحرك يا رجل .

فقال مذهولا : - هل ما زلنا فى الأسكندرية ؟

فضحك (جوستاف) قائلا : - السهرة لم تبدأ بعد ... أنت هنا فى عالم (أنطونيادس) وما تراه هنا لن تراه فى أى مكان .

- وهل (انطونيادس) ثرى لتلك الدرجة ؟
- مهما حدثتك لن يصل خيالك إلى مقدار ثرائه .

جلس (رمضان) بجوار (جوستاف) وعيناه لا تكاد تستقر على شئ ، وسأله :

- ما زلت لا أفهم سبب إصرارك على أن أحضر معك هنا .
- مسيو (رمضان) .... أنا مشفق عليك .
- لم ؟
- أنا لا أدرى كيف تطيق العالم الذى تعيش فيه ؟ أنت لم تترك الأسكندرية إلى مكان آخر ، وأظن أنك ستمضى بقية عمرك هنا ، والتجارب الحياتية والعاطفية قليلة جدا على حد علمى ، وأظن أن ليس لديك استعدادا للدخول فى أى تجارب من أى نوع ... أنت لا تعيش عمرك ، أنت ناسك أو راهب .

ابتسم (رمضان) وقال فى هدوء : - أتريدنى أن أعيش مثلما تعيش يا (جوستاف) ؟

- أعلم أن كل منا ينتمى إلى حضارتين مختلفتين ولنا أسلوبان مختلفان لممارسة أى شئ ، ولكن هناك شئ يجمعنا ....أننا أحياء
- ورأيك أننى ليس بحى .

فضحك (جوستاف) قائلا : - لا ، أنت حى لا شك فى هذا ... ولكن أنت معى أن الحياة لها مستويات .

- وتقصد أنى أحيا فى مستوى دنئ .

فرفع يده معتذرا : - لا.... لا....مسيو (رمضان) ما قصدت هذا .

ابتسم (رمضان) : - أفهم قصدك ... تقصد حياة فقيرة من صنوف المتع ووجود مفلس .

- وإلا بماذا تفسر أنى ذهبت إلى أماكن أنت لم تذهب إليها ولا تعرف أصلا بوجودها هنا فى الأسكندرية .... بماذا تفسر هذا ؟

ضحك (رمضان) ، ثم قال : - أفسرها بأنك عربيد وماجن .

ضحك (جوستاف) طويلا ثم قال وهو يتأمل الحسناوات اللائى يخطرن حوله :

- أظن أن الحياة بدون قليل من العربدة والمجون غير محتملة .
- أتصدق يا (جوستاف) أنى أحيانا أتوق لأن أعيش كما تعيش .

فابتسم له (جوستاف) قائلا : - وأنا أيضا فى أحيان أتمنى أن أعيش عيشة النسك والرهبنة التى تعيشها .

- إذن ما بيننا نوع من التكامل وليس التنافر
- إذن أن هذا يفسر سر الصداقة التى تربط بيننا .
- ولكن إذا كان هذا حادث بين الأفراد مثلى ومثلك ... لم لا يحدث بين الدول والأمم ؟
- قد يكون لتضارب المصالح بينهما ، أو أن هناك نوازع ورغبات سيطرة على هذه الأمة أو تلك الدولة مثل الغرور والتسلط والكبر .
- مثلما هو حادث من إنجلترا الأن فى البحر الأبيض وتربصها بمصر وانتظارها لأى مبرر تتخذه حجة لضرب البلد واحتلاله .

تابع (جوستاف) حسناء فى كامل زينتها وجمالها تقترب منه فابتسم لها وقال لرمضان فى صوت منخفض : - أنا أعتبر نفسى من المجانين إن بقيت أتحدث معك فى تلك الأمور ، وأترك الجمال والفتنة ولا ألتفت إليها .... ملعونة عيشة النسك والزهد التى تحياها .

نهض وصافح الحسناء ، وطبع قبلة على يدها ، وأخذها وانتحى بها جانبا وأسر فى أذنها بكلمة فأطلقت ضحكة مجلجلة ، ونظر (جوستاف) إليه وأشار له أن يبقى حيث هو .

أخذ (رمضان) يتأمل ما حوله فى انبهار ، مرت به ساقية ووضعت أمامه كأسا مترعا بالخمر ، أراد أن يناديها لتأخذه ولكنها اختفت من أمامه ، أخذ يتأمل الكأس وهو يتلألأ ببريق غريب ، امتدت أصابعه لتتحسسه فى خوف ، أخرج من جيبه علبة السجائر التى أعطاها له (أسكندر) وأشعل واحدة ، وأخذ ينفث دخانها فى الهواء محاولا أن يتلمس المتعة التى يتحدثون عنها ، ولكنه لا يشعر بأى شئ سوى بحرقة فى حلقه ، وسمع صوتها آت من خلفه قائلا :

- خمر ودخان .... هذا تغيير عجيب مسيو (رمضان) .

فإذا (جان) فى قمة جمالها وذروة أنوثتها ، استدار لها ونهض ، ولا يدرى لم تناول يدها وقبلها ، ربما تقليد أعمى لما يفعله (جوستاف) معها ومع غيرها ، نظرت إليه مندهشة :

- أوه .... أنت ليس (رمضان) الذى أعرفه ، لا أدرى أأخاف منك أم عليك .

فابتسم فى أسف : - أنا رمضان الذى تعرفينه ... كأس الخمر وضعته الساقية بدون أن أطلبه ... أما السجائر فقد أهداها لى صديق ليغرينى أن أدخن .

نظرت إليه فى إغراء ، وقد أنسدل طرف الوشاح الحريرى الذى تضعه على صدرها فأظهر مشارف نهدين لم تطاوعه عيناه أن يتأمل جمال رشاقتهما وقالت :- وتقبيل يدى .

شعر بالخجل من نفسه ، ولكنه قال متحديا : - الشئ المسموح به هنا .

- وإن كان مسموح بأكثر من هذا أكنت ستفعل ؟
- لن أنتظر أن يسمحوا .... بل سأفعل ما أريده

ابتسمت فى حياء ونظرت إلى كأس الخمر ومدت يدها وأخذته : - ألن تشربه ؟

- أنا لا أشرب الخمر كما تعرفين .

فقالت وهى ترتشف من الكأس : - نعم ، أعرفك جيدا ... أظنك لم تحضر هنا من قبل .

فأشار إلى (جوستاف) حيث يقف مع الحسناء قائلا : - لولا (جوستاف) ما أتيت ، وما وافقت أن أغطى أحداث تلك الحفلة .
نظرت حيث أشار وقالت : - تاثير (جوستاف) عليك خطير .
- أتخافين على ؟
- لا .... ولكنى ألا أخشى عليك من التغيير .
سادت فترة صمت قطعها بقوله : - ألم تصلى لقرار للآن ؟
وضعت الكأس بعد أن أخذت منه رشفة وقالت : - لقد فكرت طويلا فيما عرضته على ، ووجدت أنى لا أستطيع أن أقبل عرضك بالزواج .
- ولم لا نتزوج ؟
- ولم نتزوج أصلا .... فنحن نعمل كل ما يعمله المتزوجون ، ومع ذلك فنحن أحرار .
- تقصدين أنك فى أى لحظة قد تملين من تلك العلاقة فتطرحينها وراء ظهرك .
- رمضان .... الحياة عندى أكبر من أى قصة حب أو علاقة بين اثنين ، الحياة نوع من الحرية أمارسها كيفما أحب ، لقد أقمنا علاقتنا ونحن نتمتع بحريتنا ، وقد ننهى تلك العلاقة بدون أن نتنازل عن حريتنا ، وأى منطقة تصادر تلك الحرية لن أغامر بدخولها مطلقا .
صمتت قليلا ولمحت الأسى والحزن على ملامح وجهه : - صدقنى يا (رمضان) ... لا شئ يعوضنا عن حريتنا .. لا الحب ولا الزواج ، ولا أى شئ آخر .
لم يشعر إلا ويد (جوستاف) على كتفه قائلا وعلى شفتيه ابتسامه غريبة :
- لا أراكما إلا منهمكين فى الحديث ... أجئتما هنا لتتحدثا أم تستمتعا ؟
فقال (رمضان) فى أسى : - الحديث مع (جان) فى قمة المتعة .
- إذن لقد قطعت عليكما متعتكما .
نهض (رمضان) متجها نحو الباب وقال : سانصرف الآن .
فنظر إليه (جوستاف) متعجبا وتبادل النظر مع (جان) وقال : - كيف تنصرف والسهرة لم تبدأ بعد ؟!
- أنت تعلم أن ليس فى السهرات ، ولولا إلحاحك ما حضرت .
- نعم ، ولكن من سيغطى الحفل لقد كلفك رئيس التحرير بذلك أم أنك نسيت ، والمصور هناك يعد الكاميرا .
رد (جان) على عرضه لها بالزواج أنساه المهمة التى جاء من أجلها ، كان يتمنى أن توافق على الزواج ، وكان يميل فى قرارة نفسه أن ترفض لاعتقاده أنه ينتمى إلى حضارة وثقافة تختلف عن الحضارة والثقافة التى تنتمى إليها (جان) وكان يرى أن فى الإمكان أن تتقارب الحضارتان والثقافتان ، ولكن أبدا لن يتزاوجا ، لأن مفهوم الحضارة لديه والثقافة التميز والخصوصية ، والتزواج لن يبقى على أحد منهما ، وما يحدث بين الحضارات يحدث بين أبناء تلك الحضارة .
بحث عن المصور ، فوجده مشغولا بالتقاط بعض الصور لحسناوات يتفنن فى إظهار جمالهن
، وحدثت فى القاعة حركة غير عادية ، وسارت همهمات واتجهت الإنظار نحو باب القاعة ، فإذا (أنطونيادس) يرتدى حلة بيضاء ، وفى يده سيكار ، ووراءه (بربارة) تتبعه كظله ، وهى فى قمة جمالها وأنوثتها ودلالها ، سار بين المدعوين يوزع ابتساماته

وتعليقاته اللاذعة الممزوجة بدعباته ،والجميع يحيطونه بنظراتهم وابتساماتهم ، فتساءل (رمضان) :

- من هذا الرجل ؟ ولم كل من فى الحفل يتملقونه هكذا ؟

فنظر إليه (جوستاف) ساخرا وقال : - ألا تعرفه !! أنا لا أدرى لم أرسل رئيس تحرير جريدتك أن تغطى الحفل وأنت لا تعرف شيئا عن (أنطونيادس) ؟ أكيد هو لم يجد غيرك فى الجريدة ، أو أنه وراء ه هدف من إرسالك أنت بصفة خاصة .

- أهذا هو (أنطونيادس) ؟!
- نعم ، هذا يملك نصف الأسكندرية .
- لقد سمعت الكثير عنه .
- ما سمعته يعد أقل القليل ، فى وقت آخر سوف أحدثك عنه لتكتب ما طلبه رئيس التحرير منك ... ها هو قادم نحونا .

اتجه نحو (جان) مبتسما مرحبا وتناول يدها وقبلها وهو يكاد أن يلتهمها بعينيه اللذين يصدران عنهما بريق غريب ، وصافح (جوستاف) ، ونظر إلى (رمضان) فقال له (جوستاف) : - مسيو (رمضان) الصحفى .

فأومأ له برأسه ، ثم أخذ (جوستاف) وانتحى به جانبا ، فسأله (جوستاف) :

- ما كل هذه الاستعدادات ؟ وما المفاجئة التى تخفيها عنا للآن ؟

اقترب منه (أنطونيادس) وقال فيما يشبه التضرع : - (جوستاف) اعلم أن لك تأثيرا كبيرا على النساء ، وأن لك مغامرات وتجارب مع أصناف وأنواع النساء ، واعلم كذلك أنك صديقى ولن ترفض أى طلب أطلبه منك .

نظر (جوستاف) إليه مندهشا ، ثم قال : - الآن بدأت أخاف منك ومن طلبك .. أكيد أنك ستطلب شيئا خطيرا .

أمسكه من يده وبحث عنها ، فوجدها تقف مع (جان) : - أنظر إلى (بربارة) إنها جميلة ومغرية ، نعم إنها ممتلئة بعض الشئ ، ولكن إمكانياتها ومواهبها وخبرتها مع الرجال تفوق الوصف .

- نعم ، وما علاقتى بكل هذا ؟
- أريد منك أن تستخدم كل تأثيرك وجاذبيتك وخبرتك أن تؤثر على (بربارة) وتأخذها وتختفى بها الليلة فقط ... وإن لم تعرف فاقتلها ... المهم أنا أريد أن اتخلص من مراقبتها وحصارها الليلة ...الليلة فقط .

فسأله : - أهذا له علاقة بالمفاجئة التى تخفيها وتعد لها كل هذا الإعداد ؟

اقترب منه أكثر وكأنه سيبوح له بسر خطير :

- المفاجئة هى (إنشراح) لقد دعوتها وستحضر الليلة .

فنظر إليه مندهشا وقال : (إنشراح) !! أنت لم تشاهدها سوى مرة واحدة معى .

- الأمر الذى لا تعرفه أن منذ تلك الليلة ولم أفارقها ، لقد أصبحت مجنونا بها ، مهووسا بها لقد فعلت كل ما يخطر على بالك معها ، ولكن لا جدوى ، إنها نوع من النساء لم يسبق أن تعاملت معه ، أنا الذى كانت مهنتى الإتجار فى النساء .. راقصة تصرعنى هكذا .... معك حق فى كل ما قلته عنها .
- وكيف وافقت أن تحضر هنا .
- بعد إلحاح شديد منى ، ولا تتخيل كم الهدايا والذهب الذى نثرته تحت قدميها لتوافق وتتنازل وتتناول العشاء معى هنا .

نظر إليه (جوستاف) وملامح السخرية تظهر من نبرات كلامه :

- إذن هناك امرأة انتصرت على ....
- (جوستاف) يا صديقى ...قلها ... هناك امرأة أذلت (أنطونيادس) ... نعم أنا أعترف بذلك
- ولو وصل الأمر سأتزوجها .
- تتزوجها !! وهل تعرف (بربارة) بكل ذلك ؟

وضع يده على فمه : - (بربارة) لديها استعداد أن تقتل (إنشراح) لو علمت بهذا الأمر .

- والحل ؟
- المهم أن تخلصنى الليلة من (بربارة) .
- وبعد الليلة ؟
- سوف أفكر ... المهم الليلة .
- ما على إلا أن أحاول .
- تلك خدمة لن أنساها لك مدى العمر .

وفجأة وجده يحملق فى شئ وقد امتقع وجهه ، فاستدر حيث ينظر ، فوجدها تقف على باب القاعة فى أبهى زينتها ووراءها وحولها عدد من الرجال يتبعونها كظلها ، خف إليها (أنطونيادس) متجاهلا تحيات من يمر بهم ، وتناول يدها مقبلا إياها ، وقادها إلى منضدة فى ركن القاعة أعدها خصيصا لهذا اللقاء ... كيف استطاعت أن تملك قلب وعقل هذا الديناصور

ليس لأنها استعصت عليه وفشلت كل محاولاته لينالها ، ولكن لأن لديها شيئا غامضا يستهوى الرجال ، والرجال الأقوياء بصفة خاصة ، تجعله على استعداد أن يضحى بكل شئ كى يفوز بها ، ومن خلال المرات التى كان يجلس معها عرف أنها امرأة قوية جريئة مقتحمة ، تحب أن تكون المبادرة بيدها ، لم تخضع لكل الإغراءات التى تحيط بها من كل صنف ونوع .

ذهب إلى حيث يجلس (رمضان) و (جان) وكانا صامتين ، سأله (رمضان) :

- من تلك التى تجلس مع (أنطونيادس) ؟
- شئ طبيعى ألا تعرفها .... إنها أشهر راقصة فى الأسكندرية كلها ....(إنشراح) ... وتلك هى المفاجأة التى كان يخفيها ... والحفلة التى تراها الليلة من أجلها .

بوغت (رمضان) وأطلق صيحة عالية : - (إنشراح) .... أتقول الحق ؟

- أتعرفها ؟

صمت قليلا مفكرا ثم قال : - لا ... ولكن أحد اصدقائى حدثنى عنها ، وأخذ على عهدا ألا أكتب عنها .

فنظرت (جان) باتجاه (إنشراح) وقالت بسخرية : - تكتب عن راقصة !!

فقال (جوستاف) :- الرقص فى حد ذاته شئ بديع ... وهى شخصية تستحق أن يكتب عنها ، و...

فقاطعته (جان) وهى تتأهب للنهوض : - عن إذنكما سأحيى بعض صديقاتى .

وبعد أن انصرفت ، سأله (جوستاف) : - أشعر أن الجو متوتر بينكما ... ماذا حدث ؟

صمت (رمضان) قليلا ثم قال : - لقد رفضت عرضى لها بالزواج .

- أوكنت تظن أنها ستوافق ؟
- بالقطع لا .
- إذن لماذا عرضت عليها .
- خوفا من أن أفقدها .

- (جان) محال أن تتنازل عن إرادتها وحريتها تحت أى دعوى .
- ولكن . ..

فنهض (جوستاف) وهو يبحث عن (بربارة) وقال له :

- ليس هذا وقت يسمح بالتحدث فى مثل تلك الموضوعات .
- وهل ستذهب وتتركنى أنت أيضا .
- ورائى مهمة .

وأخذ يبحث عنها حتى وجدها تراقب (أنطونيادس) عن قرب ، وتكاد الغيرة تقتلها ، اقترب منها قائلا : - أهلا (بربارة) .

- أهلا (مسيو (جوستاف) .
- أنت جميلة ورائعة الليلة .

فقالت مندهشة : - لقد تقابلنا كثيرا ، ولم تبد تلك الملاحظة من قبل ، أم أنى فجأة أصبحت جميلة ورائعة .

لم يحر جوابا ، وبادرته قائلة : - (أنطونيادس) هو الذى أرسلك لى .. أليس كذلك ؟

صمت قليلا ، ثم قال : - (بربارة) أنت فى غاية الذكاء ، وتعرفين ما الذى طلبه (أنطونيادس) منى .

فابتسمت إليه ابتسامة مغرية ، وسألته وهى تتأمل ملامحه : - وما رأيك ؟

- أن ترفعى الحصار عنه ... على الأقل الليلة .
- ولم ؟
- السجان قد يكون أكثر بؤسا من السجين نفسه .

اقتربت منه أكثر وقالت : - وماذا أيضا ؟

- وكلما كان السجن واسعا كلما صعب الهروب منه .

نظرت إلى حيث يجلس (أنطونيادس) وسألته : - و هى ؟

- راقصة .
- لم أره هكذا من قبل .
- أتخافين عليه ؟
- وعليها .
- لم ؟
- (انطونيادس) طفل كبير ، قد يضحى بكل ما يملك فى سبيل امتلاك لعبة ، وإذا لم يستطع أن يمتلكها قد يحطمها .
- وما أدراك أنه لا يستطيع أن يمتلكها .
- إنى أعرف النساء جيدا ، كما أعرف الرجال .

وبعد أن تجرعت أكثر من كأس من الخمر ، مدت يدها إلى (جوستاف) قائلة :

- هل سنمضى السهرة هنا ؟

تناول يدها قائلا : - لا ، بل سنمضيها فى الخارج .

وقبل أن تخرج ألقت نظرة أخيرة على (أنطونيادس) ، والتمعت عيناها بالدموع .

********** ********** ********

- ألن ترقصى ؟
- هنا !!
- نعم .
- لا أظن .

- ولكنى وعدت ضيوفى أنك سترقصين .
- إذن ارقص أنت لهم .
- منذ أن عرفتك لم أطلب منك طلبا ووافقت عليه .
- إذن لا تطلب ، كى لا أرفض .

كانا يجلسان فى قاعة واسعة مفتحة النوافذ ، وأضواء الأسكندرية تتلألأ من على البعد ، وحولهما الشموع وأنواع وأصناف من الزهور ، والموسيقى تنساب فى رقة ورشاقة ، وقد مدت المائدة وسط القاعة وعليها أصناف كثيرة من الأطعمة والفواكة والمشروبات ، سألته :

- لمااذ لا تتناول العشاء مع ضيوفك ؟
- أتخافين ؟
- لم ؟
- لأن حرسك الحديدى مشغولون عنك بالطعام والشراب .
- أنا لا أخاف ، واستطيع أن أحمى نفسى ، حتى من نفسى .

مد يده وأمسك بيدها ، ولكنها تخلصت منه ، حاول أن يخفى ضيقه وتوتره بأن أشعل السيجار ، سألها : - بكم تقدرين ثروتى ؟

- لا أدرى .
- أتعرفين مقدار غنى ملك مصر ... الخديوى (توفيق) ؟
- أظن أنه أغنى رجلا فى مصر .

فأشار إلى صدره قائلا : - أنا أغنى من الملك .

فنظرت إليه باستخفاف قائلة : - ولماذا تقول لى ذلك ؟

- لأنك لو وافقتين أن تتزوجينى ستكونين ملكة ، كل ما أملك سيكون تحت قدميك .
- الذى أعرفه أن المال أغلى من كل شئ عندك ، وربما هذا الذى جعلك تكون بهذا الغنى الواسع .
- نعم ، ولكنى الآن وجدت المرأة التى استطاعت أن تكون عندى أغلى من المال .

فقالت مندهشة وبدلال : - أغلى من المال .

- نعم، أنت عندى أغلى من كل ما أملك .
- نحن لم نتعارف إلا منذ مدة قصيرة ، ومع ذلك أراك على استعداد أن تتزوجنى ، وتهبنى كل ثروتك .
- بكلمة منك اقوم بتنفيذ كل ما تطلبينه .
- ألا ترى أن هذا نوع من الجنون .
- أنا أعترف أنى مجنون بك .
- قد يكون الليلة فقط .
- الليلة وكل ليالى عمرى كله .
- كل ما تقوله يسعد أى امرأة ، وأن تجد رجلا مثلك على استعداد أن يضحى بالكثير من أجلها .
- إذن أنت موافقة على أن نتزوج .
- لا ، أنا فى حاجة إلى وقت للتفكير .
- التفكير فى ماذا ؟
- فى أشياء كثيرة .
- أنا واثق أنك ستوافقين .

نظرت إليه طويلا ، ثم قالت : - أنت واثق من نفسك ، أما أنا فلم أقرر بعد .

********** ********** *********

- لقد عرض عليها الزواج و.....

نزل الخبر عليها نزول الصاعقة ، آخر شئ كانت تتوقعه أن يفكر (أنطونيادس) بالزواج ، وممن ؟ من تلك الراقصة ، لقد فضلها على (بربارة) بعد كل هذا الحب والتفانى ... لقد ضحت بكل شئ ، حتى بعمرها من أجله ، ولم تجد سوى الجحود والنكران . حاولت أن تتمالك نفسها أمام تلك المرأة التى أوصتها أن تتجسس على (أنطونيادس) أثناء جلوسه مع الراقصة ، وتتسمع على كل ما يدور بينهما ، ولو تركت نفسها على سجيتها لانفجرت فى البكاء وأخذت تصرخ وتصرخ ... سألتها وهى ترتعش من الأنفعال :

- وماذا أيضا ؟

- وقال لها إن وافقت على الزواج سيكون كل ما أملك تحت قدميك .

نهضت وأخذت تتحرك فى حجرة نومها فى هستيريا ، وأخذت تبحث عن علبة سجائرها ، فسألتها المرأة عما تبحث ، فقالت عن علبة سجائرها فأشارت المرأة إلى المنضدة ، فاخذت (بربارة) العلبة ومزقت غلافها وأشعلت واحدة ، وسألتها وهى تكظم بركان من الغيظ والغضب : - وماذا كان ردها ؟

- طلبت مهلة للتفكير .

أشارت (بربارة) للمرأة أن تنصرف ، ثم وقفت أمام المرآة طويلا ؟، ثم تجردت من ملابسها واخذت تضحك بجنون ، ثم انفجرت فى بكاء متواصل ، وألقت بنفسها على الفراش ، وراحت فى ثبات عميق .

********** ********** **********

قال (فؤاد) بغضب : - إما أن تخبرنى عن سبب تعجبك واندهاشك ، أو تتركنى لأنام ، منذ أن حضرت من تلك الحفلة وأنا لا أفهم شيئا ، ما بك يا (رمضان) ؟

أنا لم أرك هكذا من قبل ؟

- أتعرف رجلا اسمه (أنطونيادس) ؟
- لا اعرفه ولكنى سمعت عنه ... فهو أغنى أغنياء الأسكندرية .
- أتعرف أنه مجنون براقصة اسمها (إنشراح) .
- ارحمنى يا (رمضان) ... وما شأنى أنا ؟ ثم هو حر ...واحد معجب براقصة ... وهو أغنى الأغنياء ... ما العجب فى ذلك حتى لو تزوجها .
- ليس العجب هنا .
- إذن أين ؟
- إن تلك الراقصة عرضت الزواج صراحة على (رفاعى) .
- من (رفاعى) هذا ؟
- ألا تعرف (رفاعى) ...الذى يقوم بتوزيع الصحف والمجلات على المحلات والأكشاك .

ضرب (فؤاد) على رأسه بيده قائلا : - تقصد (رفاعى) .... أمعقول هذا ؟ (أنطونيادس) مجنون بها ، وهى تريد الزواج من (رفاعى) . ولكن من أين عرفت كل هذه الخبار العجيبة ؟

- (رفاعى) نفسه أخبرنى بهذا .
- وهل سيتزوجها ؟
- لا .

- لم ؟
- يا (فؤاد) (إنشراح) تلك أشهر وأغنى وأجمل راقصة فى السكندرية .
- وما المشكلة فى هذا ؟ ربما هى تحبه .
- وفى رأيك أن الحب يحل كل المشاكل .

صمت (فؤاد) قليلا وشرد بعيدا ببصره ثم قال : - الظاهر أن الحب يزيد من المشاكل ولا يحلها ... لقد وصلت إلى طريق مسدود أنا و(تحية) .

- لم ؟ كانت مشكلتكما زواج أختها (سعاد) ، وقد خطبت ، وعلى وشك الزواج .
- إذن على أن أتقدم لخالى كى أخطبها .
- وفيم انتظارك ؟

نظر إليه بأسف : - كل ما أحصل عليه من عملى أرسله إلى أمى بدون أن يعلم والدى ، كى أساعدهما فى معيشتهما ، أبى رجل مفلس يعمل فى محلج فى دمنهور بأجرة يومية لا تكفيه شيئا .

- ولكن خالك رجل غنى .
- وتلك مشكلة أخرى .
- ماذا تقصد ؟
- الغنى يريد أن يناسب الغنى مثله ، أو من هو أغنى منه ، وأنا يا ولداه كما خلقتنى .
- و (تحية) .
- إنها تحبنى ، وتريد أن تتزوجنى اليوم قبل غدا ، وأغلب مقابلتنا بكاء وشكوى .
- لم ؟
- بدأ الخطاب يطلبونها من والدها ، وليس بيدها شئ .

صمت (رمضان) قليلا ثم تنهد وقال : - أنت أفضل منى .

- لم ؟
- (جان) رفضت أن تتزوجنى .
- الذى أعرفه أنكما متحابان ... فلم لا تتزوجان ؟
- الذى أعرفه وتعرفه أنت ... اثنان متحابان يتزوجان ، ولكن هى تعتقد أن الزواج نوع من العبودية ، نوع من تحكم الرجل فى المرأة .
- وستظلان تحبان بعضكما إلى متى ؟
- إلى أن يسأم واحد من الآخر .
- هؤلاء الأجانب تفكيرهم فى غاية الغرابة .
- لا أحد يعرف أينا على صواب .

سادت فترة صمت ، قطعها (رمضان) بقوله : - ألن تنم ؟

- بعد أن حركت تلك المواجع ...لا أظن سيزورنى النوم تلك الليلة .... سأقوم بعمل الشاى ، وعلى رأى المثل تبات نار تصبح رماد .

(23)
- عالمان مختلفان -

شم رائحة غريبة وهو يصعد السلم الخشبى المتداعى ، وحينما اقترب من الباب سمع صوت ضحكات ، فأيقن أن أمه لديها ضيوف ، طرق الباب ، فأتاه صوت أمه من الداخل :

- ادخل يا (رفاعى) .

وحينما دخل وجد (إنشراح) جالسة على الأرض مع أمه ، وحولهما علب كثيرة من الهدايا ، بوغت من تلك المفاجأة ، وقف لا يدرى ما يفعل ، وقفت (إنشراح) متوردة الوجنتين ، وسادت فترة صمت قطعتها أمه بقولها : - ألن تسلم على ضيفتنا ؟
تقدم (رفاعى) وجذب مقعدا وقال لأمه : - وهل من اللائق يا أمى أن تجليسها على الأرض؟
- هى التى أصرت يابنى أن تجلس بجوارى على الأرض .
جلست (إنشراح) على مقعد خشبى متداع وظل (رفاعى) واقفا لا يدرى ما يفعله ، فقالت له : - هل ستظل واقفا ؟
فجذب مقعدا خشبيا وجلس بالقرب منها وبعد فترة تبادلا فيها النظرات قامت أمه لتعد الشاى
وبعد تردد قالت : -- ماذا قلت ياسى (رفاعى) ؟
- قلت لا إله إلا الله يا ست (إنشراح) .... والزواج قسمة ونصيب ... والظاهر قسمتك ليست معى .
- لم ياسى (رفاعى) ؟ والله أنا ست شريفة .... نعم أنا أعمل راقصة ولكن بعد أن نتزوج سأترك هذا الكار ، ونذهب إلى مكان لا يعرفنا فيه أحد ، وسنعيش بما تكسبه من عرق جبينك ، وأمك هى أمى ، وسأربى لك أولادك ، وسوف أبذل كل جهدى لأسعدك .
- ست (إنشراح) ... أنا لو تزوجت لن أجد أفضل منك ، وإنى أعلم أنك امرأة تحافظين على نفسك ، وسمعت عنك الكثير ، ولكنى لا أرفض الزواج لتلك الأسباب .
- وما السبب لرفضك ؟
- ست (إنشراح) ... أنت من عالم وأنا من عالم آخر ... محال أن يلتقيا العالمان ، فما بالك بالزواج ؟ لا تنسى أننى حمال ، وقبل أن اشترى العربة ، كنت أحمل الجوالات والبضائع فوق ظهرى ، ربما أنت تشعرين بالجميل لأنى أنقذتك من أيدى اللصوص ، ولكن أى رجل كان سيفعل ذلك .
- لا ، ليس لهذا السبب يا سى (رفاعى) .
- إذن ما السبب ؟
دمعت عيناها واصطبغت عيناها بحمرة الخجل وقالت : - ألا تعرف السبب الذى من أجله أطلب منك أن تتزوجنى ؟
ابتسم (رفاعى) فى أسى : - يا ست (إنشراح) أنا رجل فقير لا حول لى ولا قوة يوما أجد قوتى ، وأيام لا أجد شيئا .. لابد أن تتزوجى من يليق بك ، ما تتحدثين عنه لا يشبع من جوع ولا يغطى من برد ، إن صبرتى معى شهرا لن تصبرى الثانى ، وإن صبرتى سنة لن تصبرى الثانية .
نهضت وجلست تحت قدميه وقالت : - ما تراها اليوم تأكل أحسن الأطعمة ، وتلبس أفخر الثياب وتقيم فى أفخر الفنادق ، ويزداد حسابها كل يوم فى البنك بالمئات ، والباشوات وأغنى الرجال يتساقطون تحت قدميها ملبين إشارتها ، كانت تعمل فى الأرض أجيرة وفى البيوت خدامة ، وفى المحالج كى تحصل على لقمة تسد جوعها وجلبابا يستر جسدها ، وكثيرا ما ضربت وأهنت ، وليال طوال نمت ودموعى لم تجف ، عشت وسط الذئاب التى

تريد أن تنهش شرفى ، وكنت أتمنى أن أتزوج رجلا ... أى رجل يحمينى من جبروت وظلم العالم ... وقتها لم أجد أحدا .
نهضت وجففت دموعها وهى توليه ظهرها ، ثم جلست على المقعد أمامه ، وفجأة تمايل المقعد وسقطت صارخة ، فأسرع إليها (رفاعى) وأحاطها بيديه ، ورفعها وكان قريبا جدا منها حتى أنه أحس بأنفاسها وانتفاضة جسدها ، أسرع وأبتعد عنها ، قالت له : - أنا لم أولد غنية يا سى
(رفاعى) وأنت غنى برجولتك وشهامتك ، وأى امرأة لا تريد أكثر من هذا .
نظر (رفاعى) إليها ثم نكس رأسه ولم يتكلكم ، نهضت (إنشراح) واقتربت منه وقالت :
- الظاهر أنى فرضت نفسى عليك .... ربما تكون أنت على صواب فى رفضك الزواج منى ، ولكن لا تنس إنى ما تمنيت شيئا قدر أن أعيش معك .

وقبل أن تغادر الحجرة دخلت أمه تحمل أكواب الشاى ، قبلتها (إنشراح) وأسرعت بالانصراف ، تعجبت أمه وسألته : - هل أغضبت الست (إنشراح) ؟
فتمالك مشاعره ، وإن لم يتمالك دمعة طفرت من عينيه فأسرع بإخفائها :
- لم أغضبها يا أمى .
- إذن لماذا كانت تبكى ... أجبنى يا بنى لماذا كانت تبكى ؟ إنى أعلم أنك طيب القلب ولا تؤذى أحدا ... فلم أبكيتها ؟
- كانت تريد الزواج منى .

بهتت الأم وفغرت فاها ، ولم تتمالك أن جلست على الأرض وقالت وكأنها تحدث نفسها :
- تتزوجك .... أنت .... كيف ؟ ولم ؟

وتأملته طويلا ثم انبسطت أساريرها وقالت : - والله ست (إنشراح) إنسانة طيبة .. يارب تكون من نصيبك .... إذن لم كانت تبكى ؟
- لأنى رفضت أن أتزوجها ؟
- ولم يا بنى ؟
- لأنها غنية وأنا فقير يا أمى .
- ولكنها قبلت ... وطالما طلبت أن تتزوجك فهى تريدك .

وضع وجهه فى كفيه وقال : - أنت لا تعرفين شيئا عن العالم يا أمى ... أنت لا تخرجين من الحارة .
شعر بيدها تربت على كتفه قائلة بصوتها الحنون : - أعرف يا بنى .... أعرف حينما تريد المرأة رجلا فهى على استعداد أن تضحى بالعالم من أجله إن هو ساعدها على ذلك .

********** ******* **********

مشاعر متناقضة ومتضاربة تستعر فى صدره ، وهو يخرج من شارع ليدخل ميدان ، ومن ميدان لحارة ، غير مبال بمن يستوقفه من المارة ، شاردا عن كل شئ مسترجعا كلامها ودموعها ، لا يدرى لم يرفض الزواج منها ؟ ولا يدرى أيضا لم يوافق على الزواج منها ؟ منذ أن قابلها وعرف العذاب والألم طريقه إلى قلبه ، لا ينكر أنه أحبها ، ولكن الحب ترف غير متاح لإمثاله ، وإن أحب فيجب أن يحب من تناسبه وتوافقه ، لم يتخيل أنه فى يوم ستقف امرأة فى مثل جمال (إنشراح) وشهرتها وغنائها لتطلب منه أن يتزوجها ، وهو الذى يرفض ... إنه يتمنى فى قرارة نفسه أن يتزوجها ، ولكن أشياء كثيرة تجعله يرى أن زواجه منها محال ، لو كانت فقيرة وليست مشهورة هل كان سيتزوجها ؟

كان يسير على الكورنيش متمهلا ، ووجد (سعيد) يميل نحو قهوة (القزاز) كما تعود كل يوم فى نفس الوقت ، وجد المكان شبه خال على غير المعتاد ، وخاله جالسا يدخن سيجاره مستندا إلى جدار الحائط باسطا قدميه العارية المتشققة ، رحب به ، ونظر فى وجهه مندهشا قائلا :

- ما بك يا (رفاعى) .... أأنت مريض ؟
- لم ؟
- كأنك كبرت عشر سنوات ، وجهك باهت ، وعيناك زائغتان ، وأحوالك غريبة ، دائما شاردا ولم تعد تضحك ... لست (رفاعى) الذى أعرفه ... حتى كل الحمالين والحمارة يقولون ذلك .

نظر (رفاعى) حوله فلم يجد إلا عددا قليلا منهم فسأله : - أين هم ؟

- ألم أقل لك أنك تغيرت ... ولا تدرى شيئا عما يحدث حولك كما قلت لك ، لابد أن هناك امرأة ... لا يقلب حال شاب مثلك إلا امرأة ... وأنا أتعجب لم للأن لم تتزوج ؟ سأذهب الليلة عند أمك كى أفاتحها فى أمر زواجك ... لابد أن نزوجك يا (رفاعى) ، جارتى ست طيبة لديه ابنة اسمها (زوبة) هى قصيرة بعض الشئ ، وأنت ما شاء الله كعمود السوارى ، ولكنها جميلة وطيبة .
- اترك (زوبة) وعامود السوارى يا خالى الآن ، وأخبرنى ماذا حدث للناس ؟

أخذ يسعل بشدة وألقى السيجارة من يده ، وأخرج أخرى وأخذ فى إشعالها وهو لا يتوقف عن السعال ، فسأله (رفاعى) : - لم تشعل أخرى طالما جعلتك تسعل هكذا ؟!

فضحك (شعير) طويلا وبرزت عظام جسده النحيل من تحت تلك الأثمال البالية التى يرتديها وقال : - يا (رفاعى) يا خويا ... السيجارة التى ألقيتها هى التى سببت السعال ... أما تلك التى اشعلتها فهى التى ستهدئ من السعال .

فقال نافد الصبر : - المهم يا خال ... ماذا حدث ؟

- لا ندرى يا (رفاعى) أصحاب المحلات الأجانب بدأوا فى إساءة معاملة الحمالين والحمارين .... الحمولة التى كانوا يدفعون فيه خمسة قروش ، يدفعون قرشا أو لا يدفعون ، وحينما يعترض الحمالون يشتمونهم ويضربونهم ، ومن يعمل عندهم طول النهار قد لا يعطونه شيئا بالمرة ويؤجلون الدفع لليوم التالى ، وإذا اشتكى أحد لا يسألون فيه ... البعض جلس فى بيته والبعض ترك تلك الشغلانة ، والقوى منهم أخذ فى حمل نبوتا أو سكينا كى يدافع عن نفسه إذا تعرض للضرب والإهانة ... وكل يوم معارك ومشاجرات ، بالأمس ضرب الواد (الشحات) وحمله أصحابه إلى المستشفى وكل واحد منا دفع ما يقدر عليه ، وأرسلنا المبلغ إلى زوجته ... مبلغا بسيطا ، ولكن كما تعلم اليد قصيرة والعين بصيرة .
- ولم لا يدافع رجال المعلم (كحلاوى) عنهم ؟
- لأن الحمالين والحمارة لا يدفعون ، ورجال المعلم (كحلاوى) لا يأخذون إلا من أصحاب المحلات الأجنبية ، وهم يدفعون أضعاف ما يدفعه الحمالون .... ومع كل الضرب والإهانة هم مجبرون أن يعملوا عندهم ، لأن من يمكث فى بيته اليوم لا يقدر أن يبقى غدا ، لأننا على باب الله .

وهما يتحدثان إذا بحارسين أجنبيين يسيران وكأنهما يبحثان عن شئ ، توقفا أمام مجموعة من الحمالين وتحدثا معهم ، وفجأة أخذ الحارسان فى ركل وضرب الحمالين ، وارتفعت الأصوات واللعنات والصراخ ، فما كان من (رفاعى) إلا أن سحب نبوته من عربته وأسرع متجها إلى الحارسين ، وحينما تنبها إليه أخرج أحدهما طبنجته وصوبها إلى صدر

(رفاعى) ، وبسرعة قفز (شعير) على (رفاعى) ليبعده وأخذ منه النبوت متضرعا إليه : - اعقل يا (رفاعى) ... ألا ترى ما بأيديهما ؟
غلى الدم فى عروق (رفاعى) ولم يهتم وصرخ فيهما ، فما كان منهما إلا أن انسحبا فى حذر وخوف ، وأخذ الحمالون يقذفونهما بالطوب والحصى واصفين إياهما بأنهما جبناء ، والتف الحمالون والحمارة حول (رفاعى) ، أخذ (شعير) ابن أخته قائلا له وهو ممسك بالنبوت :

- لن تحمل النبوت معك بعد الآن ... لو لم أكن هنا ربما قتلك الحارسان،لا تنس أن معهما سلاح .

فجذب (رفاعى) النبوت وقال بغضب : - إنهم أجبن من أن يستعملوا ما بيدهم من سلاح ولابد لنا أن ندافع عن أنفسنا ، فنحن أصحاب البلد وهم الغرباء .
وذهب نحو مجموعة الحمالين ووقف وسطهم وهو يرفع نبوته : - يا جماعة لن نسكت لهم بعد اليوم ، وطالما الفتوات تخلوا عن حمايتنا فلابد أن نحمى أنفسنا .
فقال أحدهم : - كيف نحمى أنفسنا يا (رفاعى) ؟
وعقب آخر : - وهل سنشتغل أم نتعارك معهم ؟
وقال آخر : - حتى لو تعاركنا معهم ... فبأى شئ ندافع عن أنفسنا ؟
فقال أحدهم بحماس زائد : - بأى شئ ؟ بالعصى أو النبابيت أو السكاكين ، نحن لسنا حيوانات تضرب وتهان ولا تفعل شيئا .
فقال أحدهم : - سيكون مصيرنا كمصير (الشحات) مرمى فى المستشفى .
رفع (رفاعى) يده فصمت الجميع ، فقال : - ككما رأيتم ، إنهم جبناء ، لا يقدرون على شئ إلا إذا كنا متفرقين ، لا أحد يذهب إليهم للعمل منفردا .
فضحك أحدهم قائلا : - تقصد واحد يعمل والآخر يحميه ، وبعد ذلك نقسم الأجرة ؟
فقال أحدهم مستصوبا رأيه : - ما المانع أفضل من أن نجلس فى البيت ، وحينما يرون ذلك لن يجرأوا على ضربنا وإهانتنا .
وقال (رفاعى) : - ويجب أن نكون على اتصال ببعض ، بحيث إذا حدث لأحدنا مكروه يسرع الباقون لنجدته .

- وكيف سنتصل ببعض ؟

صمت الجميع ، ثم انبرى واحد قائلا : - ليشترى كل منا صفارة إذا حدث شئ يصفر فينجده الجميع
انفجر الجميع فى الضحك واستلقى البعض على قفاه وقال أحدهم : - مثل عساكر الدورية .
سادت فترة صمت أخذ البعض يمسح دموعه التى طفرت من كثرة الضحك ، وأنبرى أحدهم قائلا : - ولم لا ؟ الصفارة لن تكلفنا سوى مليم .
وبعد قليل من التفكير استصوب الجميع الفكرة ، وحينما هدأت حرارة الشمس انصرف الجميع إلى أعمالهم وهو يشدون على يد (رفاعى) ، نظر (شعير) إلى ابن أخته مبتسما وقال ساخرا : - وأنا يا (رفاعى) من الذى سيحمينى ؟
عانقه (رفاعى) قائلا : - أنا أحميك بروحى يا خال .
قال (شعير) وهو يصعد ليركب فى عربة (رفاعى) :

- أنت بهذا أشعلت النار ، والله أعلم ما الذى سيحدث بعد ذلك .
- أيرضيك ما يحدث لهم ؟

فقال بضيق وأسى : - لا يرضينى ، ولكن ما بأيدينا أن نفعله ، هل سنجرى على لقمة عيشنا أم سنعمل عمل الفتوات ونضرب ونكسر ؟ نحن نقبل الإهانة من أجل لقمة عيشنا ، ولنأكل أولادنا ، وهم أقوياء وبلادهم قوية تسندهم .

- ونحن أيضا أقوياء ، أنسيت ما يقوله ويفعله (عرابى) ؟

نكس رأسه فى الأرض وقال بحزن : - أتظن أن (عرابى) يشعر بوجودنا ويعمل من أجلنا ؟

نحن يا (رفاعى) المنسيين فى البلد .

ابتسم مستأنفا كلامه : - بالأمس حملت صورة كبيرة ، اشترتها امرأة فرنسية من مصور ، وحينما قمت بتوصيل الصورة ، وقفت أمامها طويلا ، وكانت لميدان القناصل ، وسألتنى الفرنسية سؤالا ، وقالت لى وكأنها تحدث نفسها : - يوجد كل شئ فى الصورة ... إلا أنت وأمثالك ... على ما يبدو أن المصور نسى أن يصوركم .

وقامت المرأة بوضعها على الحائط وسمتها جدارية النسيان . ثم أعطتنى مبلغا لم أكن أحلم به .

- لم ؟
- لقد سألتها كما تسألنى أنت الآن .
- بم أجابتك ؟

فضحك (شعير) قائلا : - قالت لى تعويضا عن النسيان .

سادت فترة صمت بينهما ، شرد (رفاعى) ببصره و (شعير) يتأمل ملامحه ، فقال :

- الليلة سوف أفاتح أم (زوبة) .

فتنبه (رفاعى) قائلا : - ومن أم (زوبة) تلك ؟

- خطيبتك .
- خطيبتى !
- إن شاء الله .

صعد (رفاعى) إلى عربته قائلا : - تزوجها أنت يا خال .

فضحك (شعير) وأشار إلى أسنانه قائلا : - كيف أتزوج وقد سقطت أسنانى كلها .

- وما علاقة الأسنان بالزواج يا خال ؟
- أهم ما فى الزواج هى الأسنان يا غشيم .

ونزل من العربة والسعال يغالب ضحكاته .

********** **********

سأله (رمضان) فى عجب : - أحدث فعلا ما تقوله ؟!

فقال (رفاعى) : - نعم ، وإن لم نفعل ذلك قد نقتل .

- والحراس الأجانب أمعهم أسلحة نارية ؟
- نعم .
- وهل هذا شئ طبيعى ومعتاد بالنسبة لهم ؟
- لم يكن هناك حراس أصلا .... هذا حدث فى المدة الأخيرة .
- ربما تكون الأسلحة مع واحد أو اثنين فقط .
- جميع حراس الوكالات والورش والمحلات الأجنبية معهم أسلحة ... أنت تعرف أنى طوال النهار أذهب إلى جميع أحياء الأسكندرية حسب طلبات الزبائن . و(الشحات) الذى ضربوه مازال فى المستشفى .

فقال (رمضان) وكأنه يحدث نفسه : - وكأن الأمر اتفاق بينهم .
فسأله (رفاعى) : - إتفاق على ماذا ؟
- لا تشغل بالك ... المهم نسيت أن أقول لك ... لقد رأيت (إنشراح) .
بوغت (رفاعى) ولم يستطع أن يخفى اضطرابه ، ولاحظ ذلك (رمضان) فابتسم وقال له :
- ألا تحب أن ترى صورتها ؟
لم يجب (رفاعى) ، ففتح (رمضان) درج مكتبه وأخرج مجموعة من الصور (لإنشراح) وناولها رفاعى الذى أخذ يتصفحها وهو مبهور، وكأنه يرى أشياء فى غاية الغرابة والعجب، ثم أعطاها لرمضان ، وسأله : - ألم تعد تقابلها يا (رفاعى) ؟
نكس رأسه وقال بصوت مخنوق : - لقد كانت عندى فى البيت .
- لم ؟
- لقد عرضت على الزواج مرة أخرى .
- وطبعا رفضت .
- حاولت أن أرفض .
تناول (رمضان) صورة من الصور أمامه وأشار إلى (أنطونيادس) وهو يقف بجوار (إنشراح) ، وسأله : - أتعرف من الذى يقف مع (إنشراح) يا رفاعى ؟
دقق النظر ثم ثم قال : - لا أعرفه .
- اسمه (أنطونيادس) أغنى وأقوى رجل فى الأسكندرية .
نظر (رفاعى) إليه مستفسرا ، فقال له : - الذى عرفته مؤخرا أنه عرض عليها الزواج .
وضع (رفاعى) يديه بين ركبتيه وقال بأسف : - أنه يليق بها .
- ولكنها فضلتك عنه .
- لا تعرف مصلحتها .
- أو أنك لا تعرف مصلحتك .
- ماذا تقصد ؟
- أقصد أن زواجك منها قد ينتشلك من الوضع الذى أنت فيه ، لا تؤاخذنى يا (رفاعى) .
ابتسم فى أسى ، ثم قال : - أنا أعلم أن فى تلك الحياة لابد من وجود إناس فقراء وسيظلون هكذا يعيشون فقراء ويموتون فقراء ، أنا واحد منهم ، وأنا قانع بذلك ...ولو تزوجت (إنشراح) قد أصبح غنيا ، ولكن بالتأكيد لن أكون (رفاعى) الذى أعرفه وتعرفه أنت .
صمت (رمضان) طويلا وهو يتأمل ملامح (رفاعى) ثم قال :
- أنت إنسان عظيم يا (رفاعى) ، معها حق (إنشراح) أن تتعلق بك .

(24)
- مصرع كحلاوى-

قال (أبو الليل) بعد أن صرف رجاله حتى يخلو (بمخيمر) وهو يسدد إليه نظرات كلها تحد وإن حاول أن يغلفها بابتسامة ساخرة :- الليلة ليتك يا معلم (مخيمر) .
- لم يا معلم ؟
- ألم تطلب منى أن أتوسط لك عند المعلم (كحلاوى) لتخطب (صبح) ؟
- ظننت أنك نسيت الأمر ، وصرفت نظر عن الموضوع .
أمسك يده بقوة وقال : - أنا لا أنسى رجالى ، ولا أبيعهم بذهب العالم .

نكس (مخيمر) رأسه وأراد أن يتكلم ولكن (أبو الليل) أشار له بالصمت وقال بصوت حاسم : - كما قلت لك الليلة ليلتك ، لا تفكر فى أى شئ آخر ، جهز نفسك ، وسوف استأذن لك لتدخل على المعلم (كحلاوى) تطلب يد ابنته (صبح) .

- ولكنى أخشى أن يرفض .
- الظاهر أنك لا تقدر معلمك (أبو الليل) ، أى شئ يطلبه أحد رجالى لابد وأن ينفذ ولو على الرقاب .
- ألن تأتى معى ؟ أنا لم أقابل المعلم إلا مرات قليلة ، وأخشى ألا أستطيع أن أتكلم .
- لا تخش شيئا ، فلن تجد المعلم (كحلاوى) .
- لن أجده !!
- أقصد أنه لن يعاملك كرجل من رجاله ، ولكن خطيب ابنته ، وخطيب الابنة له معاملة خاصة ، وأريد منك أن تدخل عليه فى كامل زينتك ومعك نبوتك .

فقال بتعجب : - معى نبوتى ... لم ؟!

- أول شئ يهتم به المعلم (كحلاوى) أن يرى الفتوة فى كامل هيئته ، خذ معك نبوتك وأدخل عليه كالأسد كى تملأعينيه ..... مع السلامة يا معلم (مخيمر) .

********** ********** **********

- بعد كل ما قلته لك تقول لى مم تخاف ؟

فسأله (شافعى) : - هل تحدث معك فى أى شئ آخر ؟

وتدخل (حسنين) فى الحديث قائلا : - هذا الرجل غريب ، فيما مضى حرضك على قتل المعلم (كحلاوى) واليوم مهد لك الطريق كى تطلب يد ابنته ، مع أنه كما تقول كان يريد أن يتزوجها .

نهض (مخيمر) ونفض جلبابه وأخذ يذهب ويجئ فى الغرفة ثم قال :

- وهذا ما يحيرنى ، ثم أن كلامه وملامحه لم تريحنى .

فقال (شافعى) : - حيل وألاعيب معلمين الفتوات كثيرة يا (مخيمر) ، ونحن لا نعرف عنها الكثير.... ربما يختبرك فيما مضى ، وربما يكون ما قاله لك (أبو الليل) بعلم المعلم (كحلاوى) وبتحريض منه ، ليعرف مقدار إخلاصك له .

نظر (مخيمر) إليه غير مقتنع بكلامه قائلا : - لا أظن أن الأمر كما تقول .

فقال (حسنين) بعد صمت : - ربما (أبو الليل) يدبر لك مكيدة كى يتخلص منك .

فقال (شافعى) مهونا الأمر : - وربما لا يكون شئ مما نفكر فيه ، وأن الرجل يريد كسب (مخيمر) إلى صفه .

فقال (حسنين) : - السؤال الآن ... مخيمر يذهب الليلة أم لا يذهب .

فرد (شافعى) متعجبا : - كيف لا يذهب والمعلم (كحلاوى) فى انتظاره كى يطلب يد ابنته ؟

فقال (حسنين) : - هذا ما يقوله (أبو الليل) ، وأنا غير مستريح لهذا الرجل .

فسأل (شافعى) (مخيمر) : - ما رأيك فيما يقوله (حسنين) ؟

- وإذا لم أذهب الليلة ... هل بذلك حللت المشكلة ؟ ثم بماذا سوف أعلل عدم حضورى ، وهذا موعد مع المعلم (كحلاوى) ، ومن أجل خطبة ابنته .

فقال (حسنين) : - الأعذار كثيرة ... المهم تمضى تلك الليلة وأنت بعيدا عن (أبو الليل) .

صمت (مخيمر) مفكرا ، ثم قال بحسم : - لابد أن أذهب فى الميعاد مهما حدث ويحدث .

فقال (حسنين) : - إذن لابد ((لشافعى) أن يرافقك ولا يتركك .

فقال (شافعى) : - سوف أتبعك كظلك ، ولن أتركك لحظة واحدة .
فقال (حسنين) متهيبا : - أحضر الخيزرانة وأذهب معكما .
فقال (شافعى) ساخرا : - نحن ندخرك للشدة يا (حسنين) .
- إذن سأنتظر عودتكما على أحر من الجمر .
********** ********** **********
قليلة تلك المرات التى دخل فيها حجرتها ، شم رائحة عطر تعبق المكان ، وهى واقفة أمام مرآتها تمشط شعرها الأشقر الطويل ، وترتدى جلبابا يشى فى استحياء عن مواطن أنوثة مستترة ، نظرت إليه فى استحياء وبيدها المشط ، تأملها طويلا ، وكأن الزمن رجع عشرين سنة إلى الوراء ، لم يدرك إلا الآن أنها قريبة الشبه بأمها ، تذكر أحلى وأمتع أيام عمره ، وكذلك أسوأ وأمر الأيام حينما هجرته وتركته مع ابنتها ، ولا ينسى أنه فى لحظات فكر أن يقتل هذا المخلوق الصغير انتقاما منها ، ولكن الرحمة والرأفة تحركت ، وبدلا من أن يقتلها أخذها فى أحضانه ، ولم تفارقه منذ ذلك الحين ، بهجته وسر سعادته ، لا يتخيل لحظة أن يعيش بدونها ، أصبحت بمثابة أمه وزوجته وأخته ، بها ومعها لا يشعر أنه ينقصه شئ ، ولكن هناك من سيشاركه فيها ، بل قد يأخذها منه ، وهذا ما دفعه أن يأتى إليها ليحدثها فى هذا الأمر ، جلس على الفراش يراقبها ، عقصت شعرها ولفته بوشاح زهرى اللون وتقدمت منه وجلست بجواره مستفسرة عن سبب مجيئه ، قال لها : - أنت جميلة جدا يا (صبح) .
تناولت يده وقبلتها : - أتعلمين مقدار حبى لك .
- أعلم ذلك ، فأنت أغلى إنسان فى حياتى كلها .
نكس رأسه ثم قال : - جاء من سيشاركنى حبك وقد ينسيك أباك .
- إذن لن أتزوج من هذا الذى قد ينسينى حبة قلبى .
- لا، ستتزوجين، ولكنى سأشترط على (مخيمر) أن تظلا بجوارى ولا تغادران هذا البيت .
طوقت عنق أبيها : - لا أحد يستطيع أن يشغلتى عنك ، كما لم يستطع أحد أن يشغلك عنى ، الذى ينبض فى صدرى هو الذى ينبض فى صدرى ، يا ألغى أب فى العالم .
ولمحت وللأول مرة دموعه تنساب من عينيه الملتهبتين ، فمسحتهما وعانقته .
********** ********** **********
قالت (نيرة) وهى تساعدها فى ارتداء ملابسها : أنا لم أرك متوترة هكذا من قبل يا ست (صبح) .
فأشارت إلى أكوام من الفساتين موضوعة على فراشها وقالت : - لأنى لا أستطيع أن أرتدى هذه الملابس ، أنا لم أتعود على إرتدائها من قبل .
- القميص والبنطلون ليس للنساء ،، وأنت سوف تتزوجين ، لابد أن تلبسى وتتزينى كبقية البنات .
ونظرت إليها وابتسمت وهى تسوى لها شعرها وقالت : - وإن كنت أعرف أن سبب توترك ليست الملابس .
فسالتها : - وماذا تظنين ؟
- طبعا خطيبك (مخيمر) .
جلست على الفراش وشردت بعض الوقت وارتسمت الحيرة على ملامحها وسألتها :
- - هل كل البنات يشعرن بالتوتر والقلق حينما يخطبن ؟
- طبعا يا بنتى .

- لم ؟
فنظرت إليها متعجبة وقالت :- لأنهن مقبلات على حياة جديدة ، ومعاشرة إنسان غريب عنهن .
صمتت قليلا ، ثم سألتها : - هل تعرفين (مخيمر) جيدا يا ست (صبح) ؟
توردت وجنتاها وقالت : - أنا لم أجلس معه ولم أتحدث معه مطلقا ، لقد رأيته مرة أو اثنتين .
- لقد سمعت عنه حكايات كثيرة .
اقتربت منها أكثر وسالتها : - احكيها لى .
- ليست حكايات ولكنه كلام عن شجاعته وجرأته وقوته .
قالت بأسف : - لقد سمعت أنا أيضا مثلما سمعت .
- ولكن أهو جميل ؟
- شكله مقبول .
- ربنا يهنيك ، انت تستحقين كل خير ، فأنت جميلة جدا ، لولا أنك تبالغين فى إخفاء جمالك بسبب ملابسك ، وتعتبرين نفسك واحدا من الفتوات .
- وإن كنت لا أريد الزواج .
فضربت (نيرة) على صدرها مستنكرة ذلك قائلة : - لم يا بنتى ؟ كل البنات لابد أن يتزوجن ، وأنت بصفة خاصة لابد أن تتزوجى .
- لم ؟
فقالت فى حرج : - أنت ليس لك أحد سوى والدك ... وإن شاء الله بعد عمر طويل .... أنت فى حاجة إلى رجل .
- أنا أستطيع أن أعيش بدون رجل .
- لا تؤاخذينى يا بنتى ، أنت تعيشين وسط الرجال باسم والدك ، أما بعد عمر طويل فلن يرضى أحد من الرجال أن يكون لك كلمة عليهم ، أو حتى وجود بينهم ، وهذا سبب إلحاح والدك أن تتزوجى اليوم قبل الغد .
فنظرت إليها مندهشة وقالت : - كأن زواجى من (مخيمر) ...
فقاطعتها قائلة : - ومن هذا الذى سيرضى على زوجته أن تقف بين الرجال ؟
- ولكنى أمضيت عمرى بينهم .
- إن أردت أن يكتب الله لك التوفيق فى حياتك المقبلة فانسى كل شئ عن حياتك الماضية ، من الآن يجب أن تعيشى كامرأة .
- أخشى ألا أعرف ، ولكنى سأحاول .
- البركة فى (مخيمر) أظنه سيجعلك تنجحين فى تلك المحاولة .
********** ********** **********
- وهل يعلم أحد بوجود السرداب غيرك و (زغطة) ؟
- لا أحد يعلم بوجوده غيرنا ... فقد أكتشفنا وجوده صدفة .
- وهل سرتما فيه .
- نعم ، الباب الخارجى يفتح على حديقة مهجورة خلف البيت تخفيه الأشجار عن الأنظار ، والباب الداخلى أسفل السلم ، وهو باب صغير لم يلحظه أحد من قبل . وفى نهاية السلم كما تعرف الحجرة التى يجلس فيها المعلم (كحلاوى) عادة قبل أن ينزل لمقابلة الرجال .
- وهل أنت على يقين أن (زغطة) سيسلك هذا السرداب وينفذ المهمة ؟

- إنى أعلم كيف يفكر ويتصرف ، وقد تحدثت معه بحيث يفهم من نفسه أن الليلة هى أنسب موعد لتنفيذ المهمة .
- إذن سيدخل ويخرج بدون أن يشعر به أحد .
- نعم ولكن البيت سيكون مزدحما بالرجال .
- وهذا ما نريده ، وانا دعوت الكثير من فتوات الأحياء الأخرى بحجة السهر معنا .

صمت (أبو الليل) قليلا ثم قال : - أريدك أن تتبع (زغطة) كظله وبدون أن يشعر بك ، وسأنتظر منك إشارة بعد أن ينتهى من المعلم .

- ومتى وأين سأقتل (زغطة) ؟

صمت (ابو الليل) طويلا وهو يراقب قطع الفحم المشتعل والتى تزداد توهجا كلما أخذ نفسا ، ومد يده ليحكم غطاء رأسه ، ثم قال وسحابات الدخان تخرج من أنفه : - لن تقتل (زغطة) .

- وماذا سنفعل به ؟
- ستنتظره حتى يخرج من السرداب وتخطفه ، وتضعه مقيدا فى المنزل المهجور الذى أمتلكه .

ومد يده بالمفاتيح : - وتلك مفاتيح المنزل .

صمت (عليش) مفكرا ، ثم قال وهو يتناول المفاتيح : - الذى تأمر به .

********** **********

****

أحس (مخيمر) بإحساس غريب وهو يخطو داخل بيت المعلم (كحلاوى) ، هو لا يستطيع أن يضع له اسما أو تفسيرا ، كل ما هو على يقين منه أنه غير مستريح وغير مطمئن لما هو مقدم عليه ، وكاشف (شافعى) بهذا الإحساس ، فعرض عليه أن يعودا من حيث أتيا ، فرفض (مخيمر) ، مرا على مجاميع من الرجال يعرفان البعض ويجهلان البعض الآخر ، يقفون لمخيمر ويحيونه بحرارة ، ويستطيع أن يستشف من ملامح بعض الوجه أن البعض يحمل له الكره أو الحقد ، والآخر يعجب به ، فقد ذاع صيته فى الآونة الأخيرة لما أبداه من شجاعة وجرأة وقسوة فيما خاضه من معارك ومشاجرات حدثت بينهم وبين فتوات المناطق الآخرى .... استقبله (أبو الليل) بترحاب مبالغ فيه ، وأجلسه بجواره وأثنى علي هيئته وجلبابه وعباءته البيضاووين ، وطوال الجلسة التى كان فيها شراب وطعام كثير وعدد كثير من الرجال على غير العادة ، كان يتودد له ببعض الكلمات ، طالت الجلسة ، وبدأ القلق يتسرب إلى نفس (مخيمر) وتبادل النظرات هو و (شافعى) فأبدى هذا دهشته ولم يجبه بشئ ، وفجأة نهض

(أبو الليل) ونهض الرجال وقال له وهو يضع يده على كتفه : - المعلم الكبير فى انتظارك يا معلم (مخيمر) .

وجد نفسه مساقا فى طريقه صاعدا درجات السلم ، سائرا فى دهليز طويل مظلم واقفا أمام حجرة المعلم (كحلاوى) ، لا أحد معه حتى (شافعى) لم يجده بجواره ، تهيب من أن يدق الباب ، ولكنه صمع صوت حركة بالداخل وحشرجة غريبة وضع يده على الباب ودفعه ببطئ ، وضحت الحشرجة أكثر مد بصره بالداخل ، فتسمر مكانه وجمدت الدماء فى عروقه ، المعلم (كحلاوى) مستندا إلى الحائط وسكينا مغروسا فى صدره والدماء تنزف بغزارة ، وكان على وشك السقوط على الأرض ، تخلص (مخيمر) من هول الصدمة وأسرع إليه محتضنا إياه وقال له بصوت متقطع وجسده ينتفض بين يديه وملامح وجهه تتقلص : - (مخيمر) ...

(صبح) زوجتك ... زوجتك إياها ... وهى فى حمايتك من الآن ...
وأغمض عينيه ، فسأله وهو ينظر إلى الدماء التى تنزف من صدره .
- من .... من الذى قتلك يا (معلم) ؟
حاول جاهدا أن يفتح عينيه وملامح وجهه المعروق تتقلص من الألم وقال بصوت متحشرج :
- ز ... زغ.....زغطة ....
لم يدر إلا ومجموعة من الرجال خلفه تسد باب الحجرة وتصيح بأعلى صوتها :
- (مخيمر) قتل المعلم .... المعلم قتل .... مخيمر قتل المعلم .
ترك الجثة تسقط على الأرض ، ووجد أن يده وملابسه غارقتين فى الدماء ، وفجأة ضاقت الحجرة على سعتها بالرجال ينقلون النظر بين جثة المعلم و (مخيمر) الذى يقف مذهولا لا يستطيع أن يتحرك أو يتكلم ، أفسح الرجال طريقا للمعلم (أبو الليل) الذى تقدم وأنحنى على الجثة ثم وقف ناظرا إلى (مخيمر) قائلا له بصوت ارتجت له الجدران :
- أتقتل معلمك .... وولى نعمتك يا خائن يا جبان .
وصفعه على وجهه ، فقال (مخيمر) وهو يرتعش ناظرا إلى جثة المعلم :
- انا لم أقتله ... إنه (زغطة) ... لقد أخبرنى بذلك قبل أن يموت ... أنا لم أقتله .
تسمر المعلم (أبو الليل) وسادت فترة صمت ، ثم استدار إلى الرجال سائلا :
- هل رأى أحد منكم (زغطة) الليلة ؟
فأجاب الجميع بالنفى ، فقال المعلم (أبو الليل) والغضب والشرر يتطايران من عينيه : - أنت قتلت المعلم يا (مخيمر) .
وهنا اخترقت (صبح) صفوف الرجال ، وحينما رأت والدها غارقا فى دمائه أطلقت صرخة وهوت عليه باكية ، تقبل وجهه ، نظر إليها (أبو الليل) وإلى (مخيمر) ورفع نبوته قائلا :
- هنا القاتل يقتل حالا ، ولابد ان تقتل يا (مخيمر) جزاءا على قتلك المعلم .
وأشار إلى مجموعة من الرجال فتقدموا وأحاطوا بمخيمر ورفعوا نبابيتهم وقبل أن يهوا على رأس (مخيمر) قفز (شافعى) وسطهم ووقف أمام (مخيمر) رافعا نبوته ، وصائحا فى الرجال : - لن يقترب أحد من (مخيمر) .
فقال (أبو الليل) : - أنت الذى وضعت نفسك تحت نبابيت الرجال ، وإما تترك مكانك هذا أو تقتل مع صاحبك قاتل المعلم .
- ومن أنت حتى تقرر وتحكم وتنفذ يا (أبو الليل) ؟ ربما يكون القاتل (زغطة) ... وإلا فأين هو وجميع الرجال موجودون ؟
- لقد سألت الرجال ... فلم يره أحد .
- ومعنى أن لم يره أحد ألا يكون هو القاتل .... ثم ما الدافع لأن يقتل (مخيمر) المعلم
(كحلاوى) وكان سيزوجه ابنته ، وأنت شاهد على ذلك وأنت من توسط لدى المعلم .... القاتل ليس (مخيمر) ، وإذا كان (زغطة) هو القاتل فوراءه كثيرون دفعوه إلى ذلك .
- دعك من هذا الكلام الفارغ .... لابد وأن يقتل قاتل المعلم ، يد (مخيمر) ملوثة بدماء المعلم .... وهذا ما سننفذه حالا ... القاتل يقتل .
واستدار وصاح فى الرجال صيحة قوية : - اقتلوا قاتل معلمكم ، واقتلوا من يمنعكم من ذلك .

تدافع الرجال ورفعوا نبابيتهم ، ولكن صحة قوية جعلتهم يتوقفون من المعلم (سيد) وتقدم من (أبو الليل) وقال بصوت جهورى : - لا يا (أبو الليل) .... ليس أنت من يقرر الآن .
هز (أبو الليل) رأسه ، ونظر إلى الرجال الواقفين خلفه وإلى المحيطين بمخيمر و(شافعى) وقال مبتسما : - بعد مقتل المعلم (كحلاوى) أنا الذى أقرر ، واسأل الرجال ... أليس هذا ما نسير عليه ؟

- نعم ، ولكنك لست صاحب الدم .
- ومن صاحب الدم يا معلم (سيد) ؟
- ابنة المعلم ... المعلمة (صبح) إن شاءت تأمر بقتل (مخيمر) وإن شاءت تنتظر حتى نستدعى الحكومة ويتم التحقيق وتقرير العدل .

فنظر (أبو الليل) إلى (صبح) الراكعة على جثة أبيها قائلا : - دع (صبح) تبكى أباها ، ثم من الآن ليس للنساء مكان بين الرجال .
نهضت (صبح) وجففت دموعها ، وجذبت نبوتا من أحد الرجال ، وصاحت فيهم بصوت قوى : - لينزل كل منكم نبوته .
فأطاع الرجال بدون تردد ، تقدمت خطوات من (أبو الليل) وقالت وهى تواجهه :

- لم يكن للنساء مكان بينكم ، ولن يكون ، أنا المعلمة (صبح) سواء كان المعلم (كحلاوى) حيا أو ميتا ، والمعلم (كحلاوى) ليس رجلا عاديا ينتهى أمره بقتل رجل سواء كان بريئا أو متهما ... المعلم (كحلاوى) هو الذى ربى وعلم تلك السواعد ، هو الذى أنفق على اليتامى ، وحمى الأرامل ، وداوى الجرحى ، هو الذى جمع الرجال وجعل لهم هيبة وجانب يخشاه كل رجل فى الأسكندرية .

وفى اثناء ذلك سمع نهنهة رجل ، وبكاء آخر وانهمرت الدموع المتحجرة تبلل اللحى والشوارب ، فقالت (صبح) : - لا يبكى أحد المعلم (كحلاوى) لأنه خلق منكم رجالا ، وستظلون رجالا حتى بعد موته .
ارتفعت الأصوات ، وأخذ الرجال يدقون بالنبابيت على الأرض ، وهتف البعض باسم المعلمة (صبح) ، وقالت بصوت حاولت أن يكون ثابتا : - وكما قال المعلم (سيد) الحكومة هى التى ستحقق فى قتل المعلم (كحلاوى) ، وهذا أشرف وأكرم له .
فقال (أبو الليل) : - ما لنا والحكومة ؟ نحن هنا الحكومة ، أندع أمورنا لتسويها لنا الحكومة ؟
فقالت (صبح) : - يا معلم ... أنت لك مقام كبير بين الرجال ، ولك أن تقول ويسمع الرجال كلمتك ، ولكن فيما يخص المعلم (كحلاوى) أنا الوحيدة التى أقرر ، لأنى صاحبة الدم ، كما قال المعلم (سيد) .
ثم اتجهت إلى الرجال : - وما رأى الرجال ... قولوا بكل شجاعة كما علمكم (كحلاوى) .
فارتفعت أصوات الرجال مرحبة برأى (صبح) . نظر (أبو الليل) إليها ، وإلى الرجال حوله ، وقال مخاطبا الرجال بسخرية وهو يتجه نحو الباب : - إذن احرسوا (مخيمر) حتى تأتى الحكومة لتحقق كما قالت صاحبة الدم ، المعلمة (صبح) .

********** ********** **********

قال (أبو الليل) غاضبا : - أفسد (زغطة) كل شئ علينا ، أيعجز على قتل المعلم ؟!
فقال (عليش) : - لقد قتله ، ولكن عمره طال حتى أخبر (مخيمر) باسم (زغطة) .
قال (أبو الليل) مفكرا : - لم أحسب حسابا لما حدث .

فقال (عليش) مهمونا الأمر :- ولم تكدر مزاجك يا معلم ؟ اؤمر وأقوم بقتل (زغطة) ، وندفنه بدون أن يدرى أحد وهو مرمى فى القبو كما أمرت .
صمت (أبو الليل) قليلا ثم قال : - المشكلة ليست فى (زغطة) الآن ، ولكن فى (مخيمر) و (شافعى) و (سيد) و (صبح) .... لقد أصبحوا يدا واحدة ، ولديهم يقين أن لى يد فى قتل المعلم (كحلاوى) ، ويوجد بعض الرجال ميالين لهم .... لم أكن أعلم أن (صبح) لها هذا التأثير الكبير عليهم ... استطاعت فى لحظات أن تقنعهم .
فقال (عليش) وهو يسوى قطع فحم النرجيلة : - (مخيمر) مرمى فى الحجز ، أما (شافعى) و (سيد) فلو شئت أقوم بقتلهم ، بعد ذلك تكون (صبح) امرأة مكسورة الجناح .
- لا يا (عليش) ... لقد تعلمت من المعلم (كحلاوى) الله يرحمه كيف استفيد من أعدائى بدلا من أن أتخلص منهم .
- وكيف ستستفيد منهم يا معلم ؟
- هذا الأمر فى حاجة إلى تفكير يا (عليش) ، المهم أين المال الذى جمعته أنت والرجال من المحلات والوكالات والورش .

نكس (عليش) رأسه وقال بعد تردد : - لقد رفضوا أن يعطونا ، بعدما عرفوا أن المعلم (كحلاوى) قتل .
انتفض (أبو الليل) واقفا وأطاح بالمنضدة التى عليها الشراب والفاكهة ، وصاح فى (عليش) بعدما أمسكه من مخنقه : - وتركتوهم يا كلاب .... إذا كان (كحلاوى) مات فإن (أبو الليل) موجود .
- وماذا كنا سنفعل ؟
- تكسرون ... تحرقون ... تقتلون .
- ولكنك لم تأمرنا بذلك .
- عهد المعلم (كحلاوى) و (صبح) انتهى ، وبدأ عهد (أبو الليل) ، وسوف يرون ليلا أسود لا نهاية له ، سوف يأتون ويركعون هنا أمامى ... اجمع الرجال وانتظر حتى أخبرك ماذا تفعل .

********** ********** **********

قال (أنجلو) بعد أن قضم التفاحة وأفرغ الكأس فى جوفه : - برافو (كارمليو) تخلصنا من كحلاوى ومن الفتوات .
ضحك (كانتو) طويلا ثم قال : - لو رأيت منظر الفتوات بعد أن قام الحراس بطردهم وقذفوهم بالبيض ، وشيعوهم باللعنات ، نحن الان بدأنا عصرا جديدا ، لن يقاسمنا أحد فيما نكسبه .
قال (أنجلو) وهو يعاود ملئ كأسه : - الأهم من ذلك إن اصدقاءنا أصبحوا يثقون فينا ثقة كاملة ، ويسيرون وراءنا مغمضين الأعين .
فضحك (كانتو) ناظرا إلى (كارمليو) المنتشى بما يسمعه : - إنهم يطلقون على (كارمليو) اسم (الزعيم) .
فعقب (أنجلو) : - ولم لا .... أليس كل ما حدث من تدبيره ؟
ونظر (كانتو) طويلا إلى (كارمليو) وقال : - ولكنى أشعر أنك قلق من شئ ما .
وقف (كارمليو) وأشعل لفافة تبغ وأخذ يتحرك فى المكان ثم وقف قائلا :
- أولا قد لا يرضى الفتوات عن رفضنا إعطائهم الإتاوة ويتصرفون تصرفا أهوج ، ثانيا صناديق الأسلحة التى أرسلها لنا (أنطونيادس) والتى لم نطلبها ولم ندفع ثمنها ، ومن قبل لم يعطنا إلا جزء مما طلبناه بعد دفع ثمنه كاملا ، فما سبب تغيره

هكذا ، ويطلب منا أن نوزعها على أصدقائنا ويدفعون وقتما يشاءون ، ألا يثير كل هذا فى نفوسكما خوفا ؟
قال (أنجلو) : - لا ... لا يثير فى نفسى أى قلق .
فقال (كارمليو) ساخرا : - إنى أعرف أن لا شئ يثير قلقك .
وقال (كانتو) : - اخبرنا عن سبب قلقك يا (كارمليو) ؟
- لو ربطنا بين ما يحدث فى البحر من مناورات من الأسطول الإنجليزى ، وتحركات ما يسمى (بعرابى) فى القاهرة وقلق الجاليات الأجنبية ، وتدفق الأسلحة الآن علينا بلا حساب ، تدرك أننا مقبلون على شئ خطير .
فقال (أنجلو) وهو يفرغ آخر قطرة من الزجاجة فى كأسه : - ألا يصب كل هذا فى مصلحتنا ، تحرك الأسطول فى البحر يعتبر تهديد لعرابى وجيشه ، تدفق الأسلحة علينا يعتبر تهديد لمن يمثلون خطرا على مصالحنا ، وبعد مقتل (كحلاوى) وطردنا للفتوات أرى أن كل شئ يسير وفق مصالحنا .... فعلام تقلق ؟
- أخشى أن يكون فى مصلحة آخرين ، وما نحن إلا أداة أو ألعوبة فى أيديهم .
- لا تخش شيئا ، فإن لم نكسب مما يحدث فلن نخسر شيئا .
********** **********
****
- الحمد لله يا معلم (سيد) أنك تعرف أن ليس لى يد فى قتل المعلم (كحلاوى) .
ربت المعلم (سيد) على كتف (مخيمر) المحبوس على ذمة التحقيق فى اتهامه بقتل المعلم
(كحلاوى) : - اطمئن يا (مخيمر) أنا والمعلمة (صبح) متأكدين أنك ليس لك يد فى مقتل المعلم .
نظر (مخيمر) إلى (شافعى) معاتبا وقال : - لو رافقتنى كما اتفقنا ربما تغير الأمر .
فقال (شافعى) بأسف : - لا أدرى ما حدث تلك الليلة ، فجأة اختفيت عن نظرى ، ووجدت القاعة مزدحمة بالرجال ، فلم استطع الخروج حتى سمعت من يقول إنك قتلت المعلم (كحلاوى) .
فقال (سيد) مهمونا الأمر : - هون على نفسك يا (شافعى) .... عدم وجودك مع مخيمر كان فى صالحكما ... أظن أن (أبو الليل) كان لا يتورع أن يتهمكما بقتل المعلم (كحلاوى) ... المهم الآن أين (زغطة) ؟
فقال (مخيمر) : - ألم تعثر عليه للآن يا معلم (سيد) ؟
- كأن الأرض انشقت وابتلعته ، كلفت عددا من الرجال للبحث عنه ، وللآن لم يعثروا عليه .
قال (مخيمر) بأسى : - بدون وجود (زغطة) قد أمضى عمرى كله فى السجن أو أشنق .
ربت (شافعى) على كتفه قائلا : - لا تخش شيئا ... ربنا مع المظلوم .. وإن شاء الله سوف نعثر على (زغطة) .
- لا أظن يا (شافعى) ... كل شئ كان مرسوما ونفذ بدقة .
سادت فترة صمت ثم قال : - منك لله يا (أسكندر) .
- وما شأن (أسكندر) بما نحن فيه ؟
- هو سبب مجيئنا إلى هنا ، وياليتك يا (مخيمر) سمعت كلامى ورجعنا إلى دمنهور ، كنا فى غنى عن كل ما حدث .

فقال (سيد) : - ما بك يا (شافعى) هل ستولول كالنساء ... إن شاء الله سيخرج (مخيمر) من الحبس قريبا .
فقال (مخيمر) : - المهم كيف حال المعلمة (صبح) ، لقد أوصانى بها المعلم (كحلاوى) قبل أن يموت ، وأنا لا أستطيع أن أفعل شيئا وأنا هنا و...
فقاطعه (سيد) : - لا تقلق عليها ...ربنا معاها .
********** ********** **********

- ولكن ألم يخالجك شك ولو لحظة أن (مخيمر) قد يكون القاتل ؟

نظر المعلم (سيد) إلى (صبح) المتشحة بالسواد ، وقد عقصت شعرها الأشقر بوشاح أسود ، فأظهر جمالها التى تحاول أن تخفيه بتجهمها وقسوة نظراتها وقال : - لا .
سألته : - لم ؟

- لأن (مخيمر) ليس له مصلحة فى قتل المعلم (كحلاوى) .
- إذن هناك من له مصلحة فى قتله .
- مع أنك تعيشين بيننا ... إلا أن هناك أمور كثيرة تخفى عنك .

قالت (صبح) وقد التمعت عيناها بالدموع : - تلك الأمور أخبرنى بها المعلم قبل أن يموت بأيام ، وكان يتوقع موته ، وكأنه كان يشعر بما يدبر فى الخفاء .
سادت فترة صمت قطعها (سيد) بقوله : - هل ستظلين حبيسة حجرتك هكذا يا معلمة (صبح) ؟
فقالت بأسى : - وما الذى سيجعلنى أخرج ، أليست الأمور تسير على ما يرام ؟
دق (سيد) دقات متتالية بنبوته على الأرض قائلا : - لا ، الأمور تسوء من سيئ إلى أسوأ .

- ولماذا لم تخبرنى ؟
- كفاك ما أنت فيه .
- ماذا حدث ؟
- ولاد الصرمة الأجانب رفضوا أن يدفعوا ما كانوا يدفعونه ، وأهانوا الفتوات .
- وماذا كان رد (أبو الليل) ؟
- كما تعرفين (أبو الليل) لا يجيد سوى الحرق والتدمير والنهب ، والفتوات منتظرين أوامره .
- ألا نستطيع أن نمنع ذلك ؟
- كثير من الرجال على هوى (أبو الليل) ولو حاولنا منع ذلك قد تحدث معركة بين الفتوات .

قالت (صبح) وكأنها تحدث نفسها : - (أبو الليل) لم يضيع وقته ، وها هى الرياح تأتى بما يشتهى .

- ألن تحدثيه حتى يعدل عن طريقه ؟

صمتت (صبح) قليلا مفكرة ، ثم قالت : - لا أظن أنه سيقتنع بكلامى ، فتلك فرصة ولن يجعلها تضيع ، ومن خلالها سيأخذ مكان المعلم (كحلاوى) ، ويرضى الرجال حوله .

- وماذا سنعمل الآن ؟
- لا شئ ، دع العاصفة تمر ، وبعدها نفكر فيما سنفعله

(25)
- الأحد الدامى -

الحادى عشر من (حزيران) ، الأسكندرية هادئة مسترخية ، عائلات بأكملها خرجت إلى الشواطئ هربا من الحر واستمتاعا بيوم الأجازة الأسبوعى ، يجلسون يتابعون قطع الأسطول الإنجليزى فى الميناء الشرقى والميناء الغربى ، بعض القوارب تقترب فى حذر من السفن العملاقة التى تحجب الأفق ، ثم تبتعد حينما ترى تلويحات جنود الأسطول بالإبتعاد .
الميادين والشوارع فى هذا الوقت تكاد تكون شاغرة ، والمحلات والورش والمخازن مغلقة إلا القليل ، ينظم ويرتب بضائعه استعداد لبداية الأسبوع ، أو يفرغ شحنة بضائع أتت له من الميناء ، والبعض الآخر لا يغلق أبواب محلاته فى أيام العطلة حرصا على الكسب .
حركة البيع والشراء قليلة ، وأغلب الحمالين والحمارة يجلسون بجوار الحائط وعلى أرصفة الميادين والشوارع يترقبون من يناديهم أو يلوح لهم من بعيد .
وفى منتصف شارع (السبع بنات) وأمام مخزن تابع لمحلات الخواجا (إسكندر توبندرونى) كان عدد من الحمالين يفرغون شحنة بضائع ، وحينما انتهوا من عملهم جلسوا يلتقطون أنفاسهم ويجففون عرقهم ، نهض أحدهم ودخل المخزن ليحصل على أجره ، وما هى إلا دقائق حتى سمع صوت شجار وسب ولعن من العمال اليونانيين الذين داخل المخزن ، وبعد قليل ألقوا بالحمال خارج المخزن مثخنا بجراحه ، وحينما رأى زملاؤه ذلك نهضوا مقتحمين المخزن وفى يد كل منهم ما التقطه مما صادفه سواء كان حجرا أو قطعة خشب أو قطعة حديد ، ونشأت
معركة بين الفريقين ، جزء منها داخل المخزن وجزء خارجه ، اندفع الناس من كل مكان مستطلعين ما يحدث وسمع صوت الصفارات التى كان قد اتفق عليها فيما بينهم إذا تعرض أحدهم لضرب أو إهانة ، فأسرع كل من سمع الصفارة إلى المخزن يضرب من يصادفه من الأجانب سواء كان من العاملين أو جذبه الفضول ، وأطلت النساء من الشرفات ونزل الرجال والشباب من بيوتهم ، وحينما أحس عمال المخزن اليونانيين أن الحمالين قد تكاثروا عليهم أخرج أحدهم طبنجته وأطلق بضع رصاصات أصابت إحداها خادمة إيطالية فى كتفها كانت تسير بالقرب من المخزن ، حينذ انفجر الموقف ، وأخذ الرصاص ينهمر من الشرفات والنوافذ وأبواب البيوت ، وانتشر خبر المعركة فى الشوارع والحوارى المجاورة ، فاندفع كل من سمع من الحمالين والحمارة ومعهم عدد ممن دفعته الحمية والنخوة ، وأصبح الشارع كساحة معركة ، البعض ساقطا مضرجا فى دمائه ، والآخر مجروحا يزحف أو يحاول أن يتجنب أن تصيبه رصاصة أو ضربة نبوت أو طعنة سكين أو شدخة حجر ، وأخذ الأمر يستفحل بمرور الوقت كالنار التى تزيد اشتعالها كلما ورد إليها شئ من الوقود ، وتفجرت مشاعر الغضب والكره والحقد ، حينما وجدت متنفسا لها بين أهل البلد والأجانب ، أو بين العبيد والأسياد ، أو بين الفقراء والأغنياء ، وبسرعة انتشرت المعارك وفاضت من شارع (السبع بنات) إلى شارع (الضبطية) وإلى (المنشية) وشارع (الطرطوشية) و (المحمودية) ، وكسرت أبواب المخازن والمحلات والورش ، ونهب ما فيها ، وأضرم النار فى البعض الآخر ، والذى ساعد فى ذلك أنها كانت مغلقة ولا يوجد من يدافع عنها ، وامتلأت الشوارع بالجثث والجرحى من الفريقين ، وإن كانت جثث أهل البلد أكثر ، لأن الأجانب كانوا يطلقون النار على المتواجدين فى الشوارع من الشرفات والنوافذ ، وافترشت الشوارع بمحتويات المخازن والمحلات ، وفى أثناء ذلك تجمع عدد من أهل البلد وكونوا فرقا تسير فى الشوارع مسلحة بالنبابيت تضرب كل من تصادفه من الأجانب معه سلاح ، أو يشترك فى ضرب أهل البلد .

انتشر الخبر فى بقية أحياء الأسكندرية وبانتشاره ازدات المعركة ضراوة وشراسة ، لأن أعدادا كثيرة كانت تفد إلى المناطق التى بدأت فيها ، إما للمشاهدة أو الاشتراك فى الضرب والحرق والنهب ، وبوصول الأخبار إلى العائلات التى كانت خارج بيوتها على الشاطئ رجعوا مسرعين متحفزين وكانوا وقودا آخر للمعركة .
واستمرت المعارك من شارع إلى شارع ومن بيت إلى بيت ، يزيد من تأججها واشتعالها الحقد والكراهية بين الأجانب وأهل البلد . ومع بداية غروب شمس ذلك اليوم الدامى بدأت الأمور تهدأ والشوارع تخلو ، حينما بدأت أعداد من جنود الجيش والبوليس ومعها المحافظ ومدير الأمن تنتشر فى الشوارع التى سادها الصمت والظلام إلا النيران التى مازالت مشتعلة فى بعض المخازن والورش ، وحال الشوارع والميادين ينطق بأهوال المعارك التى حدثت فى الساعات الأخيرة .

********** ********** **********

- وما الذى جعلك تجزم أن ما حدث اليوم بتدبير وعن إعداد مسبق ؟

صمت (رمضان) قليلا متأملا القلم فى يد (صديق الهلالى) ثم قال: - لقد أخبرنى (رفاعى) ....
قفاطعه قائلا : - من (رفاعى) هذا ؟

- إنه موزع للصحف والمجلات فى الصباح وصاحب عربة حنطور .

فقال ساخرا : - تستقى أخبارك من حمال يا أستاذ (رمضان) .
فنظر إليه متعجبا وقال : - وما فى ذلك ؟ إنه أصدق من يخبرنا عن حال الشارع ، لأنه متواجد طوال اليوم ، ويتجول فى أنحاء الأسكندرية .
نكس الأستاذ (صديق) رأسه وقال : - معك حق .... ماذا قال مصدرك هذا ؟

- قال أشياء كثيرة تدل على أن ما حدث كان من تدبير .
- وأنت تصدق هذا ؟
- نعم ، وهل تظن أن ما حدث كان بسبب شجار وخلاف بين حمالين وحراس مخزن للبضائع فى شارع (السبع بنات) ، لو كان الأمر كذلك ما خرج الأمر عن هذا المكان ، وما أمتد إلى الشوارع المجاورة ، وما استمر كل هذا الوقت ، وخلف كل هذا الهلاك والدمار .
- ولم لا تقول أن بعض السفلة والرعاع واللصوص استغلوا الأمر ؟
- اللص يسرق ولكنه لا يقتل ولا يحرق ولا يصدر عنه ما حدث ، ما حدث كان نتيجة إعداد وتدبير .
- والهدف من ذلك ؟
- ليس من الضرورى أن يكون نتيجة ، قد يكون مقدمة أو لتبرير أمر سيحدث .
- تقصد نزول جنود الأسطول إلى البلد .
- ألم تخبرنى من قبل أنك تشعر أن شيئا خطيرا سيحدث فى الصيف ويعد له .
- أنا أرى ما حدث تطور طبيعى ... كانت هناك بدايات ، وتلك البدايات وصلت إلى مرحلة ... هو ما حدث اليوم .... بينما أنت تقول إن ما حدث خارج السياق الطبيعى للأمور .
- حتى لو كان ذلك ، فهناك من سيستغل تلك الفرصة ، أنا أشعر أن هناك متربص ومترصد منتظر أن يحدث هذا .
- إذن نحن نختلف على الأسباب ، ونتفق على النتائج .
- وماذا بعد ذلك ؟

صمت قليلا مفكرا ، ثم قال : - لا شك أن ما حدث يعد لطمة لعرابى و...
فقاطعه (رمضان) قائلا : - وما شأن عرابى فيما حدث ؟
ابتسم الأستاذ (صديق) وقال : المجتمع المصرى أو شريحة كبيرة منه راغبة فى التغيير ، أوضاع ومؤثرات ودوافع كثيرة تدفعهم إلى ذلك ، هذا التغيير لابد وأن يحدث تحت اسم أو واجهة ما ، وكان عرابى هو هذا الاسم أو الواجهة ... عرابى يمثل أو يترجم تلك التغيرات فى أقوال وتصرفات ... كل هذا وإن كان يتفق مع رغبات وتطلعات البعض إلا أنه يعارض مصالح كثيرة داخلية وخارجية ، تلك المصالح تريد أن يبقى الوضع على ما هو عليه .
فقال (رمضان) : - والأسكندرية من اكثر البلاد استجابة للتغيير .
- وهى كذلك من أكثر البلاد متواجدة فيها مصالح الأجانب ، التى تعتبر التغيير تهديدا أساسيا لمصالحها ، وكأن ما حدث فى الأسكندرية اليوم لا شئ يمنع حدوثه فى أى مكان آخر فى مصر ما لم تتدخل قوة ما تمنع حدوثه .
- تقصد قوة تمنع حدوث التغيير .
فابتسم ضاحكا وقال : - ليس فى الأسكندرية فقط ؟، بل فى مصر كلها .
- إذن قد تكون حربا .
نهض (صديق الهلالى) وسار نحو رف رصت عليه أعداد من الكتب ، وجذب كتابا ووضعه على مكتبه قائلا : - لأن الواجهة التى اتخذها التغيير عسكرية ، فلابد أن تحدث حرب .
- ولمن سيكون النصر ... لحركة التغيير أم لقوة المصالح الأجنبية .
- مسألة النصر نقطة حاسمة ... من الصعب الوصول إليها أو التنبؤ بها ، وكثيرا ما تكون خادعة .
- ولكن الذى أعرفه أن التغيير سيكون له الغلبة ، لأنه يتفق مع طبائع الأمور وسنن الحياة .
- أنا معك ، لذلك قد تنجح قوة المصالح الأجنبية فى مصر أن تحطم الواجهة التى يتخذها التغيير اسما له ، أما التغيير فى حد ذاته فمن الصعب القضاء عليه ومحاربته ، لأنه كما تقول يتفق مع طبائع الأمور وسنن الواقع .
نظر (صديق الهلالى) فى ساعته وقال : - أظن حان الوقت لمراجعة بروفات الجريدة .
********** ********** **********
نظر (رمضان) مذهولا إلى (فؤاد) متأملا الضمادات التى تحيط برأسه وزراعه ، وهو ممدد على الفر اش ، وبجواره (إسكندر) : - من الذى فعل هذا بك ؟
فقال (فؤاد) وهو يتحسس رأسه : - مجموعة من الرجال هجموا فجأة على المحل وكسروا كل شئ وحينما اعترضتهم ضربونى ، ولولا ولاد الحلال كنت الآن فى عداد الموتى ، وبالمصادفة كان (اسكندر) يمر فرأنى ، فأخذنى إلى أقرب مستشفى .
فقال (رمضان) مندهشا : - ولكن الذى أعرفه أنهم كانوا يحطمون وينهبون المحلات الأجنبية فقط .
فقال (أسكندر) ضاحكا : - لأن الثورة كانت ثورة جياع وفقراء ، كانوا لا يمرون على مطعم إلا ويحطمونه ، وبالأخص لو كان المطعم يشبه مطاعم الأجانب ، وأنت تعرف أن سمك المعلم (قنديل) لا مثيل له .
فقال (رمضان) ساخرا : - ثورة ، وثورة جياع وفقراء ، من أخبرك بهذا يا عبقرى أوانك وزمانك .

- وبماذا تسمى ما حدث يا أستاذ الفكر والصحافة ... ناس لا يجدون ما يأكلونه ، ولا يجدون ما يستر أجسادهم ، ويرون أنهارا من العسل واللبن تجرى أمامهم ولا يستطيعون حتى الاقتراب .

فضحك (فؤاد) وهو يمسك برأسه : - فجأة أصبحت مصلحا اجتماعيا يا (أسكندر) الظاهر خطب (النديم) و (الأفغانى) أثرا فيك .

- أنا لا أسمع هذا ولا ذاك ، ولا أصدع رأسى بتلك الترهات ، أنا أتحدث عما رأيته ، رأيت فقراء وحفاة وعراة يأخذون طعاما وملابس ، لقد شاهدت واحدا دخل محل أحذية وخرج لابسا حذاء ، وآخر خرج بأرغفة من المخبز وهو يأكلها .
- وتلك سرقة لأنهم يأخذون ما ليس لهم بحق .
- ولكن الأغنياء لا يتركون لهم حتى الفتات ... فماذا يفعلون ؟
- إنك شيوعى يا (أسكندر) .

ففغر (أسكندر) فاه متسائلا : - ما معنى شموعى يا (فؤاد)

لم يتمالك (فؤاد) نفسه من الضحك ، ومسك رأسه بسبب الألم ، وقال (رمضان) مبتسما :

- شيوعى يا جاهل ، وليس شموعى .

وبعد أن تمالك (فؤاد) نفسه من نوبة الضحك قال : - والله (أسكندر) معه حق ... ناس لا تجد ما تأكله وناس ينفقون على قططهم وكلابهم المئات ... أتعرف يا (رمضان) كل يوم تأتى امرأة يونانية وتأخذ وجبة سمك كاملة لقططتها ... الأجانب فى الأسكندرية لا يعرفون كيف ينفقون أموالهم .

- دائما هناك فقراء وهناك أغنياء .
- نعم ، ولكن ليس بمثل هذا الفارق الشاسع .
- أنتم تقولون هذا لأنكم فقراء .
- وأنت ألست قفير ؟

تذكر تلك الليلة التى قضاها عند (أنطونيادس) وتذكر مدى البذخ والثراء الفاحش لدرجة إحساسه أنه فى عالم غريب ، تنبه على (أسكندر) يجذبه من يده قائلا له :

- أريدك أن تدلنى على محام .
- لم ؟ هل ارتكبيت جريمة ؟
- ليس لى ولكن لصديقى (مخيمر) .
- ماذا فعل ؟
- قتل المعلم (كحلاوى) .
- طالما قتل ، لم تبحث له عن محام ؟
- أقصد أنه متهم بقتل المعلم (كحلاوى) .
- وهل أنت متأكد أنه لم يقتله ؟
- نعم .
- وما أدراك ؟
- لأن (مخيمر) صعيدى .
- وهل لأنه صعيدى لا يقتل .
- نعم ، فالصعيدى لا يقتل فى الغالب إلا للثأر ، ولم يكن بين (مخيمر) والمعلم (كحلاوى) ثأر .

فقال (فؤاد) : - (أسكندر) معه حق ، لو رأيت (مخيمر) وتحدثت معه فستدرك أنه ليس بقاتل .
فقال (رمضان) : - غدا نذهب سويا إلى المحامى ، وإن شاء الله يكون خيرا لصاحبك .
نظر (أسكندر) إلى (فؤاد) وقال : - وماذا سيفعل المعلم (قنديل) بعد تحطيم محل السمك ؟
- المعلم (قنديل) لديه بدل المحل أربعة ... المهم أنا ماذا سأفعل بعد ذلك ؟
- ستعمل فى محل آخر من محلاته .
فقال بأسف : - أشعر أنه يعرف شيئا ما بينى وبين (تحية) .
- المفروض أن تخبره وتطلب يدها منه ... ألم تتزوج أختها ولم يبق إلا هى ؟
فقال بغضب :- لا تنس يا (أسكندر) أننى مجرد موظف فى محل من محلاته ، ولا أظن أنه سيوافق .
- ولا تنس كذلك أنه خالك .
- المعلم (قنديل) تاجر يا (أسكندر) ولا أظن أنه سيوافق على أن يزوجنى ابنته لمجرد أنى ابن أخته .
- و (تحية) ، ما موقفها ؟
- وماذا تملك (تحية) لا حول لها ولا قوة ، وكذلك أنا .
فتدخل (رمضان) فى الحديث قائلا : - لا تيأس يا (فؤاد) ... ودافع عن حبك .
- بماذا أدافع عن حبى يا (رمضان) ؟ أهرب معها وأتزوج بها بعيدا عن أهلها ، أو أنتظر حتى يأتى شخص يملك ما لا أملكه ويتزوجها .
نكس (رمضان) رأسه وقال : - نحن حقا فى مأساة .
نظر(أسكندر) إلى (فؤاد) و (رمضان) وقال:- طالما أنتما لا تقدرون على الحب فلا تحبا .
فقال (رمضان) : - ليت الأمر بأيدينا يا (أسكندر) .
- ولكنه بيدى ، فلم لا تعيشون كما أعيش ؟
- حتى لو أردنا ، فنحن لا نستطيع أن نعيش كما تعيش يا (أسكندر) .
- لم ؟
- لأنك خادع وآفاق وزير نساء ، ولك ألف وجه ، كل ساعة مع امرأة ، ولم تعرف معنى الحب ، وتجرى وراء شهواتك ، ولو عرفت النساء حقيقتك سيمزقنك .
صمت (أسكندر) على مضض ، ثم وقف قريبا من الباب ونظر إليهما وقال :
- طالما قلت رأيك فى بكل صراحة ، وأنا أقبل تلك الصراحة ... أسمحا أن أقول رأى فيكما بنفس الصراحة ، أنتما شخصان ميتان محنطان ، ملابسكما تلك أكفان ، لا تعيشان زمانكما ، أنتما تائهان ضائعان ، وستظلان هكذا مسجونين فى أوهامكما .
صمت قليلا واقترب أكثر من الباب ووضع يده على مقبضه وقال :
- وبصراحة أكثر .... أنتما أكبر مغفلين رأيتهما فى حياتى .
وفتح الباب وقفز خارجه قبل أن يتنبها له وهما لا يكفان عن الضحك ولكن فى غيظ ومرارة ، قال (فؤاد) وهو يتحسس الضمادة فوق رأسه : - أحيانا أحسد (أسكندر) على أسلوبه فى الحياة .
- إنه ابن زمنه .
- وهناك إناس يتعايشون مع زمنهم ، وآخرون لا يستطيعون لأنهم خارج زمنهم .

(26)
- نهاية فتونة -

دخلت (صبح) ومعها المعلم (سيد) و (شافعى) على المعلم (أبو الليل) ، وحوله رجاله ، تقدم (سيد) وألقى على المنضدة أمامه ثلاث رزم من المال وقال : - ما هذا الذى أرسلته لنا يا معلم ؟

نظر (أبو الليل) إلى رزم المال الملقاة على المنضدة ، وإلى الواقفين أمامه ، ثم قال وهو يسدد إليهم نظرات نارية : - إنه حقكم .

فقال (شافعى) : - من أى شئ ؟

وتقدمت (صبح) وقالت : - حقنا من السرقة والنهب والقتل والحرق .... منذ متى وفتوات المعلم (كحلاوى) يسرقون وينهبون ويقتلون الناس العزل ؟

سادت فترة صمت ، نهض خلالها (أبو الليل) ودار حول (صبح) و(سيد) و (شافعى) ، ثم قال وهو يلوح بالنبوت فى الهواء : - أولا المعلم (كحلاوى) مات ، والآن لا يجوز عليه سوى الرحمة ، ثانيا إذا كان بين هؤلاء الرجال والحصول على حقهم سوى القتل والحرق فليس أمامنا إلا ذلك .

قالت (صبح) : - بكسر المحلات والمخازن ونهب ما فيها .

فهوى (أبو الليل) بالنبوت على المنضدة وقال بغضب : - وماذا فعل المعلم (كحلاوى) ، وماذا فعلتم حينما ضرب رجالنا وأهينوا ورفض أصحاب المحلات والورش والمخازن أن يدفعوا ... لقد بدأوا والبادئ أظلم ، ثم لسنا الذين بدأنا بالكسر والحرق والنهب .

فقال (سيد) : - المفروض أنكم تحمون المحلات والمخازن .

- هم رفضوا تلك الحماية ، حينما رفضوا أن يدفعوا ، وسلحوا الحراس بالأسلحة النارية .
- وليس معنى أنهم رفضوا أن يدفعوا أن نكسر ونحرق محلاتهم وننهب ما فيها .

فقال (أبو الليل) نافد الصبر وقد انتفخت أوداجه من الغضب :

- (صبح) يابنة الكحلاوى ... أمامك الرجال إن استطعت أن تستردى ما أخذوا من حقوقهم فافعلى ... وإلا فدعى الأمر لى ، وبصراحة طريقة (كحلاوى) لم تعد تصلح الآن ، الرجال زادت مطالبهم وفى حاجة إلى المال ، والتقطير الذى كان يتبعه (كحلاوى) سأم الرجال منه ولم يعد يصلح .

فقالت (صبح) محاولة أن تتمالك غضبها : - ولكن الرجال الذين يقفون خلفك الآن ليسوا كل الفتوات يا معلم .

- إنهم أكبر الفتوات ، وهم يأتمرون بأمرى وبقية الفتوات يأتمرون بأمرهم ، وهم راضون على ما فعلناه ، وتلك هى طريقة (أبو الليل) ، من يرفض الدفع من الآن ليس بيننا وبينه سوى النبوت .

تقدم (سيد) وقال : - طالما هؤلاء الرجال يأتمرون بأمرك ، وأنت أصبحت الآمر الناهى ، فأين (زغطة) يا معلم (أبو الليل) ؟

نظر (أبو الليل) إلى (عليش) وابتسم وسوى شاربه وجلس على مقعده ووضع قدما فوق الأخرى وقال : - مع أن هذا ليس من شأنى ، بعدما طلبتم أن تتولى الحكومة القضية ، فاطمأنوا ... (زغطة) لن يظل بعيدا عن يدى ، قريبا جدا سيكون هنا راكعا تحت قدمى .... هذا إذا كان (مخيمر) برئ من دم (كحلاوى) ... ولو ثبت هذا ... فهناك أمور كثيرة يجب أن تسوى .

********** ********** **********

- أقطع ذراعى إذا لم يكن (أبو الليل) يعرف مكان (زغطة) .

تبادل (سيد) و (صبح) النظرات ، وسادت فترة صمت ، ثم قال (سيد) مخاطبا (صبح) :

- أمعقول ما يقوله (شافعى) ؟

فقالت بعد تفكير عميق : - (شافعى) معه حق .. (أبو الليل) لا يقول هذا الكلام إلا إذا كان يعرف مكان (زغطة) .

فقال (سيد) : - على هذا فالمعلم (أبو الليل) له يد فى قتل المعلم (كحلاوى) .

- أو أنه ليس له يد ، وأراد أن يستغل مقتل المعلم فى صالحه .

- لا أفهم ما تقصدين .

- (مخيمر) و (شافعى) وأنا و أنت ومن يتبعنا من الرجال هم المانع الذى يمنع (أبو الليل) أن يأخذ مكان المعلم (كحلاوى) .

فقال (سيد) مندهشا : - وما علاقة هذا بمقتل المعلم (كحلاوى) ؟

- (مخيمر) متهم بقتل المعلم ، ودليل البراءة الوحيد هو (زغطة) ، وهذا الدليل فى يد من الآن ؟

فقال (شافعى) : - فى يد (أبو الليل) .

- إذن (أبو الليل) عن قريب سيساومنا .

- علام ؟

- أن يقدم (زغطة) لنا ليخرج (مخيمر) فى مقابل أن نتبعه ونطيعه .

فقال (شافعى) : - لا يا معلمة (صبح) المعلم (أبو الليل) سيطلب منا أن نترك الأسكندرية كلها ، هو الآن لا يطيقنا ولا يريد حتى رؤيتنا .

قالت (صبح) : - أيمكن أن يكون (أبو الليل) كارهنا لهذه الدرجة ؟

هز (سيد) نبوته قائلا : - الأمر لا يتعلق بالحب أو الكره ... لن يسمح لنا أن نقف فى طريقه ، أو نحرض رجلا ضده .

قالت (صبح) : - أصبح الأمرإما نحن أو هو .

فقال (شافعى) : - لا يا معلمة .... بل إما نحن أو (مخيمر) .

قال (سيد) : - أنا أكثر معرفة منكم بأبو الليل ، كان يحلم منذ وقت بعيد أن يخلو له الجو ... وهو فى حاجة لنا .

فسألته (صبح) : - لم ؟

- هناك رجال لا يحبون (أبو الليل) ... ومركزه مازال ضعيفا ، وهو فى حاجة لنا ، كى نقويه ونوافقه ونعلن رضانا عنه كى يأخذ مكان المعلم (كحلاوى) .

فقال (شافعى) : - المهم أن نخرج (مخيمر) من التهمة .

- علينا أن ننتظر ما سيفعله (أبو الليل) .

********** **********

قال (عليش) وهو يسمح يديه فى صدر جلبابه ناظرا إلى ألوان وأصناف الأطعمة الكثيرة على المائدة ، وهو لا يصدق أنه قد شبع من تلك الأنواع التى كان يسمع عنها أو يشاهدها ، ولكنه لم يتذوقها إلا الآن : - أظن يا معلم المعلمين أن الأمور كلها قد صارت لنا ، ولم يعد هناك ما يشغل بالك .

قال (أبو الليل) وهو يجذب أنفاسا من النرجيلة : - لا يا (عليش) لم يخل الأمر لى طالما (صبح) و (سيد) و (شافعى) يعارضوننى .

- مرنى وأخلصك منهم ، الرجال أصبحوا فى يدك كالخاتم فى إصبعك ، ولن يعارضنا أحد إذا تخلصنا منهم .
- إنى فى حاجة إليهم يا مغفل .
- لم يا معلم المعلمين ؟
- لا تنس أن (صبح) لها مكانة كبيرة فى قلوب الرجال ، وهناك عدد من الرجال يأتمرون بأمرها ، وتستطيع أن تفسد الأمر علينا .

قال (عليش) وهو يقضم تفاحة : - لاتؤاخذنى يا معلم ... أنا عقلى صغير ليس مثل عقلك الكبير ... أنت تريد أن تتخلص من (صبح) كى يخلو لك الأمر أم أنك فى حاجة إليها ؟

- الآن أنا فى حاجة إليها .
- لم ؟
- حينما توافقنى (صبح) فى كل ما أفعله وأقوله ، وتطيعنى ولا تعارضنى ... ماذا سيفعل بقية الرجال ؟
- أظن لا أحد بعد ذلك سيعارضك .
- فهمت يا مغفل .

مس على رأسه وقال ببلاهة : - لا ... لم أفهم .

رمى مقبض النرجيلة وقال بغضب : - وتريد أن تخلصنى من (صبح) ... (عليش) ... أنت متأكد أن لك عقلا تفكر به .

فقال مندهشا : - أنحن نفكر بعقولنا أم برؤوسنا ؟

فقال (أبو الليل) نافد الصبر : - هل أرسلت طعاما (لزغطة) ؟

- وهل سنظل نطعمه ؟ ألن نقتله ؟
- أتدرى يا (عليش) من الذى يستحق القتل ؟
- من يا معلم المعلمين ؟
- أنت .

وتركه وانصرف .

******* ********** **********

لم يطل الأمر حتى أرسل (أبو الليل) إلى (صبح) ، فجاءت ومعها (سيد) ، وكان ما توقعاه ، وكان الحديث صريحا بينهم ، (أبو الليل) عرف مكان (زغطة) وهو على استعداد أن يسلمه ليخرج (مخيمر) من التهمة ، وسألته (صبح) عن المقابل فقال لها بمكر ودهاء :

- الموافقة على أن تتزوجينى .

فابتسمت فى سخرية وقالت : - وهل هذا المهر يساوى (صبح) ابنة المعلم (كحلاوى) ؟

- أظنك أنك تسلمى القاتل الحقيقى للحكومة يستحق مهرا لك .
- ولكنك تعلم أنى مخطوبة ، وأعلم كذلك أنك وافقت على تلك الخطبة .
- معك حق فى هذا ، والرجل لا يخطب على خطبة الرجل .

صمت قليلا وهو يمس على شاربه : - إذن بدل ذلك أن يكون بيننا اتفاق .

- علام ؟
نظر طويلا إلى (سيد) ثم قال : - أن تقرى لى أمام كل الرجال أنى خليفة للمعلم (كحلاوى) .
- انا فقط .
ابتسم (أبو الليل) : - ومعك المعلم (سيد) و (شافعى) و (مخيمر) .
فقال (سيد) : - وهل أنت فى حاجة لمثل هذا الأمر ؟
- أنا لست فى حاجة لمثل هذا الأمر، ولكن كما يقول الأجانب (برستيج) .
فقالت (صبح) فى سخرية : - أمام من يا (أبو الليل) ؟
- إن شاء الله سوف يكون هذا الكلام فى سهرة كبيرة ، وسوف أدعو جميع فتوات الأسكندرية ، وكما تعرفين المعلم (كحلاوى) الله يرحمه كان له مقام كبير بين الفتوات ، فمن يأتى بعده لابد يكون له نفس المقام .
سادت فترة صمت ، قطعها (سيد) بعد أن تبادل النظرات و (صبح) :- اعطنا فرصة لنفكر يا معلم .
رفع يده قائلا : - لا ... كما يقولون (البكاء على رأس الميت) إما أن توافقوا الآن أو ترفضوا ... الأمر ليس فى حاجة إلى تفكير ... إما تنفيذ ما اتفقنا عليه الآن ... أو رقبة (مخيمر) ، ويظل (زغطة) لا أحد يعرف مكانه .
فقالت (صبح) : - أنا موافقة يا (أبو الليل) .
فقال (أبو الليل) : - والمعلم (سيد) .
- ما تقوله المعلمة (صبح) أنا موافق عليه .
نهض (أبو الليل) واقفا ، ثم قال : - غدا يخرج (مخيمر) من السجن ، وبعد غد ننفذ ما اتفقنا عليه .

********** ********** **********

قال (مخيمر) بأسف : - ثمن إخراجى من السجن كان غاليا عليك يا معلمة(صبح) .
- لم يكن أمامى إلا ذلك لينال المجرم جزاءه .
وقال (شافعى) : - وبعد أن نفذ (أبو الليل) كل ما يريد ... ماذا سيفعل الآن ؟
فقال (سيد) : - بل قل ماذا سنفعل نحن ؟
- هل سنبقى أم سنغادر ونترك هذا المكان ؟
قال (سيد) : - (أبو الليل) لم يطلب منا أن نترك هذا المكان .
فقالت (صبح) : - للأسف يا معلم (سيد) الاتفاق الذى نفذناه أمام الجميع يحتم علينا أن نترك المكان ، أو أن نبقى ليقتلنا (أبو الليل) ببطئ .
قال (شافعى) متحمسا : - لنبدأ نحن عهدا جديدا للفتونة .
قالت (صبح) بأسف : - عهد الفتونة انتهى يا معلم (شافعى) ، ما يفعله (أبو الليل) وما فعله بلطجة وسرقة ونهب ، ولا أنا ولا أنتم توافقون على هذا ...
فقال (مخيمر) : - إذن ليس لنا عمل مع (أبو الليل) .
وقال (شافعى) : - ولا مع غيره .
فقال (سيد) : - معك حق يا (شافعى) .
- إذن ليحمل كل واحد منا همه ويذهب كيفما يشاء .
فقال (مخيمر) : - أظن هذا ما يجب أن نفعله .
فنظر (سيد) إليهما مندهشا ، وقال مخاطبا (مخيمر) فى غضب :
- لم أكن أعرف إلا الآن أنك ندل وجبان وخائن وخسيس .

أسود وجه (مخيمر) وقال باستنكار : - أنا يا ولد العم ...أهذا الكلام توجهه لى ؟!
- نعم . أبعد كل ما فعلته المعلمة (صبح) تريد أن تتركها وترحل ؟
فقال ناظرا إلى المعلمة (صبح) : - أنا أترك المعلمة (صبح) ؟! إن جميلها فوق رأسى ، أنا أخدمها طوال عمرى ومع ذلك لا أستطيع أن أكافئها على معروفها لى .
- إذن لم تفكر أنت وصاحبك بالرحيل ... ألم تخطبها من المعلم (كحلاوى) ؟
فتدخلت (صبح) فى الحديث وقد اصطبغت وجنتيها بحمر الخجل والأسف وقالت :
- معلم (سيد) .....
فقاطعها (سيد) غاضبا : - لا يا معلمة (صبح) لقد أصبحنا فى مركب واحدة ، وأنا صريح ولابد أن يعرف (مخيمر) حقيقة تصرفه .
فقال (مخيمر) مدافعا عن نفسه : - لقد فهمتنى خطأ يا معلم (سيد) ، أنا فعلا ذهبت إلى المعلم (كحلاوى) لأخطب المعلمة (صبح) وقبل أن يلفظ نفسه الأخير أوصانى بالمعلمة (صبح) ... ولكنى أخشى أن تكون المعلمة بعدما حدث ليس لها هوى أو أن يكون لها رأى آخر ... أما عن نفسى فحلم من أحلامى أن توافق المعلمة على زواجى منها ، وسيكون يوم المنى ويوم سعدى .
فقال (سيد) مبتسما : - وأنا ولى أمر المعلم (صبح) ... هات يدك لنقرأ الفاتحة .
فقال (شافعى) ضاحكا : - وأنا شاهد على ذلك .

(27)
- المؤامرة -

أخرج (أنطونيادس) المظروف من درج مكتبه بحرص وناوله (ميكاديللى) الذى أخذه ووضعه فى حقيبته السوداء وسأله : - هل كل ما طلبناه مسجل هنا ؟
- بالتفصيل ... حصر بجميع القلاع والحصون ومواقعها والذخيرة الموجودة وعدد الجنود و ...
فأشار له (ميكاديللى) بالصمت ، فسأله (أنطونيادس) : - ولكن ماذا ستفعلون بكل تلك المعلومات ؟
- الأسطول الإنجليزى فى حاجة إليها ، وهم يدفعون لنا بسخاء كما تعلم .
- هل سيضربون الأسكندرية ؟
فضحك (ميكاديللى) قائلا : - لا.... لا.... أجمل مدينة فى العالم تضرب !! أنت لا تدرى كم نعشق الأسكندرية ... إنها كامرأة جميلة ومن شدة جمالها نخشى أن نقترب منها ولو باللمس أو النظر ، وأنت أكثر من يقدر الجمال والنساء يا (أنطونيو)
- إذن ماذا ستعملون بكل تلك المعلومات ؟
- يريدون معرفة مدى قوة (عرابى) الحقيقية ، هذا الرجل بدأ يثير مشكلات ويسبب متاعب كثيرة وللكثيرين .
- وبعد أن يعرفوا مدى قوته .
- يتعاملون معه على هذا الأساس .
- يتعملون معه بأى طريقة ؟
نهض (ميكاديللى) وأخذ الحقيبة وتوجه نحو الباب : - هذا شئ لا شأن لنا به .... المهم نحن ممتنون لك على ما حدث يوم الأحد الماضى ، وإن كنا نأسف على الضحايا الأجانب ، فهم كثيرون

فنظر إليه (أنطونيادس) مندهشا وقال : - ولكن الضحايا السكندريين أكثر بكثير من الأجانب .
فاستدار إليه وقال باندهاش : - وهل هناك مقارنة بين الأجانب وهؤلاء الرعاع .
- معك حق إنهم رعاع وسفلة ... لقد نهبوا أكثر من نصف محلاتنا ومخازننا .
- أظن إن هذا ليس لك يد فيه .
- هذا الشئ الوحيد الذى خرج عن سيطرتنا .
- أشياء كثيرة فى مصر خرجت عن السيطرة ، ولكن عن قريب كل شئ سيدخل تحت سيطرتنا .

مد (ميكاديللى) يده مصافحا (أنطونيادس) فصافحه ولكن لم يترك يده وسأله :
- (أنطونيو) ... أشعر أن هناك أمرا تريد أن تخبرنى به .

فقال بعد تردد : - نعم ... إنى سأتزوج قريبا .
تراجع (ميكاديللى) خطوات إلى الوراء غير مصدق ما يسمعه وقال: - (أنطونيو) يتزوج !!
ولم لا ... لابد للرجال أن يتزوجوا . اخبرنا كى نحضر حفل الزواج ونحضر لك هدية الزواج .
وقبل أن يتركه سأله : - ولكن التى ستتزوجها ...من أى البلاد ؟
- من هنا ....من الأسكندرية .
- ألم أقل لك ..... كلنا نعشق الأسكندرية .

********** ********** **********

- أظن بعد كل ما فعلته ، وجميع الأوامر والطلبات التى نفذتها وعلى استعداد أن أنفذ أكثر منها بإشارة منك ، لم يعد لديك شك أنى أحبك وأريد أن أتزوجك .

قالت (إنشراح) بود : - انطونيو .... لم أكن أتصور فى يوم من الأيام أن هناك رجلا يفعل ما فعلته من أجل امرأة .... انا أحيانا أسأل نفسى .. لم يفعل (أنطونيو) كل هذا من أجلى ... أى امرأة يقدم لها ما قدمته لى لا تملك إلا أن تبادله حبا بحب ... ولكن مع كل هذا أنا لا أملك قلبى .... أنا أريد أن أبادلك حبا بحب ، ولكن .....
فقاطعها : - لقد اتفقنا ... أنه فى يوم من الأيام قد يأتى الحب .... إنى أحبك بكل كيانى ... أنا أيضا اندهش من نفسى ... فلم أكن أتصور فى يوم من الأيام سأحب كل هذا الحب ، ولم اكن أتخيل أنى فى صدرى قلبا يقدر على أن يمنح هذا الحب ..... ويكفينى أنك تقدرين هذا الحب .
- أكون جاحدة إن لم أقدر كل هذا الحب .
- إذن نتزوج .

صمتت (إنشراح) ، وشردت بعيدا ، وقارنت بين مكانها وسط الغيطان تحت الشمس المحرقة تعمل طوال النهار ، من أجل أن تسد جوعها وتستر جسدها ، أو وهى فى المحلج وسط الرجال وأرباب السوابق والبلطجية محاطة بعيونهم الجائعة وألسنتهم الحادة ، وأيديهم التى تتناول أعضاء من جسدها بكل وقاحة ، وهى متحملة كل ذلك من أجل لقمة العيش .... وبين مكانها الآن تعيش فى مبنى كأنه القصر ، محاطة بالخدم ، لا تأمر بشئ إلا وتطاع على الفور ، هدايا من كل الأنواع والأشكال ، وكذلك قارنت بين (رفاعى) و (أنطونيادس) ... مع مرور الوقت استحالى حبها لرفاعى إلى كره وغضب ، ولكنها لا تستطيع أن تجزم أنه ليس بحب ، وتحول إعراضها وإهمالها إلى (انطونيادس) إلى تقدير واهتمام ، ولكنها لا تستطيع أن تقول عنه أنه حب .

لقد وضعت أمام (أنطونيادس) كثيرا من العقبات والعراقيل كى ينصرف عنها أو يسأم منها ، ولكنه كان يزداد تمسكا بها وإصرارا على الارتباط بها ، وتعجبت من الدافع الذى يجعله يضحى بكل شئ من أجل الارتباط بها ، وهو المحاط بالنساء من كل صنف ولون ، وزال عجبها حينما اكتشفت إنها هى أيضا على استعداد أن تضحى بكل شئ فى سبيل الارتباط برفاعى ... إنه الحب .

قالت بعد تردد كالمتهيبة أن تقفز إلى بحر متلاطم الأمواج : - لقد يأست من أن أرفض طلبك ... نتزوج يا (أنطونيو) .

********** **********

- إذن تكسب الرهان يا (أنطونيو) .

قال وهو ثمل بالفرحة ونشوان بالسعادة : - لا يا (جو) .... الأمر كان فى البداية رهان كما اتفقنا ، ونوعا من التحدى ، ولكن تلك المرأة فيها شئ غريب ، لا تملك معه إلا أن تستسلم وتطيع كل ما تأمر به ... تلك المرأة كالأسكندرية ... تتحداك ألا تعشقها .

فقال (جوستاف) وعلامات الاندهاش مازالت تأخذ بملامحه : - ولكن ...

فقاطعه (أنطونيادس) قائلا : - لا يوجد فى الحب ما يسمى (لكن) ، وأنا لا أعرف تلك الكلمة ، وما أريده سيحدث ، وطالما هى وافقت فلا شئ فى العالم سيمنعنى أن أتزوجها .

- أنت لست (أنطونيادس) الذى أعرفه ، لقد تغيرت كثيرا ، أول مرة تجرى على لسانك كلمة الحب .
- معك حق ... أنا أشعر أنى تغيرت كثيرا ، أنا لم أكن عائشا .
- ومتى ستتزوجان ؟
- فى أقرب وقت ، لو ملكت أن يتم الزواج اليوم لفعلت .
- وحالة البلد .
- مالها حالة البلد .
- ما حدث الشهر الماضى ، وما يحدث الآن .
- ماذا يحدث الآن ؟
- سمعت أن الجيش المصرى بدأ فى تحصين القلاع والطوابى والحصون المواجهة للأسطول الإنجليزى ، وسمعت كذلك من رجل فى السلك الدبلوماسى أن الإنجليز لن يسمحوا بإتمام تلك الأعمال .
- وماذا يعنى هذا ؟
- لا يعنى إلا أمرين ... إما أن الأسطول الإنجليزى ينوى بالفعل النزول إلى الأسكندرية ، وأن تلك الترميمات والتحصينات تشكل خطرا على جنود الأسطول ، أو إنه يبحث عن مبرر للنزول إلى شواطئ الأسكندرية ، والنتيجة واحدة فى الحالتين .
- تقصد ...
- نعم ، سيضربون الأسكندرية .... بل سيدكونها بالمدافع قبل أن تلمس جنودهم شواطئ الأسكندرية .

فقال (انطونيادس) مذعورا : - لا .. لن يحدث شئ من هذا ، إنهم يحبون الأسكندرية ، لقد أخبرنى بذلك .

- من تقصد ؟
- صديق .

- وما علاقته بضرب الأسكندرية أو عدم ضربها ؟
- إنه على علاقة وثيقة بالإنجليز .... ثم كيف يضربون الأسكندرية ومصالح الرعايا الأجانب ومصالحى ... لا تنس الأسكندرية أصبحت جزءا من أوربا ، وما حدث الشهر الماضى لن يتكرر أبدا .
- الذى أخبرتك به هو ما أخبرتنى به (جان) ، وأيضا أخبرتنى أن هناك تحركات غريبة فى بعض قطع الأسطول الإنجليزى ، وإن البعض بدأ يتخذ وضع الهجوم ، وأشياء أخرى من هذا القبيل ، وأنا أتمنى الا يحدث شئ ، فكما تعلم أن الأسكندرية هى وطننا الأول والأخير .

وتركه وانصرف ، وبقى (أنطونيادس) يفكر فيما قاله (جوستاف) ، وحاول أن يربط بين الأحداث وبين زيارات (ميكاديللى) وتلك المعلومات التى طلبها عن القلاع والحصون وعدد الجنود ونوعية التسليح .... أيمكن أن يكونوا جادين فى ضرب الأسكندرية ، أم أنها مجرد مناورات وتهديدات ؟ أيا كان الأمر ، فيجب أن يسارع بالتزوج من (إنشراح) ويأخذها ليقضى شهر العسل فى أى مكان فى أوربا ، حتى تهدأ الأمور ، ثم يعود ، وليتحجج لها بأى حجة ، المهم أن يتم الزواج ويرحل عن الأسكندرية فى أقرب وقت ممكن .

********** **********

****

- أمعقول ما تقوله ؟ نتزوج غدا، ونسافر إلى أوربا بعد غد .. أكيد لقد جننت يا (أنطونيو) .
- نعم ، أنا مجنون بحبك .
- أنت مجنون ... ولكن لا تجننى معك .
- ولم التأخير يا حبيبة قلبى ؟
- ولم التسرع يا (انطونيو) ؟
- الظروف مواتية اليوم ، قد لا تكون مواتية غدا ، ثم أنى لا أطيق أن أكون بعيدا عنك أكثر من هذا .

نظرت إليه بعمق ثم قالت : - لا يا (أنطونيو) ... أنت تخشى من شئ قد يحدث يمنع زواجنا ، أو على الأقل يؤجله طويلا .

حاول أن يتهرب من نظرات عينيها وقال : - ما هذا الذى قد يمنع زواجنا أو يؤجله ؟

- أحقا ما سمعته ؟
- ماذا سمعتين ؟
- يقولون إن الإنجليز يهددون بضرب البلد وكثيرا من العائلات الأجنبية بدأت تغادر البلد و.....

فقاطعها قائلا : - دعك من كل هذا ، أريد منك أن تفكرى فى شئ واحد ... الزواج وتمضية شهر العسل ... سأجعلك تعيشين أياما وكأنك فى الجنة .

- إذن أعطنى مدة معقولة كى استعد فيها .

أخذ يديها بين يديه وقال بوله : - لا تطيلى المدة ، وإلا العاشق الولهان سوف يحرقه شوقه .

********** **********

****

كانت فى قمة توترها وانفعالها وغضبها وخوفها ، وهى تنتظر هذا الشخص الذى ستكلفه بهذا الأمر ، لقد زاد يقينها اليوم والآن فقط ... لقد جاءت اللحظة التى يجب أن تتخلص فيها من تلك الراقصة ، بعدما علمت من خلال عيونها التى بثتهم حول (أنطونيادس) وفى الفيلا التى وهبها (أنطونيادس) للراقصة ، عزمه على الزواج منها واخيرا وافقت ، كانت يجب أن تفكر فى هذا منذ زمن حينما لاحظت شغفه بها ، ولكن لم تتخيل أن يصل الأمر بينهما إلى هذا الحد ،إن (انطونيادس) كل ما لها فى الدنيا ، لا تتخيل لحظة أن تكون هناك من يأخذه منها ، إنها مسألة حياة أو موت ، لو تزوج غيرها ستموت ، ستقتل نفسها ستنتحر إذن يجب أن تدافع عن نفسها وتقتل تلك الراقصة قبل أن تقتل نفسها ، لأن زواجها من (أنطونيادس) قتل لها ، وإن لم يكن هناك من وسيلة للاحتفاظ به سوى القتل ، فلن تتورع عن ذلك .

دق جرس الباب ، نهضت وفتحت ، فقد صرفت الخادمة ومدبرة منزلها ، دخل ، فرنسى ، طويل وسيم أنيق ، إلا أنه جامد الملامح ، دخل وجلس ونظر إليها ، ناولته مظروفين ، الأول كل المعلومات التى استطاعت أن تجمعها عن الراقصة وبعض صورها ، والثانى المبلغ الذى طلبه ، لم يتحدث بكلمة ، أخذ المظروفين وحياها بإماءة من رأسه وانصرف ، وبقيت هى ، تذهب وتجئ فى حجرتها ، وتفرك فى أصابعها وتشعل لفافة ثم تطفئها وتشعل أخرى ، تجلس قليلا ثم تقف ، تمسك رأسها الذى يكاد أن ينفجر ... لو بقيت على هذا الوضع ربما تجن ، ارتدت ملابسها على عجل ثم خرجت لا تلوى على شئ .

********** ********** **********

اندهش حينما فتح الباب فوجدها أمامه : - أهلا (بربارة) .... تفضلى .

دخلت تتمايل وهى تنفث دخان سيجارتها فى الهواء ، القت حقيبة يدها على أقرب منضدة ، وجلست غير غير مكترثة بما انكشف من لحم ساقيها ، وحدقت فى ملامحه وسألته :

- أكنت خارجا ؟

جلس بالقرب منها مبتسما ، وقال وهو يقدم لها كأسا : - ولم أخرج ، ما كنت أبحث عنه بالخارج جاءنى .

ابتسمت فى إغراء وقالت : - أنا معجبة بصراحتك ، وشخصيتك ونظرتك للحياة ، على ما يبدو أن (انطونيادس) مغرم بالأشياء القيمة ، ويراعى ذلك حتى فى اختيار أصدقائه .

ضحك بانطلاق وقال : - (أنطونيو) مغرم بكل ما هو قيم وغال ، وتجدين هذا حتى فى موظفيه والمقربين منه والمحيطين به .

وأشار إليها ثم قال وهو يملى نظره من جمالها الفتان : - ودائما يحالفه الحظ فى اختياره هذا .

فسألته بعدما أفرغت ما فى الكأس فى جوفها ، وأزاحت خصلات الشعر التى غطت جبينها الأبيض : - ولماذا لم يحالفه الحظ فى أن يتخذ راقصة وفلاحة زوجة له ؟

شعر بكم من الأسى والحزن والانكسار ينضح من كلماتها، كان يدرك أن علاقة (أنطونيادس) ببربارة علاقة شاذة وغريبة ولكن كل منهما ارتضى تلك النوعية من العلاقة واستمرت ودامت مثل تلك العلاقة بين كوكبين ، بينهما مسافات تحكمها قوة ما ، لا تسمح لهما بالاقتراب أكثر من اللازم فيصطدما ، ولا تسمح لهم بالابتعاد أكثر من اللازم فيضيع كل منهما عن الآخر ، بينهما تنافر ، وفى نفس الوقت بينهما تجاذب .... ولكن فى الأونة الأخيرة دخل عنصر ثالث بينهما ، ولا شك أن هذا العنصر غير من موازين العلاقة بينهما ، قال لها وهو يملأ كأسا آخر لها : - أنت تعلمين أن (أنطونيادس) كثير النزوات ، ربما تكون نزوة .

- حينما يصل الأمر إلى الزواج لا تكون نزوة .
فضحك قائلا : - الزواج أكبر نزوة يرتكبها الإنسان فى حياته .
فقالت بتحد : - ويجب أن نمنع تلك النزوة أن يرتكبها (انطونيادس) .
صمت قليلا وهو يتناول الكأس فارغا منها : - لا أظن أن أحدا يستطيع أن يمنع (انطونيادس) من الزواج من (إنشراح) ، وأنت اكثر من يعرفه إذا صمم على شئ .
فقالت وقد بدأت الخمر تدور برأسها وهى تشير إلى صدرها : - أنا الوحيدة التى تستطيع أن تمنع هذا الزواج وأنا الأحق منها ، إنها مجرد راقصة ، ولا أحد يعرف (انطونيو) كما أعرفه ، ماذا يحب ، ماذا يكره ، ماذا يأكل ، ماذا يلبس ، مواعيده ، مقابلاته ، اجتماعاته ..... (أنطونيو) كالساعة أنا الذى أديرها ، وأعرف كل ترس من تروسها .
مدت يدها وأخذت زجاجة الخمر ، وشربت ما فيها ، ثم أخذت تبكى بكاء هستيريا ثم قالت :
- (انطونيو) هذا كأبنى ، مع أنى لم أتزوج ولم أنجب ، ولكن لا أتخيل علاقة تربطنى به إلا أن تكون علاقة ابن بابنها ، علاقة عضوية من لحم ودم وأعصاب ، نمت وتنمو مع الأيام .

صمتت قليلا ، ثم انفجرت فى الضحك ، ووضعت رأسها بين ركبتيها ، ثم رفعت رأسها وسوت شعرها المنسدل على وجهها ثم أشعلت سيجارة وهى فى غاية السكر ، وقالت :
- أشعر أنى أقول كلاما لا يقوله إلا المجانين ... وأظنك تقول عنى الآن مجنونة ، تخيل أن يجتمع الجنون مع الخمر ، ما حال المجنون السكران يا (جو)
- ولكن كيف ستمنعين (أنطونيو) من الزواج ؟

بحثت عن حقيبتها وأخذتها واقتربت من (جو) وطوقت عنقه بزراعيها وقالت وأنفاسها تكاد أن تلهب وجهه : - لا تشغل بالك بهذا الأمر ... هل سنقضى الليل نتحدث ؟ ألن نخرج من هذا السجن ..... هيا لنستمتع بالليل ، فالليل معك له طعم آخر .

(28)
- طريق مسدود -

نحى النرجيلة وهو فى غاية الضيق قائلا :
لم يعد شئ له طعما ... لا حشيش ولا أفيون ، ولا أكل ولا شرب .
فضحك (قبارى) وقال : - ولا حتى نسوان .
وقال (مرسى) : - لم يعد لنا فائدة .... ومصيرنا مصير خيل الحكومة .
فقال (لويس) : - أمركم غريب .. فيما مضى كنتم تشكون من الفلس ووقف الحال ، وأن الأجانب هم سبب ذلك،الآن أصبحنا متعادلين، أغلب محلاتهم ووكلاتهم وورشهم احترقت ونهبت .
فقال المعلم (قنديل) وهو يعبث بيد عصاه : - وماذا استفدنا من حرق ونهب محلاتهم ... خراب حل بالبلد ، أغلبهم أخذوا يرحلون للخارج ، وأهل البلد ينتقلون إلى داخل البلاد .
فضحك (رشيدى) قائلا : - آخر شئ كنا نفكر فيه أن يشكو المعلم (قنديل) من وقف الحال .
فابتسم (قنديل) وهز رأسه قائلا : - من كثرة قركم ... المعلم (قنديل) كل سنة يفتح محلا جديدا ... المعلم (قنديل) محلاته ملأت الأسكندرية ... نتيجة قركم .. محل اتحرق والمحلات الأخرى أغلب الأيام لا تبيع شيئا .... وأصبحنا فى الهوى سوا .

فقال (لويس) : - ربما الوزارة الجديدة برئاسة (رياض) تستطيع أن تصلح الحال .
فقال (قنديل) : - لو كل يوم جاءت وزارة جديدة لن تستطيع فهل شئ ، طالما العرابيون مسيطرون على البلد ،ويتحكمون فى الملك فلن يحدث خير .
فنظر الجميع إليه مبهوتين وقال (رشيدى) مستنكرا : - (عرابى) هو الأمل الوحيد الذى نتعلق عليه فى أن يصلح حال البلد .
فقال (قنديل) وهو يشيح عنهم بوجهه : - وهل ساءت حالة البلد إلا حينما جاء (عرابى) ومن معه ؟
فقال (قبارى) متعجبا : - ما هذا يا معلم (قنديل) ؟! أنت تتكلم كما يتكلم الأجانب .
- معهم حق ، فالبلد تسير من سيئ إلى أسوأ ، والله أعلم السفن الإنجليزية ماذا ستفعل .
فسأله (قبارى) : - وما علاقة السفن فى البحر بعرابى ؟
- أكيد هو الذى زرع الخوف فى نفوس الأجانب ، فجاءت السفن لتحمى الأجانب ، وهو الذى جرأ الناس عليهم ، وما يقوله (عبد الله النديم) و (الأفغانى) وغيرهم ، البلد حالها إنقلب من ساعة ما ظهر عرابى .
- الظاهر أن المعلم (قنديل) بدأ يهتم بالسياسة حينما بدأت الحركة تخف فى سلسلة مطاعمه ، والناس بدأت تنصرف عن أكل السمك .
فعقب (قبارى) : - ولا بعد حرق ونهب محله فى العطارين .
فقال (قنديل) وهو يضع قدما فوق الأخرى : - ليست الحكاية سياسة ، وإنما حالة البلد ، وحالة الناس فى البلد ، البلد لم تعد هى البلد ... من يصدق إن الأسكندرية يصير حالها إلى ما صارت إليه .
فقال (رشيدى) بعد أن دعا الصبى ليضع له فحما على النرجيلة : - أنت لم تتكلم عن حالة البلد والناس إلا بعد أن احترق محلك فى العطارين و ....
فقاطعه المعلم (قنديل) غاضبا : - أنت تعلم يا (رشيدى) قبل غيرك أن لو محلاتى كلها ضاعت فلن أهتم ، لأنك تعلم أنى بدأت من بيع السمك على الأرصفة ، ولكن يحزننى فعلا حالة البلد وحالة الناس ، أثناء مجيئى مررت على الحمالين والحمارة وغيرهم .. يكادون أن يستجدوا الناس فى الشوارع والميادين و الحوارى ... لا يجدون عملا ... حالة البلد فى خراب ، وليت الأمر يقف عن هذا بل سيزداد الأمر سوءا .
فقال (قبارى) محاولا أن يهدئ من انفعال (قنديل) : - أنا اتفق معك فى كل ما تقوله ... ولكن ما دخل (عرابى) ومن معه فى هذا ؟
- يا جماعة أنا مثلكم ، فى البداية كنت معجب بعرابى ووقفته العظيمة أمام الخديوى ، ومطالبته أن تكون مصر للمصريين وليس لغيرهم ، وحكاية الدستور ومجلس النواب ، كل هذا كلام عظيم وعلى عينى ورأسى ... ولكن الأهم من كل ذلك حالة الناس ، وحالة البلد .
فقال (قبارى) بحماس زائد : - هم ولاد الصرمة السبب وراء كل ما يحدث فى البلد .
فقال (قنديل) متعجبا : - تقصد تقول إن المذبحة التى حدثت الشهر الماضى ، وبدأت فى (السبع بنات) ثم انتشرت فى البلد من تدبيرهم ، والحرق والنهب فى مخازنهم ومحلاتهم وورشهم من تدبيرهم أيضا .
فقال (قبارى) : - ولم لا .
- أنسيت أنه قتل منهم الكثير .
فقال (مرسى) : - والله أنا مع (قنديل) فيما قاله و.....

فقاطعه (قبارى) ضاحكا : - طبعا ... لابد أن تتفق معه ألست نسيبه ؟
فقال (رشيدى) بعد طول صمت : - إذا كان وجود (عرابى) ومن معه يعارض الأجانب ومصالهم فى البلد ... فهم لن يسكتوا حتى يتخلصوا من (عرابى) ونحن نتمسك بعرابى ... من الذى سيغلب فى النهاية ؟
نظر (قبارى) إلى النرجيلة وإلى الفحم المتوهج وقال ضاحكا :
- الظاهر الصنف النهاردة ممتاز يا (رشيدى) .
فقال (لويس) : - (رشيدى) معه حق ، الأمر الآن بين أهل البلد المتمسكين بعرابى ، وبين الأجانب غير الراغبين فى (عرابى) ... علام سينتهى هذا الصراع .
فقال (قبارى) : - للأقوى طبعا .
- والأجانب هم الأقوى .
فقال (قبارى) بحماس : - ولكن البلد بلدنا ، ويجب أن نتمسك بعرابى و ...
فقاطعه (رشيدى) بأشارة من يده ، وهو ينفث الدخان فى الهواء : - يا (قبارى) ... من الذى بنى الأسكندرية ... أليس هو الأسكندر ، ومن يومها والأسكندرية مفتوحة لكل خلق الله ، اليونانيين والإيطاليين والفرنسين والإنجليز والألمان والأسبان والأمريكان وغيره وغيره ... لا نستطيع أن نحدد من هم أهل الأسكندرية ... الوحيد الذى يقدر هو الأسكندر .... يطرد كل هؤلاء ويرميهم فى البحر ، ثم يغسل الأسكندرية ، ويجلس هنا على مقهى (القزاز) ويطلب نرجيلة وقهوة سادة .... وأنا الذى سيحاسب على المشاريب .
انفجر الجميع فى الضحك ، وظلوا يضحكون ، و(رشيدى) يراقبهم وهو فى غاية الإندهاش عن سبب ضحكهم هذا ، مع أن ما قاله لا يثير الضحك وإن كان يثير البكاء .
********** ********** **********
عقدت الدهشة لسانه ، حينما فتح الباب فوجدها واقفة ، سألته وهى تخفى وجهها تحت اليشمق : - أعندك أحد ؟
فقال لها بعد تردد وهو يزدرد ريقه بصعوبه : - لا .
تنحى لها ، فدخلت وجلست على أقرب مقعد وتخلصت من غطاء الوجه ، وقالت تعاتبه وعيناها تلتمع بالدموع : - وقدرت تبعد طوال تلك المدة .... لم أكن أعرف أنك بتلك القسوة .
فقال محاولا أن يدافع عن نفسه : - منذ أن جرحت و ....
فقاطعته قائلة : - أنت الآن شفيت من كل جروحك ، وذهبت إلى أبى فى محل الأنفوشى ، وأخبرك أن تبقى فى البيت حتى يقوم بترميم المحل وذهبت هنا وهناك ، ولم تفكر أن تقابلنى .
- نعم ، ولكن كيف ؟
- الآن تسألنى كيف تقابلنى ، وفى المرات السابقة ألم تكن تعرف كيف تقابلنى ... أم أنك نسيت يا ابن عمتى .
وأخذت تجفف دموعها التى انهمرت فى صمت .
اقترب منها وحاول أن يمسك يدها ، ولكنها نفرت منه وقالت غاضبة: - لا تلمسنى مرة أخرى .
جلس بجوارها ، وحاول أن يبحث عن كلام وقال : - لابد أن تقدرى موقفى و...
فقاطعته بأسى : - وأنت لم لا تقدر موقفى .... لم تعد هناك حجة واحدة ، وكل يوم يأتى خطيب لأبى ، لابد أن تطلبنى من أبى اليوم قبل الغد .
فقال بعد تردد وصمت : - لا أستطيع .

- واستطعت أن تجعلنى أتعلق بك ، وأحبك كل هذا الحب .
- وأنا أيضا أحبك .
- لا ... أنت لا تحبنى ... أنت خدعتنى ، وكنت تتسلى بى .
- أقسم لك أنى أحبك ، ولكن ليس بيدى شئ ، لو طلبتك من خالى سيرفض ، وأنت تعلمين معنى رفضه ... ألا أبقى فى الأسكندرية كلها يوما واحدا .
- وألم تكن تعلم ذلك قبل أن تجعلنى أتعلق بك ؟
- للأسف ، حينما نحب لا نفكر فى شئ مطلقا ، ولكن لكى يعيش هذا الحب لابد أن نفكر ونفكر بجدية .

فقالت ساخرة : - وهل فكرت يا صاحب الشهادة العالية .

- لم أتوقف لحظة عن التفكير ... ولابد أن اصارحك الآن .
- بم تصارحنى ؟
- أن نفترق ... ولا يرى أحدنا الآخر بعد ذلك ، وكل منا يسير فى طريقه .

صمتت قليلا لتستوعب ما قاله ، ثم نهضت وأسدلت الغطاء على وجهها ، وخرجت مسرعة ، وقبل أن تنصرف استدارت له ونظرت إليه وقالت له بصوت مخنوق بالبكاء : - منك لله .

بقى واجما وشاردا فترة لا يدرى أطالت أم قصرت ، ولا يدرى كيف استطاع أن يقول هذا الكلام ، نبهه (رمضان) وسأله : - أكان لديك أحد .... لقد جئت فوجدت الباب مفتوحا .

- نعم ، (تحية) .

فقال مندهشا : - (تحية) جاءت إلى هنا !

- نعم ، لتعرف سبب عدم مقابلتى لها .
- وفيم تحدثتما ؟
- أنهيت كل شئ ، ولن نتقابل بعد اليوم .
- خسارة أن يكون هذا مصير ما بينكما من حب .
- وصلت أنا وهى إلى طريق مسدود .
- تقصد أنت فقط الذى وصلت إلى هذا .
- أنا أو هى لا فرق .
- لا يا (فؤاد) هناك فرق ..... أصارحك ... نحن عاجزون عن الحب .

فقال ساخرا : - نحن عاجزون عن كل شئ إلا الحب .

- ما تتحدث عنه وهما وليس حبا ... الحب يا (فؤاد) قدرة ... إرادة ، تغلب على كل العقبات ، وتخطى كل الحواجز .
- الظاهر ما تتحدث عنه أنت أيضا وهما .. وإلا قل لى ماذا كان على أن أفعل ؟
- لا أدرى ماذا تفعل .. . ولكن كان ولابد أن تحارب فى سبيل هذا الحب .
- كيف أحارب وأنا أعلم مقدما أن معركتى خاسرة ؟
- لا أحد يدخل معركة وهو ضامن النصر .
- ولا أحد يدخل معركة وهو موقن بالهزيمة .
- حياتنا كلها متأرجحة بين هذين الخطين .
- والذى يسيرنا بينهما القدر .

ربت على كتفه قائلا : - الفشل فى تجربة حب ليس نهاية العالم ، ربما ما حدث مرحلة من مراحل تلك التجربة التى مررت بها .

- لا تعزينى .

- أنا لا أعزيك ، وإنما أعزى نفسى

صمت (فؤاد) قليلا، ثم سأل (رمضان):- ألم تعد (جان) منذ أن سافرت إلى (أستانبول) ؟

- أظن انها فى الطريق ، فقد أختتم المؤتمر جلساته منذ أيام .
- ولماذا لم تسافر أنت أيضا ؟
- هى جريدتها أوفدتها ، ولكن جريدتى لا تقدر على تحمل نفقات سفرى .
- وما حكاية هذا المؤتمر ؟
- الدول الكبيرة اجتمعت فى (الأستانة) للنظر فى المسألة المصرية .
- أمصر أصبحت مسألة ؟!
- هم يرون أن مصر غير قادرة على حماية الأجانب ومصالهم ، فيجب بحث تلك المسألة .
- إنها مقدمة صريحة للتدخل فى شئون مصر .
- بالضبط .
- وهل وافقت تركيا على عقد مثل هذا المؤتمر وعندها ؟
- مرغمة على ذلك .

فقال (فؤاد) بأسف : - من الذى فى حاجة إلى رعاية مصالحه ... نحن أم هم ؟!

- المهم .... ماذا ستفعل اللآن ؟
- أفكر أن أعود إلى (دمنهور) .
- لم ؟
- فى حاجة إلى حضن أمى وكلمات أبى .
- وكم ستمكث هناك ؟
- يومين أو ثلاثة .
- ثم بعد ذلك ؟
- أعود ولكنى لا أريد أن أعمل عند خالى .
- وأين ستعمل ؟
- لا أدرى .
- أنت لست فى حالة تسمح بالتفكير ... اترك تلك الأمور الآن ، ربما يحدث ما ليس فى الحسبان .

********** ********** ********** **********

أجهشت فى البكاء الحار وعانقته وصغيرها على كتفها يشاركها فى البكاء ربت على كتفها مهدئا وسألها : - فى كل مرة أقابلك تبكين . ما الأمر يا (خديجة) أحدث مكروه لحجازى ؟

وبعد أن هدأت بعض الشئ قالت وهى تجفف دموعها : - (حجازى) يريد أن نعود إلى (الدلنجات) .

- لم ؟
- لا أدرى .
- ربما لا يرغب فى العمل هنا .
- لولا الدكتور متمسك به لسفرنا منذ شهر .
- وأنت طبعا لا ترغبين فى العودة إلى البلد .

- أنا أموت ولا أذهب إلى هناك ، ما ذنب هذا الطفل ، والذى فى بطنى أن يعيشا هناك ؟

نظر إلى بطنها مبتسما وقال : - ربما (حجازى) لا يرى جدوى من بقائه هنا .

- كيف ؟ الدكتور يعامل (حجازى) بكل احترام ، ويعطى له بسخاء ، ومعنا المال الكثير ... أنترك هذا المكان النظيف ونعود إلى هناك ؟
- وأين هو الآن ؟
- على وشك العودة ، سأقوم لأعد لك كوبا من الشاى .

وناولته الصغير ، وقال لها وهى منهمكة فى إعداد الشاى : - سأعود إلى (دمنهور) غدا ، أتريدين شيئا من هناك .

- لو يوافق (حجازى) أن أذهب معك .

فضحك قائلا : - الأفضل ألا تفعلى ذلك ، وإلا يكون ذهاب بلا عودة .

وبعد أن أحضرت الشاى ، نظرت فى وجهه وسألته : - ما بك يا (فؤاد) ؟

فقال متعجبا : - ليس بى شئ .

- لا ، هناك شئ تخفيه ... أحدث شئ بينك وبين خالك .
- لا ، لم يحدث شئ .
- إذن الأمر يتعلق (بتحية) .
- أنهيت علاقتى بها .

ضربت على صدرها مندهشة : - وأنا كنت متوقعة أن تخطبها .

نظر إليها فى حزن وقال : - لا تنسى وضعنا الآن بعدما أفلس والدنا .

كيف تنسى وهى أول الضحايا هذا الإفلاس ، قالت فى أسى : - إنه قدرنا ولابد أن نتحمله .

- الظاهر أن خطأ والدنا سنتحمله لآخر يوم فى حياتنا .
- لقد رأيت أياما وليالى سوداء يا (فؤاد) ، أصارحك بشئ لم أخبر به أحدا ، لقد فكرت فى الانتحار ، ولكن الله عوضنى (بمحمود) ابنى وبالحياة هنا .

ودخل (حجازى) وفى يده فسائل من النباتات ، وضع ما بيده جانبا وعانق (فؤاد) بحرارة وابتسامة عريضة ، ونظر إلى (خديجة) ناهرا إياها : - لماذا لم تعدى الغداء يا (خديجة) ؟

فقال (فؤاد) : - لا.... لا داعى للعداء .

فهب (حجازى) واقفا وبألعى صوته قال غاضبا : - على الطلاق لابد أن تتغدى معنا .

فابتسم (فؤاد) وقال : - هذا طبعك ولن تتغير أبدا ...اهدأ يا (حجازى) سوف أتغدى معكما ... اجلس .

- أهلا وسهلا بالأستاذ ، لقد شرقتنا بالزيارة تلك .

وبعد أن انصرفت (خديجة) لتعد الغداء وتركت (محمودا) على حجر (حجازى) سأله (فؤاد) : - لم تريد العودة إلى البلد .

- أأخبرتك (خديجة) ؟
- نعم ، ولكن لم تخبرنى عن السبب .

اقترب منه وقال هامسا : - يا أستاذ (فؤاد) ... فى الشهر الماضى رأيت الموت بعينى ،وكنت أتعثر فى القتلى والجرحى فى كل مكان ، وحملت الكثير بيدى هاتين ، وذهبت بهم إلى المستشفى .

- كلنا حدث معنا هذا ... أنا نفسى كنت سأقتل لولا صديق أنقذنى ، وحطموا وحرقوا المحل الذى كنت أعمل فيه .

- وما الذى يجبرنى أن أعيش هنا يا أستاذ (فؤاد) ؟
- من أجل مستقبل ابنك (محمود) والذى سيأتى .
- ألن يكون لهم مستقبل هناك ؟
- لا شك أنك تتمنى أن يكون (محمود) أفضل منك .

نظر إلى ابنه ثم قال : - نعم ، اتمنى ذلك .

- لن يحدث ذلك إذا أمضيت بقية عمرك فى (الدلنجات) ، ثم أن (خديجة) قالت أن الدكتور متمسك بك ، والراتب الذى تتقاضاه لم تكن تحلم به ، وأنت لا تتعب نفسك ولا تشقى مثلما كنت هناك فى البلد .
- منذ أحداث الشهر الماضى ، ونفسى منقبضة ، وأنا لا أخشى على نفسى ، ولكن على
(خديجة) و (محمود) .
- قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .
- ونعم بالله .

وجاءت (خديجة) تحمل الطعام ، وقال (فؤاد) : - أبو (محمود) وافق على أن تبقوا هنا ، وصرف نظر عن فكرة العودة إلى البلد .

فنظرت إلى (حجازى) تعاتبه : - لقد ظللت أتوسل إليك أياما وليالى وأنت رافض ، وجلسة واحدة مع (فؤاد) يقنعك فيما فشلت أنا فيه .

فابتسم وهو يقذف بالطعام فى جوفه : - الأستاذ (فؤاد) كلامه زين يا (خديجة) .

فقالت تقلد لهجته وطريقته فى الكلام : - وأنا كلامى شين يا (حجازى) و...

فقاطعها (فؤاد) قائلا : - المهم أن أبو (محمود) وافق يا (خديجة) .

- ربنا يطيل لى عمرك يا أخى .

فقال (حجازى) غاضبا : - وأنا ربنا يقصر عمرى يا (خديجة) .

- (خديجة) لم تقل ذلك يا (حجازى) .
- هو دائما هكذا لا يفهم كلامى ... ولا يتحمل منى كلمة ... حتى يهاجمنى ويعاتبنى .
- صلوا على النبى ... أنت (يا (خديجة) ليس لك أحد إلا (حجازى) ، وأنت يا (حجازى) ليس لك أحد إلا (خديجة) .

ونهض (فؤاد) متأهبا للانصراف وقال : - أتريدان شيئا من (دمنهور) ؟

فقالت وهى تعانقه وبوادر دموع تلتمع فى عينيها : - سلم على أمى وأبى ، وتذهب وتعود بالسلامة يا اخى .

(29)

- حب وحرب -

- ألم أوحشك ؟
- جدا .
- لا يظهر عليك هذا .
- كيف ؟
- لقد غبت عنك طويلا ... ومع ذلك لم أحس بحرارة فى كلامك ، بل منذ أن جلسنا وأنت تتحدث وكأننا لم نبعد عن بعضنا ... وكأنك لم تكن متلهفا على لقائى .
- لابد للإنسان أن يعقلن مشاعره ، ولا ينساق وراء عواطفه .
- لقد تغيرت خلال المدة التى تركتك فيها .

- أليس هذا ما كنت تطالبيننى به دائما ... لابد أن تتغير مسيو (رمضان) ، لابد أن تغير أفكارك ، ونظرتك للأمور ، ورؤيتك للعلاقة بين الرجل والمرأة ، وأن أتبنى أراء أخرى غير التى أنا عليها .

فقالت ساخرة : - وأنا كذلك التى طلبت منك أن تكون فاترا وغير مكترث بى .

- (جان) ... التغيير قد يأتى بما تحبين وبما لا تحبين .
- والتغيير هو الذى جعلك زاهدا فى لقائى .
- ليس زهدا ، ولكن كما قلت لك عقلنة مشاعر .
- بمعنى ...
- بمعنى أن أعيش تلك اللحظة ، لا أفكر فيما قبلها أو فيما بعدها ولا أعطى للشئ أكثر من حجمه ، والثبات أو الاستقرار على شئ قد يبعث على الملل والسأم . و....

فقاطعته قائلة :- مسيو (رمضان) ، إن كنت تريد أن تنتقدنى أو تهاجمنى فلا تتخفى وراء مسميات لا معنى لها ، أنت لم تتغير ولا تملك أن تتغير ، ولكنك متخذ موقفا حتى من قبل أن أسافر ، منذ سهرة مسيو (انطونيادس) وأخبرتك حينها بعدم قبولى عرضك لى بالزواج ، وكأى رجل شرقى شعرت بالإهانة ، وتريد أن ترد لى الإهانة ، أو على الأقل تظهر لى عدم رغبتك فى ... أليس كذلك مسيو (رمضان) ؟

ابتسم (رمضان) وسألها : - ولم لا أتغير ؟

- لأنك معتد بنفسك ، وترى أنك على صواب ، وغيرك على خطأ ، ثم أنت تحمل سمات من تعيش بينهم .

فسألها ساخرا : - وما هى تلك السمات أيتها الخبيرة فى علم الاجتماع وعلم النفس ؟

- لن تمنعنى سخريتك أن أقول رأيى بصراحة .... أنتم تخافون من التغيير ، تكرهون المغامرة ، تعشقون الثبات والاستقرار، الجمود عندكم من طبائع الأمور ، وسنة من سنن الحياة ، الحياة عندكم رتيبة ومملة ، اليوم مثل الأمس ، حتى العلاقات بينكم محنطة ، جفت منها مياه الحياة والحيوية .

وضحكت بصوت عال ، ثم قالت : - وعلى ما يبدو أنكم ورثتم موهبة التحنيط عن أجدادكم الفراعنة ، الفارق بينكم أنهم كانوا يحنطون الموتى ، أما أنتم فتحنطون الأحياء ، انظر إلى ملابس المرأة عندكم ، أتلك ملابس أم أكفان ؟ عندما ذهبت إلى تركيا ، كنت أظن أنى سأجد شيئا مختلفا ، ولكن وجدت ما هو موجود هنا بل أسوأ .

- وما يحدث فى مصر الآن ... اليس هو تغيير فى رأيك .
- هى دعوة لتغيير وليس تغييرا ، حتى لو دفعتكم الظروف إلى التغيير ، فأنتم تغيرون ولكن فى إطار القديم ، وهذا ليس تغييرا .
- وبما تسميه سيدتى الخبيرة ببواطن الأمور وشخصيات الشعوب ؟
- سميه تبديل ، نقل ، تحريك ، أى شئ من هذا القبيل ، إلا أن يكون تغييرا ، تأمل ما جاء به (عرابى) ومن معه ، كل مطالبهم فى مجملها يمكن أن تطلق عليها مطالب ... التماسات

تحريك ، استبدال ... الجديد فى الأمر هنا إن هذا تم بلهجة قوية بعض الشئ ، فيها شئ من الغضب ... التململ ... الضيق .. ولكن كل هذا لن يتحول إلى ثورة ، فأنتم لم تثوروا من قبل ولن تثوروا أبدا .

- أنت حكمت على الماضى لأن هناك شواهد ودلائل ، ولكن أنت لا تملكين مصادرة المستقبل ، فقد يحدث ما لا تتوقعين .
- حتى لو حدث ، فلابد أن يجهض ، ولن يولد أبدا .

- ودليلك على هذا ؟
- ما حدث فى الدولة التى تعلقون عليها كل أمالكم وتدرون فى فلكها .
- تركيا .
- نعم ، لم تستطع أن تمنع عقد مؤتمر يجرى فوق أراضيها من الدول الكبرى .
- وعلام انتهى هذا المؤتمر .
- بعد سبع جلسات ومداولات ومناقشات واتفاقات واختلافات تقرر وجوب إعادة الاستقرار إلى مصروالتخلص نهائيا من بذرة التمرد والعصيان، وذلك حفاظا على المصالح الأجنبية .
- ومن الذى سيتولى تلك المهمة ؟
- اجتمع الرأى أن تقوم الدول المجتمعة بتقديم هذه اللائحة التى تتضمن تلك المطالب إلى الباب العالى فى الدولى العثمانية ، لأنها صاحبة السيادة على مصر .
- وطبعا الدولة العثمانية رفضت تلك اللائحة .
- الأمر سيان سواء رفضت أو قبلت .
- كيف ؟
- لو قبلت فهو إعلان صريح بقبول التدخل من الدول الكبرى فى شأن يخص الدولى العثمانية ، وينتقص من سيادتها على مصر .
- وإن رفضت .
- أظن هذا سيكون مبررا ستجده الدول الكبرى وبالأخص إنجلترا أن تتدخل بشكل مباشر وصريح فى مصر .
- تقصدين ...
- نعم ، احتلال مصر .

صمت (رمضان) قليلا مفكرا ، ثم قال : - إذن الأمر جاد ، والأسطول الإنجليزى فى البحر .

- تلك الدول لا تهزل ولا تعبث .
- كنا نظن أنها جاءت لتهدد فقط .
- لا أظن وإنما جاءت لتنفذ مخططا .
- ولكن ، هل تشن حربا لمجرد حماية مصالحها ؟
- ما لا تعرفونه أن المصالح الأجنبية فى مصر فى غاية الأهمية ، فهى مسألة حياة أو موت ثم إن احتلال إنجلترا لمصر ليست تأمين مصالحها فى مصر فقط .
- أهناك أماكن أخرى ؟
- نعم ، فى الهند وفى العالم كله ، مصر فى غاية الأهمية ، ليس لأنها معبرا إلى الهند وإلى كافة المستعمرات الأخرى ، ولكن لأن ما يحدث فيها ظاهر للعيان ومسموع للأذان ، ومتعاطف معه ، فإن نجح (عرابى) هنا ، ستجد غيره فى مناطق كثيرة فى العالم ، وفى الدول والشعوب المتطلعة إلى اليقظة والتغيير والتحرر ، وهذا ما لا تريده الدول الكبرى

وأظن إن هذا هو المحرك الخفى لكل الأحداث .

- ومتى ستتحرك إنجلترا لشن الحرب على مصر ؟
- قريبا ريثما تستكمل استعداداتها ، وتجد مبررا تافها ، أو تخترع مبررا .

نظر (رمضان) إلى ملامحها الرقيقة الجادة ، وتعجب كيف تصل تلك المرأة إلى القمة فى أساليب الحب والغرام ، وتكون على هذا القدر من الجمال والأنوثة ، وأيضا تصل إلى

القمة فى العمل الجاد والتحليل المنطقى ، والظاهر والخفى لدوافع الأمم والشعوب ، وتشخيص علل وأمراض تلك الشعوب والأمم ، إنها شخصية متكاملة مبهرة من جميع النواحى ... ومعها حق أن ترفض عرضه للزواج ، لأنها خسارة أن يتزوجها رجل ، لا سيما وإذا كان هذا الرجل مثله ، جامد ثابت متحجر أو محنط كما تقول . تأمل جمال عينيها وإغراء شفتيها وسالها مداعبا :

- ألا تخشين أن أنشر أشياء من تلك التحليلات فى جريدتى لا سيما وإنك لم تنشرى الكثيرمنها ؟

ألتقطت حقيبتها وأخرجت رزمة من الورق ، وقالت : - تلك وقائع الجلسات ... إن شئت خذها وأنشر منها ما تشاء .

- ولكن أنت بذلك تعطين ثمرة جهدك وتعبك لغيرك .
- نعم .
- ولم ؟
- لأنك صديقى .

تأمل خصلة عابثة من شعرها على جبينها المشرق ، سألها فى مكر : - صديقك فقط .

فقالت وقد جمعت كل ما يمكن من إغراء وغواية ، وشفتيها تختلج اختلاجا : - وحبيبى .

فشبك بين أصابع يديه وقال : - حب على طريقة (جان) .

فنهضت ومدت يدها له وقالت : - لأن الحب على طريقة (رمضان) لا ينفع .

********** ********** **********

وضع الطعام والماء للحصان ، ثم قام بمسح العربة مما علق بها من التراب ، ثم جلس داخلها واضجع مغمضا عينيه ، وأخذت أحداث الشهر الماضى تقتحم عليه قيلولته ، رغم مضى الأيام إلا أن مناظر القتلى والجرحى والبكاء والصراخ والسرقة والنهب والحرق مازالت ماثلة أمامه ، يشعر بوخز الضمير ، لأنه البعض اتهمه أنه هو السبب والمحرض لما حدث ، وذهب إلى الأستاذ (رمضان) بضمير معذب ، فأخبره أن الأمور كانت لابد أن تحدث به أو بغيره ، وإن الأمر أكبر منه ومن كل الحمالين والحمارة ، ولو كانوا هم السبب لمرت الحادثة عبارة عن مشاجرة كتلك التى تنشأ دائما ، ولكن الأمر تطور لأن الأجانب كان معهم أسلحة نارية وهم السبب الأول والأخير لما حدث ، إلا أنه لا يعفى نفسه ، لأنه كان وراء حشد الحمالين والحمارة وقت الخطر ، ربما لو لم يتجمعوا فى وقت واحد ومكان واحد لما قتل منهم الكثير أو جرح .

سمع أصواتا كثيرة وجلبه تتجه إليه ، أطل من داخل العربة ، فوجد جمعا من الحمالين غاضبين منذمرين وأمامهم خاله (شعير) وفى يده مجموعة من الأوراق ، خرج إليهم وسأل خاله :

- خير يا خال ؟
- هؤلاء الرجال يريدون منك أن تكتب لهم إلى (عرابى) أو إلى (رياض) باشا أو حتى إلى جلالة الملك ... فمنذ حدث ما حدث لا يجدون عملا وفرغت جيوبهم وبيوتهم ، وكل يوم يمر تزداد الحياة سوءا وضنكا .
- وماذا سيعمل (رياض) باشا أو (عرابى) أو حتى الملك لهم .

فأنبرى رجل رث الثياب ناتئ عظام الصدروقال وقد تناثر الزبد من حول فيه :

- يعملون كثيرا ... أليسوا هم المسئولين عنا ، نحن لا نجد ما نأكله ، أبناؤنا فى البيوت جوعى ، ونحن هنا جالسين لا نجد ما نعمله ، ولا أحد يشغلنا ، والله هذا حرام ، ولا يرضى أحدا .

وقال آخر : - ليس أمامنا إلا أن نسرق وننهب لكى نسد جوع أبنائنا

أخذ (رفاعى) الأوراق من يد خاله وقال : - ما الذى تطلبونه لأكتبه ؟

فقال حمال ساخرا : - وهل سيستجيبون لما نطلبه يا (رفاعى) ؟

وعقب آخر : - لن يسألوا فينا ... فلم يعد لنا قيمة فى بلدنا هذه .

وقال آخر : - لم تعد بلدنا ، تلك بلدهم هم .

فقال (شعير) مهدئا : - يا جماعة .... (رفاعى) سيكتب ورقة للسيد (عمر لطفى) المحافظ ، وورقة لرياض باشا ، وورقة لعرابى وورقة للملك .

فضحك رجل قائلا : - وورقة لعبده الحمولى .

فسأله من بجواره : - لم ؟

- ليغنى همنا وغلبنا على الربابة يا ولد .

وأخذ الجميع يضحك ، فما كان من (شعير) إلا ومد يده يريد أخذ الوراق من (رفاعى) ليمزقها ، فصرخ الجميع خوفا من تصرفه ، فقال مؤنبا لهم : - أهذا وقت سخرية وضحك ؟

فقال رجل : - ياعم (شعير) لو لم نضحك سننفجر من غلبنا ، ألا ترى أيام الضنك التى نعيشها ، نحن لا نجد حتى الخبز .

وعقب آخر : - على رأيك ... انا لا أقدر أن أعود إلى البيت ، لأن ليس معى شئ .

فقال (شعير) : سأجلس أنا وابن أختى لنكتب كل ماتريدونه ... هيا كل منكم يذهب إلى حال سبيله .

********** ********** **********

- لا أظن أن (بربارة) ستستسلم بالسهولة التى تظنها .
- فقال (أنطونيادس) بلا مبالاة : - وما فى يدها أن تفعله ؟
- العاشق المجروح قد يفعل أشياء لا يصدقها عقل .

فقال مندهشا : - عشق ! أنا لم أحبها فى يوم من الأيام .

- نحن نتحدث عن (بربارة) وليس عنك ..... ثم ما كان بينكما ما تسميه ؟

اكفهر وجه (أنطونيادس) .، وأشعل سيجارة ودار حول مكتبه ، ثم قال :

- (بربارة) موظفة عندى ... نعم هى لها مكانة كبيرة عندى ولكنها فى نهاية الأمر موظفة .
- (أنطونيو) لا تخدع نفسك ... بالنسبة لك كانت (بربارة) أكثر من مجرد موظفة ... الصلاحيات التى أعطيتها وأسرار عملك ، وإنها كانت ترافقك فى كل مكان كظلك .... إنتما كنتما تعيشان كزوجين .
- كل شئ كان له ثمن يا (جو) .
- قد لا تنظر (بربارة) إلى الموضوع مثلما تنظر .

فقال بضيق : - ما هذا يا (جو) ؟ ما سبب اهتمامك المفاجئ ببربارة ؟

- لا أدرى .... أشعر إنها تدبر شيئا ما .
- ماذا تقصد ؟
- لقد زارتنى منذ أيام ، وقالت كلاما كثيرا ... وأظنها قد عرفت باعتزامك على الزواج من

(إنشراح) .
- لا تهتم بما تقوله (بربارة) وبالأخص وهى سكرى ، المهم اخبرنى أين أقضى شهر العسل ... فى باريس ولا لندن .
- أظن أى مكان .... الأهم أن تكون معك (إنشراح) .
- معك حق .... إنى أعد الساعات المتبقية على زواجى منها ... لم أتخيل أنى فى يوم من الأيام أتعلق بامرأة مثلما تعلقت بإنشراح .

فضحك (جوستاف) : - إنها ليست ساعات .
- اتركنى يا (جو) اتخيل أنها ساعات وليست أياما .
- نهض _ جوستاف) لينصرف ، وصحبه (أنطونيادس) وقال له مازحا : - طالما يعنيك أمر (بربارة) فأولها إهتمامك ، وأقضيا أوقاتا سعيدة سويا ، (بربارة) لديها كنوز ... هى لك إنى أعلم أنك مغرم بهذا النوع من النساء .

فضحك (جوستاف) : - الآن تقول ذلك ، وفيما مضى كنت تحذرنى من الاقتراب منها .
- القلب وما يريد يا صديقى (جو) .

********** ********** **********

فوجئ بها وهو فى قمة انشغاله بترتيبات الزواج والسفر : - أين ستقضى شهر العسل يا (أنطونيو) ؟
- (بربارة) !!
- الحمد لله أنك مازلت تتذكر اسمى .
- أيمكن أن أنساك يا (بربارة) .
- نعم ، نسيت يا (انطونيو) .... نسيت عمرى الذى وهبته لك و ....

فقاطعها بحزم : - (بربارة) .... لقد تحدثنا فى هذا الأمر من قبل ، ولا داع لنعيد ما قلناه .
- حتى كلامى لم تعد تحتمله .

مضت فترة صمت ، تشاغل (أنطونيو) خلالها بتصفح عددا من الأوراق ، سألته :
- طالما تريد الزواج ، فلماذا لم تتزوجنى أنا ؟

اقتربت منه وأمسكت بيده وحدقت فى عينيه وقالت بصوت مبحوح :
- - لقد رأيتها وعرفت عنها كل شئ ، واقتربت منها ، مازالت أثار الطين فى أظافرها ، وحرقة الشمس وهى تعمل فى الغيطان على جبينها ، وأثار أصابع الرجال فى المحالج على جسدها ، تفوح منها رائحة العفن ، إنها حشرة قذرة لا تستحقك ... أنا من يستحقك ، ولن تتزوج غيرى .
- (بربارة) اكيد أنت سكرانة .
- أنت مخدوع ولابد أن تعرف حقيقة تلك الساقطة .

أمسك بها غاضبا وقال لها : - (بربارة) أنت لا تعين ما تقولينه ... إنها زوجتى الآن .
- لا... مستحيل أن تتزوجها .... إنها لا تستحق ، لا أنت أول رجل ولن تكون الأخير ، إنها ساقطة .

لم يشعر (أنطونيادس) بنفسه إلا وهو يصفحها صفعات متتالية ، وهى تتراجع سقطت على الأرض ، فأخذ يركلها بقدميه وقد جن جنونه، وهى تصرخ صرخات هستيرية ، دخل الحراس والخدم فصاح بهم : - ارموا تلك المرأة فى الخارج ... ولا أريد أن أراها هنا مرة أخرى ، واقطعوا قدميها لو جاءت هنا .

فنظرت إليه من خلال دموعها وهم يحملونها ليلقوها بالخارج وقالت :
- سوف أقتلها وأقتلك يا (أنطونيادس)، وسوف أقتلكم كلكلم ياكلاب .

********** ********** **********
- لا أحد يرانى مرتين خلال مدة وجيزة ، إلا إذا كان سيعدل عن أمره لى ، وإذا عدل فالمبلغ المدفوع لن يرد .
- لا ، لن أعدل .
- إذن لم تلك المقابلة ، لقد أعدت كل شئ ، وكان يكفى منك إشارة حتى أقوم بالتنفيذ فورا .

تأملت تلك القبعة العريضة التى تغطى جزء كبير من وجهه ، والنظارة السميكة السوداء التى تحجب ملامحه وقالت بصوت منخفض وهى تتلفت حولها : - هناك مهمة أخرى .
ودفعت له بمظروف عبر المائدة ، مد يده ذات القفاذ الأسود وحاول أن يفتح المظروف ، وأخرج طرفا من الصورة التى بداخله ، ثم أغلق المظروف وأعاده إليها ، وقال بنبرات حازمة : - أنت تطلبين المستحيل .
أومأت بحقيبة بجوارها قائلة : - كل شئ وله ثمن .
- ومعك الثمن الآن ؟
- بل أكثر مما تتوقع .

نظر إلى الحقيبة السوداء المتفخة بجوارها ، وقال بصوت تكاد لا تسمعه :
- إذن ادفعى الحقيبة بقدميك من تحت المائدة .

ففعلت كما قال ، وحينما أصبحت الحقيبة فى متناول يده سألها : - أيهما أولا .
- المرأة .
- لا تنهضى حتى انصرف ، ولا تحاولى أن تقابلينى مرة أخرى ، لأنى سأترك مصر بعد تنفيذ المهمتين .

********** ********** ********** **********

أخذ (رمضان) يتابع(أسكندر) وهو يأكل بكل شراهة من ذلك الطعام الذى أحضره (فؤاد) بعد زيارته لدمنهور، وقال له : - ولك رغبة أن تأكل بشهية مفتوحة بعدكل ما سمعته .
فقال (أسكندر) وهو يحاول أن ينزع قطعة لحم من البطة المحمرة أمامه :
- أنا لا أدرى سببا للخوف والفزع الذى ركب البلد .. قائد الأسطول الإنجليزى مستر (سيمور) أرسل إنذارا إلى الجيش بعدم ترميم الطوابى والقلاع والحصون ، الجيش و (عرابى) رفضوا هذا الإنذار ... أين المشكلة فى ذلك ... الشوارع خالية من الناس ، المحلات والوكالات والورش أغلقت أبوابها ،الآلاف يبحثون عن سفن تنقلهم إلى بلادهم ... إنهم أغبياء .
فقال له (فؤاد) : - يا بنى آدم ، معنى أن الجيش رفض الإنذار ورفض التوقف عن الترميم ، أن الأسطول سوف ينفذ تهديده ويضرب البلد .
- وما فى ذلك ..... ألن يضرب القلاع والطوابى ؟؟
- نعم .
- - وما فى ذلك كل القلاع والطوابى مجرد صورة .... هيكل ، وليس لها أى فائدة .

فقال (رمضان) : - وفى أثناء ضربه ممكن يدمر البلد ويقتل كل الجنود .
- لم ؟
- ليدخل ويحتل البلد .

- ولم يحتل البلد ؟ الإنجليز فى كل مكان فى البلد ، ليس الإنجليز فقط ، ولكن جميع أجناس الأرض ، نحن لا نمنع أحدا أن يأتى إلينا وبالأخص النساء ، وبالأخص لو كن نساء جميلات .

فقال (رمضان) : - فى الحقيقة هم يريدون احتلال البلد لمنع تكرار أحداث الشهر الماضى ، وهناك أشياء أخرى دماغك المشغول دائما بالنساء والبنات لا يفهمها .

ترك (أسكندر) ما بيده ، ومسح يده ، وأشعل سيجارة ، وقال : - معك حق فى هذا ، ولكنى مع ذلك بعون الله أفهم فى كل شئ ، ما هى تلك الأشياء التى يريدها الإنجليز من دخول البلد .

- يريدون القضاء على (عرابى) وإخماد حركته إلى الأبد .

فقال بلا مبالاة : - وماذا فعل (عرابى) ؟ وماذا يمكن أن يفعل هو ومن معه ؟ يتحدثون ويتكلمون و يعقدون اجتماعات ويذهبون إلى هناك ويجيئون من هنا ، ولكن نحن كما نحن ، لم يتغير شئ ، ولم يحدث شئ كل ما حدث أن حالة الناس ازدادت سوءا، وصرنا إلى هذه الحال .

- يعنى رأيك أن (عرابى) ليس له أى لزوم .
- أنا لم أقل ذلك .... (عرابى) وغيره على عينى ورأسى والبلد تسع الجميع وبالأخص النساء ، ويا سلام لو كن نساء جميلات ، ولكن سؤالى ... لماذا الإنجليز لا يريدون
- (عرابى) ولماذا (عرابى) لا يريد الإنجليز ؟

ضحك (رمضان) وفؤاد طويلا ، وتأمل (رمضان) ملامح (أسكندر) البلهاء ثم قال له :

- (عرابى) لا يريد الإنجليز لأنهم يريدون التحكم فى البلد ونهبها ، والإنجليز لا يريدون (عرابى) لأنه هو الذى يقف أمامهم ويمنعهم من ذلك .
- على هذا فعرابى ولد ابن بلد بحق .
- بالضبط .

فكر (اسكندر) مليا ثم سأل (رمضان) : - ولكن أليس الإنجليز أقوى من (عرابى) ومن الجيش ؟

- نعم .
- وعرابى يعرف ذلك .
- أكيد
- وكيف يقف أمام الإنجليز وهو يعلم أنهم أقوى منه ؟ بهذا الشكل ستضيع البلد بين (عرابى) والإنجليز .
- سادت فترة صمت قطعها (فؤاد) بقوله : - أتعلم يا (رمضان) أن لعبة الحرب كالحب .

فنظر (رمضان) إليه مندهشا وقال : - الحرب مثل الحب ... كيف ؟!

- فى الاثنين لا ضامن لك يضمن أن ستفوز ، واحتمالات الفوز تتساوى مع احتمالات الخسران ، بل فى بعض الأحيان تكون احتمالات الخسارة أقوى ، ومع ذلك تجد نفسك مدفوعا ولا تتراجع .
- ربما لأن الحب والحرب كليهما شئ قدرى .
- نعم ، الشئ الوحيد الذى قد تستطيع فعله هو أن تنسحب .
- وهذا أيضا قد لا تستطيع القيام به .

- فى تلك الحالة تكون النتيجة واحدة ... انسحبت أم لم تنسحب .
- وهذا ما قصدت أنه قدر .

نظر _ أسكندر) إليهما مندهشا وقال : - ما هذا يا أساتذة ؟ ! الحب مثل الحرب ... أيعنى هذا أن التى أحبها ممكن أن أقتلها ... أو لا مؤاخذة أضربها بالجزمة القديمة .

ضحك (رمضان) وقال : - نعم يا (أسكندر) ، ممكن المحب يقتل محبوبته مثلما قتل (عطيل) (ديدمونة) ، و (شجرة الدر) (أيبك) .

فى حرص أخذ (أسكندر) علبة سجائره ، واقترب من الباب وقال : - أنتما أكثر منى تعلما ، وتعرفان أشياء كثيرة أنا لا أعرفها ، فأنا بالنسبة لكما مثل الحمار ، هذا لا أشك فيه ، وكذلك لا أشك أنكما أكبر مجنونين قابلتهما فى حياتى ، ولو مكثت لحظة أخرى سأجن مثلكما .

وبحركة واحدة كان (أسكندر) كعادته خارج الشقة وبعيدا عن أيدى (فؤاد) و (رمضان) .

سادت فترة صمت ، سأل (فؤاد) (رمضان) : - أحقا ممكن أن تضرب الأسكندرية ؟

- وماذا نفعل لو ضربت ؟
- ليس بأيدينا شئ نفعله .
- ولكنهم يهجرون الأسكندرية .
- لا ، الأسكندرية هى التى هجرتهم .
- ألا يمكن أن يحدث شئ يمنع نشوب الحرب ؟
- لا أتصور أن تضرب الأسكندرية ، إنها أرق وأعذب وأجمل من أن تمس .
- لابد أن يكون هناك ضحايا ، والضحايا فى هذا الزمن هى أجمل المدن .

نهض (رمضان) ، فسأله (فؤاد) : - أين ستذهب الآن ؟

- إلى الجريدة .
- إذن خذنى معك فلا فائدة من البقاء هنا .

********** ********** **********

- اعدى نفسك كى نسافر الليلة .

فنظرت إليه مندهشة : - نسافر الليلة !! هذا جنون .

- ألم أخبرك منذ أيام أن تكونى على أتم استعد للسفر .
- نعم ، على أن تخبرنى قبل السفر بيومين أو ثلاثة .
- أينقصك شئ ؟

صمتت مفكرة ، ثم قالت : - على ما أظن لا ينقصنى .

- إذن نسافر الليلة .
- انا لا أدرى سبب تصميمك على السفر الليلة ، أتخشى من شئ قد يحدث ويمنعنا من السفر ؟

تلعثم بعض الشئ وظهر الاضطراب على وجهه : - لا ، ولكن نفد صبرى ، ولم أعد أطيق البعاد عنك ، أريد أن أضمك إلى زراعى .

فضحكت وأبعدته فى رفق وقالت : - اهدأ يا (أنطونيو) وإلا لن نستطيع السفر .

- إذن كلها ساعات وسأمر عليك بالسيارة ونبحر باليخت إلى فرنسا .
- افرنسا أجمل من الأسكندرية ؟
- لا يوجد فى العالم كله مدينة أجمل من الأسكندرية .
- إذن نبقى ونقضى شهر العسل هنا .

اضطرب (أنطونيو) وظهرت على ملامحه الحيرة ، ثم قال : - (إنشراح) يجب أن نسافر وكلما أسرعنا كان أفضل .
تأملت ملامحه ثم قالت : - أنت تخشى من حدوث شئ ، أخبرنى مما تخشى .
- أخشى عليك ، وعلى حبنا وقدرى لهفة عاشق ولهان .
- كل هذا الحب .
- وأكثر مما تتصورين .
- سوف أعيش عمرى ممتنة لك على هذا الحب .
- ألا تلاحظين أنك لم تقوليها لى قط ... إنك تحبيننى ؟
- أنسيت ما إتفقنا عليه يا (أنطونيو) ؟
- ظننت أن بعد كل هذا، قلبك بدأ ينبض بحبى .
- قد يحدث هذا مع الأيام .
- لو أستطيع أن أسبق تلك الأيام حتى يحدث هذا لفعلت .

شردت بعيدا ، ومضت فترة صمت قطعتها بقولها : - ولكن أريد أن اقضى أمرا قبل السفر .

- كلفى به الرجال ، وهم يقضونه لك فى لحظات .
- لابد أن أذهب بنفسى ، نصف ساعة لا أكثر .
- لن اسألك أين ، ولكن خذى السيارة والرجال معك .
- أتخشى على ؟
- إنى أخشى عليك كما أخشى على حياتى .
- إذن سوف أخبرك ، سوف أقوم بزيارة أم وابنها كانا لهما فضل كبير على ، وأحب أن يكونا آخر شئ أراه قبل السفر .
- إذن سوف آتى معك ، وبالمرة أشكرهما أنا أيضا .
- لا ، ابق أنت وسوف آخذ الحراس معى ، ولكن مرهما إلا يقتربا من البيت الذى سأزوره .
- لم ؟
- إنهما يسكنان فى حارة ، ولا أريد أن يريا السيارة والحراس .
- كل ما تأمرين به .

********** **********

تقديرها لحب (أنطونيادس) لها ، يعود لحبها (لرفاعى) ، فهى عانت ومازالت تعانى بسبب حبها المحكوم عليه بالإعدام من (رفاعى) ، وشعرت أن (أنطونيادس) يعانى مثلما تعانى ، وتعجبت من قلبها هذا ، لماذا لم يزل فيه بقايا حب (لرفاعى) وقد لاقت منه كل هذا الصدود والإعراض والتجاهل ، ولم تشعر بحب نحو (أنطونيادس) وقد منحها كل هذا الحب والتقدير والاهتمام ... ومع كل هذا لا تستطيع أن تغادر الأسكندرية قبل أن تراه .
طلبت من سائق السيارة أن يقف امام الحارة التى يقطن بها (رفاعى) ، وحينما نزلت نزل عدد من الرجال من السيارة التى كانت تتبعهم ، وأحاطوا بها ، وسألت كبيرهم : - إلى أين ؟

- نتبعك أينما تذهبي ...تلك هى الأوامر التى لدينا .

- وأوامر (أنطونيادس) أن تطيعوا كل ما أمر به ... وأنا آمركم أن تبقوا هنا حتى أعود .
- إلى أين يا ست هانم ؟

فأشارت إلى بيت (رفاعى) : - أترى هذا البيت ... ؟ سأمكث عشر دقائق ، ولا يتبعنى أحدكم حتى أعود .

- وتركتهم ، ودخلت إلى البيت ، وبعد قليل دخل وراءها رجل لم يتنبه إليه أحد من الرجال الواقفين بالقرب من البيت . دقت الباب ، وبعد قليل فتح (رفاعى) وهو ملابس النوم ، لم يصدق عينيه ، والمكان تغشاه بعض الظلمة ، وقف بعض الوقت مشدوها ، لا يدرى ما يفعل ، وأتاه صوت أمه تسأله : - من يا (رفاعى) ؟

فأسرع بالدخول كى يرتدى جلبابه ، وقال وهو فى قمة الاضطراب :

- تعال يا أمى ... إنها الست (إنشراح) .

تعانقت المرأتان ، وجذبتها أم (رفاعى) إلى الداخل : - تفضلى يا ست (إنشراح) يا أهلا وسهلا .

وبعد قليل جاء (رفاعى) وجلس بعيدا عنها ، وسادت فترة صمت قطعتها أم (رفاعى) بقولها : - إنى أعتب عليك يا ست (إنشراح) .

- لم يا أمى ؟
- طوال تلك المدة لم نرك ... أتصدقين إن قلت (لرفاعى) خذنى إلى الست (إنشراح) لأنى فى شوق إلى رؤياها .

نظرت (إنشراح) إلى (رفاعى) وقد نكس رأسه متجنبا النظر إليها ، وقالت بصوت مرتعش : - وماذا قال لك يا أمى ؟

- (رفاعى) لم يرفض لى طلبا من قبل ، ولكن فى هذا الطلب كان كل يوم يؤجله .

فنظرت إلى (رفاعى) معاتبة : - لم يا سى (رفاعى) ؟ ألا تدرى أنى أيضا فى شوق إليكما .

- لقد قال لى أنك مشغولة ، وإنك نسيتينا ، وإلا كنت جئت .

قالت (إنشراح) ونظرها مازال معلقا (برفاعى) ، وقد تحشرج صوتها وألتمعت عيناها بالدموع : - الله وحده يعلم أنى ما نسيتكما ، ولم أنس الرجل الذى أنقذنى ، وعرض نفسه للموت من أجلى ، ولم انس كرمك وعطفك معى يا أمى .. والدليل أن آخر شئ سأراه قبل أن أسافر أنتما .

سألتها : - وهل ستطيل غيبتك ياست (إنشراح) ؟

- حينما أعود سأقوم بزيارتكما .

ونهضت لتنصرف ، فأمسكت بها أم (رفاعى) : - ابق بعض الوقت ، أنا لم أعد لك شيئا لتشربيه .

عانقتها (إنشراح) ، وصافحت (رفاعى) الذى تجنب النظر إليها ، وإن شعرت برعشة فى يديه ، واتجهت نحو الباب فقالت أم (رفاعى) : - انتظرى حتى أنير لك السلم .

فتح (رفاعى) لها الباب ، وحينما خرجت أبصرت بشبح يتحرك فى الظلام ، ولم تدر إلا بومضة شقت قلب الظلام ، وصوت انفجار مكتوم وشيئا من نار يخترق صدرها ، تهاوت وقد أطلقت صرخة حادة ، تلقاها (رفاعى) بين زراعيه ، ورأت أمه تصرخ وهى ممسكة بالمصباح ، وقد امتلأت عيناها بالفزع والرعب ، نظرت حيث تنظر ، فوجدت صدرها ينزف دما بغزارة ، نظرت إلى وجه (رفاعى) الذى كان قريبا جدا منها حتى أنها تشعر بأنفاسه ودقات قلبه المتسارعة وبوادر دموع تطفر من عينيه ، قالت بصوت متقطع وهى

تبتسم فى وهن : - كان ولابد أن أضرب بالرصاص حتى أكون بين زراعيك يا سى (رفاعى) .... ملامحك جميلة ...
وغابت عن الوعى .

********** ********** ********** **********

- أين كنتم أيها الكلاب ؟ كيف تضرب بالنار وأنتم حولها ؟ وكيف عجزتم عن حمايتها ؟

وكيف سمحتم لأنفسكم أن تغيب لحظة عن أعينكم ؟

- هى التى طلبت ألا نتبعها ، واصرت على ذلك .
- هل رأيتم من أطلق النار عليها ؟
- لقد هرب ولم نعثر له على أثر .

أخذ يذهب ويجئ ، ويحدق فى جدران المستشفى البيضاء ، ثم جلس واضعا رأسه بين كفيه ، وجد (جوستاف) خارجا من حجرة الطبيب ، فنهض إليه وقال وهو يمسك به :

- (جوستاف) ... لا تتركنى ... أنا فى حاجة إليك ، أنا لا أستطيع مواجهة تلك الصدمة ، قدماى لا تاكد تحملانى .... ماذا قال الطبيب ؟

ربت على كتفه وقال : - لقد نزفت كثيرا ... والرصاصة مزقت عددا من أضلاعها ، وطالما مازالت على قيد الحياة فالقلب سليم ، وإن كانوا لا يعرفون مقدار الخطر للآن .

- عرضت على الطبيب أن أنقلها إلى لندن أو باريس او إلى أى مكان فى العالم .
- نعم ، وأخبرنى أن أى حركة الآن خطر على حياتها حتى تجتاز تلك الأزمة ، أو على الأقل تمر أربع وعشرون ساعة .
- وقد لا تجتازها .
- ما علينا إلا الإنتظار ، وقد يجرون لها عمليه لمحاولة البحث عن الرصاصة وإخراجها .
- ليتنى أخذت كلامها على محمل الجد .
- من تقصد ؟

صمت قليلا مفكرا ، ثم قال : - ابق هنا بجانبها حتى أعود .

- إلى أين ؟

لم يجبه وأسرع بالخروج ، وحينما تبعه الحراس صاح فيهم بغضب : - لا أريد أن أرى واحدا منكم ، اغربوا عن وجهى .

********** ********** ********** **********

- استطعت أن توجهى لى طعنة قاتلة بحق يا (بربارة) .
- أول مرة تعترف لى بالذكاء يا (أنطونيو) .
- وستكون آخر مرة .
- لقد حذرتك من قبل .
- عيبى أنى لم أقدر قدراتك .
- وعيبى أنى لم أقدر حجم نزواتك .
- أظن أنك سعيدة بعملك الإجرامى هذا .
- لن أتنازل عنك لأى امرأة ، وأنا سعيدة الآن ، وسوف أسعد حينما أرد الإهانة حينما طلبت من كلابك أن يرمونى كالحشرة القذرة .
- لن أترك لك فرصة لتسعدى بما فعلتيه يا (بربارة) .

وأخرج مسدسه ، وأطلق عليها رصاصة ، وقبل أن تسقط كانت تشير لشئ خلفه ، وحينما استدار تلقى رصاصة فى جبينه ، فسقط مضرجا فى دمائه بجوارها .

********** ********** **********

- لقد اخبرتك ألا تأتى معى يا أمى ، ولكنك صممتى أن تأتى معنا .
- يا بنى الست (إنشراح) كانت غارقة فى دمائها ، والواجب إلا نتركها وهى فى تلك الحالة
- وهل ستبقين طول الليل مستيقظة هكذا ؟
- حينما يأتينى النوم سأستند إلى كتفك وأنام ....ولكن أخبرنى يا (رفاعى) ، لم الشوارع كانت خالية هكذا ؟
- أغلب الناس تركوا البلد يا أمى .
- لم ؟
- لأنهم خائفون .
- مم ؟
- يقولون إن السفن الإنجليزية فى البحر ستضرب البلد .
- يا خبر أسود يا بنى .... وبم سيضربون البلد ؟
- بالمدافع والقنابل .
- والناس تموت ، والبيوت تتهد .
- طبعا يا أمى .
- ومتى سيحدث هذا ؟
- فى أى وقت يا أمى .
- لولا ما حدث للست (إنشراح) لتركنا البلد نحن أيضا .
- وأين سنذهب ؟
- عند خالك فى طنطا .
- لا ، سنبقى هنا يا أمى ... العمر واحد والرب واحد .

نظرت نحو باب حجرة العمليات المغلق ثم سألته : - متى ستخرج الست (إنشراح) يا بنى ؟

فقال (رفاعى) نافد الصبر : - يا أمى ... تلك المرة العاشرة التى تسألينى عن موعد خروجها ، لا أعلم ولا أرى أحدا من الأطباء لأسأله .

وبعد قليل أخرجوا (إنشراح) على محفة مغطاة بملاءة بيضاء ، وحينما سأل عن حالتها لم يجبه أحد ، وأدخلوها حجرة بيضاء الجدران لا يوجد بها سوى فراش ومنضدة صغيرة ، دخلا الحجرة بعد تردد ، اقتربت أم (رفاعى) وأطلت عليها وتأملت وجهها الممتقع ، وحينما دخلت ممرضة تعلقت بها وسألتها عن حالة (إنشراح) فأخبرتها أنهم أخرجوا لها الرصاصة وحالتها مستقرة ، حمدت الله ، وجلست هى وابنها بجوار الفراش على الأرض مستندين إلى الجدران ، ومالت الأم على كتف ابنها وبعد قليل كانت فى ثبات عميق ، وبعد مقاومة من جانبه لجيوش النوم الناعمة استسلم لها بدون قيد أو شرط .

********** ********** **********

بعد الفجر بدأت تستعيد وعيها شيئا فشيئا ، كل ما حولها أبيض بلا ملامح محددة ، بدأت الأشياء حولها تتخذ أشكالها ، الجدران النافذة الستائر ، المصابيح ، وتوقفت عينيها عند مساحة ظل فى ركن الحجرة ، دققت النظر ... لم تصدق عينيها ... (رفاعى) و أمه ... أهى فى الجنة ؟! ماالذى جاءا بهما إلى هنا ؟

وتذكرت ما حدث بالأمس ، حاولت أن تتحرك ، شعرت بألم فى صدرها وكتفها ، فكفت عن الحركة ، وأخذت تطيل النظرإلى وجه (رفاعى) وهو نائم كالملاك ....ولكن أين (أنطونيادس)أيمكن ألا يكون قد عرف ما حدث لها ؟
لم تهتم بشئ إلا بوجود (رفاعى) بجوارها ، وفجأة حدث انفجار قوى اهتزت له جدران الحجرة ، واستيقظ (رفاعى) وهب واقفا ، ومعه أمه ، واتجها نحو (إنشراح) وسألتها :
- أأنت بخير يا ست (إنشراح) ؟
فابتسمت لها ابتسامة باهتة ، وأومأت إليها وأشارت إلى رفاعى فتقدم منها ، وأمسكت بيده وربتت عليها ، وقال لها بصوت متأثر : - لم أستطع أن أحميك هذه المرة .
فنظرت إلى أعلى ودمعت عيناها ، وخرج (رفاعى) ليستطلع الأمر عقب انفجار ثان ، فوجد الأطباء والممرضات والراهبات وبعض المرضى يجرون فى فزع هنا وهناك ، ويتحدثون بلغات لا يفهمها ، نزل إلى الطابق الأرضى فوجد الأطباء والممرضات يتجهون نحو الباب الخارجى ، وتجمعوا هناك يتحدثون بصوت عال ، والفزع والخوق مرتسم على وجوههم ناظرين بين الوقت والآخر إلى السماء ، بحث (رفاعى) حوله فوجده هناك يفلح حديقة المستشفى ، وبين الحين والآخر يتوقف ويرفع راسه إلى السماء ، ذهب إليه :
- صباح الخير يا بلدينا ... ما الذى يحدث ؟
- لا أدرى ألم تسأل أحدا ؟
- لا أحد يجيبنى .
ترك ما بيده ، وأخذه وسار نحو الواقفين وساله : - ما اسمك ؟
- (رفاعى) .
- انا (حجازى عبد العاطى) من الدلنجات .
- - أهلا وسهلا يا (حجازى) .
- ألديك أحد فى المستشفى ؟
- (إنشراح) أجروا لها عمليه بالأمس .
- زوجتك .
تردد (حجازى) بعض الوقت ، ثم أومأ إليه ، تركه (حجازى) بعض الوقت متحدثا مع أحد الواقفين ، ثم عاد إلى (رفاعى) قائلا فى فزع :
- يقولون إن الحرب قامت ، وإن السفن فى البحر تضرب الطوابى والقلاع .
- ولم هم واقفون هكذا ؟
- ينتظرون قدوم مدير المستشفى الدكتور (أوردين) .
وبعد قليل وقفت عربة أمام الباب الخارجى ونزل منها الدكتور (أوردين) ، حى الجميع ، وقال مخاطيا الأطباء : - كما سمعتم بدأت إنجلترا فى ضرب البلد ، أريد منكم أن تخلوا المستشفى من المرضى ، لأن احتمال إصابة المستشفى قائم ، وقد نتلقى حالات كثيرة وخطيرة من ضحايا الحرب ، ولا نعرف ماذا سيحدث ... هيا كل يذهب إلى عمله .
ودخل مسرعا ، ثم ألتفت إلى (حجازى) وأشار له فأسرع خلفه ومعه (رفاعى) :
- (حجازى) ... لا تقلق على زوجتك وابنك ، إنهما فى أمان ، ابق هنا فقد أحتاج إليك .
سأله (حجازى) : - هل الأمر خطير يا سعادة الباشا ؟
- نعم ، نحن فى حالة حرب ، كلنا معرضون للموت .
وحينما جلس إلى مكتبه ، نظر إلى (رفاعى) وسأل (حجازى) : - من هذا يا (حجازى) ؟

لم يجب (حجازى) ، فتقدم (رفاعى) وقال : - أنا (رفاعى) ... مع الست (إنشراح) .
صمت قليلا مفكرا ثم قال : - (إنشراح إنطونيادس) ، يجب إخراجها على الفور من الستشفى خوفا عليها .
وقف (رفاعى) لا يدرى بما يجيب وقال الدكتور : - انتظر حتى أرى إن كانت حالتها تسمح بالحركة أم لا ..... تفضلا أنتما الآن .
خرجا وقال (حجازى) لرفاعى : - تعال معى لنشرب شايا فى حجرتى فى الحديقة ، حتى يرى الدكتور حالة الست حرمك .

- أريد أن أقول لك أنها ليست زوجتى ، وإنما هى قريبة لى وهى ست طيبة فأتيت أنا وأمى كى نرعاها ، ولم يكن معها أحد .
- أنت رجل أصيل يا (رفاعى) . ارتجت الأرض من تحت أقدامهما إثر صوت انجفار ، وكان قريبا جدا من المستشفى قال (حجازى) : - اسرع يا (رفاعى) ... الظاهر كلام الدكتورجد ، ربما سقط شئ على المستشفى .
- إذن يجب أن نخرج الست (إنشراح) .
- انتظر حتى يراها الدكتور ... ولكن أين ستذهب بها الآن ؟
- إلى بيتى .
- وحدك وفى هذه الأحوال .
- معى الله .
- سوف أذهب معك ولن أتركك .

ربت على كتفه وقال له فى ود : - المهم ألا يحدث شئ للمستشفى .

- ربنا يحفظ المستشفى ومن فيها .

وبدأت حركة دائبة ، بنقل كل الحالات إلى الأدوار الأولى ، ومن كانت حالته تسمح أخرجوه من المستشفى ، وكانت ملامح الخوف والفزع مرتسمة على وجوه الجميع ، لا سيما حين يسمعون صوت انفجار جديد ، وزاد الخوف إلى حد كبير حينما مرت قنابل فوق المستشفى لتسقط فوق حصن (كوم الدكة) ، ودب الهلع فى قلوب الراهبات وهن ينظرن من النوافذ يشاهدن عدد من القنابل التى سقطت فى حديقة دير الأباء الفرنسيسكانيين وكذلك فى فناء رهبان المدارس المسيحية وبالقرب من أبنية المدرسة الإيطالية ، حينئذ أيقن الجميع أنهم ليسوا ببعيدين من الخطر المحدق بهم ، وتحقق ظن الجميع حينما سقطت قذيفة بعد ظهر ذلك اليوم فى الجنوب الغربى من المستشفى ، وكانت الأضرار محدودة لأن القذيفة انفجرت فى مكان خال ، تهدم على أثرها مبيت الراهبات فى الدور الثانى ، وكن كلهن خارجه .
النيران والدخان تحيط بالمستشفى من كل جانب وأصوات قذائف القلاع والحصون متجهة نحو السفن فى البحر ، وقذائف السفن الإنجليزية تصب فوق القلاع والحصون الجحيم المشتعل ، وبدأ عدد من الجرحى يفدون إلى المستشفى ، تضمد جراحهم ، ويخرجون على الفور إذا كانت حالتهم تسمح بذلك .
وقبل أن يهبط الظلام ذهب (رفاعى) و (حجازى) إلى الدكتور (أوردين) وكانت يداه وملابسه مضمخة بالدماء ، يقف وسط الجرحى وحوله الأطباء والراهبات .. اقترب (حجازى) وسأله فقال له الدكتور : - بقاؤها فى المستشفى فيه خطر عليها ، وكذلك إذا خرجت فيه أيضا خطر عليها ، فأنتما تقرران ... ولكن إذا قررتما أن تأخذاها فلن تجدا سيارة تحملها ، فبعض السائقين يخشى ممن الخروج ، والبعض الآخر مشغول فى نقل الجرحى .

فسأل (حجازى) (رفاعى) : - ما رأيك يا رفاعى ؟
- أنا لدى عربيتى .
فقال الدكتور : - إذن سأغير على الجرح ، وخذها ... فكما ترى المستشفى معرض فى أى لحظة للخطر .
وحينما ذهبا إلى حجرة (إنشراح) بعدما جهز (رفاعى) عربته ، صادفا الدكتور خارجا من الحجرة فقال : - (إنشراح) تلك امرأة قوية جدا ، لقد تحملت وتستطيع أن تتحمل ، ولكن تحركوا برفق ، فالجرح ما يزال مفتوحا .... ولكن أين (أنطونيادس) لماذا لم يأت ؟
لم يجبه (رفاعى) وإنما دخل الحجرة بعد أن طرق الباب عدة طرقات ، ووجد أمه جالسة بجوار (إنشراح) وقال وهو ينظر إليها : - هيا يا أمى جهزى الست (إنشراح) لنعود إلى البيت لأن المستشفى معرض للخطر .
لم تستطع (إنشراح) أن تخفى سعادتها بأنها ستكون قريبة من (رفاعى) وأمه ، المقادير تحقق لها ما كانت تتمناه ، وإن كان هناك خاطر يشغل بالها ويقلقها أين (أنطونيادس) ؟ ومن الذى أراد قتلها ؟ ولم ؟
نهضت أم (رفاعى) وأخذت تساعد (إنشراح) فى إرتداء ملابسها بحرص وحذر ، وسارا فى رواق المستشفى ، وفى أثناء ذلك سألت الأم ابنها فى براءة : - هل انتهت الحرب على خير يا (رفاعى) ؟
فنظر إليها ابنها وقال : - هى لم تبدأ بعد يا أمى فكيف تكون انتهت ؟
- انا لم أعد أسمع صوت الانفجارات .
فقال (رفاعى) : - توقفوا حتى نصل إلى البيت .
فقالت وهى تعيد الغطاء على رأس (إنشراح) : - ربنا يسلمهم يا بنى .
- من تقصدين يا أمى ؟
- الإنجليز .... أليس هم الذين يحاربون ؟
فقال (رفاعى) نافد الصبر و (حجازى) يحاول أن يكتم ضحكة :
- ربنا يسلمنا منهم يا أمى .
- يا رب يابنى ... ربنا يسلمنا وينجينا من البمب الذى ينفجر كل حين .
- القذائف والقنابل تقولين عليها بمب .
- يا بنى كله بيفرقع .
- على رأيك يا أمى كله بيفرقع .
وصلوا إلى الباب الخارجى وكان الظلام دامسا وحمل (رفاعى) (إنشراح) يساعده(حجازى) حتى أجلسوها برفق داخل العربة ، وجلست بجوارها أمه محتضنة إياها ، وبسرعة قفز
(حجازى) بجوار (رفاعى) فقال له (رفاعى) : - ابق أنت يا (حجازى) .
- سأظل معك فالطريق غير مأمون .
- ولكن الدكتور فى حاجة إليك .
- لقد استأذنت منه .
وتحركوا ، وكان حجم الدمار والحريق هائلا على جانبى الطريق ، البيوت التى سقطت عليها القذائف البعض مهدم والآخر ما زالت ألسنة اللهب تأتى عليه ، عدد من اللصوص والغجر والعربان وجدوها فرصة لنهب الورش والمحلات والوكالات المتهدمة ، الشوارع ملآنة بقطع الحجارة والحديد والخشب المتناثر من الانفجارات والهدم ، واثناء سيره فى شارع (دير السبع بنات) وجد الطريق مسدودا بقطع الحجارة ، فانحرف ناحية اليمين

وسار فى طرق متعرجة ، حتى وصل إلى شارع العطارين ، ولم يكد يسير دقائق حتى تساقطت قطع الحجارة ، وبسرعة انحرف ناحية اليسار ، إلى ميدان القناصل ، فرأى ما لم يره من قبل ، تلك البنايات الشامخة الرائعة الجمال قد أسودت بفعل الدخان والنيران ، وتهدمت شرفاتها ونوافذها والنار مازلت مشتعلة فى بعض أجزائها ، وزجاج واجهات الفنادق والمحلات متناثر فى أرجاء الميدان ، والمقاعد ومحتويات المحلات تملأ الميدان ، وجثث الآدميين مع جثث الخيول والحمير ، وهناك عدد من الكلاب يجوس خلال تلك الجثث ، والميدان تكتنفه الظلمة ما عدا بعض الأماكن التى تضيئها ألسنة اللهب ، ترك الميدان وسلك شارع البوسطة الطليانية ، إلا أنه شاهد فى منتصفه بعض اللصوص والغجر وبيدهم سيوف وهراوى يتوعدونهم إن اقتربوا ، وبسرعة انحرف ناحية اليسار إلى شارع شريف باشا ، وتأمل ما حوله ، كيف تحول كل هذا الجمال والبهاء والعمار إلى طعام للنار ، وساحة يرتع فيها الخراب والدمار ؟! دخلوا منطقة مظلمة وسط الشارع ، وفوجئوا بمجموعة من الغجر تحيط بهم ، وقفز أحدهم داخل العربة وبسرعة مد (رفاعى) يده وأخرج النبوت من تحت قدميه وناوله لحجازى ، وبسرعة سدد ضربة قوية إلى الرجل فسقط من العربة وهو يطلق صرخة مدوية ، والهب (رفاعى) ظهر حصانه فانطلق بأقصى سرعة ، ونظر إلى داخل العربة ، فوجد أمه محتضنة (إنشراح) ، وتلاقت نظراتهما على ضوء ألسنة اللهب المحاطة بهم ، وأتجه بعد ذلك إلى ناحية اليسار إلى شارع الرميلة ، ومنه وصلوا إلى البيت ، وصعد (رفاعى) وأحضر مقعدا خشبيا ، جلست عليه

(إنشراح) وحملها كل من (رفاعى) و (حجازى) إلى حجرة أمه ، وجلس (رفاعى) فى حجرته ومعه (حجازى) ، وبعد أن رحب به (رفاعى) قال له : - لنأكل لقمة ، ونشرب كوبا من الشاى ، بعد هذا المشوار الصعب .

فقال(حجازى) بأسف:- أبعد ما رأيناه من خراب ودمار وقتل وحرق توجد رغبة فى الطعام ؟

- وما بأيدينا ان نفعله ؟
- على رأيك .... ليس بأيدينا شيئا نفعله .... البلد كلها خربت .

وسمعا أمه تصرخ بأعلى صوتها ، فأسرعا إليها فقالت له والفزع مرتسم على وجهها :

- الست (إنشراح) غارقة فى دمائها .... الظاهر جرحها ينزف .

اضطرب (رفاعى) وسألها : - وما الذى يجب أن نفعله الآن ؟

- اسرع واحضر عمك أبو على الحلاق ليرى ماذا حدث للجرح .

وبسرعه عاد ومعه الحلاق يحمل حقيبته الخشبية ، وأغلق دونهم الباب وكان (رفاعى) فى قمة القلق والخوف ، ربت (حجازى) على كتفه وقال : - اطمئن يا (رفاعى) إن شاء الله خير .

- الظاهر الحركة الكثيرة أثرت على الجرح .

وبعد ومقت طويل خرج الحلاق ، ورائحة المطهر تفوح من يديه وقال :

- - الحمد لله ... لو لم يضمد الجرح كان سيظل ينزف ... إنه عميق ، ولكنه نظيف ، سوف أعود غدا لاطمئن عليها .
- شكرا يا أبو على .
- لا داعى للشكر يا (رفاعى) نحن أهل .

وتركه وانصرف ، قال (حجازى) : - أتريد شيئا آخر ، سوف أذهب الآن .

- لا ، ابـق فـالطريق كمـا رأيـت غيـر مـأمون ، وإن صـممت أن تـذهب سـأقوم باصطحابك .
- وتعود وحدك .
- ليس أمامنا سوى ذلك .

صمت (حجازى) قليلا مفكر ، وقال (رفاعى)

- لـم يبـق علـى الفجـر إلا سـاعات قليلـة ، وسـمعت وأن أحضـر عـم علـى إن البـوليس منـع التجوال حتى الصباح ، لتبق معى وفى الصباح أقوم بتوصيلك .

********** ********** **********

حينمـا رأتـه أعطتـه ابنـه وأجهشت فـى البكـاء الحـار المتواصـل ، حـاول أن يهدئها ، ولكـن محاولاته لم تنجح ، تركها حتى هدأت ، وقالت من بين دموعها المنهمرة : - أتتركنا طوال تلك المدة ، والظنون السيئة تعبث بنا .... لقد كانت أسوأ ليلة نبيتها فى حياتنا .

- أكنت تخشين على يا (خديجة) ؟
- وهل لنا أحد فى الدنيا إلا أنت ؟ لا قدر الله إذا حدث لك مكروه ... ماذا سنفعل ؟
- لقد رأيت الليلة الماضية الموت بعينـى ، لـم أدر أن المـوت قريـب جدا مـن الإنسـان هكذا، لقد كان الموتى حولنا فى كل مكان .
- لقد أنبت نفسى وندمت أنى لم أسمع كلامك وعدنا إلـى دمنهور . لـو أردت أن نعـود اليوم فأنا على استعدا .

نظر إليها وقال وهو يبتسم : - حتى لو عدنا إلى الدلنجات .

قالت وهى تأخذ أبنها من حضنه : - أى مكان تكـون معنـا فيـه نستطيع أن نتحملـه وإنمـا لا نتحمل بعدك عنا .

اقترب منها وهو يتأمل ملامحها الجميلة وقال : - الآن تذكرت كلمة قالها لـى أبـى ذات مـرة .... قال إن (خديجة) خسارة فيك ، وأنت لا تستحقها ، كل يـوم يمـر أرى فيـك شيئا جميلا كنت لا أراه من قبل .

فقالت بدلال : - وأنت مع خشونتك وفظاظتك إلا أن قلبك كبير وأبيض .

- أعـرف أنـك تعبـت معـى يـا (خديجـة) ، فأنـا لا أعـرف كيـف أتعامـل مـع النـاس ، وكانوا يقولون هذا لى فى البلد ، ولكـن حينمـا أتيـت إلـى هنـا وتعاملـت مـع النـاس ، تعلمت منك ومنهم أشياء كثيـرة ، وتعلمـت كيـف أتعامـل مـع النـاس وبـالأخص مـع زوجتى وابنى ، بصراحة يا

(خديجة) أنا قبل أن أعيش هنا كنت مثل الحمار فى الغيط بل أكثر .

ضحكت (خديجة) وهى تجفف دموعها : - معك حق ... فأنت لم تكن تحتمل يـا (حجـازى) .

فتجهم وقال : - أتوافقين أنى كنت مثل الحمار .

- أنا الذى قلت ذلك أم أنت ؟
- ظننتك أنك لن توافقيننى على ذلك .
- حقا يا (حجازى) أنت تغيرت كثيرا ، وأصبحت شخصا آخر ... المهم متى سنعود إلى دمنهور ؟
- كان هذا ممكن قبل أن يحدث ما حدث ... أما بعد ذلك فلا أظن أنى سأترك هذا البلد .
- لم يا (حجازى) وقد رأيت الموت بعينك كما تقول .

- أنا لا أخاف من الموت ، ورب هنا هو رب هناك ، وكما قلت إن محمودا يعيش هنا ويتعلم هنا خير له من البلد .

اقتربت منه أكثر وقالت له : - احك لى عما رأيته يا أبو محمود .

********** ********** **********

دق (رمضان) سطح المنضدة وهو فى قمة انفعاله وغضبه قائلا : - لماذا ينسحب (عرابى) من الأسكندرية ؟

فسأله (فؤاد) : - ولم يبقى فى الأسكندرية ؟

- يدافع عنها .
- وهل بقى شئ فى الأسكندرية يدافع عنه ؟ جميع الطوابى والقلاع والحصون دمرت عن آخرها ، المدينة كلها أصبحت خراب وأنقاض والمستشفيات والملاجئ ممتلئة ، والقتلى بالمئات .
- وهل يليق بعرابى أن ينسحب من أمام الإنجليز ويترك لهم البلد ؟

فقال (أسكندر) : - يا (رمضان) من البداية كان تحدى الإنجليز خطأ من عرابى ، أرأيت أعداد وأحجام السفن فى الميناء الشرقى والميناء الغربى ؟

فنظر إليه ساخرا وقال : - لم يبق إل (أسكندر) لينقد (عرابى) .

فقال (أسكندر) بأسف ممزوج بالخجل : - أنا لست مثلكم فى المعرفة والثقافة ولكنى لا أقل عنكم حبا لتلك البلد ، لقد بكيت كما لم أبك من قبل وأنا أرى الدمار فى كل مكان .

فقال (فؤاد) مدافعا عن (أسكندر) : - (أسكندر) معه حق .... تحدى عرابى للإنجليز كان خطأ منذ البداية .

فقال (رمضان) : - كلنا كنا نؤيده فى البداية ، أبعد أن يخسر معركة أو الجولة الأولى نتراجع عن تأييدنا له ونهاجمه ونتخلى عنه ؟

فقال (فؤاد) : - نعم ، كنا نؤيده لأنه سيقودنا إلى النصر ، وهو أكثرنا بصرا بأسباب النصر وكذلك بعوامل الهزيمة أما إذا كنا نعلم بما سوف يحدث ما كنا أيدناه ولا هتفنا باسمه .

- ألم تقل من قبل إن فى الحب والحرب احتمالات الفوز تتساوى واحتمالات الخسران بل فى بعض الأحيان تكون احتمالات الخسارة أقوى ، ومع ذلك تجد نفسك مدفوعا إلى الحرب ولا تستطيع أن تتراجع ؟
- نعم ، هذا إذا كان الأمر يخصنى وحدى ، إما إذا كان الأمر يخص شعب فالأمر مختلف .
- تقصد أنه كان الأفضل لعرابى قبول شروط الإنجليز ؟
- ولم لا ، طالما أنا لست كفؤا لهم
- أوتظن أن لو قبل عرابى بشروط الإنجليز كانت السفن ستتراجع إلى الجزر البريطانية بعد ان قطعت كل تلك المسافات وتكلفت كل تلك التكاليف ؟
- ماذا تقصد ؟
- أقصد أن الإنجليز كانوا سينزلون الأسكندرية ويزحفون إلى القاهرة سواء كان عرابى موجودا أم لا قبل بالشروط أم رفضها ، ولن تعجزهم المبررات لذلك .
- إذن خير لعرابى وللبلد أن ينزل الإنجليز البلد بدلا من أن تدمر ويحدث ما حدث ، طالما النتيجة واحدة .
- وأين الشرف والإباء والنخوة والعزة ؟

- كل هذا لم يمنع الإنجليز أن يضعوا أقدامهم فوق أرضنا ... ما فائدة ما تتحدث عنه إذا كان سببا فى ضياع البلد وتخريبها .

فقال (أسكندر) : - لقد شاهدت بنفسى أن عساكر (عرابى) يحرقون ويخربون أجزاء من البلد قبل أن ينسحبوا إلى كفر الدوار .

صمت (رمضان) قليلا مفكرا فيما قاله (فؤاد) وسأله : - كأن الشرف والنخوة والعزة ليس لها أى قيمة إن لم يكن لها عندك أى مردود مادى ونفعى .

- على الأقل إن لم تنفعنى فلا تضرنى .
- لا يا (فؤاد) تلك الأمور لا تحسب هكذا ، الإنسان يتمسك بالعزة والشرف والكرامة ليكون عزيزا وشريفا وكريما ، حتى ولو ضحى بكل شئ حتى روحه .
- (رمضان) المثالى والخيالى هو الذى يتحدث الآن .
- لا يا (فؤاد) هذا هو الواقع ، ولو كان المبدأ الذى تتحدث عنه هو الواقع ما قامت الثورات ، ولا وقف الحق أمام الباطل ، وما انتشرت أى دعوة سماوية ، بدأت ضعيفة وأصحابها قلائل ، ومع مرور الوقت وبالتضحيات وبالتصميم وبالإيمان انتصرت .

صمت (فؤاد) بعض الوقت مفكرا ثم قال : - أنا مقتنع برايك وبكلامك ، ولكن يعز على هذا الدمار والخراب والأرواح التى زهقت بدون فائدة .

- من قال هذا ؟ تلك هى التضحيات التى بدأ الشعب يقدمها وهى وقود المعركة التى سوف تشتعل من تحت أقدام الإنجليز ، وستظل تزداد حتى يرجع الإنجليز

فقال (أسكندر) : - والله كلامك مثل الشهد ياأستاذ (رمضان) .

ربت (رمضان) على كتف (أسكندر) وسأله : - أنا لا أرى معك سجائر ولا خمر ، ولا تتحدث عن النساء ، ما الأمر ؟

فقال بأسف : - الحزن يملأ قلبى يا أستاذ (رمضان) ، ولا تنس أن أجمل معشوقاتى تضرب وتهان ، ولا استطيع عمل شئ .

وبدأت الدموع تطفر من عينيه وقال وهو يمسح دموعه : - أنا وارث حب البلد عن أبى ، حتى أنه سمانى على اسمها ، أنا الآن لا استطيع أن أسير فى شوارعها وميادينها وحواريها وأزقتها ، ولا أستطيع أن أشم رائحتها ، إنها أعظم من عشقت وأجمل من أحببت .

وأخذ يجهش فى البكاء ، وشاركه (رمضان) و (فؤاد) ولكن فى صمت .

********** **********

****

عاد (رفاعى) وهو يحمل لفافة كبيرة الحجم ، وقال لإنشراح وهو يناولها مجموعة من المفاتيح : - للأسف يا ست (إنشراح) البناية التى بها شقتك دمرت وحرقت عن آخرها ، أما ابنة خالتك فقد عادت إلى دمنهور ومعها أختك ، وقابلت زوجها وهو بخير .

بوغتت من هذ ا الخبر ، وشعرت بالحزن والأسى ، لقد عادت مثلما بدأت لا تملك شيئا ، كل ما تملكه من ذهب ومجوهرات ومال كان موجودا بالشقة التى كتبها (انطونيادس) باسمها ، حتى هو لا تعلم عنه شيئا ، ربما يكون قد مات فى الحرب ، أو ترك البلد وسافر ، تأكدت أنه كان يعلم بأمر الحرب ، لأنه كان مصمما أن يسافرا فى تلك الليلة ، ربما علم بأمر إصابتها فرحل وتركها ، ستعود كما كانت ، ولكن لم تلبث مشاعر الأسى والحزن تبددت وحل محلها مشاعر الأمل والفرح ... ألم تكن تتمنى أن تعيش مع هذا الرجل الذى يقف أمامها ، وكانت تنتظر منه كلمة لتضحى بكل شئ ، وتفوز به ربما حققت لها الأقدار مالم تستطع هى تحقيقه .

شعرت بيد أم (رفاعى) تربت على يدها قائلة : - الحمد لله ... الأهم من كل شئ أنك عوفيت ، وربنا نجاك .
ثم نظرت إلى ابنها وسألته : ما تلك اللفافة التى تحملها يا (رفاعى) ؟
فقال وهو يتجنب النظر إلى (إنشراح) : - إنها بعض الملابس والحوائج للست (إنشراح) اشتريتها لها .
فتناولتها أمه وأعطتها (لإنشراح) وحينما ضمتها (إنشراح) شعرت بسعادة وفرح لم تشعر بهما من قبل ، حتى حينما وضع (أنطونيادس) كل ثروته تحت قدميها ، قالت وهى لا تستطيع أن تخفى هذا الفرح وتلك السعادة المفاجئة : - ولم كلفت نفسك يا سى (رفاعى) ؟

- تلك أشياء بسيطة لا تناسب مقامك الكبير عندنا .
- كل شئ انتهى يا سى (رفاعى) ..... أصبحت من توبك ، ومنذ مدة وأنا آكل من عرقك ، وألبس من جريك ، وأنام معكما تحت سقف واحد .... أصبحت واحدة منكم ، ولولاكما الله أعلم أين كنت الآن .... أنتما أويتمونى وعالجتمونى ووفرتم لى كل أسباب الراحة والرعاية والاهتمام ، لا أظن أن لو كان لى أهل أن يفعلوا أكثر مما فعلتم .

وأخذت تبكى فى صمت ، فاحتضنتها أم (رفاعى) ومسحت لها دموعها وقالت لها :- ألسنا أهلك يا ست (إنشراح) ؟

- أنتم أهلى وكل مالى فى الدنيا .

نهضت الأم وأخذت ابنها فى الحجرة المجاورة ، وقالت له : - لماذا لا تتزوجها الآن يا بنى ؟
فقال مندهشا : - كيف يا أمى ... إنها ضيفة عندنا و....
فقاطعته قائلة : - لا يا (رفاعى) ، لم تعد ضيفة ...لقد صارت واحدة منا الآن ، وإنى أحبها مثلك بالضبط ... فلماذا لا تتزوجها ، لقد رفضت فيما سبق لأنها كانت أغنى منك ، وعلى رأيها الآن أصبحت من توبنا .
احتار (رفاعى) بما يجيب أمه ، وقال لها بعد تفكير وتردد : - لا أعرف يا أمى كيف أفعل ذلك وأطلبها للزواج و ....
فقاطعته قائلة له وهى تلومه : - أنت لا تطلبها للزواج ، ولكن أنا الذى سأفعل ذلك .
وتركته وعادت إلى (إنشراح) وقالت لها : - يا ست (إنشراح) ... لا تؤاخذينى فإنى امرأة عجوز ، ولا أعرف الكثير عن دنياكم تلك ، كل دنياى هذا البيت والحارة ، وما فى قلبى على لسانى ، أنا أعرف أنك تريدين (رفاعى) وهو أيضا يريدك ، وهو الآن يطلبك للزواج ... أتوافقين ؟
نظرت (إنشراح) إليها لحظات مذهولة ، ثم أجهشت فى البكاء المتواصل ، فأخذتها أم (رفاعى) فى حضنها وأخذت تبكى هى الأخرى ، خرج (رفاعى) من حجرته مندهشا لما يسمعه ويراه ، فقالت (إنشراح) تعاتبه وهى تجفف دموعها : - أكان لابد أن يحدث لى كل هذا كى تتزوجنى ؟

- احمدا ربكما أن جمع شملكما .
- فقالت وهى تنظر إليه نظرة ملؤها الحب والتقدير : - ألف حمد وألف شكر لك يارب .

(تمت)

سيرة ذاتية :

الاسم : محمود محمد محمود القلينى
عضو اتحاد الكتاب بالقاهرة – عضوية عاملة رقم 1977
الهاتف : 0020453320039
النقال : 00201061414124
البريد الالكتروني :elkellenymahmoud@yahoo.com
الوظيفة : مدير عام بالتربية والتعليم سابقا .
العنوان : دمنهور البحيرة .

الأعمال المنـــــــــــــشـورة :

1- إنهم يذهبون : قصص قصيرة دار الشعب بالقاهرة –1982
2- الدجال والشيطان : روايـــــــة مركزمعروف بالأسكندرية –1985
3- إخناتون والكهنة : مسرحيـــــة الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة-1995
4- محنة الإمام أحمد بن حنبل: مسرحيـــــة الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة 1997
5- مصرع الخراسانى : مسرحيـــــة الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة2002
6- غائب لا يعود : مسرحيـــــة الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة 7
7- الفكر الإسلامى ومستجدات العصر: كتاب المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة 2005
8--عش حياتك سعيدا : كتاب مكتبة بستان المعرفة بكفر الدوار – 2005
9-- النساء فقدن عروشهن : كتاب مكتبة العلم والإيمان بالمنصورة 2006
10- العمرية - فى رحاب عمر بن الخطاب: كتاب دار العلم والإيمان بدسوق 2007
11- أمير الصحافة العربية : كتاب مكتبة بستان المعرفة بكفر الدوار2009
12- شخصية موسى النبى : كتاب مكتبة بستان المعرفة2011
13– الإسكندرية عناقيد العشق والغضب: رواية مكتبة بستان المعرفة 2011
14- الثورة في وجدان المصريين: كتاب مكتبة بستان المعرفة 2012
15- الباحثون عن الله: كتاب دار العلم والإيمان بدسوق2013
16- الخروج من الجلد: رواية مكتبة بستان المعرفة2013
17- بلد راكبها عفريت : مسرحية الهيئة العامة لقصور الثقافة 2010
18- شخصية المسيح كتاب مكتبة بستان المعرفة بكفر الدوار 2014
19- شخصية النبي محمد كتاب دار العلم والإيمان بدسوق 2014
20- الجنوب الهادي رواية الهيئة العامة لقصور الثقافة 2014
21- قيم ومعايير في أدب يوسف إدريس . دار العلم والإيمان بدسوق . 2015
22- الذاتية في أدب المازني . دار العلم والإيمان بدسوق .2015.
23- في أدب الطفل ..المسرح . دار العلم والإيمان بدسوق .2015.

الجوائـــــــــــــــــز :

1. **جائزة التأليف المسرحى من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية محنة الإمام أحمد**
2. **جائزة التأليف المسرحى من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية إخناتون والكهنة**
3. **جائزة التأليف المسرحى من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية مصرع الخراسانى**
4. **جائزة الدراسات النقدية من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن دراسة بعنوان (الذاتية والقيم الوجودية فى أدب إبراهيم عبد القادر المازنى)**
5. **جائزة الدراسات النقدية من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن دراسة بعنوان (قيم ومعايير فى أدب يوسف إدريس)**
6. **جائزة المقالة النقدية من المجلس الأعلى للثقافة عن دراسة على قصة (الطريق) لنجيب محفوظ**
7. **جائزة من نادى أبها بالمملكة العربية السعودية عن مسرحية محنة الإمام أحمد بن حنبل 1417هـ**
8. **جائزة من نادى القصة بالقاهرة عن رواية بعنوان (قوس قزح) 2001**
9. **جائزة الهيئة العربية للمسرح بالشارقة الدورة التاسعة 1916عن نص مسرحي بعنوان (غائب لا يعود)**

-